كارل ماركس فريدريك انجلس



# حَوْلَ الدِّيْنْ



ترجمة:
ياسين الحافظ

دار الطليعة - بيروت

بيروت ـ لبنان
ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

**الطبعة الاولى**
ايار (مايو) ١٩٧٤

**الطبعة الثانية**
حزيران ( يونيو ) ١٩٨١

كارل ماركس

فريدريك انجلس

# حَول الـدِّين

نقله إلى العربيّة

ياسين الحافظ

دارُ الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب :

**SUR LA RELIGON**

**K. Marx F. Engels**

**éd. Sociales**
**Paris 1960**

# مقدمة الطبعة العربية

يضم هذا المؤلّف مجموعة من اهم النصوص التي تناول فيهـا ماركس وانجلس ـ بين ١٨٤١ و١٨٩٤ ـ الدين . وقد رتبت حسب تسلسلها الزمني ، وهذا مـا يساعد القارىء على متابعة تطور الفكر الماركسي حول الدين . ومع ان هذا الكتاب مقتطفات ، الا انها ليست مجزاة كل التجزئة ، فثمة خيط ينظمها . فهذه العبارة او ذاك المقطع الشهير قد وضعا في سياقهما التاريخي ، وهذا ما يجعل من هـذه النصوص مرجعا دائما .

بالنسبة لكل نص ، أشرنا بوضوح الى تاريخ نشره والمؤلّف او المجلة التي أخذ منها . وزودنا القارىء بكثير من الملاحظات التي تجعل النص اكثر وضوحا . كما يحوي هذا الكتاب دليلا بالاسماء الواردة فيه .

★★★

ما الذي يمكن استخلاصه من التحليل الماركسي للظاهرة الدينية ؟

لقد تمثّل ماركس وانجلس نقد بوير وفويرباخ للدين ، الذي كان نقدا مثاليا وتجريديا . لكنهما تجاوزا أخطاء هذا النقد وثغراته . «الدين لا يعيش في السماء ، بل على الارض» : هذا ما كتبه ماركس الى روجه عام ١٨٤٢ . هذا المنطلق جعـل ماركس يتخطى نقد الدين في حدذاته ، ويتوصل بسرعة الى نقد المجتمع والظروف الاجتماعية والسياسية ، ويعنى بتعرية الصلات المعقدة بين الظروف الاجتماعيـة والافكار الدينية لعصر معين .

الدين ليس ثمرة وحي فوق طبيعي ، ولا حصيلة خديعة كبيرة دبّرها الكهنة . لفهم الظاهرات الدينية ، لا ينبغي الهبوط من السماء الى الارض ، بل ينبغي فهم السماء انطلاقا من الارض . بعبارة أخرى : لا يمكن تفسير أصول الاديان وتطوراتها

وتحولاتها الا بتفسير الواقع التاريخي الملموس (١) .

★★★

ما قيمة هذه النصوص بالنسبة للشعب العربي ؟ وما معنى صدورها في وقت متأخر كهذا ؟

من يتتبع المكتبة الماركسية العربية ، يلاحظ ان هؤلاء الذين نقلوا او نشروا ، بما في ذلك «دار التقدم» في موسكو ، الادبيات الماركسية قد وضعوا جانبا كتابات ماركس وانجلس حول الدين ، مع ان هذه الكتابات ، لما تتميز به الماركسية من دنيوية كلية وما يتوسم به الواقع العربي من تغلغل الايديولوجيا السلفية الدينية ، وبالتالي باعتبار ان الثورة الديمقراطية البورجوازية ما تزال في امر اليوم في الوطن العربي ، هي الكتابات الاكثر اهمية والاكثر راهنية من سائر الادبيات الماركسية الاخرى بالنسبة للشعب العربـي .

والآن تتصدى دار الطليعة ، بشيء من المجازفة ، المادية على الاقل ، لنشر هذه الكتابات . خطوة دار الطليعة هذه ، الا تومىء الى ان الفكر العربي يتأهب لدخول ميادين بقيت منطقة حراما بالنسبة اليه منذ تخثر المجتمع والفكر العربيان ، مع انها المنطقة الاكثر حسما والاكثر تأثيراً على التطور العربي المأزوق الذي يدور ، قياسـا بالتطور العالمي العاصف ، في حلقة مفرغة ، منذ الستينات بخاصة ، على سائـر الاصعدة : السياسية ، الاجتماعية ، القومية ، الثقافية ، الاقتصادية .

يقينا ان التركيبة Synthèse الماركسية حول الظاهرة الدينية عموما ذات اهمية بالغة . لكن ما دام هذا الكتاب هو ، بالاساس ، مجموعة مقالات ودراسات في الايديولوجيا المسيحية الغربية وتاريخها ، لذا لن نجد فيه جوابا شافيا علـى التساؤلات التي تطرحها قوى التغيير الجذروية العربية حول الايديولوجيات الاسلامية والمسيحية الشرقية في شتى تلاوينها وتشعباتها .

لا شك ان النهاجية الماركسية تمدنا بأدوات ناجعة في نقد وتحليل الايديولوجيات الدينية في المجتمع العربي ، وبخاصة دورها في ليّ وتأخير الوعي العربي ، وبالتالي عرقلة تكوّن وعي عربي مطابق للواقع العربي ، الا ان استخلاص تركيبة ماركسية عربية ، وبدونها ستبقى الماركسية شيئا برانيا بالنسبة للعرب لا يمكن ان يتغلغل في ثنايا الذهن العربي ، يقتضي بادىء ذي بدء استخدام ادوات التحليل الماركسي في نقد الايديولوجيات الدينية العربية وتجسيده في ابحاث ملموسة . هذه الابحاث هي التي تنقل النهاجية الماركسية ــ كما يقول العروي ــ من القوة الى الفعل ، مـن العمومية الفارغة الى الخصوصية الدقيقة . هذا النقل هو الذي يكفل تحول الماركسية،

---

١ ــ هذه الفقرات مستجرة من المقدمة الفرنسية .

في المجتمع العربي ، من شيء براني الى شيء جواني ، الامر الذي يعطي هذه النهاجية كل فاعليتها في تحديث الذهن العربي ، بوصفه أحد الاهداف الاكثر اهمية للثورة العربيـــة .

ان ابحاث هذا الكتاب ، رغم ان شاغل البحث العلمي واضح في عدد غير قليل منها ، قد صيغت في سياق النضال الديمقراطي الذي كان يخوضه الشعب الالماني على الاخص ، نضال كان الشعبان الانكليزي والفرنسي ، المتقدمـــان على الشعب الالماني آنئذ ، قد حققا ما هو جوهري من اهدافه . ان الاهمية التي أولاها النضال الديمقراطي الالماني لنقد وتفنيد الايديولوجيا المسيحية ، رغم القرابة بين الانتقادات ومواضع النقد لدى الشعوب الثلاثة ، انما يذكّر النضال الديمقراطي العربي بمهمة اساسية ، ان لم أقل المهمة الاساسية ، كان وما يزال يضعها جانبا : ان تصفية كل ما هو وسطوي وفائت في الايديولوجيا العربية شرط لا بد منه لتلافي التأخر التاريخي الذي يسحق الشعب العربي . ان تجربة النهضة العربية الثانية ، تعثرها ثم اختناقها، دليل واضح على هذه الحقيقة .

ان حالة التأخر هي التي تعطي مسألة الوعي أهميتها الحاسمة . لذا فان مسألة تكوين وعي ملائم لحاجات التغيير تصبح ، بقدر ما تعي هذه الحقيقة ، هم النخبة او الطليعة التي تعمل في سبيل التقدم في بلد متأخر . تكوين هذا الوعي المطابق او المناسب ، الكفيل باطلاق تطور سريع يطوي مسافة التأخر ، يستلزم ، ما دام التقدم التلقائي ملجوما بفعل الهيمنة الامبريالية ـ كما هي حال العرب اليوم ـ او ما دام المطلوب تسريع وتائر التقدم لحاقا بأمم أخرى ـ كما هي حال المانيا القرن التاسع عشر وروسيا القرنالعشرين ـ، دحضوتفنيد ايديولوجيا العصر القديمتمهيدا وإرساء للعصر الجديد . بدون عملية الدحض والتفنيد هذه ، الطويلة ، الدؤوبة ، التفصيلية، اما ان تتجاور الايديولوجيتان القديمة والجديدة فتثقل او تعرقل ، في أحســـن الاحوال، خطى التطور، واما انتحاصَر الايديولوجيا الجديدة من قبل القديمةوتبقيها مجرد هامش او قشرة فتلجم ، في اسوأ الاحوال ، خطى التطور .

التجربة الغربية شاهد : ان عصر النهضة لم يترافق مع تكوّن ايديولوجيا جديدة فحسب ، بل بدأ بتفنيد ودحض الايديولوجيا القديمة ، ايديولوجيا العصر الوسيط، الذي كانت الايديولوجيا الكاثوليكية آنذاك غطاءه الفكراني . فمن أنقاض الايديولوجيا القديمة وفوقها بنيت ايديولوجيا جديدة .

في فرنسا ، المتأخرة عن انكلترا ، ارتدى تفنيد ايديولوجيا النظام القديم من قبل فلاسفة الثورة البورجوازية ، فلاسفة عصر الانوار ، نبرة عنيفة . في المانيا ، المتأخرة عن فرنسا والمذلة من قبلها ، اتخذ هذا التفنيد ، بعد الفتح اللوثري ، طابع تأمل فلسفي وبحث علمي كانت الماركسية لبنته الرئيسية وتتويجه .

قلنا قبلا ان قوى التغيير الجذورية العربية لن تجد في هذا الكتاب جوابا شافيا

حول الايديولوجيات الاسلامية والمسيحية الشرقية . من هنا ليس صحيحا تحديد الموقف من الايديولوجيا الاسلامية بخاصة ، التي لا تزال مهيمنة الى حد كبير لدى الكتلة الاساسية من الشعب العربي ، عن طريق استبدال التحليل بالمقارنة ، وبالتالي سحب نتائج وتركيبات هذا الكتاب عليها . لماذا ؟

بالطبع ، شهدت الايديولوجيا المسيحية في اوروبا تطورا كبيرا مع تطور المجتمع الغربي المتصاعد . كان الانشقاق البروتستانتي خطوة كبيرة نحو العلمنة والعقلنة . جاءت بعده الثورة الفرنسية لتكرس نهائيا هيمنة ايديولوجيا عقلانية دنيوية على المجتمع الغربي . هذا الواقع جعل الايديولوجيا المسيحية ذات نفوذ هامشي من جهة، ومن جهة أخرى فان ضغوط تطور المجتمع الغربي عليها جعلها ، رغم المقاومة المحافظة والتردد واللهاث وراء الواقع المتغير ، في حالة تطور وتحديث وعقلنة دائمة لتتواكب مع سير المجتمع .

هل كانت الحال كذلك بالنسبة للايديولوجيا الاسلامية ؟

أن الايديولوجيا الاسلامية ، التي كانت في حالة تفاعل وتطور وتفتح موازية لاستيعاب العرب حضارات الشعوب الاخرى ، تخثرت مع تخثر المجتمع العربي الذي كان سقوط المعتزلة اولى نذره . وما لبثت ان تقهقرت بشكل ملحوظ مع هيمنة الصوفية ، البرانية ، المتسللة الى الايديولوجيا الاسلامية والمتغلغلة فيها من خلال مصالحة المذهب السني لها ، التي صارت ، بصورة عامة ، ومع تنامي سلطان المدرسة الغزالية ، الوعي الايديولوجي للمجتمع العربي ، وبقيت كذلك حتى بدايات النهضة الحديثة ، التي جاءت كرد فعل على الاجتياح الغربي .

واذا كانت ايديولوجيات الفرق الاسلامية المنشقة قد عبرت ، في بداية الامر ، عن ضرب من الليبرالية والعقلانية ، الا انها بقيت هامشية من حيث سلطانها على الامةمن جهة، وتحولت ايديولوجياتها معمرور الزمنالى ايديولوجيات اقلوية ومأزومة ومتخشبة وسلفية من جهة ثانية . ومن جهة ثالثة ذبل مع مرور الزمن ايضا نسغها العقلاني الليبرالي مع تخثر المجتمع عموما ، ثم مع اضطرار تلك الفرق الى الابتعاد، خوفا من الاضطهاد ، عن مراكز الحضارة ، المدن ، والانزواء في الجبال او الارياف .

في القرن الثامن عشر ، مع الحركة الوهابية ، تفجرت اول محاولة للاصلاح الاسلامي ، اتخذت منطلقا لها العودة الى صراط السلف الصالح وتطهير الاسلام من كل ما لحق به من براني خلال عهود الانحطاط . لكن هذا الاسلام الصافي ، المجدد ، الخالي من كل تأثير براني وحديث ، قبع محصورا ، لاسباب متعددة ، في القسم الاكثر تأخرا منالشعب العربي، القسم شبه البدوي: نجد اولا، ثم الحجاز مع امتداد سلطان العائلة السعودية اليه .

في القرن التاسع عشر ، في مصر بخاصة ، على يدي محمد عبده ، الذي عدّل وخفف آراء الافغاني ، وفي مواجهة تآكل الاطار التقليدي للمجتمع العربي بفعل الثقل الساحق لظل الغرب ، بدأت محاولة اصلاح اخرى جديدة ، انطلقت كذلك من الايديولوجيا الاسلامية التقليدية ، لكن في محاولة لمصالحة العصر لا الهرب منه .

لا شك ان هذه المحاولة هزت ركود المجتمع التقليدي عندما وجهت حدها نحو الايديولوجيا الصوفية وانجزت مهمة ذات مغزى في هذا الصدد . لكن انتهت المحاولة عند هذا الحد . لم يعد باستطاعتها التقدم خطوة اخرى الى أمام . استنفدت. لماذا؟

لم تنبثق هذه المحاولة في بقعة متوحدة ، معزولة ، بل ، على العكس ، في بقعة اصبحت جزءا من عالم وحدته الراسمالية الغربية توحيداً تناقضيا تحت سلطان الغرب ، ان لم نقل السياسي فالحضاري . هذه العالمية الغربية التي صبّ فيها العالم كله ، مضافا اليها ان هذه المحاولة واجهت عصرا مختلفا اختلافا كليا في شروطه عن الشروط الاولى التي تكونت فيها الايديولوجية الاسلامية ، فتحت فجوة لا تردم بين الماضي العربي والواقع العربي . ان انهيار هياكل المجتمع العربي التقليدي ، وكون المجتمع العربي الجديد ، الكولونيالي ثم المتخلف ، أصبح الجزء الرث والخاضع في بنيان دولي جديد ، قطعا الاستمرارية العربية . هذا الانقطاع الذي اصاب الاستمرارية العربية ابتلع بسهولة محاولات الاصلاح التقليدية الاسلامية ، فأصبح دورها ، موضوعيا ، المحافظة على الواقع القائم فحسب ، وعادت بالتالي الى وصال مع واقع انكرته من قبل : مع المجتمع الكولونيالي البارحة ، ثم مع المجتمع المتخلف اليوم . ان مأساة الايديولوجية الاسلامية الحديثة هي انها واجهت عالما لم يعد عالمها، وهنا مصدر ارتباكها وعِيِّها . لقد عانت وتعاني وحشة غربة جعلتها تنكمش وتتخشب . ويشعر ممثلوها النابهون ان عملية اعادة تفصيلها على قد الواقع الجديد انما هي نهايتها ، لذلك يعملون ، ما وسعهم ذلك ، على قسر الواقع وتفصيله على قدها .

ان المسألة ليست مسألة تخثر المجتمع العربي وتقهقره وانعكاسات ذلك على الايديولوجيا الاسلامية . ذلك ان جميع المجتمعات البشرية القديمة قد شهدت ضربا من نوس يترجّح بين تقدم وتراجع ، بين ازدهار وركود بل واندثار احيانا . ولكن حركة التاريخ ، ومنها حركة التاريخ العربي ، التي كانت حركة دورانية ، اصبحت، مع انبثاق الراسمالية في الغرب وبفعلها ، حركة صعودية تقدمية . في هذا المسار الجديد للتطور الغربي ، المعمم كونيا على نحو تناقضي ، تتكسر الايديولوجيات التقليدية ما قبل الراسمالية وتضيع ويصبح حطامها عامل تثبيت وعي متخشب فائت على واقع جديد متغير .

ي . ح

بيروت ٢٥-٢-١٩٧٤

١ .

كارل ماركس

# مقدمة اطروحة الدكتوراه :
# « الفرق بين فلسفة الطبيعة عند ديمقريطس وفلسفة الطبيعة عند أبيقوروس(*) »

كان في الامكان ان تأخذ هذه الرسالة طابعا علميا أدق من جهة واقل حذلقة في العديد مما بسطته من جهة ثانية لو لم تكن قد وُضعت في البدء لتكون أطروحة للدكتوراه . ومع ذلك ، فثمة اسباب خارجية ، ولكنها حاسمة مع ذلك ، تضطرني لدفعها الى الطباعة بهذا الشكل . وفضلا عن ذلك ، فانني اظن انني قد وجدت فيها حلا لمسألة من مسائل تاريخ الفلسفة الاغريقية كانت ما تزال معلقة حتى الان .

يعرف الاختصاصيون ان ليس ثمة ابحاث سابقة تعين ، بوجه من الوجوه ، على موضوع هذه الرسالة . ان ثرثرات شيشرون وبلوتارك اصبحت الان مكروره . ان كتابات غاسندي (١) ، الذي رفع الحرم الذي وضعه ضد ابيقوروس آباء الكنيسة والقرون الوسطى كلها ، هذه الفترة من الجهالة المطبقة، لا تشكل سوى مرحلة مفيدة. لقد حاول غاسندي التوفيق بين وعيه الكاثوليكي وعلمه الوثني من جهة وابيقوروس والكنيسة من جهة أخرى . وكانت هذه المحاولة جهدا ضائعا بالتأكيد ، كما لو انك اردت ان تلبس لايس (٢) ما اليونانية الفاتنة بجمالها وجلالها ثوب راهبة . ويمكن

---

★ نشرت لاولمرة في «المؤلفات الادبيةاللاحقة» لوفاة كارلماركس وفريدريك انجلسوفرديناند لاسال، بعناية فرانز ميهرنغ، المجلد الاول: كتبت بين آذار ١٨٤١ وآذار ١٨٤٤ . ونشرتفي شتوتغارتعام١٩٠٢ .

١ ــ المقصود كتاب بيير غاسندي «ملاحظات، حول الكتاب العاشر لديوجين» ، الذي يعالج حياة ابيقوروس وأخلاقه ومفاهيمه . نشر في ليون ١٦٤٩ .

٢ ــ اسم أطلق على العديد من الوصيفات اليونانيات ، وأشهرهن التي عاشت في مضيق «كورينثه» (في النصف الثاني من القرن الرابع قبل المسيح .

القول ان غاسندي تعلم من فلسفة ابيقوروس اكثر مما علمنا إياه .

وأرجو ان تعتبر هذه الرسالة كعمل تمهيدي لمؤلّف أهم أعرض فيه بالتفصيل(١) مجموعة الفلسفات الابيقورية والرواقية والريبوية (٢) في علاقاتها مع مجمل الفكر التأملي الاغريقي . ان نواقص هذه الرسالة ، المتعلقة بالشكل ، الخ ، ستزول من المؤلّف المرجو .

لقد حدد هيغل ، بشكل صحيح اجمالا ، الخطوط الكبرى للمذاهب الفكرية المذكورة . ولكن مخطط كتابه في تاريخ الفلسفة ، المثير للاعجاب بخصوبته وجرأته (والذي يشكل الوثيقة الحقة لولادة تاريخ الفلسفة بشكل عام)، يجعل ولوج التفاصيل مستحيلا من جهة ، ومن جهة اخرى فان مفهومه لما سماه «التأملي» المتاز كان يمنع عملاق الفكر هذا من ان يعترف بالمغزى الرفيع الذي مثلته تلك المنظومات الفكرية بالنسبة للفلسفة اليونانية والفكر اليوناني بصورة عامة .

---

١ ـ لم ينجز ماركس مخططه المشار اليه هنا بنشر كتاب أهم عن الفلسفات الابيقورية والرواقية والريبوية . على ان سبعة دفاتر بقياس الثمن تعود الى عام ١٨٣٩ ، تخص ماركس ، قد حفظت . وتتضمن اعمالا تمهيدية اساسية استخدمها ماركس جزئيا في أطروحته هذه للدكتوراه .

٢ ـ **الفلسفة الابيقورية** : احدى المنظومات الفكرية المادوية الاكثر نضجا في اليونان القديمة، وهي فلسفة تتميز بطابعها العقلاني والالحادي . كان أبيقوروس ينكر تدخل الآلهة في شؤون العالم ، ويؤمن بخلود المادة والحركة بصفتها ينبوع الاولى الصميم . كان ينكر خلود الروح ، كما اتخذ موقفا ضد الجهالة والخرافة اللتان تولدان ، حسب مذهبه ، الخوف من الآلهة والقلق حيال الموت . ان غاية الفلسفة ، عند ابيقوروس ، هي سعادة الانسان ، وهو امر يفرض التخلص من الاوهام والاحكام المسبقة واكتساب معرفة نواميس الطبيعة . لكن عقيدة ابيقوروس المادوية قد شوهها، بمختلف الاشكال ، مؤرخو الفلسفة الفكرانيون ، وأصبحت موضوع حقد الكنيسة الشديد وتعرضت لاضطهاداتها .

**الفلسفة الرواقية** : مدرسة فلسفية أسسها الفيلسوف اليوناني زينون السيتي(٣٣٦ـ٢٦٤ق٠م٠) الذي درج على التعليم في رواق أثينا ( «ستو وا» ) . مذهب هذه المدرسة كان يترجح بين المادوية والفكرانية . أهتمت في المرحلة الاولى على الاخص بدرس نواميس الطبيعة ونظرية المعرفة ، انطلاقا من مواقف مادوية من حيث الاساس . في عهد الامبراطورية الرومانية ، أولت اهتماما خاصا بالمسائل الاخلاقية . كان الرواقيون يعالجون هذه القضايا بعقل فكراني وديني ، مدافعين عن الوجود اللامادي للروح ، خضوع الانسان للقدر ، عدم مقاومة الشر ، الزهد ، التقشف ، البحث عن الله ، الخ ، وهي أفكار مارست تأثيرا على المسيحية عند تكونها .

**الفلسفة الريبوية** : مدرسة فلسفية تعود الى فترة انحطاط مجتمع الرق في اليونان وروما ، وتعبر عن الشك حيال امكانية التوصل الى معرفة صحيحة للحقيقة الموضوعية ، وبالتالي فهي تشكك ايضا بتقدم الفكر العلمي . ان مذهب الريبويين القدماء ، وهو تعبير عن اتجاه فكراني ذاتي ، يُبدي، منذ ذلك الحين ، أمارات انحطاط الفكر الفلسفي للعالم القديم .

ان هذه المنظومات هي مفتاح لتاريخ حق للفلسفة اليونانيــــة . اما بخصوص علاقاتها بالحياة اليونانية فان كتاب صديقي كوبّن المسمى «فريدريك الكبير وخصومه» يقدم اشارات أعمق .

لقد اضفت في ملحق الكتاب نقدا لمجادلة بلوتارك للاهوت أبيقوروس ، والسبب في ذلك هو ان هذه المجادلة ليست امرا فريدا بل هي امر مميَّز ، نموذجي ، نوعي . فهي تبسط على نحو مذهل كيف يتصرف الفكر اللاهوتي النزعة ازاء الفلسفة .

ان نقدي لا يظهر ، فيما يظهر من امور ، مدى الخطأ بصورة عامة في وجهة نظر بلوتارك الذي يجعل الفلسفة تمثل امام محكمة الدين . وأكتفي ، في هذا الموضوع ، بالاستشهاد بمقطع من دافيد هوم ، عوضا عن المحاججة :

> ان من الهوان للفلسفة ، بالتأكيد ، ان نرغمها ــ وهي التي يجب الاعتراف بعزتها السامية في كل النواحي ــ على ان تدافع عن نفسها في كل مناسبة بسبب النتائج التي تفرزها ، وعلى ان تبرر نفسها أمام جميع الفنون والعلوم التــي يحنقها وجودها . وعندئذ تخطر في البال قصة ذلك الملك الذي اتهِم بالخيانة العظمى امام رعاياه (١) .

وما دامت نقطة دم واحدة تنبض في قلب الفلسفة ، العامر كليا بالحرية والذي وسع العالم ، فسوف تصرخ مع ابيقوروس في وجه خصومه :

> «ليس الكافر من يحتقر آلهة الجمهور ، وانما الكافر من يتبنى تصــور الجمهور عن الآلهة» (٢) .

ان الفلسفة لا تخفي نفسها . ان شهادة بروميثيوس ،

> بكلمة : انا اكره جميع الآلهة ، فهم مدينون لي وبسببهم أُعامَل معاملــة جائرة (٣)

، هي شهادتها ، وهي تقف وستقف دائما ضد كل آلهة السماء والارض الذين لا يعترفون بالوعي الانساني إلها اسمى . وهذا الإله لا يتحمل اي منافس .

أما أولئك الجبناء الذين يغتبطون لرؤية الانحطاط الظاهر للمكانة الاجتماعيــة للفلسفة ، فهي تردد لهم جواب «بروميثيوس» الى هرمس ، خادم الآلهة :

> تأكد اني لن استبدل عبوديتك بمصيري البائس . انني افضل ان أبقى مكبلا

---

١ ــ يستشهد ماركس هنا بكتاب ، دافيد هوم : «بحث في الطبيعة الانسانية» .

٢ ــ مأخوذ من رسالة من «ابيقوروس» الى «مينسيه» في الكتاب العاشر لـ «ديوجين لايرس»، نقلا عن غاسندي في كتابه : «ملاحظات حول الكتاب العاشر لديوجين لايرس» ، ص ٨٣ .

٣ ــ هذا البيت ، كما الابيات اللاحقة ، مأخوذ من تراجيديا «آخيل» : «بروميثيوس المكبــل» البيت ٩٧٥ ) .

في هذه الصخرة على ان اكون خادما أمينا ورسولا لـ «زيوس» ، أب الآلهة ! هكذا يحسن ان نجيبه المتكبرين بكبريائهم (١) .

ان بروميثيوس هو أنبل قديسي تاريخ الفلسفة وشهدائها .

برلين ، آذار ١٨٤١

---

١ ـ المرجع السابق ، الابيات ٩٦٦ ـ ٩٧٠ .

٠٢

كارل ماركس

# افتتاحية العدد ١٧٩ من «صحيفة كولونيا»(*)

كنا نحترم حتى الان في **«صحيفة كولونيا»** ، ان لم نقل «صحيفـــة المثقفين الرينانيين» ، فعلى الاقل «صفحة الاعلانات الرينانية» (١) . كنا نعتبر «الافتتاحيات السياسية» التي تنشرها بمثابة وسيلة ممتازة عاقلة ومنتقاة لتنفير قارىء السياسة لكي يغوص في الطراوة ، الحياة ، النشاط الدائب والروح المتقدة في الاعلانـــات اليومية الصغيرة كي يتحقق المثل في هذه الحالة ايضا : «لنسلك الدروب الوعرة حتى النجوم» ، عبر أمواج السياسة حتى بلوغ المحار (٢) . لكن التوازن البديع ، الذي عرفت «صحيفة كولونيا» كيف تحافظ عليه حتى الان بين السياسة والاعلانات (٣) ،

---

★ نشر هذا المقال في «الصحيفة الرينانية» ، الاعداد ١٩١ ، ١٩٣ و١٩٥ في ١٠ ، ١٢ و١٤ تموز ١٨٤٢ . ترجم عن «كارل ماركس ــ فريديريك انجلس : المؤلفات» ، المجلد (١) ، برلين، ١٩٥٨ ، ص ٨٦ ــ ١٠٤ .

في الثلاثينات وبداية اربعينات القرن التاسع عشر ، كانت «صحيفة كولونيا» تدافع عن الكنيسة الكاثوليكية ضد البروتستانتية ، المذهب المهيمن في بروسيا . في عام ١٨٤٢ ، أصبح الصحفـــي الرجعي كارل هنريخ هرمس ، عميل الحكومة البروسية ، المحرر السياسي لهذه الصحيفة ، التـــي انخرطت آنئذ في معركة ضارية ضد «الصحيفة الرينانية» ، التي كان ماركس يحررها .

١ ــ لعب لفظي ، غير قابل للتعريب ، بين كلمتي Intelligenz (مثقفين)و Intelligenzblatt (صفحة اعلانات) .

٢ ــ يلعب ماركس بالجناس في اللغة الالمانية بين كلمتي Astra (نجوم) و Austern محـــار ) .

٣ ــ المقطع بأكمله مبني على المعنى المزدوج للكلمة الالمانية Anzeige ، المعنى الاول اعلان والثاني وشاية .

قد اضطرب في الفترة الاخيرة بفعل صنف من الاعلانات التي يمكن تسميتها بـ«اعلانات الصناعة السياسية» . ولما كان لا يُعرف جيدا جدا في البدء المكان الذي ينبغي ان يوضع فيه هذا النوع الجديد ، فلم يكن من الممكن تلافي ان يتحول اعلان الى افتتاحية والافتتاحية الى اعلان ، اريد القول الى اعلان من الاعلانات التي تدعى ، في عالم السياسة ، «وشاية» ، ولكن التي ، اذا كانت مأجورة ، تدعى بكل بساطة «اعلان مخبر » .

ثمة عادة في الشمال تقضي بأن يقدم للضيوف قبل الطعام الخفيف مشروبات فاخرة . اننا ننحني ، تجاه مضيفنا الشمالي ، أمام هذه العادة في تقديم المشروبات الروحية قبل الوجبة ، بامتنان لاسيما واننا نرى الغباب الكامل للفكر من الوقعة بالذات ، من المقال التعيس جدا المنشور في العدد ١٧٩ من «صحيفة كولونيا» . لذا نبدأ بتقديم مشهد من **«حوار الآلهة»** لـ لوسيان ، بترجمة «في متناول الجميع» ، لانه سيوجد بيننا **واحد** على الاقل غير يوناني .

## لوقيانوس : حوارات الآلهة

### XXIV ـ شكاوى هرمس (١)

هرمس . ـ هل يوجد حقا في السماء اله اكثر شقاء مني ، يا أماه ؟

مايا . ـ اياك ، يا هرمس ، من التلفظ بمثل هذه الاقوال .

هرمس . ـ لماذا امتنع عن التلفظ بها ، ما دمت مثقلا بهذا القدر من الاعباء ، أتعب وحدي ويتجاذبني الكثير من المهام ! منذ الفجر ، ينبغي عليّ ان انهض لكي أنظف قاعة الولائم ، أضع الاغطية على طاولتها ، أرتب كل شيء ، ثم أضع نفسي بتصرف زيوس وانقل رسائله واركض كل النهار بين الاودية والجبال و ، ما اكاد أعود ، الغبار ما يزال يجللني حتى أقدم الرحيق . وقبل وصول ذلك الساقي الذي اشتراه مؤخرا ، كنت انا ايضا من يقدمه . لكن الادهى من ذلك هو اني الوحيد من بين الآلهة الذي لا ينام حتى في الليل . حتى في هذا الحين ، يجب عليّ ان أقود الارواح الى بلوتون ، أسوق الاموات وأكون قريبا من منصة المحكمة . الا يكفيني ان أشتغل النهار كله ، اكون في ميادين الرياضة ، أقوم بمهمة الساعي في الاجتماعات ، أعطي دروسا للخطباء : ينبغي عليّ ايضا ان أشارك في ادارة كل ما يتعلق بالاموات .

منذ ان طُرد من الاولمب ، يواصل هرمس ، وهذه عادة قديمة ، «القيام بمهمة خادم» ويعنى بكل ما يتعلق بالاموات .

---

١ ـ اشارة الى اسم كاتب افتتاحية «صحيفة كولونيا» .

أهو هرمس بالذات ام ابنه بانو ، الإله ـ التيس ، هو الذي كتب المقالـــة البهيمة (١) في العدد ١٧٩ ، على القارىء ان يحسم ذلك ؛ لكن ينبغــي الا ينسى ان هرمس اليوناني كان إله البلاغة والمنطق .

يبدو لنا كذلك من غير المقبول ان تنشر بواسطة السحف او ان تعارك في الصحف آراء فلسفية او دينية .

عندما كنت استمع الى الشيخ يثرثر على هذا النحو ، لاحظت جيدا انه كـان ينوي ان يبادئنا بسلسلة مملة من الآيات ؛ لكن ، قلت في نفسي لأهدىء روعي ، كيف لا اصدق هذا الرجل ثاقب الفكر ، المستقل بما فيه الكفاية في التعبير ، فـي بيته ، عن رأيه بكل صراحة ؟ وتابعت القراءة . لكن ، يا للعجب ، هذا المقال الذي لا يمكن ان نجد فيه اي راي فلسفي ، ينزع الى معاركة آراء فلسفية ونشر آراء دينية.

ما الذي يمكن أن يعنينا في مقال يعترض هو نفسه على حقه بالوجود ، يمهـد لنفسه باقرار ذاتي بعدم الجدارة ؟ ان الكاتب المهذار هو الذي سيجيبنا . فهو يفسر لنا كيف ينبغي قراءة مقالاته المدعية . يكتفي باعطاء شذرات ، لكي يترك «لفطنـــة القراء» أمر العناية «برصفها وربطها» ، وهذه هي الطريقة الاكثر مواتاة لهذا النوع الاعلانات التي يتاجر بها . سوف «نرصف ونربط» وليس الغلط غلطنا اذا لم تتحو المسبحة الوردية الى اكليل من الورود .

يعلن الكاتب ما يلي :

ان حزبا يستعمل وسائل كهذه [اي ينشر ويكافح في الصحف آراء فلسفية ودينية] انما يدلل ، في رأينا ، على ان نياته ليست نزيهة ، انه يعنى بتثقيف الشعب وتنويره أقل مما يعنى بالوصول الى اهداف خارجية اخرى .

اذا كان هذا هو رأيه ، كان المقال المعني لا يقصد منــــه الا تحقيق اهـداف خارجية . وهذه «الاهداف الخارجية» لن تلبث أن تظهر .

ونقرأ ايضا : ليس للدولة الحق فحسب ، بل عليها واجب قطع الطريق فـي الحال على حملات الثرثارين «**غير المؤهلين**» . ان المؤلف يريد الحديث عن اعـــداء آرائه ، لانه منذ زمن بعيد جدا متفق مع نفسه حول هذه النقطة : انه ، هو بالذات، ثرثار **مؤهل** .

المقصود اذن اجراء تشديد جديد في الرقابة على المسائل الدينية ، اتخاذ تدبير بوليسي ضد صحافة تستعيد انفاسها بالكاد .

في رأينا ، ان ليس القسوة المفرطة ، بل بالاحرى الافراط في التسامح هو الذي يمكن مؤاخذة الدولة عليه .

لكن الافتتاحية تغير رأيها . فمن الخطر مؤاخذة الدولة ؛ لذا تندار نحو السلطات،

---

١ ـ لعب كلامـــي بالجناس بين كلمتـــي leidender Artikel (مقالة افتتاحية) و leitender Artikel (مقالة بهيمة) .

شكواها من حرية الصحافة تتحول الى شكوى ضد الرقباء ؛ انها تتهم الرقباء بممارسة «القليل جدا من الرقابة» .

في هذا المجال ايضا ، فان بعض السلطات على الاقل ، **ان لم نقل الدولة** ، أبدت حتى اليوم تسامحا ملوما بتركها المدرسة الفلسفية الجديدة ، **في الصحف** العامة وفي كتابات أخرى ليست موجهة فقط لحلقة من القراء العلميين ، تبيح لنفسها ان تشن أشنع الهجمات ضد المسيحية .

من جديد يتوقف الكاتب ومن جديد يغير رايه ، فقد وجد ، في أقل من ثمانية ايام ، القليل جدا من حرية الصحافة في حرية الرقابة ؛ ويجد اليوم في صرامة الرقباء القليل جدا من الضغط في الرقابة .

ينبغي تسوية ذلك :

ما بقيت الرقابة قائمة ، فان واجبها الألح هو ان تمنع انحرافات زهو صبياني لا يقل تنفيرا عن تلك التي آذت انظارنا مرارا في الآونة الاخيرة .

يا لها من نظرة منحطة ! يا لها من نظرة منحطة ! (١) و«الرؤية الاكثر انحطاطا ستؤذى بسبب صيغة تعبير سيكون فهم الجماهير الواسعة» مدفوعا الى استعمالها.

اذا تركت الرقابة اللينة التجاوزات المنفرة تمر ، فماذا الذي ستعطيه عندئذ حرية الصحافة ؟ اذا كانت أنظارنا اضعف من ان تتحمل «زهو» (٢) الصحافة المراقبة، فكيف تقوى على تحمل شجاعة الصحافة الحرة ؟

«ما بقيت الرتابة قائمة ، فان هذا هو واجبها الألح» . وعندما لا تعود قائمة ؟ ينبغي للجملة ان تفسر على النحو التالي : ان واجب الرقابة الألح هو ان تمد بقاءها الى أقصى أمد ممكن ؟

ومن جديد يعدل الكاتب رايه .

ليست من وظيفتنا ان نلعب دور المدعي **العام**، لذا نتحاشى ان نسمي احدا على وجه التحديد .

يا له من ملاك للرحمة هذا الرجل ! انه يتحاشى ان «يسمي» احدا على وجه التحديد ، ولكنه باشارات محددة جدا ، واضحة جدا استطاع ان يدل ويبين اين يتجه **رأيه** ، انه ينشر فحسب أقوالا ملتبسة ، غير واضحة ، تثير الشكوك ؛ ليس من وظيفته ان يكون مدعيا **عاما** ، ولكن من وظيفته ان يكون **مدعيا مستترا** .

وفي المرة الاخيرة يتنبه الرجل الشقي الى ان وظيفته ان يكتب افتتاحيات ليبرالية ، ان عليه أن يلعب دور «النصير المخلص لحرية الصحافة» ؛ فيتخذ بالتالي موقفا اخيرا .

لم يكن من حقنا ان **لا** نحتج ضد تصرف ، ان لم يكن نتيجة اهمال غير

---

١ ــ لعب كلامي بكلمة blod الالمانية ، وتعني منحط تارة وأحمق تارة أخرى .
٢ ــ لعب كلامي لا يعرّب بين كلمة Uebermut (زهو) و Mut (شجاعة)

متعمد ، فلا بد انه يهدف الى تشويه اكبر قدر من حرية الصحافة في نظر الرأي العام ، وذلك خدمة للعبة خصومها الذين يخشون ان لا يستطيعوا بلوغ هدفهم بطرق مباشرة

ان الرقابة ، كما يعلمنا هذا المدافع الجريء والفطن عن حرية الصحافة ، ان لم تكن الفهد الانكليزي حامل شعار «اني نائم فلا توقظوني» ، الا انها قد تصرفت على نحو ينال في حدود واسعة من حرية حركة الصحافة في نظر الرأي العام .

وان حركة للصحافة تلفت انتباه الرقابة الى **«حالات اهمال غير متعمدة»** وتنتظر شهرتها لدى الرأي العام من «مقص الرقابة» ، هل هي بحاجة الى ان تكون أسوأ سمعة ؟

من الممكن وصف حركة كهذه بـ «الحرة» ، كما يقال احيانا ايضا ان الوقاحة «بلا حدود» ، واليس من وقاحة الغباء والرياء ان يتظاهر المرء بكونه مدافعا عن أوسع حرية في حركة الصحافة في الوقت الذي يؤكد بوقار مصطنع ان الصحافة قد تغوص فورا في الاوحال ان لم يسندها شرطيان .

فما حاجتنا الى هذه الرقابة ، ما حاجتنا الى المقالة الرأسية هذه ، اذا كان صحيحا ان الصحافة الفلسفية تسيء الى نفسها في نظر الرأي العام ؟ يقينا ، ان الكاتب لا يريد البتة ان يقيد «حرية البحث العلمي» .

في ايامنا يتمتع **البحث العلمي** بحق بميدان اكثر اتساعا وأبعد مدى .

اما المفهوم ، الذي يحمله صاحبنا عن البحث العلمي ، فيبينه التصريح التالي :

لكن ينبغي التمييز بصورة واضحة بين ما تتطلبه حرية البحث العلمي ، الذي لا يمكنه الا ان يفيد المسيحية نفسها ، وبين ما يتجاوز حدود البحث العلمي.

من هو الذي سيقرر حدود البحث العلمي ، ان لم يكن البحث العلمي نفسه ! تدل المقالة الرأسية انه ينبغي فرض حدود للعلم . اذن ، فالافتتاحية تعرف «سببا رسميا» ، لا يمكنه أن يتعلم شيئا من البحث العلمي ، بل يعطيه الدروس التي ، بقدرة العناية الإلهية العليمة ، تقيس طول كل شعرة ، من شأنها ان تجعل من لحية علمية لحية علمانية . الافتتاحية تؤمن بالالهام العلمي للرقابة .

قبل ان نستمر في ملاحقة هذه «الحماقات» النافلة التي جاءت بها الافتتاحية حول البحث العلمي ، لنتذوق لحظة بعض عينات من **«الفلسفة الدينية»** للسيد هرمس ، النابعة من «علمه الخاص» .

الدين هو اساس الدولة ، كما انه الشرط الاكثر لزوما لكل تجمع اجتماعي لا يهدف فقط الى غاية ما سطحية !

**البرهان** : ان الدين ، حتى في شكله الاكثر بدائية، **التيموية الساذجة**، يرفع في حدود معينة الانسان فوق رغبات الحواس ، **التي تحطه الى درك الحيوان** اذا تركها تهيمن عليه وحدها ، وتجعله غير قادر على تحقيق اي مقصد سام .

الافتتاحية تسمي التيموية «الشكل الاكثر بدائية» للدين . اذن ، فهي تسلم ، وهذا بالنسبة لسائر رجال «البحث العلمي» ، شاؤوا ام ابوا ، واقع ثابت ، بأن

«عبادة الحيوانات» هي شكل اعلى من التيموية ؛ افلا تنزل عبادة الحيوانات بالانسان الى ما دون الحيوان ، الا تجعل من الحيوان إلها للانسان ؟

والآن ، لننتقل الى «التيموية» ! يا له من تنقيب علمي لصحيفة تساوي فلسين! ان التيموية بعيدة عن ان ترفع الانسان الى ما فوق الرغبة التي هي ، على العكس، «دين رغبة الحواس» . ان التخيل المتولد من الرغبة يعطي للتيموي الوهم بأن «شيئا غير حي» سيتجرد عن صفته الطبيعية لكي يقر مطامعه . ومن هنا واقع ان الرغبة البدائية للتيموي تكسر التيم (او الصنم) عندما يكف عن ان يكون الخادم الاكثر طواعية لهذه الرغبة .

لدى الامم التي بلغت مكانة تاريخية سامية ، نجد ان اوج حياتها السياسية يتطابق مع التفتح السامي لمشاعرها الدينية، وان انحطاط عظمتها وسلطانها يتزامن مع انحطاط ثقافتها الدينية .

بالضبط عندما نقلب تأكيدات الكاتب نمسك بالحقيقة ؛ انه يقلب التاريخ راسا على عقب . ان اليونان وروما هما البلدان اللذان يملكان ارقى «حضارة تاريخية» بين سائر شعوب العالم القديم . ان اوج الحضارة اليونانية في الداخل قد بلغ في عهد بيريكلس ، في الخارج في عهد الاسكندر . في عهد بيريكلس ، كان السفسطائيون ، سقراط (ويمكن وصفه بأنه تجسيد للفلسفة) ، الفن والبلاغة قد طردوا الدين . وان عهد الاسكندر هو عهد ارسطو ، الذي رفض فكرة خلود الروح «الفردي» وإله الاديان الوضعية . وروما ، الان ! لنقرا شيشرون ! ان الفلسفات الابيقوروية ، الرواقوية او الريبوية كانت اديان الرومان المثقفين ، في الوقت الذي بلغت روما اوج تاريخها . واذا كان سقوط دول العالم القديم يؤدي الى اضمحلال أديان هذه الدول ، فلا حاجة للتفتيش عن تفسير آخر ، وذلك لان «الدين الحقيقي» للناس في العالم القديم كان تقديس «قوميتهم» و«دولتهم» . ليس خراب الاديان القديمة هو الذي جر الى سقوط دول العالم القديم ، بل ان سقوط العالم القديم هو الذي جر الى خراب اديان العالم القديم . فما قولك في جهل برهنت عليه الافتتاحية ينادي بنفسه «مشرع البحث العلمي» ويفرض «قرارات» على الفلسفة .

ان كل العالم القديم كان محكوما عليه بالانهيار وذلك لان التقدمات التي أحرزتها الشعوب في تكوينها العلمي كانت مترافقة بالضرورة باكتشاف الضلالات التي ترتكز عليها مفاهيمها الدينية . .

وعلى هذا ، حسب راي الافتتاحية ، فان العالم القديم كله قد زال لان البحث العلمي قد كشف ضلالات أديان العالم القديم . أما كان العالم القديم يزول لو ان البحث العلمي اهمل ضلالات الاديان ، لو ان مؤلفات لوقيانوس ولوسيان كان قد أوصى بها كاتب الافتتاحية رقابة السلطات الرومانية ؟

واخيرا ، فاننا نسمح لانفسنا بتقديم ملاحظة قصيرة نوسع بها التنقيب العلمي الذي يقوم به سيدنا هرمس .

في الوقت الذي كان فيه سقوط العالم القديم وشيكا ، بدات مدرسة

**الاسكندرية** (١) التي كانت تجهد لان تثبت «الحقيقة الابدية» للميثولوجيا اليونانية وتوافقها الدائم «مع نتائج البحث العلمي» . ان الامبراطور جوليان، هو ايضا، ينتمي الى هذا الاتجاه ، الذي كان يعتقد انه يقضي على روح العصر المنبلج فجره باغلاق عيونه كي لا يراه . لكن لنتوقف حول النتيجة التي توصل اليها هرمس ! في الديانات القديمة ، كان «الاحساس الداخلي المبهم بالالوهة محجوبا باكثف ظلمات الضلال» ، ولهذا لم يستطع الصمود أمام الاكتشافات العلمية . في المسيحية ، كان الامر على عكس ذلك تماما ، تؤكده اية ميكانية مفكرة . والواقع ان هرمس يعلن :

ان أرفع نتائج البحث العلمي لم تؤد حتى الان الا الى تأكيد حقائق الدين المسيحي .

وبصرف النظر عن ان جميع فلسفات الماضي بلا استثناء قد اتهمت الواحدة بعد الاخرى من قبل علماء اللاهوت بأنها خارجة على المسيحية ، حتى فلسفة التقي مالبرانش والملهم جاكوب بوهم ، عن ان لايبنتس قد اتهم بأنه كافر (٢) من قبل فلاحي برونشفيك وانه ملحد من قبل الانكليزي كلارك وانصار نيوتن الآخرين ؛ وبصرف النظر ، كما تؤكد الفئة الاكثر شهرة وحصافة من علماء اللاهوت البروتستانت ، عن انه لا يمكن ان يكون ثمة توافق بين المسيحية والعقل ، لان العقل «الزمني» والعقل «الروحي» يتعارضان ، وهو ما عبر عنه ترتيليان بالصيغة الكلاسيكية التالية : «هذا صحيح لانه لامعقول» (verum est, quia absurdum est) ؛ بصرف النظر عن كل هذا ، كيف نثبت التوافق بين البحث العلمي والدين ، الا بارغام البحث العلمي ان يذوب في الدين تاركا اياه يواصل مسيرته الخاصة . إن أي ارغام آخر لا يستطيع في اي حال من الاحوال ان يكون برهانا .

آه ! بالطبع انك ، منذ البداية ، لا تعترف بشيء بوصفه بحثا علميا الا طريقتك في الرؤية ، فيسهل عليك التنبؤ ؛ لكن كيف يكون تأكيدك أصح من تأكيد البرهماني الذي يريد ان يبرهن على قدسية الفيداس (٣) ، محتفظا لنفسه فقط بحق قراءتها.

---

١ ــ **مدرسة الاسكندرية** تمثل الفلسفة في لحظة احتضار مجتمع الرق. في العقود الاخيرة التي سبقت الميلاد، وفي الاسكندرية التي اصبحت مركز الحياة الثقافية لتلك الفترة، شرع فلاسفة هذه المدرسة في دمج الفلسفة الفكرانية اليونانية بالصوفية الشرقية. ان الممثلين الرئيسيين لهذه لفلسفة، التي عرفت خلال سير تطورها ثلاثة اتجاهات (الاتجاه اليهودي ــ الاسكندراني، الفيثاغوري الجديد، الافلاطوني الجديد) ، هما فيلون (المولود حوالي العام ٢٠ قبل الميلاد، وتوفي في العام ٥٤ بعد الميلاد) ، «الاب الحقيقي للمسيحية» (انجلس) وأفلاطون (٢٠٤ ــ ٢٧٠) .

٢ ــ لعب كلامي بالالمانية حول اسم Leibniz و Lowenix ، تحريف لكلمة Glaubenichts ومعناها كافر .

٣ ــ الفيداس هي أقدم الآثار الشعرية والنثرية للادب والدين الهنديين ، وقد صيغت خلال قرون عديدة ، سبقت القرن السادس قبل الميلاد .

يقول هـ[رمس] بوضوح «بحث علمي». لكن كل بحث يناقض المسيحية، «يتوقف في منتصف الطريق» او «يضل الطريق» . هل يمكن لامرىء ان يجد لنفسه برهانا أسهل من هذا ؟

ان البحث العلمي ، شرط ان يوضح بنفسه محتوى اكتشافاته ، لن يدخل البتة في نزاع مع الحقائق المسيحية ، لكن ، في نفس الوقت ، ينبغي للدولة ان تسهر لكي يكون هذا الايضاح مستحيلا ، ذلك لانه لا ينبغي للعلم ان يتوجه الى ادراك الكتلة الاعظم من الناس ، اي لا ينبغي له البتة ان يوضح **نفسه** وأن يصير شعبيا . حتى اذا هوجم من قبل سائر صحف المملكة باحثون غير علميين ، فعليه ان يبقى متواضعا ويصمت .

ان المسيحية تستبعد امكانية «اي انحطاط جديد» ، لكن على الشرطة ان تسهر لكي لا يسبب الصحفيون الفلاسفة هذا الانحطاط وان تسهر على ذلك بمنتهى الصرامة . في المعركة ضد الحقيقة ، يعترف تلقائيا بالضلال على انه ضلال ، دون ان يكون ثمة حاجة الى قمعه بقوة خارجية ؛ لكن يتعين على الدولة ان تسهل معركة الحقيقة هذه بمنع أبطال «الضلال» لا من حريتهم الداخلية ، التي لا يمكن حرمانهم منها ، بل بتجريدهم مما يجعل هذه الحرية ممكنة ، اي ان تحرمهم من امكان الوجود.

ان المسيحية متأكدة من ظفرها ، لكنها ، في رأي هـ[رمس] ، ليست متأكدة الى حد الاستخفاف بمعونة الشرطة .

اذا كان ، قبليا ، كل ما يناقض ايمانك ضلالا وتنبغي معاملته بصفته كذلك ، فما الذي يميز ادعاءك عن ادعاء المسلم ، عن ادعاء كل الاديان الاخرى ؟ أيتعين على الفلسفة ، حسب المثل القائل «لكل بلد عاداته» ، ان تقبل ، بالنسبة الى كل بلد ، مبادىء اساسية اخرى لكي لا تدخل في نزاع مع الحقائق الاساسية للمعتقد الديني؛ أينبغي ان تعتقد ، في بلد ما ، أن ٣×١=١ ، في بلد آخر ان ليس للنساء أرواح ، في ثالث انهم يشربون البيرة في الجنة ؟ الا توجد طبيعة **انسانية كونية** كما توجد طبيعة كونية للنباتات والكواكب ؟ ان الفلسفة تتساءل عما هو حقيقي لا عما هو مقبول ، تتساءل عما هو حقيقي بالنسبة لكل البشر، لا عما هو حقيقي بالنسبة لبضعة أفراد ؛ حقائقها الميتافيزية لا تعرف حدود الجغرافيا السياسية ، حقائقها السياسية تعرف جيدا اين تبدأ «الحدود» لكي تخلط بالافق الوهمي لمفهوم خاص بعالم او بشعب الافق الحقيقي للفكر البشري . من بين سائر المدافعين عن المسيحية، نجد ان هـ[رمس] أضعفهم .

ان **الوجود الطويل** للمسيحية هو برهانه الوحيد لصالح المسيحية . ان فلسفة طالس ايضا ، اليست موجودة حتى اليوم ، وفي رأي هـ[رمس] ، أليس لها حاليا مزاعم ورأي في مكانتها اكبر منها في اي وقت مضى ؟

انظر كيف اتى هـ[رمس] بالبرهان على ان الدولة هي دولة «مسيحية» ، ان غايتها هي ، عوضا عن تشارك حر لكائنات اخلاقية ، تشارك مؤمنين ، وعوضا عن تحقيق الحرية ، تحقيق المعتقد . «ان المسيحية هي قاعدة سائر دولنا الاوروبية» .

الدولة **الفرنسية** ، هي كذلك ايضا ؟ المادة الثالثة مـــن الميثاق (١) لم تقل : «كل مسيحي» ، او «المسيحي فقط» ، بل قالت : «ان جميع **الفرنسيين** مقبولون على قدم المساواة في الوظائف المدنية والعسكرية» .

كذلك ، في القانون المدني البروسي ، القسم الثاني ، الباب الثالث عشر (٢) ، الخ ، نقرأ :

الواجب الاول لرئيس الدولة هو المحافظة على الهدوء والامن في الخـــارج والداخل سواء بسواء وحماية كل فرد واملاكه ضد العنف والاضطرابات .

حسب المقطع الاول ، يجمع رئيس الدولة في شخصه كل «واجبات وحقوق الدولة» . لم يقل ان الواجب ألاول للدولة هو تأمين قمع الهرطقات وكفالة سعـادة العالم الآخر .

لكن اذا كان صحيحا ان بعض الدول الاوروبية مبنية على المسيحية ، **فهل تلبي** هذه الدول مفهومه القائل بأن «مجرد وجود» امر واقع يسوّغه من زاوية الحق ؟

في رأي صاحبنا ه[رمس] ، ان هذا الامر لا ريب فيه ، وذلك لانه يذكر الشباب الهيغلي ، قائلا :

حسب القوانين المرعية في القسم الاكبر من الدولة [البروسية] ، ينظر الى **الزواج غير المكرس دينيا** بمثابة **تسرٍ**و ، على هذا الاساس ، يعاقب من قبـــل الشرطة .

وعلى هذا ، فاذا كان «الزواج غير المكرس دينيا» يعتبر على ضفاف نهر الرين ، حسب المدونة النابوليونية ، بمثابة «زواج» ، وعلى ضفاف نهر السبريه ، حسب القانون المدني البروسي ، يعتبر بمثابة «تسرٍ» ، فان العقوبة «من قبل الشرطة» تكون حجة بيد «الفيلسوف» لكي يبرهن ان ما هو عادل هنا هو غير عادل سنـــاك ، وأن القانون المدني البروسي ، وليست مدونة نابوليون ، هو وحده الذي يحتكر المفهوم العلمي والاخلاقي ، أي المفهوم العقلاني للزواج . هذه الفلسفة ، «فلسفة المعاقبـة بواسطة الشرطة» ، يمكنها ان تقنع في مكان آخر ، الا انها ، في بروسيا ، لا تقنع . مع ذلك ، ولكي نرى الى اية نقطة بلغ ضعف اتجاه القانون المدني البروسي الى فرض الزيجات «المقدسة» ، لنقرأ الفقرة ١٢ ، القسم الثاني ، الباب الاول :

مع ذلك فان زواجا أذنت به قوانين البلد ، لا يفقد شيئا من صلاحتـــه **المدنية** ، لكون وثيقة اعفاء السلطات الكهنوتية لم تكن مطلوبة او كانت مرفوضة.

هنا ايضا الزواج منعتق جزئيا من «السلطات الكهنوتية» ، ويميز بين صلاحته «المدنية» وصلاحته «الدينية» .

---

١ ـ المقصود هو الميثاق الدستوري الذي صدر في فرنسا بعد الثورة البورجوازية عام ١٨٣٠ وكان دستور ملكية تموز .

٢ ـ القانون المدني العام للولايات البروسية، المجلد الرابع، الطبعة الرابعة ، ١٧٩٤ ، ص ٨٩٥ .

ان لا يكون لصاحبنا فيلسوف الدولة المسيحية الكبير رأي «مسموع» في الدولة [البروسية] ، فهذا أمر بديهي .

بما ان ولاياتنا ليست فقط **نقابات للدفاع عن الحقوق** ، بل هي **في** نفس الوقت **مؤسسات للتربية** حقيقية تبسط عنايتها ؛ وهنا كل الفرق ، **الى أبعد** من المؤسسات المخصصة لتربية الشبيبة ، [الخ ...] لذا فان التربية العامة كلها [ترتكز] على اساس المسيحية .

ان تربية شبيبتنا الطلابية تقوم على كلاسيات العالم القديم وعلى العلوم بصورة عامة بقدر ما تقوم على التعليم [المسيحي] .

ان الدولة ، في رأي هـ[رمس] ، تتميز عن حاضنة اطفال لا في المضمون ، بل في الاتساع ، وهي تبسط «عنايتها» الى **أبعد** .

والحال ان التربية الحقة «العامة» التي تقوم بها الدولة تكمن على العكس في الوجود العقلاني والشعبي للدولة ؛ الدولة نفسها تربي اعضاءها جاعلة منهم اعضاء حقيقيين في الدولة ، بتحويل الاهداف الفردية الى اهداف عمومية ، الغريزة البدائية الى حنو اخلاقي ، الاستقلال الطبيعي الى حرية فكرية ، جاعلة الفرد يتفتح ويزدهر في حياة المجموع والمجموع يحيا في فكر الفرد .

افتتاحيتنا ، بالمقابل ، تجعل من الدولة لا تشاركا من البشر الاحرار الذين يربون بعضهم بعضا ، بل قطيعا من البالغين المعدين لتلقي تربيتهم من فوق ، والانتقال من قاعة الدرس «الضيقة» الى قاعة الدرس «الاوسع» .

هذه النظرية في التربية وفي فرض الوصاية ، أنما يعرضها نصير لحرية الصحافة ، وهو الذي يلاحظ ، بدافع الحب لتلك الغادة الجميلة ، «تغاضي الرقابة» ، التي تعنى بايضاح كيفية «فهم الجماهير» لمن يهمه الامر — (أيكون فهم الجماهير قد بدا ، **منذ قليل** ، عرَضيا الى هذا الحد بالنسبة الى «جريدة كولونيا» وذلك لان الجماهير لن تفهم بعد اليوم قيمة الصحيفة غير الفلسفية ؟) — ، الذي ينصح العلماء بأن يكون لهم راي لخشبة المسرح وآخر لكواليسه !

وكما ان الافتتاحية ثقفتنا بمفهومها **السخيف** للدولة، سنطلب منها الان ان تزودنا بالمستندات حول **رأيها المنحط** «**في المسيحية**» .

ان جميع مقالات صحف العالم لن تقنع البتة شعبا يحس ، اجمالا ، بالراحة وهو سعيد في حالته المشؤومة .

وكيف لا ! فالاحساس **المادي** بالرفاهية والسعادة يقاوم مقالات الصحف على نحو أقوى من مقاومة الثقة الهانئة المنتصرة دوما المتولدة عن الايمان ! هـ[رمس] لا يرتل : «الله هو حصننا وملاذنا» . اذن فالروح المؤمنة حقا لـ «الكتلة الكبرى» [من الجماهير] أكثر تعرضا لصدأ الشك من الثقافة العلمانية المرهفة الخاصة بـ «**العدد القليل**» [من الناس] !.

«حتى التحريضات على الهياج الشعبي» تبدو ، **في** نظر هـ[رمس] **أقل تخويفا** «**في** دولة **حسنة التنظيم**» مما هي في «كنيسة حسنة التنظيم» ، منقادة فضلا عن

ذلك من قبل «روح الله» نحو الحقيقة . يا له من مؤمن طيب ! وإليكم سبب ذلك!... ان المقالات في متناول الجماهير في الواقع ، اما المقالات السياسية فبعيدة عن مداركها !

وأخيرا ، اذا قربنا غمزة الافتتاحية : «ان **أنصاف التدابير** التي اتخذت في الفترة الاخيرة ضد الشباب الهيغلي ، كان لها نفس المفاعيل المعتادةلانصاف التدابير»، من الامنية **الصادقة** بألا تستطيع المشروعات الهيغلية الاخيرة افراز «نتائج جد غير مؤاتية» بالنسبة اليهم ، نفهم أقوال كورنويل في الملك لير :

هو ، لن يستطيع المداهنة !... انه نفس نزيهة وصريحة : ينبغي له قول الحقيقة . فاذا تقبلها الناس ، نعما حدث ، والا فلا تلوموا الا صراحته في القول. اني اعرف أناسا مضحكين غريبي الاطوار ، تنم صراحتهم عن مكر وأفكار فاسدة أشد مما هي لدى الكثير من السذج الذين ينحنون اجلالا امعانا في التملق (١) .

نخال اننا نهين قراء **«الصحيفة الرينانية»** اذا اعتقدناهم مسرورين بالمشهد ، وهو هزلي اكثر منه جديا ، الذي يقدمه ليبرالي سابق ، «شاب من الزمن القديم» (٢) رُد الى داخل الحدود التي تناسبه ؛ نريد ان نقول بضع كلمات **«في مضمون القضية بالذات»** . ما دمنا قد أنصرفنا الى مجادلة مقاله البهيم ، فقد كان من الخطأ ان نعترضه في عمله او كتابته التي تدمر نفسها بنفسها .

ينطرح بادىء بدء هذا السؤال : هل ينبغي للفلسفة ان تناقش المسائل الدينية ايضا في مقالات صحفية ؟

لا يمكن اعطاء جواب عن هذه المسألة الا بالنقد .

ان الفلسفة ، وبخاصة الفلسفة الالمانية، تنزع الى التوحد، الى العزلة المنهجية، الى تأمل الذات البارد ، الامر الذي يجعلها منذ البدء في قبالة الصحف وفي غربة عنها ، اذ ان الصحف سريعة الرد ، مليئة بضجيج الاحداث اليومية ، الامر الذي يجعلها لا تحقق طبيعتها الخاصة الا بالاتصال . ان الفلسفة ، مأخوذة في تطورها المنهجي ، غير شعبية ، نشاطها الملغّز المنثني على نفسه يبدو للعين الجاهلة كشاغل غريب بقدر ما هو محروم من القيمة العملية ؛ وتبدو الفلسفة كأستاذ ساحر ، رُقاه ممتلئة بالفخامة لانها لا تفهم .

ان الفلسفة ، بطبيعتها ، لم تخطُ البتة الخطوة الاولى لكي تبادل الرداء التقشفي للكاهن بالطقم الخفيف المألوف للصحافة . بيد ان الفلاسفة لا ينبتون كالفطور ، فهم ثمار عصرهم وشعوبهم ، التي تسري أثمن وارهف أمزجتها وأقلها ظهورا في الافكار الفلسفية . ان الفكر الذي يقيم المنظومات الفلسفية في دماغ الفلاسفة هو نفسه الذي

---

١ ــ شكسبير : الملك لير ، الفصل الثاني ، المشهد الثاني .

٢ ــ اشارة الى ان محرر «صحيفة كولونيا» ، هرمس ، كان قد شارك في شبابه في حركة المعارضة التي قام بها الطلاب الالمان .

يبني السكك الحديدية بأيدي العمال . الفلسفة ليست خارج العالم ، كما أن الدماغ ليس خارجا عن الانسان ، وان لم يكن في معدته ؛ لكن من المؤكد ان الفلسفة حققت الاحتكاك بالعالم بواسطة الدماغ قبل ان تلمس الارض برجليها ، في حين أن العديد من المجالات الانسانية الاخرى انغرست أرجله في الارض منذ امد بعيد ، وتقطف بأيديها ثمار العالم ، قبل ان تدرك ان «الراس» ايضا هو جزء من هذا العالم ، او ان هذا العالم هو عالم الراس .

ولأن كل فلسفة حقيقية هي الخلاصة او الجوهر الفكري لعصرها ، لذا لا بد ان يأتي بالضرورة زمن تحتك فيه الفلسفة ، لا داخليا بواسطة محتواها فحسب ، بل خارجيا ايضا بواسطة تظاهراتها ، بالعالم الواقعي لعصرها وتقيم معه تبادلات متقابلة. عندئذ تكف الفلسفة عن ان تكون منظومة محددة ازاء منظومات اخرى محددة ، بل ستصير الفلسفة بصورة عامة ازاء العالم ، ستصير فلسفة العالم الراهن . ان العلائم الخارجية التي تبين ان الفلسفة قد بلغت هذه المكانة ، انها صارت الروح الحية للحضارة والثقافة ، ان الفلسفة صارت «من هذا العالم» ، كما ان هذا العالم صار فلسفيا ، ــ ان تلك العلائم هي نفسها في جميع العصور ؛ ويمكن ان نفتح اي كتاب تاريخ ، وسنرى كيف تتكرر بأمانة لا تتغير الطقوس الاكثر بساطة التي تسجل ، دون اي التباس ، دخولها في الصالونات وبيوت الكهنة ، في قاعات تحرير الصحف وفي مداخل البلاطات ، في قلب المعاصرين المتلىء بغضا او حبا . ان دخول الفلسفة في العالم موسوم بصرخات أعدائها التي تكشف الوباء الداخلي بنداءات وحشية للاستغاثة تطلقها في وجه الحريق الذي تشعله الافكار . ان صرخات أعدائها هذه لها ، بالنسبة للفلسفة ، نفس الاهمية التي تعلقها الأم القلقة على صيحات وليدها الاولى . انها الصرخة التي تعلن لها ان افكارها حية ، وان هذه الافكار مزقت القشرة الهيروغليفية غير المعابة التي كانت المنظومة قد كونتها ، وانها استحالت الى مواطنين عالميين . ان الكوريبانت والكابير (١) ، الذين يعلنون للعالم بضجيج كبير ولادة الطفل زيوس ، يتداررون بادىء بدء ضد القسم الديني من الفلسفات ، وذلك لانه حول هذه الناحية الحساسة لدى الجمهور تعرف بيقين الغريزة الفاحصة كيف تجد لها سندا ؛ وكذلك لأن الجمهور ، الذي يشكل خصوم الفلسفة فريقا منه ، لا يستطيع بلوغ المضمار الفكراني للفلسفة الا بلاقطات فكرانية ، لان الدائرة الوحيدة للافكار التي يؤمن الجمهور بقيمتها ايمانه بمنظومات الحاجات المادية هي دائرة الافكار الدينية ؛ واخيرا

---

١ ـ كوريبانت Corybantes كهنة الالاهة الفريجية «سيبيل» . كابير Cabires : كهنة آلهة اليونان القديمة .

اعتبر الكوريبانت والكابير في آسيا الصغرى بمثابة كوريت كريت ، كهنة ام زيوس الاهة رهي يا . ثمة أسطورة دينية تروي ان الكوريت غطوا على صراخ زيوس الوليد بصليل سيوفهم التي ضربوا بها دروعهم .

لأن الدين لا يجادل منظومة فلسفية معينة او تلك ، بل يجادل الفلسفة بصورة عامة ، فلسفة منظومات معينة .

ان فلسفة الحاضر الحقيقية لا تعرف مصيرا مختلفا عن مصير فلسفات الماضي الحقيقية . هذا المصير هو ، على العكس ، برهان يدين له التاريخ بحقيقته .

ومنذ ست سنوات والصحف الالمانية تهاجم ، تفتري ، تشوه (١) القسم الديني من الفلسفة . لقد تفننت **«صحيفة اوغسبورغ العامة»** بمآثر البسالة ، وتقريبا كان كل مطلع تشيد منها يردد هذه الموضوعة : ان الفلسفة لا يجدر ان تفسر وتشرح من قبل السيدة المفعمة حكمة التي هي أنا ، فهي ليست سوى تبجح فتيان او موضة زمرة من النفاجين . نعم ، ولكن رغم كل شيء ، لم يكن في الامكان التخلص من الفلسفة وكانوا يعاودون دون انقطاع قرع طبول الحرب ؛ ذلك لان «صحيفة اوغسبورغ» لا تعزف الا على آلة واحدة في الجوقة المتنافرة المعادية للفلسفة : الطبل الضخم الرتيب . في جميع الصحف الالمانية ، من **«الاسبوعية السياسية البرلينية»** و**«مراسل هامبورغ»** حتى الوريقات الصفر ، حتى **«صحيفة كولونيا»** ، تتردد اسماء هيغل وشيلينغ ، فويرباخ وبوير ، **«الحوليات الالمانية»** ، الخ . واخيرا شعر الجمهور بالرغبة في أن يرى بنفسه هذا ألـ لوياتان ، بل بالرغبة القوية لاسيما وان المقالات الرسمية كانت تهدد بأن تملي على الفلسفة ، من قبل المستشاريات ، مخطط الاتجاه الذي يحق لها ان تتبعه ؛ وحدث ذلك بالضبط في اللحظة التي ظهرت فيها الفلسفة في الصحف . خلال زمن طويل ، لزمت الفلسفة الصمت ازاء الصحفيين المدعين والسطحيين الذين كانوا يتبجحون بأنهم يزيلون بنفخة ، كفقاقيع صابون ، وببضع جمل عديمة الطعم ، الدراسات التي تابعت القيام بها العبقرية طوال أعوام ، الثمار التي انضجتها عزلة خصبة ومفعمة بنكران الذات ، النتائج التـــي جاءت بها معارك التأمل هذه ، معارك غير مرئية ولكن تفرض رويدا رويدا قوى الفلسفة ؛ والفلسفة هي نفسها كانت قد **احتجت على الصحف** حيث كانت ترى فيها ميدانا غير مناسب، لكن في النهاية تعين على الفلسفة ان تخرج عن صمتها ، وجعلت من نفسها مراسلا للصحف و ـ يا للالهاء الغريب ـ بصورة مفاجئة ، يخطر في بال مقاولي الصحف الثرثارين ان الفلسفة ليست غذاء لجمهور الصحف ولم يستطيعوا الامتناع عن لفت انتباه الحكومات على واقع انه كان امرا غير شريف ادخال المسائل الفلسفية والدينية في الميدان الصحفي ، وهذا ليس لتنوير الجمهور ، بل لبلوغ اهداف خارجية .

ما الذي يمكن ان تقوله الفلسفة عن الدين او عن نفسها أسوأ واتفه مما الصقه عواؤكم الصحفي بها منذ زمن طويل ؟ ليس لها الا ان تكرر ما كنتم تدعون اليه خلال

---

١ ـ يشير ماركس الى الحملة المسعورة التي شنتها الصحافة الالمانية الرجعية على النقد الفلسفي للدين . هذا النقد الذي بدأ بكتاب دافيد فريدريك شتراوس في كتابه «حياة يسوع» ، الذي ظهر المجلد الاول منه عام ١٨٣٥ والثاني عام ١٨٣٦ .

ألف والف مجادلة ، ايها الكبوشيون غير الفلاسفة ، بل كان عليهـا ان تقول أسـوأ مـن ذلـك .

لكن ألفلسفة تتحدث عن المواضيع الدينية والفلسفية بشكل مغاير لما تتحدثون . انتم تتحدثون من غير ان تدرسوا ، هي تتحدث بعد ان تدرس ؛ أنتم تتوجهون الـى الهوى ، هي تتوجه الى العقل ، أنتم تشتمون ، هي تعلّم ؛ أنتم تعـدون بالسمـاء والارض ، هي لا تعد بشيء سوى الحقيقة ، أنتم تتطلبون ان يؤمن الناس بايمانكم ، هي لا تتطلب الا ان يؤمنوا بنتائجها ؛ انها تتطلب الفحص بواسطـة الشـك ؛ انتم تروّعون ، هي تطمئن . فالفلسفة ، في الحقيقة ، تعرف العالم بما يكفي لكي تعرف ان نتائجها لا تتملق البحث عن اللذة والانانية لا في السماء ولا في الارض ؛ لكـن الجمهور ، المتعشق للحقيقة والمعرفة لذأتهما ، سيستطيع على الارجح ان يقـارن حكمها واخلاقيتها بحكم واخلاقية المخربشين الجهلة، الاذلاء، المتناقضين والمأجورين.

يقينا انه قد يحدث لهذا القارىء او ذاك ، بسبب ضيق في الفكر او المشاعر ، ان يفسر الفلسفة بشكل مغلوط ، لكن ، ايها البروتستانت ، الا تعتقدون ان الكاثوليك يفسرون المسيحية تفسيرا مغلوطا ، الا تأخذون على الدين المسيحي ما في القرنـين الثامن والتاسـع (١) من فتـرات مخزية ومذبحـة سانت بارتيلمـي ومحـاكم التفتيش (٢) ؟

---

١ ــ يشير ماركس بوضوح تام الى فرض احتكار الكنيسة الكاثوليكية في ميدان الثقافـة والايديولوجيا ، في هذه الفترة من أوائل العصر الوسيط حيث قضي ، في رأي انجلس ، على الحضارة القديمة ، الفلسفة ، السياسة ، التشريع القديمة . «كانت النتيجة ، كما في جميع مراحل التطور الاولية ، ان استحوذ الكهنة على احتكار الثقافة الفكرية ، فاتخذت الثقافة نفسها طابعا لاهوتيا مـن حيث الجوهر . بين ايدي الكهنة ، نجد ان السياسة والتشريع بقيا ، كما في سائر العلوم الاخرى، مجرد فرعين من فروع اللاهوت» (انجلس : «حرب الفلاحين في المانيا») . مع انحطاط الفلسفة القديمة، انحطت ايضا فروع علوم الطبيعة والرياضيات ، التي كانت مرتبطة بها . الشعر ، الموسيقى ، الفنون التشكيلية وضعت كذلك في خدمة الكنيسة . الادب اصبح تاريخ حياة القديسين ، وأصبح التاريـخ تاريخ اخبار الكنيسة . الفلسفة تحولت الى خادمة للاهوت . في سائر ميادين المعرفة الانسانية ، ساندت الكنيسة مفاهيم رجعية ومعادية للعلم .

٢ ــ مؤسسة للشرطة والقضاء أقامتها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر لكي تصفـي بالعنف الهراطقة والمشتبه أنهم هراطقة . كانت محاكم التفتيش سلاحا في المعركة ضد الحركة المعادية للاقطاعية والمعادية للكاثوليكية ، وضد سائر أشكال الفكر الحر . لقد استخدمت كـل الوسائل : التجسس ، رشوة الشهود ، التعذيب الوحشي ، المحاكم الكهنوتية السرية . أحكامها كانت تتسم بالقسوة المفرطة. في المحارق وفي غرف التعذيب أهلك مئات الالوف من الابرياء و . من بينهم ، كثير من العلماء الكبار . حوالي أواسط القرن التاسع عشر ، فقدت محاكم التفتيش جزءا من وظائفها ، بيد انها تابعت محاربة الآراء التقدمية والثورية .

ان معظم البغض الذي يكنه اللاهوت البروتستانتي للفلاسفة ناتج عن التسامح الذي تبديه الفلسفة ازاء العقيدة الخاصة بما هي كذلك : ثمة براهين دامغة على هذا الواقع . لقد لاموا كثيرا فويرباخ وشتراوس لانهما اعتبرا المعتقدات الكاثوليكية معتقدات مسيحية اكثر مما لاموهما لاعلانهما ان معتقدات المسيحية ليست معتقدات العقل .

لكن اذا كان بعض الافراد لا يهضمون الفلسفة الحديثة ويموتون من عسر الهضم الفلسفي ، فذلك لا يشكل برهانا ضد الفلسفة ؛ تماما كما ان انفجار المرجل البخاري بين وقت وآخر وقذفه بعض المسافرين في الهواء ليس برهانا ضد الميكانيك .

ان مسألة معرفة ما اذا كانت بعض المشكلات الفلسفية والدينية ينبغي ان تناقش في الصحف ، تجد نفسها محلولة لكونها فارغة بالذات .

اذا كانت أمثال هذه المسائل تهم الجمهور بصفتها قضايا تعالج **في الصحف،** فذلك لانها صارت **مسائل راهنة ،** وعندئذ لا تنطرح مسألة فيما اذا كان من اللازم مناقشتها ؛ انما تغدو المسألة التي تنطرح هي ان نعرف أين وكيف ينبغي مناقشتها : هل تنبغي معالجتها في محيط الاسر وفي الفنادق، المدارس والكنيسة لا في الصحف؟ هل ينبغي ان يعالجها أعداء الفلسفة لا الفلاسفة ؟ هل تنبغي معالجتها باللغة المبهمة للراي الخاص لا بلغة العقل العام الذي ينير المشكلات ؟ عندئذ تنطرح مسألة عما اذا كان ما يعيش في الواقع هو من شأن الصحافة ؛ وفي هذه الحال لم تعد مسألة محتوى خاص للصحافة ، بل ان المسألة العامة هي المطروحة : هل ينبغي ان تكون الصحافة صحافة فعلية حقة ، اي صحافة حرة ؟

اما المسألة الثانية فنفصلها كليا عن الاولى : «هل ينبغي للسياسة ان تعالج فلسفيا من قبل صحف دولة مسماة مسيحية ؟ » .

اذا صار الدين صفة سياسية ، موضوعا للسياسة ، لن يكون من ضرورة تقريبا، كما يبدو ، لملاحظة ان للصحف الحق فحسب بل عليها ايضا واجب مناقشة المواضيع السياسية . يبدو قبليا ان حكمة هذا العالم ، الفلسفة، لها الحق في ان تعنى بملكوت هذا العالم ، بالدولة ، اكثر من عنايتها بحكمة العالم الآخر ، الدين . المسألة التي تنطرح عندئذ هي ، لا ان نعرف كيف ينبغي ان نتفلسف حول الدولة : بشكل حسن أم سيء ، بطريقة فلسفية أم بطريقة معادية للفلسفة ، بأحكام مسبقة أم بدون أحكام مسبقة ، بصفاء بصيرة أم بدون صفاء بصيرة ، بفكر مثابر أم بدون فكر مثابر، بعقلانية ١٠٠ بالمئة ام بنصفها فقط . انك اذا حولت الدين الى نظرية في الحقوق العامة ، ستجعل الدين نفسه ضربا من فلسفة .

أليست المسيحية بالاخص هي التي فصلت الدين عن الدولة ؟

اقرأ القديس أوغسطين ، في «مدينة الله» ، اقرأ آباء الكنيسة وفكر المسيحية ثم عد وقل لنا ما اذا كانت الدولة او الكنيسة هي «الدولة المسيحية» ! وبالاحرى أليست كل لحظة من حياتك العملية تكذب نظريتك ؟ ألا تعتبر اللجوء الى المحاكم ظلما اذا غرر بك ؟ لكن الرسول كتب يقول ان ذلك ضلال . هل تدير الخد الايمن عندما

تضرب على الخد الايسر ، أم تقيم دعوى لكونك استهدفت لعمل من أعمال العنف ؟ لكن الانجيل يحظر ذلك . هل تطلب عدالة عقلانية في هذا العالم ، الا تتذمر لادنى ارتفاع في الضريبة ، الا تثور ثائرتك لدى أبسط تعد على حريتك الشخصية ؟ لكن ألم تلقن ان الآلام الزمنية ليست شيئا يذكر اذا قورنت ببهاء الحياة الاخرى ، ان الاذعان للالم ونشدان السعادة في الرجاء هما الفضيلتان الاساسيتان ؟

اليس معظم الدعاوي التي تقيمها ومعظم القوانين المدنية ذا صلة بالملكية ؟ لكن يقال لك ان كنوزك ليست من هذا العالم . واذا أخذت بالقول القائل انه ينبغي ان يعطى لقيصر ما لقيصر ولله ما لله ، فلا تحسب ان مامون وحده ، اله الذهب ، هو قيصر هذا العالم ، بل ان سيده ايضا هو العقل الحر ، وأن «استعمال هذا العقل الحر» هو ما نسميه فلسفة .

عندما ارادوا في البدء جعل الحلف المقدس (١) حلفا شبه ديني بين الدول، بحيث صار الدين شعارا للدول الاوروبية ، فان **البابا** هو الذي رفض الانضمام الى هذا الحلف المقدس ، فدلل بذلك على كثير من العمق والحصافة ، وذلك ، كما قال ، لان الرباط المسيحي الكوني بين الشعوب هو الكنيسة ، لا الدبلوماسية ولا الحلف الزمني بين الدول .

ان الدولة الدينية حقا هي الدولة التيوقراطية ؛ فالملك ، في دول من هذا النوع، ينبغي اما ان يكون ، كما هي الحال في الدولة اليهودية ، اله الدين ، يهوه ، او ان يكون ، كما هي الحال في التيبت ، ممثل الاله ، الدالاي لاما ، واخيرا اما ان يكون ، كما يطلب بحق من الدول المسيحية غوريس في مؤلفه الاخير (٢) ، الجميع خاضعين لكنيسة ، وهي «كنيسة معصومة» ، وذلك لانه حين لا يوجد رئيس أعلى للكنيسة ، كما هي الحال في البروتستانتية ، فان سيطرة الدين لا تكون شيئا آخر سوى دين السيطرة ، اي عبادة ارادة الحكومة .

ما أن تضم دولة ما عدة عقائد دينية متساوية في الحقوق ، حتى لا يغدو في وسعها ان تكون دولة دينية من دون ان تمس العقائد الدينية الخاصة ؛ من دون ان تكون كنيسة تدين كل مؤمن بعقيدة أخرى بالهرطقة ، من دون ان تربط كل رغيف خبز بالايمان ، من دون ان تجعل من المعتقد الرابط بين الافراد ووجودهم كمواطنين. اسأل عن ذلك السكان الكاثوليك في «المسكينة ، ايرين الخضراء» (٣) ، اسأل عن ذلك

---

١ ــ الحلف المقدس كان حلف الدول المعادية للثورة ضد جميع الحركات التقدمية في اوروبا . أقيم في باريس بعد الانتصار على نابوليون ، في ٢٦ ايلول ١٨١٥ ، بمبادرة من القيصر اسكندر الاول، مع النمسا وبروسيا ، انضمت اليه جميع الدول الاوروبية تقريبا . والتزم الملوك بموجبه بالمساندة المتبادلة ، بالحفاظ على المنظومة الملكية والدين المسيحي وبحماية دولهم من الهزات الثورية .

٢ ــ المقصود كتاب جوزيف غوريس : «الكنيسة والدولة في نهاية ضلال كولونيا» ، ١٨٤٢ .

٣ ــ الاسم السابق لايرلندا .

هيغينوت ما قبل الثورة الفرنسية (١) ، فليس الدين هو ما دعوا اليه ، وذلك لان دينهم لم يكن دين دولة ، بل دعوا الى «حقوق البشرية» ؛ وان الفلسفة تفسر حقوق البشرية ، تطلب ان تكون الدولة دولة الطبيعة البشرية .

يقول العقلاني الخَخِل ، المحدود وغير المؤمن بقدر ما هو عالم لاهوت ، ان الروح الكوني للمسيحية ، اذا ضربنا صفحا عن الفروق بين العقائد ، هو الذي يجب ان يكون روح الدولة ! هذه هي المروقية عن الدين ، وان من صلف العقل الزمني ان يفصل الروح الكوني عن الدين الوضعي ؛ ففصل الدين على هذا النحو عن معتقداته ومؤسساته يؤول الى توكيد ان الروح الكونية للحقوق يجب ان تسود في الدولة ، بغض النظر عن القوانين المحددة والمؤسسات الوضعية للحقوق .

اذا كنت تزعم أنك أرفع من الدين بحيث تبيح لنفسك ان تفصل روحه الكونية عن المؤسسات الوضعية التي تتعين فيه ؛ فعلام تلوم الفلاسفة عندما يدفعون ذلك الانفصال الى حده ولا يتوقفون في منتصف الطريق ، عندما يقولون ان الروح الكوني للدين ليس روح المسيحية بل هو روح البشرية .

يقطن المسيحيون في دول ذات دساتير مختلفة ، بعضهم في جمهورية وبعضهم الآخر في ملكية مطلقة ، وبعض ثالث في ملكية دستورية . ان المسيحية لم تبت بالمقياس الذي تعتبر الدساتير صالحة بموجبه ، وذلك لانها لا تعرف فرقا بين الدساتير ؛ فهي تعلّم ، كما ينبغي للدين ان يفعل : اخضعوا للسلطة ، وذلك لان **كل سلطة** تنبثق من الله . اذن فليس انطلاقا من المسيحية ، بل من الطبيعة الخاصة، من جوهر الدولة ، ينبغي ان نقرر ما اذا كانت الدساتير عادلة ، لا انطلاقا من طبيعة المجتمع المسيحي ، بل من طبيعة المجتمع البشري .

الدولة البيزنطية كانت دولة دينية ممتازة ، وذلك لان المعتقدات الدينية فيها كانت شؤونا تخص الدولة ، لكن الدولة البيزنطية كانت أسوأ دولة . ان دول النظام القديم كانت الدول الاكثر مسيحية ، ولكن ذلك لم يحل دون ان تكون الدول التي تسيطر فيها «نزوة البلاط» .

---

١ ـ ان الكتلة الرئيسية من الحركة البروتستانتية ، التي كانت تنتسب الى مذهب كالفن ، قد تكونت في الفترة الاولى (القرن السادس عشر) من عناصر من البورجوازية ومن الحرفيين . فيما بعد انتقل الدور المهيمن الى أيدي طبقة نبلاء الريف في جنوب فرنسا والقسم من الارستقراطية الاقطاعية وادى الى الحرب الاهلية بين الكاثوليك والهيغينوت ، تلك الحرب التي بدأت عام ١٥٦٢ ، واتخذت طابعا حادا جدا في أعقاب مذبحة سانت بارتيليمي ، واستمرت دون انقطاع حتى عام ١٥٩٤ . ان ميثاق نانت ، الصادر عام ١٥٩٨ ، منح الهيغينوت حرية الاعتقاد . بيد ان الحكومة والكنيسة الكاثوليكية تابعتا اضطهادهما للهيغينوت حتى قيام الثورة . وكان لويس الرابع عشر قد الغى ميثاق نانت عام ١٦٨٥ .

ثمة معضلة لا يستطيع «العقل السليم» ان يتملص منها .

اما ان تستجيب الدولة المسيحية لمفهوم الدولة ، الذي هو تحقيق الحرية حسب العقل ، وعندئذ يصبح المتطلب الوحيد لكي تكون دولة ما مسيحية هو ان تكون عقلانية، وفي هذه الحال يكفي استنباط الدولة من وجود السمة العقلانية في العلاقات البشرية ، وهذا ما تعنى به الفلسفة . واما ان تكون دولة الحرية وفق العقل لا يمكن ان تستنبط من المسيحية وعندئذ يكون عليك الاقرار بأن هذا التطور لا يلائم الاتجاه المسيحي ، لان هذا لا يستطيع ان يقبل بدولة سيئة وان دولة ليست تحقيقا للحرية وفق العقل هي دولة سيئة .

يمكنك ان تأتي الى هذه المعضلة بالجواب الذي تشاء : عليك التسليم بأن الدولة لا ينبغي ان تبنى انطلاقا من الدين ، بل انطلاقا من السمة العقلانية للحرية . ليس الا الجهل المطبق وحده هو الذي يستطيع ان يزعم ان نظرية السمة المستقلة هذه التي يرتديها مفهوم الدولة هي نزوة مفاجئة للفلسفات الحديثة .

ان الفلسفة لم تفعل في الميدان السياسي شيئا غير ما فعلته الفيزياء، الرياضيات، الطب ، كل منها في ميدانه الخاص . لقد أعلن فرنسيس بيكون ان الفيزياء اللاهوتية كانت عذراء منذورة لله ، وعاقرا : حرر الفيزياء من اللاهوت فصارت مخصبة (١) . وكما أنك لا تسأل الطبيب عما اذا كان مؤمنا ، كذلك لا ينبغي لك ان تسأل عن ذلك في السياسة . في الفترة التي سبقت وتلت الاكتشاف الكبير الذي جاء به كوبرنيك حول المنظومة الشمسية الحقيقية ، اكتشف كذلك قانون جاذبية الدولة ؛ وجدوا مركز ثقلها في ذاتها ، وسعت مختلف الحكومات الاوروبية الى تطبيق هذا الاكتشاف، بافتقار الى العمق تتصف به كل ممارسة أولى ، في منظومة توازن السلطات ، كذلك فان مكيافيلي وكانبانيلا اولا ، وفيما بعد هوبس ، سبينوزا ، هيغوغروتيوس ، حتى روسو ، فيخته ، هيغل شرعوا ينظرون الى الدولة بعيون بشرية ويستنبطون قوانينها الطبيعية من العقل والتجربة ، لا من اللاهوت ، تماما مثل كوبرنيك الذي صرف النظر عما فعله يوشع عندما أمر الشمس ان تقف فوق جبعة والقمر فوق وادي عجلون . ان الفلسفة الحديثة لم تقم سوى بمتابعة العمل الذي كان هيرقليطس وارسطو قد شرعا به . اذن فأنت لا تحمل على عقل الفلسفة الحديثة ، بل تحمل على فلسفة العقل الجديدة دائما . يقينا ان الجهل الذي جعل «الصحيفة الرينانية» او «صحيفة كونيغسبرغ» تكتشفان للمرة الاولى ، ربما أمس ، او أول أمس ، الافكار القديمة جدا حول الدولة ، هذا الجهل يعتبر أفكار التاريخ نزوات مباغتة لافراد منعزلين ، لانها جديدة بالنسبة اليهما ووصلت اليهما بين ليلة وضحاها ؛ وان هذا الجهل ينسى انه

---

١ ـ انظر المقطع : «... ان البحث عن الاسباب النهائية عقيم ، ولا يولد شيئا ، مثل عذراء نذرت لله» ، فرنسيس بيكون : «في عظمة وتقدم العلوم» ، طبعة فيرسبورغ ، ٧٧٩ ، المجلد ١ ، ص ٢٥٢ .

يقوم بالدور القديم لدكتور السوربون الذي كان يرى ان من واجبه ان يتهم مونتسكيو علانية ، لانه كان على خفة في اعلانه ان الصفة المدنية السامية هي الفضيلة السياسية وليس الفضيلة الدينية ؛ وينسى ايضا انه يقوم بدور يواكيم لانجه الذي هاجم فولف بحجة ان مذهبه في القدر المسبق يؤدي الى فرار الجنود من الجيش ، وبالتالي الى وهن الانضباط العسكري وفي النهاية الى انحلال الدولة ؛ وينسى اخيرا ان القانون المدني البروسي قد خرج من مدرسة هذا «الذئب» (١) الفلسفية بالضبط ومن مدونة نابوليون لا من العهد القديم ، من أفكار فولتير ، روسو ، كوندورسيه ، ميرابو ، مونتسكيو ومن الثورة الفرنسية . ان الجهل شيطان ؛ وثمة خشية في ان يمثل ايضا مآسي عديدة ، وان اكبر شعراء اليونان مصيبون عندما مثلوا الجهل في المآسي الراعبة للعائلات الملكية في مدينتي مسينا وطيبه تحت عنوان القدر المأساوي .

لكن اذا كان أساتذة الحقوق الدستورية القدامى قد أقاموا الدولة انطلاقا من الغرائز ، اما من الطموح او الاجتماعية (الميل الى الحياة في مجتمع) ، او بالتأكيد انطلاقا من العقل ، لكن ليس العقل الاجتماعي ، بل انطلاقا من عقل الفرد : ان المفهوم الفلسفي الحديث ، الاكثر عمقا ، يستنبط الدولة من فكرة الكل . انه يعتبر الدولة بمثابة الجهاز الكبير الذي ينبغي ان تتحقق فيه الحريات القانونية ، الاخلاقية والسياسية ، وفيه يطيع كل مواطن ، باطاعته قوانين الدولة ، القوانين الطبيعية لعقله الخاص ، للعقل البشري . وهذا يكفي العاقل .

خلاصة القول، اننا نتوجه مرة اخرى الى «صحيفة كولونيا» بكلمة وداع فلسفية. كان من المعقول لها ان تتمسك بليبرالي «غابر» . من الممكن للمرء ان يكون ليبراليا ورجعيا على نحو مريح ؛ يكفي ان يكون على قدر من المهارة بحيث يتوجه دائما الى ليبراليي الماضي القريب الذين لا يعرفون معضلة اخرى سوى معضلة فيدوك «السجين او السجان» . وكان اكثر حكمة أيضا ان يناضل ليبرالي الماضي القريب ضد ليبرالي اليوم . بدون احزاب [متصارعة] ليس من تطور ، بدون انقسام ليس من تقدم . نأمل ان تدشن افتتاحية العدد ١٧٩ من «صحيفة كولونيا» عهدا جديداً ، عهد الشخصية المتميزة .

---

١ ــ ذئب : في الالمانية Wolf . لعب كلامي حول اسم الفيلسوف فولف .

٣ .

كارل ماركس

# نقد فلسفة الحقوق عند هيغل(*)

## مقدمـة

في ما يتعلق بالمانيا ، لقد انتهى ، من حيث الاساس ، نقد الدين ، ونقد الدين هو الشرط الممهد لكل نقد .

ان الوجود **الدنيوي** للخطأ غدا مشكوكا فيه ، منذ ان اصبح دفاعه السماوي عن ذاته مفندا . فالانسان الذي لم يجد في واقع السماء الوهمي ، حيث كان يبحث عن الانسان الاعلى (السوبرمان) ، الا انعكاسا او صورة لذاته ، لن يكتفي بعد ذلـك بأن لا يجد سوى مظهر ذاته وحسب ، سوى اللاانسان ، وانما يبحث هنا؛ وعليه ان يبحث بالضرورة ، عن حقيقته الواقعة .

ان اساس النقد غير الديني هو : **ان الانسان يصنع الدين ،** وليس الدين هو الذي يصنع الانسان . يقينا ، ان الدين هو وعي الذات والشعور بالذات لدى الانسان الذي لم يجد بعد ذاته ، او الذي فقدها . لكن **الانسان ليس** كائنا مجردا جاثما في مكان ما خارج العالم . الانسان هو **عالم الانسان** ، الدولة ، المجتمع . وهذه الدولة وهـذا المجتمع ينتجان الدين ، **الوعي المقلوب للعالم ،** لانهما بالذات عالم مقلوب . الدين هـو النظرية العامة لهذا العالم ، خلاصته الموسوعية ، منطقه في صيغته الشعبية ، موضع اعتزازه الروحوي ، حماسته ، تكريسه الاخلاقي ، تكملته الاحتفالية ، عزاؤه وتبريره الشاملان . انه **التحقيق الوهمي** للكائن الانساني ، لان **الكائن الانساني** لا يملك واقعا حقيقيا . اذن فالصراع ضد الدين هو بصورة غير مباشرة صراع ضد ذاك العالم الذي يؤلف الدين **نكهته** الروحية .

---

★ كتبت في أواخر عام ١٨٤٣ وكانون الثاني ١٨٤٤ ونشرت في «الحوليات الفرنسية — الالمانية» (الكراسين الاول والثاني) باريس ١٨٤٤ . وننشرهـا هنا عن «المؤلفات» ، ماركس وانجلس ، المجلد ١ ، برلين ١٩٥٨ ، ص ٣٧٨ — ٣٩١ .

ان التعاسة الدينية هي ، في شطر منها ، **تعبير** عن التعاسة الواقعية ، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية . الدين زفرة المخلوق المضطهد ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح . انه أفيون الشعب .

إن الغاء الدين ، من حيث هو سعادة وهمية للشعب ، هو ما يتطلبه صنع سعادته الفعلية . ان تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو تطلب التخلي عن وضع بحاجة الى وهم . فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا .

لقد نزع النقد عن السلاسل الزهور الوهمية التي كانت تغطيها ، لا لكي يحمّل الانسان قيودا غير مزخرفة ، موئسة ، بل ليقذف بالسلاسل بعيدا ويقطف الزهور الحية . ان نقد الدين يدمر اوهام الانسان ، لكي يفكر ، يفعل ، يكيف واقعه بصفته انسانا تخلص من الاوهام وبلغ سن الرشد ، لكي يدور حول نفسه ، أي حول شمسه الواقعية . فالدين شمس وهمية تدور حول الانسان ما دام الانسان لا يدور حول نفسه .

ان **مهمة التاريخ** اذن ، بعد زوال عالم ما وراء الحقيقة ، هي أن يقيم حقيقة هذا العالم . تلك هي بالدرجة الاولى مهمة الفلسفة ، التي تخدم التاريخ وذلك بعد أن يجري فضح الشكل المقدس للاستلاب الذاتي للانسان وينزع القناع عن الاستلاب الذاتي في **أشكاله غير المقدسة** . وبذلك يتحول نقد السماء الى نقد الارض، **نقد الدين الى نقد الحقوق ونقد اللاهوت الى نقد السياسة .**

ان ما نبسطه الآن (١) ، وهو اسهام في هذا العمل ، يستهدف بادىء بدء بالنقد لا الاصلي بل نسخة ما ، هي الفلسفة الالمانية في الدولة والحقوق ، وذلك بسبب وحيد ، وهو انه يتعلق بألمانيا .

لو اردنا الانطلاق من واقع الامر القائم ، الراهن الالماني ذاته ، بل لو فعلنا ذلك بالطريقة الوحيدة الملائمة ، أي برفض ذلك الواقع ، فالنتيجة تظل مفارقة تاريخية دوما . حتى انكار ورفض وضعنا السياسي الحالي يصبح مندرجا في غرفة مهملات الشعوب العصرية ، بشكل واقعة قديمة مهجورة . فان أنا انكرت الشعور المستعارة المطلية بالمساحيق ، تظل امامنا الشعور المستعارة غير المطلية . فان أنكرت وضع المانيا عام ١٨٤٣ ، وجدت نفسي ، حسب التقويم الفرنسي ، في سنة ١٧٨٩ بالكاد ، بل أجد نفسي أبعد من ذلك عن مركز او قلب الراهنية .

نعم ، ان التاريخ الالماني يتبجح بتطور لم يحتذِ تطور اي شعب في ميدان التاريخ، ولن يحتذيه اي شعب آخر . لقد تقاسمنا فعلا أوضاع عودة بعض العهود الرجعية

---

١ ــ يقصد ماركس ، بذلك ، مؤلفه الواسع جدا «نقد فلسفة **الحقوق** عند هيغل» . وقد نشرت المخطوطة غير الناجزة لهذا العمل في : كارل ماركس ــ فريدريك انجلس «المؤلفات» (المجلد الاول ــ برلين ــ ١٩٥٨ ــ ص ٢٠١ ــ ٣٣٣) .

الى السلطة شهدتها الشعوب العصرية ، ولكن دون أن نشاطرها ثوراتها . لقد عرفنا تلك العهود أولا لان شعوبا اخرى تجرأت على القيام بثورة ، وثانيا لان شعوبا اخرى عانت ردات مضادة للثورة . عرفنا ذلك في المرة الاولى لان سادتنا تملكهم الخوف ، والمرة الثانية لان سادتنا لم يحسوا الخوف . ونحن — ورعاتنا فوق رؤوسنا — لم نرافق الحرية الا في مناسبة واحدة : **في يوم دفنها** .

توجد مدرسة تسوّغ حقارات اليوم استنادا الى حقارات الامس . مدرسة **تصم** بالتمرد كل صرخات القن ضد السوط منذ ان كان السوط سوطا . مثقلا بالسنين ، وراثيا وتاريخيا ، مدرسة لا يكشف لها التاريخ الا افكاره اللاحقة . شأن اله اسرائيل حيال خادمه موسى ، انها المدرسة التاريخية **للحقوق** (١) . لقد اخترعت اذن التاريخ الالماني ان لم نقل انها هي ذاتها اختراع هذا التاريخ . انها شيلوخ . لكن شيلوخ الخادم ، الذي يعتنق هذا الايمان . ويقسم على مظاهره . وعلى مظهره التاريخي ، ومظهره الجرماني — المسيحي : لدى كل قطعة من اللحم ينتزعها هذا الشيلوخ من قلب الشعب .

وثمة ، على عكس ذلك . متحمسون سذج ، محبون لاصولهم التيوتونية بالوراثة ، متحررون وليبراليون بالتفكير . يذهبون للبحث عن تاريخ حريتنا فيما وراء تاريخنا ، في الغابات التيوتونية البكر . لكن ما الشيء الذي يميز تاريخ حريتنا من حرية الخنزير البري اذا كنا لا نجدها الا في الغابات ؟ وفضلا عن ذلك . فمن المعروف جيدا ان الصدى يردد الصيحات التي تتعالى في الغابة . اذن دعوا في سلام الغابات التيوتونية البكر !

فلنعلن حربا على الاوضاع الالمانية ! فهي دون مستوى التاريخ ، دون مستوى اي نقد ، ولكنها تبقى موضوع نقد ، كالمجرم الذي هو دون مستوى الانسانية ، ولكنه مع ذلك يبقى موضوع اهتمامات الجلاد . في الصراع ضد هذا الوضع ليس النقد هوى مصدره الراس ، بل هو راس الهوى . ليس مبضعا للتشريح ، بل سلاح ، وهدفه هو عدوه ، وهو لا يبتغي دحض هذا العدو بل ابادته . اذ ان فكر هذا الوضع قد سبق دحضه . وهو في حد ذاته لم يبق موضوعا يجدر التفكير فيه ، انما هو **وجود** جدير بالاحتقار بمقدار ما هو محتقر فعلا . فالنقد ، في ذاته ، لا يحتاج الى ان يكون منسجما انسجاما عميقا مع هذا الموضوع ، لان علاقاته معه قد جرى ايضاحها وصفي حسابها . فهو لم يبق **غاية في ذاته** ، بل غدا وسيلة فقط ، والشعور الاساسي الذي يحركه هو النقمة والسخط ، ومهمته الاساسية هي الفضح .

فالمطلوب وصف ضغط شديد متبادل بين كل القطاعات الاجتماعية ، استياء عام سلبي ، ضيق في الفكر مدع وبلا صحو في آن معا ، كل ذلك يقع في اطار نظام حكم

---

١ — المدرسة التاريخية للحقوق كانت مدرسة رجعية لفقه الحقوق الالماني ، وكان اهم ممثل لها الحقوقي فريدريك كارل فون سافيني (١٧٧٩ — ١٨٦١) .

هو الحقارة وقد اصبحت **حكما** ، **لانه يعيش** من المحافظة على كل الحقارات .

يا له من مشهد ! ان التقسيم اللامتناهي للمجتمع الى كثرة من العناصر التي يعارض بعضها بعضا بكراهياتها السخيفة ، بوجدانها السيء ، بتفاهتها الفظة ، والتي يعاملها **اسيادها** ، بسبب الموقف الملتبس والمتشكك لكل عنصر ازاء الآخر ، على انها موجودات موهوبة ، معاملة واحدة بلا تمييز ، ولو انهم يلبسون هذه المعاملة اشكالا مختلفة . حتى واقع كون تلك العناصر **مسودة** ، محكومة ، مملوكة ، فانها مجبرة على اعتباره واعلانه **هبة من السماء** ! وفي الجهة الاخرى ، نجد هؤلاء الامراء انفسهم ، الذين تتناسب عظمتهم عكسا مع عددهم !

ان النقد الذي يستهدف مثل هذه الظروف هو نقد في خضم المعمعة . وليس المطلوب ، في هذه الحال ، معرفة ما اذا كان الخصم نبيلا ، أو كان ندا لك من حيث النسب ، أو كان ذا اهمية ، وانما المطلوب هو اصابته او اسقاطه . المطلوب الا يمنح الالمان لحظة واحدة من الوهم والخنوع والاستسلام وانما يجب جعل الاضطهاد الواقع اشد وطأة ، بأن نضيف اليه وعي الاضطهاد . يجب ان نجعل العار اشد شينا وقبحا بنشره على الملأ . يجب ان نصور كل قطاع من المجتمع الالماني على انه «الجزء المخزي» من هذا المجتمع ، يجب ارغام هذه الظروف المتحجرة على الرقص، بأن نغني لها لحنها ذاته ! يجب ان نعلم الشعب الذعر من نفسه كي نعطيه **الشجاعة** . ذلك سيكون ارواء حاجة ضرورية ملحة بالنسبة للشعب الالماني ، وحاجات الشعوب هي في حد ذاتها علة اروائها الاخيرة .

والكفاح ضد المحتوى المحدود وقصر النظر للوضع الالماني القائم لا يمكن ان يكون عديم الفائدة بالنسبة للشعوب **العصرية** ، لان الوضع الالماني القائم هو **التحقيق المعلن للنظام القديم ، والنظام القديم هو النقيصة المخفية للدولة العصرية .** ان الكفاح ضد الوضع السياسي الحاضر في المانيا ، هو الصراع ضد ماضي الشعوب العصرية ، علما بأن ذكريات ذاك الماضي تنغصها على الدوام . ومن العبر المفيدة لهذه الشعوب ان ترى ذلك النظام القديم ، التي عرفت مأساته ، يظهر ثانية في المانيا ، ويقوم بمهزلته فيها . لقد كان تاريخه **تراجيديا** طالما كان هو سلطة هذا العالم الموجودة اصلا ، في حين ان الحرية كانت فكرة شخصية ، وباختصار : طالما كان ذلك النظام مؤمنا بوجوده ، ومضطرا الى الايمان بمشروعيته . طالما كان النظام القديم ، بصفته نظام العالم الموجود ، يكافح ضد عالم لم يكن الا في صيرورة ، فانه كان يمثل خطأ تاريخيا كونيا وليس خطأ شخصيا . لذا فان سقوطه كان تراجيديا .

وبالمقابل ، فالنظام الالماني الحالي ، الذي فات أوانه ، المتناقض تناقضا صارخا مع كل البديهيات المعترف بها عالميا ، الذي يعرض معدومية النظام القديم على مرأى من العالم ، يتصور فحسب انه يؤمن بنفسه ، ويتطلب من العالم ان يقاسمه هذا الوهم . لو انه يؤمن بكيانه أو وجوده الخاص ، اكان يحاول اخفاءه وراء **مظهر** كائن غريب ، اكان يبحث عن خلاصه في الرياء والسفسطة ؟ ان النظام **القديم** المعاصر لم يعد الا الممثل الهزلي لنظام سياسي مات ابطاله الحقيقيون . ان التاريخ يصنع الاشياء الى النهاية ، فهو يمر بمراحل عديدة عندما يحمل للدفن شكلا باليا . ان المرحلة

القصوى لشكل تخطاه التاريخ العالمي هي مهزلته او مسخرته . ان آلهة اليونان الذين أصيبوا بجراح مميتة بصورة مأساوية في مسرحية اسخيلوس «بروميثيوس المكبل» ، عادوا هذه المرة فماتوا موتا هزليا في محاورات «لوقيانوس» . لماذا كان سياق التاريخ هكذا ؟ لكي تفصل الانسانية نفسها بمرح عن ماضيها . ان وظيفة المرح التاريخية هذه هي التي نطالب بها قوى المانيا السياسية .

ولكن ما ان توضع الحقيقة الواقعة السياسية ـ الاجتماعية العصرية موضع النقد ، وعموما ما ان يرتفع النقد الى معضلات انسانية حقا ، **حتى** يجد نفسه خارج **الوضع الالماني القائم** ، وإلا سيكون عليه البحث عن موضوعه تحت او **دون** موضوعه بالذات . مثلا : ان العلاقات بين الصناعة ، وبصورة عامة عالم الثروة ، وبين السياسة ، هي معضلة اساسية من معضلات العصر الحديث . فبأي شكل اخذت هذه المعضلة تشغل بال الالمان ؟ بشكل الاتجاه الى الحماية الجمركية و«نظام المنع» ، **والاقتصاد القومي** . ان النزعة «التيوتونية الجرمانية» أهملت الانسان لتعنى بالمادة، وهكذا استفاق اصحابنا الالمان فرسان القطن وأبطال الحديد ذات صباح **وقد تحولوا** الى وطنيين . اذن لقد بدأ ، في المانيا ، الاعتراف بسيادة الاحتكار في الداخل ، بعد ان تم له الاعتراف بذلك في **الخارج**. وها نحن أولاء في المانيا في طريقنا لانبدأ من هنا ، من النقطة التي شرعت فرنسا وانكلترا تتجاوزها . ان الظروف الشائخة ، النخرة ، التي يتمرد عليها على الصعيد النظري هذان البلدان ، ولم يعودا يتحملانها الا كما يتحمل الشخص قيودا ـ تلك الظروف هي التي رحّب بها في المانيا بوصفها الفجر الوضاء لمستقبل جميل يتجاسر بالكاد على الانتقال من النظرية الشاطرة ★ الى الممارسة الاشد عنادا . وفي حين ان البديل المطروح في فرنسا وبريطانيا هو : **اقتصاد سياسي ام سيطرة المجتمع على الثروة** ، نجده في المانيا : **اقتصاد قومي ام هيمنة الملكية الخاصة على القومية** . اذن فهم في فرنسا وانكلترا ازاء الغاء الاحتكار الذي وصل الى نهاية محصلاته القصوى . اما في المانيا فالمسألة هي الذهاب الى محصلات الاحتكار القصوى . هناك هم بازاء ايجاد الحل ، هنا أزاء استثارة التصادم باديء بدء . وهذا هو مثال كاف على الصيغة الالمانية للمشاكل المعاصرة ؛ ويبين هذا المثال كيف ان تاريخنا ، الشبيه بمجند جديد اخرق ، لم تكن مهمته سوى تكرار القيام بعد الآخرين بتمارين تاريخية أخرى مطروقة .

اذن ، اذا كان التطور الالماني في **جُماعه** لا يتجاوز مستوى تطور المانيا **السياسي** ، فليس في وسع الالماني ان يتدخل على الاكثر في المسائل الراهنة الا كما يتدخل **روسي** . لكن اذا لم يكن الفرد مرتبطا بحدود الامة في **جُماعها** هي ايضا أقل

---

★ astucieux في الالمانية listig ; ، لعب بالكلمات حول اسم فريديريك ليست List, واشارة الى تحريضه الحمائي . فريدريك ليست (١٧٨٩ ـ ١٨٤٦) : اقتصادي ونصير الحمائية ، منظّر البورجوازية الصاعدة في المانيا قبل ١٨٤٨ ، داعية الاتحاد الجمركي (تزولفرين) الذي ستفيد منه بروسيا.

تحررا بكثير لأن فردا ما قد تحرر. ليس لان اليونان تضم سيتيا من بين **فلاسفتها** (١) سار السيتيون خطوة الى الامام نحو الثقافة اليونانية .

لحسن الحظ ، لسنا ، نحن الالمان ، سيتيين .

وكما ان الشعوب القديمة عاشت ما قبل تاريخها في **تخيلات في الميثولوجيا**، كذلك نحن الالمان قد عشنا تاريخنا المقبل في الفكر ، في **الفلسفة** . فنحن ، على الصعيد الفلسفي ، معاصرون للراهن ، من دون ان نكون معاصريه **تاريخيا** . ان الفلسفة الالمانية هي **الامتداد الفكراني** للتاريخ الالماني . اذن فلو عمدنا الى نقد المؤلفات البعدية لتاريخنا الفكراني ، اي **للفلسفة** ، بدلا من نقد المؤلفات الناقصة لتاريخنا الواقعي ، لاصاب هذا النقد مركز المعضلات التي يعتبرها الراهن المسألة الحقة . ان ما يكون عند الشعوب المتقدمة تعبيرا عن صراع **عملي** مع الوضع السياسي العصري، وهو وضع لم يتوفر بعد في المانيا ، ليس في هذا البلد سوى نزاع انتقادي مع الانعكاس الفلسفي لوضع كهذا .

ان **الفلسفة الالمانية** للحقوق والدولة هي التاريخ الالماني الوحيد الذي يمكن اعتباره في مستوى الراهنية المعاصرة **الرسمية** . وهكذا فالشعب الالماني مقود الى ربط هذا التاريخ الخيالي بالوضع الواقعي الذي يعانيه اليوم، والى تسليط النقد لا ضد هذا الوضع القائم فحسب، بل ضد امتداده التجريدي ايضا. ان مستقبله لا يمكن ان يقتصر على النفي المباشر للشروط السياسية والقانونية التي يعيشها حقا ، ولا على التحقيق المباشر لتلك الشروط التي يفكر بها ، وذلك لان الاخيرة توجب النفي المباشر لشروط حياته الواقعية ؛ اما بالنسبة للتحقيق المباشر للشروط التي يفكر بها ، فانه يتخطى منذ الان تقريبا تحقيق شرطه الفكراني في تأمل الشعوب المجاورة . لذا فان الحزب السياسي **العملي** في المانيا على حق عندما يطلب **نفي الفلسفة** . ان خطأه لا يكمن في هذا المطلب ، بل يكمن في التمسك بمطلب لا يحققه ولا يستطيع ان يحققه جديا . وهو يتصور انه يحقق هذا النفي حين يشيح بوجهه **عن الفلسفة ، ملقيا نحوها** بازدراء ببعض العبارات الغاضبة ، المبتذلة . ان ضيق الافق التاريخي لهذا الحزب هو الذي يفسر لنا لماذا لا يعتبر ان الفلسفة تشكل جزءا من الواقع **الالماني** . ولذلك ايضا يضع الحزب العملي الالماني المذكور الفلسفة **تحت** او **دون** الممارسة الالمانية والنظريات التي تستعملها . انكم تريدون الانطلاق من بذور **واقعية وحية** ، ولكنكم تنسون ان بذرة الحياة الواقعية عند الشعب الالماني لم تفرّخ حتى الان الا في دماغه . باختصار : **انكم لا تستطيعون ان تلغوا الفلسفة** ما لم **تحققوها** .

الخطأ نفسه ، ولكن مع عوامل معكوسة هذه المرة ، ارتكبه الحزب السياسي **النظري** ، التي كانت الفلسفة نقطة انطلاقه .

---

١ ــ المقصود هو الفيلسوف «أناشارسيس» ، وهو سيتي من اصل اميري المولد ، الذي ، بشهادة ديوجين ، اعتبره الاغريق واحدا من حكمائهم السبعة .

في الصراع الحاضر ، لم ير هذا الحزب سوى **صراع الفلسفة النقدي ضد العالم الالماني** . ولم يحترس من كون الفلسفة ، التي عرفناها حتى الان ، تنتمي هي ايضا الى هذا العالم ، وانها ، ولو بشكل ايديولوجي ، تكملة له . لقد التزم هذا الحزب موقفا نقديا ازاء خصمه ، ولكنه لم يلتزم ذلك الموقف ازاء نفسه انطلاقا من نفس الفرضيات الفلسفية ، تمسكا بالنتائج التي اكتسبتها الفلسفة او مقدما متطلبات ونتائج استقاها من مكان آخر على انها نتائج الفلسفة ومطالبها المباشرة . في حين لا يمكن الحصول على هذه ، حتى اذا سلمنا بأنها تستند الى اسس صحيحة ، الا بنفي الفلسفة كما كانت حتى الان ، اي الفلسفة كفلسفة . ونحن نحتفظ بحقنا في ان نقدم وصفا اكثر دقة لهذا الحزب . ويمكن تلخيص خطأه الاساسي على النحو التالي: **لقد ظن انه يستطيع تحقيق الفلسفة دون ان يلغيها.**

ان نقد **الفلسفة الالمانية حول الدولة والحقوق** ، الذي قدم هيغل أشده تماسكا ومنطقية وسموا وغنى ، هو في نفس الوقت التحليل النقدي للدولة العصرية وللواقع المرتبط بها ، النفي الحازم لكل نمط سابق من **الوعي السياسي والحقوقي الالماني** ، الوعي الذي تؤلف فلسفة الحقوق التأملية ارفع واشمل تعبير عنه ، تعبير بلغ مستوى العلم . ففي المانيا فقط كان ممكنا ان تولد فلسفة **الحق** التأملية ، هذا الاسلوب المجرد والمتعالي في التفكير حول الدولة العصرية التي يظل واقعها ما ورائيا (حتى وان كان ذاك الماوراء يقع فقط ما وراء نهر الرين) . وبعكس ذلك فان الايديولوجيا **الالمانية** للدولة العصرية ، التي تغفل **الانسان الواقعي**، لم تكن ممكنة الا بقدر ما تغفل الدولة العصرية بالذات **انسان الواقع** ، او لا ترضي الانسان الكلي الا بصورة وهمية. في السياسة ، **فكر** الالمان ما **فعلته** الشعوب الاخرى . لقد كانت **المانيا** وعيهم **المعنوي النظري** . ان التجريد وتعالي الفكر المُناف قد سارا دائما جنبا الى جنب مع ضيق افق الواقع الالماني وابتذاله . وأذا كان الوضع **القائم لنظام الدولة** الالماني يعبر جيدا عن النظام القديم في اكتماله ـ وهو الشوكة المغروسة في اعمق أعماق جسم الدولة العصرية ـ فان **الوضع القائم** لعلم الدولة الالماني يعبر عن الدولة العصرية في عدم اكتمالها : يعبر عن تعفن الجسم ذاته .

ان نقد الفلسفة التأملية للحقوق ، ولو بمجرد كونها من حيث طبيعتها خصما لدودا لنمط الوعي السياسي الالماني السالف ، لا يبحث في ذاته عن غرضه هو ذاته، بل انه يفضي الى مهمات لا حل لها الا وسيلة واحدة : **الممارسة** .

حينئذ ينطرح هذا السؤال : هل تستطيع المانيا التوصل الى ممارسة على ارتفاع المبادىء ، اي الى ثورة لا ترفع المانيا الى **المستوى الرسمي** للشعوب العصرية وحسب، بل ايضا الى **المستوى الانساني العالي** ، الذي سيكون مستقبل هذه الشعوب المباشر؟

على الارجح ، ان سلاح النقد لا يمكن ان يحل محل نقد السلاح ، القوة المادية لا يمكن القضاء عليها الا بالقوة المادية ، لكن النظرية تغدو هي ايضا قوة مادية حين تستحوذ على الجماهير . تكون النظرية قادرة على الاستحواذ على الجماهير عندما تقيم براهينها على مثال الانسان ad hominem ، وهي تقوم بعمليات برهنة على

مثال الانسان حالما تصير جذرية . والجذري هو امساك الاشياء من جذورها . لكن الجذر بالنسبة للانسان هو الانسان ذاته . ان البرهان الجلي على جذرية النظرية الالمانية ، وبالتالي على حيويتها العملية ، هو انها تتخذ كنقطة انطلاق الالغاء الحازم **والايجابي** للدين . ان نقد الدين يؤول الى هذا التعليم : **ان الانسان هو الكائن الاسمى بالنسبة للانسان** ، اي الى **الامر القطعي** ، امر الاطاحة بجميع العلاقات الاجتماعية التي تجعل من الانسان كائنا مهانا ، مستعبَدا ، مخذولا ، محتقرا ، علاقات لا يمكن وسمها بأفضل من هتاف فرنسي بمناسبة مشروع فرض رسم على الكلاب : « يا للكلاب المسكينة ! انهم يريدون معاملتكم كما يعامل البشر ! »

حتى تاريخيا ، فان للانعتاق النظري بالنسبة لالمانيا مدلولا عمليا بنوع خاص. ان ماضي المانيا **الثوري** هو في الواقع نظري ، انه الاصلاح الديني [البروتستانتي] la Reforme . وكما بدات الثورة في الماضي في دماغ **الراهب** ، تبدأ الان في دماغ الفيلسوف .

ان لوثر قد انتصر ، على الارجح ، على العبودية عن **تقى** بتعويضها بعبودية عن **اقتناع** . لقد حطم الايمان بالسلطة بترميمه سلطة الايمان .

لقد حول رجال الاكليروس الى علمانيين بتحويله العلمانيين الى رجال اكليروس. حرر الانسان من الورع الديني الخارجي جاعلا من الورع الديني وعيا للانسان . حرر الجسد من اغلاله محملا القلب اعباءها :

لكن اذا لم تكن البروتستانتية الحل الصحيح ، الا انها كانت الطريقة الصحيحة لطرح القضية . منذ ذلك الحين لم نعد ازاء كفاح العلماني ضد **الكاهن** ، **الخارجي عنه** ، بل الكفاح ضد **كاهنه الصميمي هو ذاته** ، ضد طبيعته الاكليركية هو نفسه . وكما ان استحالة تحول العلمانيين الالمان الى رجال دين ــ وهو ما فعلته البروتستانتية ــ قد حرر أولئك البابوات العلمانيين ، **الامراء** ، مع كل اكليروسهم المؤلف من اصحاب امتيازات وجهولين ، كذلك فان استحالة الالمان المكهَّنين **cléricalisés** ، بواسطة الفلسفة ، الى بشر سوف يحرر **الشعب** . لكن كما ان **الانعتاق** لم يقتصر على الامراء ، فان دَنيَوة الاموال والممتلكات لن يتوقف عند نهب الكنيسة ، الذي مارسته بروسيا المنافقة بالدرجة الاولى . في ذلك العهد ، اخفقت حرب الفلاحين ، الواقع الاكثر جذرية في تاريخ المانيا ، امام عقبة اللاهوت . واليوم بعد ان أخفق اللاهوت بالذات ، فان الواقع الاقل حرية في تاريخنا الالماني ، وهو **وضعنا القائم** ، سوف يتحطم على [صخرة] الفلسفة . عشية الاصلاح الديني ، كانت المانيا الرسمية اطوع خادم لروما . وعشية ثورتها اصبحت الخادم الاكثر خضوعا لمن هم أقل بكثير من روما ، انها خادم لبروسيا والنمسا ، خادم الاقطاعيين والجهولين.

مع ذلك ، يبدو ان ثمة صعوبة اساسية تقطع الطريق على ثورة المانية جذرية .

الواقع ان الثورات تحتاج الى عنصر **سلبي** ، الى **قاعدة مادية** . ان النظرية لا تتحقق ابدا في شعب ما الا بقدر ما تكون التحقيق العملي لحاجاته . هذه الهوة الهائلة ، التي تفصل ما بين متطلبات الفكر الالماني والاجابات التي يقدمها له الواقع

الالماني ، هل تؤدي الى طلاق المجتمع المدني من الدولة ومن ذاته ؟ الحاجات النظرية المباشرة هل ستكون حاجات عملية ؟ لا يكفي ان ينزع الفكر الى التحقق ، بل يجب ايضا ان ينزع الواقع الى أن يغدو فكرا .

والحال ان المانيا لم تصعد مع الشعوب العصرية درجات الرقي الوسيطة للتحرر السياسي . بل ان الدرجات التي ارتقتها نظريا لم تصل اليها بعد من ناحية التطبيق العملي . فكيف يمكنها أن تتجاوز بقفزة واحدة خطرة لا حواجزها الخاصة فقط ، بل ايضا تلك الحواجز التي تعيق الشعوب العصرية ، الحواجز التي يتحتم ان تبدو لها في الواقع كتحرر من حواجزها الفعلية ، والذي ينبغي لها ان تجهد لكسبه . ان ثورة جذرية لا يمكن ان تكون الا ثورة حاجات جذرية ينقصها كما هو واضح الشروط الممهدة والارضية المؤاتية .

لكن اذا كانت المانيا قد اقتصرت على مرافقة تطور الشعوب العصرية بالنشاط التجريدي لفكرها دون الاسهام الفعلي في المعارك الواقعية التي وسمت ذلك التطور، الا انها شاطرتها آلامه دون ان تشاطرها بهجته . أن النشاط التجريدي في جهة يناظره الالم المجرد في الجهة الاخرى . لذلك سوف تجد المانيا نفسها يوما في دائرة الانحطاط الاوروبي ، قبل ان تكون قد بلغت مستوى التحرر الاوروبي . ويمكن تشبيهها **بوثني** تنخره امراض المسيحية .

اذا تأملنا بادىء بدء **الحكومات الالمانية** ، وجدنا ان ظروف المانيا ووضعها وحالة الثقافة الالمانية واخيرا فطرة حسنة الطالع قد دفعت تلك الحكومات الى مزج **النقائص المتمدنة** لانماط **الدول العصرية** ، التي لا نتمتع بمزاياها وحسناتها ، **بالنقائص البربرية للنظام القديم** ، الذي نتمتع به تمتعا تاما ؛ بحيث لا بد لالمانيا من ان تشارك اكثر فأكثر ، ان لم يكن في عقل ، فعلى الاقل في لاعقل الاشكال الدولوية التي يتخطى وضعها الخاص . هل يوجد مثلا بلد آخر في العالم ، سوى المانيا المسماة بالدستورية ، يشاطر بهذا القدر من السذاجة أوهام النظام الدستوري كلها دون ان يشاطر حقائقه الواقعة ؟ او بالاحرى ، أليس من المؤكد انه لقية لحكومة المانية هذا الجمع بين تنكيل الرقابة وتنكيل قوانين ايلول الفرنسية (١) ، التي تفترض الوجود المسبق لحرية الصحافة ؟ فكما نجد في «البانتيون» الروماني آلهة جميع الامم، كذلك نجد في الامبراطورية الجرمانية **نقائص** سائر أشكال الحكم . وهذه الانتقائية سوف تبلغ مستوى لم يخطر بعد ببال : انها الشراهة السياسية ـ الجمالية لملك الماني (٢)،

---

١ ـ لقد تذرعت حكومة «تيير» في عهد لويس فيليب بالمحاولة التي جرت لاغتيال الملك في ٢٨ تموز ، فقدمت الى المجلس النيابي في آب ١٨٣٥ مشاريع قوانين شديدة الرجعية ، جرى اقرارها في الشهر التالي ، وعرفت باسم «قوانين ايلول» . وقد اعطت للقضاء حق اختصار اجراءات المحاكمة في حالات التمرد والاستعانة بمحلفين تختارهم الحكومة وتحدد عددهم . وجرى ارهاب الصحافة بتهديدها بغرامات ضخمة وأثرت الرقابة بالنسبة للصور والرسوم على الاقل .

٢ ـ المقصود ملك بروسيا فريدريك غليوم الرابع .

هو ذاته الضامن لها ؛ فهذا الملك يحلم بأن يمثل كل أدوار الملكية ، اقطاعية او بيروقراطية ، مطلقة او دستورية ، ان لم يكن بواسطة الشعب ، فعلى الاقل بواسطة **ذاته الملكية** . ان المانيا ــ اي عورات الحقيقة الواقعة السياسية الحاضرة المتحولة الى عالم ــ لن تستطيع ان تتخلص من الحواجز الالمانية المميزة ، دون ان تقضي على الحاجز العام للحقيقة الواقعة السياسية الراهنة .

ليست الثورة **الجذرية** التي هي حلم طوبوي بالنسبة لالمانيا ، ليس التحرر الانساني الشامل ، بل على العكس انها الثورة الجزئية ، الثورة السياسية **فحسب**، الثورة التي تترك ركائز البناء قائمة . ما قاعدة ثورة جزئية ، سياسية **فحسب** ؟ انها التالية : جزء من **المجتمع المدني يتحرر** ويتوصل الى الهيمنة على **جماع** المجتمع؛ طبقة معينة تشرع ، أنطلاقا من **وضعها الخاص** ، في تحرير المجتمع تحريرا عاما . هذه الطبقة تحرر المجتمع كله ، لكن فقط عندما يكون المجتمع بأكمله في وضع تلك الطبقة ، ويملك بالتالي المال والثقافة ، او يستطيع الحصول عليها حسب مشيئته .

لا تستطيع اية طبقة في المجتمع المدني ان تلعب هذا الدور ، دون ان تثير في داخله وفي الجمهور لحظة حماسة ، لحظة تتآخى فيها مع المجتمع عموما وتذوب فيه؛ حينئذ تمتزج بالمجتمع ، فيشعر ويعترف بأنها **ممثله الكلي** ، ان مطالبها وحقوقها هي فعلا حقوق المجتمع نفسه ومطالبه ، انها رأس المجتمع وقلبه بالفعل . باسم الحقوق العامة للمجتمع فقط يمكن لطبقة مفردة ان تطالب بالهيمنة العامة . لاقتحام هذا الموقع المحرر عنوة ، وبالتالي من اجل التوصل الى أن تستثمر سياسيا كل دوائر المجتمع لصالحها الخاص ، لا تكفي الطاقة الثورية والشعور بقيمتها الفكرية . لكي تتوافق **ثورة شعب مع تحرر طبقة مفردة** من المجتمع المدني ، لكي تعتبر **احدى** الفئات الاجتماعية بمثابة فئة المجتمع بأكمله ، يجب ، على العكس من ذلك ، ان تتركز كل نقائص المجتمع في طبقة اخرى ، يجب ان تصبح فئة معينة موضع خزي شامل ، تجسيدا لعقبة شاملة ، ينبغي ان تشخص دائرة اجتماعية معينة **الجريمة المفضوحة** لكل المجتمع ، بحيث يبدو التحرر من هذه الدائرة كأنه تحرره الذاتي من كل قيد . لكي تكون احدى فئات المجتمع الفئة المحرِّرة **الممتازة** ينبغي ، على العكس ، ان تكون فئة اخرى ، بكل وضوح ، فئة مستعبِدة . ان السمة السلبية العامة للنبالة الفرنسية وللاكليروس الفرنسي كانت شرط السمة الايجابية العامة للطبقة التي كانت الاقرب اليها والمتعارضة معها : البورجوازية .

لكن تفتقر كل طبقة مفردة في المانيا لا الى الحصانة ، الضراوة ، الشجاعة ، الوقاحة فحسب التي يمكن ان تجعل منها الممثلة السلبية للمجتمع. لكن ينقص كل واحدة منها ايضا هذه الرحابة في الفكر التي تتيح لها أن تتمثل وتماثل ، وان موقتا ، روح الشعب ، هذه الجنيَّة التي تلهب القوة المادية وتحولها الى سلطة سياسية ، هذه الجسارة الثورية التي ترشق الخصم بهذا التحدي : **انا لست شيئا وينبغي ان**

**أصبح كل شيء** (١) . ان العنصر الرئيسي في الخلق والشرف الالمانيين ، لا عند الافراد فقط بل عند الطبقات ايضا ، هو ، بالعكس ، تلك **الانانية المتواضعة** التي تتباهى بضيقها وتتركها تستعمل ضدها . اذن فالعلاقات بين مختلف دوائر المجتمع الالماني ليست من طبيعة درامية ، بل ملحمية . ان كل دائرة منها تبدأ تعي ذاتها وتستقر الى جانب الاخريات بمطامحها الخاصة ، لا عندما تعاني ضغطا ، بل عندما تخلق الظروف ، ودون ان يكون لها اي تأثير في ذلك ، طبقة اجتماعية ادنى منها ، تستطيع ان تمارس الضغط عليها . حتى **ثقة الطبقة الوسطى الالمانية بنفسها ، على الصعيد الاخلاقي** ، لا تستند فقط الى انها تعي انها المثل الشامل للسطحية المجهولة لجميع الطبقات الاخرى . ليس الملوك الالمان وحدهم هم الذين يرتقون العرش في ظرف غير ملائم ، انما هي كل دوائر المجتمع المدني التي تشهد الهزيمة قبل ان تحتفل بانتصارها ، ترفع حواجزها الخاصة قبل تجاوز الحاجز الذي يوقفها ، يظهر كيانها في ضيق افقه قبل تمكنه من الظهور بعظمته ، بحيث انها تفوت على نفسها حتى فرصة تمثيل دورها الطبقي قبل ان توجد هذه الفرصة ، وبحيث انها تجد نفسها في صراع مع الطبقة الادنى منها حين تباشر الصراع مع الطبقة الاعلى منها . اذن فالامراء يجدون انفسهم في صراع مع الملكية ، البيروقراطية مع النبالة ، البورجوازية معهم جميعا ، في حين ان البروليتاري لا يلبث ان يبدأ الصراع ضد البورجوازي . ما تكاد الطبقة الوسطى (٢) تأخذ بفكرة الانعتاق حتى يكون تطور الشروط الاجتماعية وتقدم النظرية السياسية قد كشفا ان فكرة الانعتاق المزعومة قد انقضى عهدها ، او انها غدت موضع شك على الاقل .

في فرنسا ، يكفي ان يكون المرء شيئا ما لكي يريد ان يكون كل شيء . في المانيا، يجب الا يكون المرء شيئا لكي لا يكون عليه ان يتخلى عن كل شيء . في فرنسا ، يكون الانعتاق الجزئي قاعدة الانعتاق الشامل ، اما في المانيا فالتحرر الشامل **شرط لازم** للانعتاق الجزئي . في فرنسا ، نجد واقع التحرر على مراحل ، اما في المانيا فمن استحالته تولد الحرية الكلية . في فرنسا ، كل طبقة من طبقات الشعب هي **خيالية سياسية** ، فلا تعي بادىء بدء ذاتها كطبقة خاصة مفردة ، بل كممثلة للحاجات الاجتماعية عموما . لذا يعود **دور المحرر** ، في حركة درامية ، الى مختلف طبقات الشعب الفرنسي ، على التوالي ، ليصل في النهاية الى الطبقة التي تحقق الحرية الاجتماعية لا بافتراض شروط خارجة عن الانسان ، وهي في الواقع من صنع المجتمع الانساني ، بل على العكس من ذلك بتنظيم كل شروط الوجود الانساني ابتداء من الحرية الاجتماعية . بالمقابل ، ففي المانيا ، حيث الحياة العملية مجردة من الفكر

---

١ ــ تلميح الى الكراس الشهير الذي نشره «سييس» عام ١٧٨٩ : ما هي الطبقة الثالثة ؟ كل شيء . ماذا كانت تمثل حتى الان في النظام السياسي ؟ لا شيء . ماذا تطلب ؟ ان تصبح شيئا ما .

٢ ــ المقصود الطبقة البورجوازية .

والحياة الفكرية مجردة من الممارسة سواء بسواء ، لا توجد طبقة **في المجتمع المدني** تشعر بالحاجة او تملك القدرة على اطلاق حركة الانعتاق الشامل ، ما دام وضعها **المباشر** ، الضرورة **المادية** ، **وقيودها هي ذاتها** لا ترغمها على ذلك .

اين توجد اذن الامكانية **الاكيدة** للانعتاق الالماني ؟

جواب : في تكوّن طبقة **ذات قيود جذرية** ، طبقة من المجتمع المدني ليست طبقة المجتمع المدني ، فئة تشكل ذوب كل الفئات ، دائرة تملك سمة شمولية بشمولية آلامها ولا تطالب **بحق خاص بها** ، لانهم اوقعوا بها مظالم خاصة بل **المظالم في حد ذاتها** ، ليس في وسعها التبجح بصفة **تاريخية** ما ، لكن فقط بصفة **انسانية** ، ليست في تناقض حصري مع النتائج فحسب ، بل في تناقض منهجي مع الشروط المسبقة للنظام السياسي الالماني ، لدائرة لا تستطيع في النهاية ان تتحرر دون ان تحرر نفسها من كل الدوائر الاخرى للمجتمع ودون ان تحرر بالتالي بسبب هذا الواقع كل الدوائر الاخرى في المجتمع ، الذي هو ، بكلمة مختصرة ، **الضياع الكلي** للانسان ولا يستطيع بالتالي ان يستعيد نفسه دون **الاستعادة الكلية للانسان** .

هذا الذوب للمجتمع المتحقق في طبقة مفردة هو **البروليتاريا** .

ان البروليتاريا ما زالت في بداية تكونها في المانيا ، بفضل بدايات التطور **الصناعي** ، فالفقر المصنوع صنعا لا الفقر الناجم عن **القوانين الطبيعية** ، الكتلة البشرية المتأتية من **التذويب العنيف** للمجتمع ومن تذويب الطبقات الوسطى بالدرجة الاولى لا سحق الشرائح الاجتماعية الناجم آليا عن ثقل المجتمع ، هو الذي يكوّن البروليتاريا ، ولو ان الفقراء الذين هم فقراء بصورة اعتيادية واقنان المجتمع الالماني – المسيحي ينضمون كذلك الى صفوفها شيئا فشيئا .

عندما تعلن البروليتاريا عن **انحلال النظام السالف** ، فهي انما تفصح عن **سر وجودها ذاته** ، لان هذا السر يمثل الانحلال **الفعلي** لهذا النظام . عندما تطالب البروليتاريا **بالغاء الملكية الخاصة** ، فانها لا تفعل سوى انها تنادي **باساس المجتمع** ما جعله المجتمع اساسا **لها** ، وهو ما تمثله البروليتاريا دون ارادة منها ، من حيث كونها الحصيلة السلبية للمجتمع . عندئذ يجد البروليتاري نفسه ، بالنسبة الى العالم المقبل ، متمتعا بالحق نفسه الذي يتمتع به الملك **الالماني** بالنسبة الى العالم القائم ، وذلك عندما يقول عن الشعب انه شعب**ه** ، كما يقول عن الحصان انه حصان**ه** . فالملك ، باعلانه ان الشعب ملكية خاصة له ، لا يعني سوى ان صاحب الملكية الخاصة ملك .

ان الفلسفة تجد في البروليتاريا اسلحتها **المادية** ، كما تجد البروليتاريا في الفلسفة اسلحتها **الفكرية** ، وما ان يلامس بريق الفكر قلب تلك الارض الشعبية البكر حتى يتم الانعتاق الذي سيحول الالمان الى بشر .

لنلخص النتيجة الحاصلة :

ان تحرر المانيا الوحيد الممكن عمليا هو تحررها على اساس النظرية التي تنادي بأن الانسان هو الكائن الاسمى للانسان ذاته . في المانيا، الانعتاق من **العصر الوسيط**

ليس ممدنا الا اذا جرى **في** نفس الوقت الانعتاق من امتداداته الجزئية . **في** المانيا، لا يمكن تحطيم **اي** شكل من اشكال العبودية الا بتحطيم كل اشكال العبوديـــة . **ان** المانيا ، التي تغوص الى أعماق الاشياء ، لا تستطيع ان تصنع ثورة دون أن تصنع الثورة التي **تقلب كل شيء رأسا على عقب** . ان **انعتاق الالماني** هو **انعتاق الانسان** . ان راس هذا الانعتاق هو **الفلسفة** ، وقلبه هو البروليتاريا . ان الفلسفة لا يمكن **ان** تحقق الا بالغاء البروليتاريا ، والبروليتاريا لا **يمكن** ان **تلغي** ذاتها **الا** بتحقيق الفلسفة.

عندما تتوفر كل الشروط ، فان **فجر** البعث الالماني سيعلن عنه صياح الديك الغالي [الفرنسي] .

٤ .

فريدريك انجلس ـ كارل ماركس

# الاسرة المقدسة ، او نقد النقد النقدي
# ضد برونو بوير وشركاه(*)
## (مقتطفات من الفصل السادس)

### د ـ معركة نقدية ضد المادوية الفرنسية

**ان السبينوزية كانت قد هيمنت على القرن الثامن عشر ، سواء في امتدادها الفرنسي ، الذي راح يحول المادة الى ماهية ، او في التاليهوية (١) التي**

---

★ هذا المؤلف ، «الاسرة المقدسة ، او نقد النقد النقدي ـ ضد برونو بوير وشركاه» هو الكتاب الاول الذي ألفه ماركس وانجلس بصورة مشتركة . ولقد كتب من ايلول الى تشرين الثاني ١٨٤٤ ، ونشر في شباط ١٨٤٥ في مدينة «فرانكفورت على الماين» .

«الاسرة المقدسة» تعبير مرح للدلالة على الاخوين بوير وأنصارهم الذين كانوا متجمعين حول «الجريدة الادبية العامة» . وقد انتقد ماركس وانجلس المفاهيم المثالية للاخوين بوير وابتعادهما عن الحياة الواقعية ونزوعهما الى المناظرات الخطابية التجريدية في ميادين الفلسفة واللاهوت . ولم يكن الهيغليون الشباب ، الذين كانوا يميلون الى المذهب الذاتي ، يرون في الجماهير الشعبية سوى مادة هامدة ووزن معطل في السيرورة التاريخية ، منادين بالمقابل بأن الشخصيات المختارة ، وهم بخاصة ، هي الحاملة لـ «الفكر» و«النقد المطلق» ، وهي الخالقة للتاريخ . ورغم ان الهيغليين الشباب قد انكروا مصداقية الانجيل ، ولكنهم كانوا يطابقون بين الوعي الديني ووعي الشعب . ولم يكونوا يرون ان العقبة الاساسية في طريق تطور تقدمي لالمانيا هي النظام الاجتماعي الرجعي السائد فيها ، بل كانوا يرون هذه العقبة فيالافكار المهيمنة السائدة ، في الدين بخاصة . لذا لم يكونوا يناهضون هذا النظام الاجتماعي ، بل الافكار المهيمنة فقط .

١ ـ التأليهوية : اتجاه فلسفي ـ لاهوتي ينفي فكرة اله مشخص، ولكنه يقبل الاله بوصفهعلة =

**كانت تعطي المادة اسما اكثر روحانية ... ان المدرسة السبينوزية الفرنسية وانصار مذهب التاليه ليسا سوى شيعتين كانتا تختصمان حول المعنى الحقيقي لمذهب سبينوزا ... أن فلسفة الانوار تلك كان مقدرا لها ببساطة ان تغرق في الرومنسية ، بعد اضطرارها الى الاستسلام للرجعية التي بدأت الحركة في فرنسا** (١) .

هذا من ناحية النقد .

سنضع الان مقابل هذا التاريخ النقدي للمادوية لوحة موجزة عن تاريخها الدنيوي الشائع بين الجمهور . وسنقر بكل احترام ان هوة تفصل بين التاريخ كما جرى **فعلا** وبين التاريخ كما يجري وفق ما يقول به قرار «النقد المطلق» ، خالق القديم والجديد على السواء . واخيرا ، من اجل الخضوع لتعليمات **الـ** نقد ، سوف نتساءل «**لماذا ؟**» هذا التاريخ النقدي ، «من اين اتى ؟» و«اين يذهب ؟» وسوف نجعل منه «موضوع دراسة طويلة» .

«بكلام مضبوط وبعيد عن الشعر» ، أن الفلسفة الفرنسية لعصر الانوار في القرن الثامن عشر ، وخصوصا **المادوية الفرنسية** ، لم تكن نضالا ضد المؤسسات السياسية القائمة وضد الدين واللاهوت القائمين فحسب ، بل كانت كذلك نضالا **مكشوفا** ، نضالا **معلنا** ضد **ميتافيزياء** (٢) **القرن السابع عشر** وضد كل ميتافيزياء ، ولاسيما ميتافيزياء «ديكارت» ، «مالبرانش» ، سبينوزا ولايبنتس . كانت تعارض الميتافيزياء بالفلسفة ، تماما كما عارض فويرباخ برصانة الفلسفة ثمالة الفكر التأملي،

---

= نهائية لا شخصية للعالم . وطوال سيطرة المفهوم الاقطاعي للعالم ، ظهر مذهب التأليه في كثير من الاحيان كشكل مقنع للمادوية والالحادوية . وفي الفترة التالية استخدم مذهب التأليه لتغطية نزوع الايديولوجيين البورجوازيين الى الحفاظ على الدين وتبريره ، بعدم نبذهم سوى معتقدات وتعاليم الكنيسة الاكثر منافاة للعقل والادعى للاعتراض والانكار .

١ ــ هذا الاستشهاد مأخوذ من الجزء الثالث لمقال كتبه برونو بوير ولكن لم ينشر باسمه ، وكان عنوانه: «ما هو الان موضوع النقد؟». وقد نشر في العدد ٨ ، تموز ١٨٤٤ في «الجريدة الادبية العامة».

٢ ــ الميتافيزياء هي أسلوب في التفكير معاكس للجدل ، ينظر الى الاشياء والظاهرات على انها مكتملة ، ثابتة ، منفصلة بعضها عن بعض وخالية من التناقضات الداخلية .

والمقصود هنا الميتافيزياء بالمعنى الذي تأكدت به حتى القرن التاسع عشر ، اي ذلك القسم من الفلسفة الذي يعالج عبر التأمل الخالص المسائل التي تتجاوز حدود التجربة ، مثلا كمسائل الوجود، الوجود المعين للعالم ، الروح ، القدَرية ، الخ . وتحت اسم ميتافيزيائيي القرن السابع عشر ، يشير ماركس الى العقلانيين الذين كانوا يرون في العقل المنبع الوحيد للمعرفة الصحيحة ويهملون التجربة الملموسة . واذا كان هذا الاتجاه قد لعب في القرن السابع عشر دورا تقدميا بدفاعه عن جبروت العقل ضد المعتقدية (الدوغمائية) الدينية ، ولكن في القرن الثامن عشر بدأ يصبح عقبة أمام تطور الفلسفة المادية والعلم .

يوم وقف لاول مرة ضد **هيغل** . ان ميتافيزياء القرن السابع عشر ، التي اضطرت الى التراجع أمام فلسفة عصر الانوار ، لاسيما امام المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر ، **بعثت بعثا مظفرا وأساسيا** في الفلسفة الالمانية ، خاصة في **الفلسفة التأملية الالمانية** للقرن التاسع عشر . فبعد ان وحّدها هيغل على نحو عبقري مع كل ميتافيزياء سابقة ومع المذهب الفكراني الالماني ، وبعد ان أسس امبراطورية ميتافيزية شاملة ـ بعد ذلك انفتح الهجوم على **الميتافيزياء التأملية** ، وهو هجوم يوازي الهجوم على اللاهوت في القرن الثامن عشر . وستهزم الميتافيزياء التأملية هزيمة نهائية امام المادية ، التي ستكتمل منذ ذلك الحين بفعل الفكر التأملي نفسه وتصبح مطابقة للمذهب الانساني. والحال ، انه اذا كان فويرباخ قد مثل على الصعيد النظري المادية المتفقة مع النزعة الانسانية ، فان الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والانكليزية تمثلانها على الصعيد العملي .

«بكلام مضبوط وبعيد عن الشعر» ، ثمة اتجاهان في المادية الفرنسية : احدهما انحدر من **ديكارت** والآخر من **لوك** . والثاني عنصر ممتاز من عناصر الحضارة الفرنسية، ويؤول مباشرة الى الاشتراكية ؛ والآخر المادية الميكانية ، يرفد علم الطبيعة الفرنسي بالمعنى الدقيق . والاتجاهان يختلطان خلال تطورهما ، وليس من شأننا ان نشدد هنا على المادية الفرنسية النابعة مباشرة من ديكارت ، وكذلك على مدرسة نيوتن الفرنسية وتطور علم الطبيعة الفرنسي .

لنكتف اذن بما يلي :

نسب ديكارت ، في فيزيائه ، الى المادة قوة مبدعة تلقائية ، وفهم الحركة الميكانية على انها فعلها الحيوي. وقد فصل فيزياءه عن ميتافيزيائه فصلا كاملا . في فيزيائه ، المادة هي الماهية الوحيدة ، هي العلة الوحيدة للوجود وللمعرفة .

ان المادية الميكانية الفرنسية تتصل بفيزياء ديكارت ، لا بميتافيزيائه ، وتلاميذه مناهضون محترفون للميتافيزياء ، كانوا فيزيائيين .

تبدأ هذه المدرسة مع الطبيب لوروا ، وتبلغ ذروتها مع الطبيب كابانيس ، والطبيب لامتري يحتل منها المركز . كان ديكارت لمّا يزل على قيد الحياة عندما طبق لوروا على النفس البشرية (تماما كما سيفعل لامتري في القرن الثامن عشر) فكرة البنية الحيوانية التي قال بها ديكارت ، معلنا ان النفس ليست سوى نمط من أنماط الجسد ، وان **الافكار ليست سوى حركات ميكانية** . بل ان لوروا كان يعتقد ان ديكارت قد موّه رأيه الحقيقي وأخفاه ، فاحتج ديكارت على ذلك . في أواخر القرن الثامن عشر أكمل كابانيس صياغة المادية الديكارتية في مؤلفه «علاقات المادي والمعنوي في الانسان» .

ان المادية الديكارتية (١) لم تزل موجودة في فرنسا . وهي تسجل انتصاراتها

---

١ ـ مذهب تلامذة الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، الذين كانوا يستخلصون من فلسفته استنتاجات مادية .

في علم **الطبيعة الميكاني** الذي لا يؤخذ عليه سوى الرومانسية . منذ ساعاتها الاولى، كانت ميتافيزياء القرن السابع عشر ، الممثلة في فرنسا بديكارت خصوصا ، خصما للمادية. ولقد لقيها ديكارت في غاسندي، باعث ومجدد المادوية الابيقورية. لقد ظلت الماديتان الانكليزية والفرنسية على صلة وثيقة بديمقريطس وابيقور. ولاقت ميتافيزياء ديكارت خصما آخر في شخص المادي الانكليزي هوبس . ولم يتغلب غاسندي وهوبس على خصمهما الا بعد وفاتهما بمدة طويلة ، في الوقت الذي كان فيه هذا الخصم مسيطرا ، بصفته السلطة الرسمية ، على كل المدارس الفرنسية .

لقد نبه فولتير الى ان لامبالاة فرنسيي القرن الثامن عشر بالمنازعات بين اليسوعيين (١) والجانسينيين (٢) مرده الى الفلسفة أقل مما هو الى مضاربات المصرفي لاو (٣) المالية . فلا يمكن بالتالي تعليل انهيار ميتافيزياء القرن السابع عشر بالنظرية المادية للقرن الثامن عشر الا على اساس تعليل هذه الحركة النظرية نفسها بالصورة العملية للحياة الفرنسية لذلك العصر . لقد كان هدف تلك الحياة هو الحاضر المباشر ، اللذات الدنيوية والمصالح الدنيوية ، وبعبارة واحدة : **العالم الارضي** . فكان لزاما ان تنشأ نظريات معادية للاهوت ، ومعادية للميتافيزياء ، اي مادية ، انسجاما مع الممارسة المعادية للاهوت ، المعادية للميتافيزياء والمادية . فعلى صعيد الممارسة العملية ، فقدت الميتافيزياء كل رصيدها . ومهمتنا تقتصر هنا على تعيين سير التطور النظري .

---

١ ـ اليسوعيون (الجزويت) هم اعضاء احدى المنظمات الاكثر رجعية، والاكثر كفاحية للكنيسة الكاثوليكية . وان الرهبانية اليسوعية هذه ، «جماعة يسوع» ، قد تأسست عام ١٥٣٤ من قبل «اينياس لوايولا» (١٤٩١ ـ ١٥٥٦) . هذه الرهبنة اليسوعية ، التي كان هدفها الرئيسي تعزيز مواقع الكثلكة وتوطيد السلطة البابوية ، قد انزلقت في طريق مبدأ «الغاية تبرر الواسطة» ، وكانت تلجأ الى الكذب والتجسس والاغتيالات والتدخل في الشؤون الداخلية لمختلف الدول . واليسوعيون هم الذين قادوا ، في حدود واسعة ، محاكم التفتيش بتنظيم عمليات الاضطهاد والقمع ضد «الهراطقة» والمفكرين التقدميين وبالوقوف ضد سائر الحركات الليبرالية .

٢ ـ الجانسنية هي تيار ديني داخل الكاثوليكية في فرنسا وهولندا في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر قريب من البروتستانتية ، وقد ولد على اساس مذهب اللاهوتي الهولندي «كورنيليوس جانسن» . لقد وقف الجانسينيون ضد هرمية او مراتبية الكنيسة الكاثوليكية وضد الحياة الدنيوية لكهنتها ، ودعوا الى العيش في حياة متقشفة وورعة ، وفي نفس الوقت وجهوا نقدا حادا للجزويت وأخلاقهم المرائية . في النضال الذي انفجر بين الجانسنيين واليسوعيين ، وقف البابا وملك فرنسا الى جانب الاخيرين .

٣ ـ في عام ١٧١٦ ، أسس «جون لاو» في باريس مصرفا خاصا للاصدار يتمتع بالامتياز الخاص بالدولة ، «المصرف العام» ( سمي في ما بعد «المصرف الملكي» ) ، بحق اصدار العملة الورقية بتغطية ذهبية بسيطة، فخلق بذلك ارضا ملائمة لمضاربات بورصية هائلة . في العام ١٧٢٠ ، انهارت منظومة «لاو» المصرفية .

ان ميتافيزياء القرن السابع عشر (ديكارت ، لايبنتس ، الخ .) كانت ما تزال مشربة بمحتوى وضعي دنيوي . كانت تحقق اكتشافات في الرياضيات والفيزياء ، وكانت علوم أخرى معينة تبدو وكأنها تابعة لها . لكن منذ مطلع القرن الثامن عشر تبدد ذلك المظهر . انفصلت العلوم الوضعية عن الميتافيزياء وحددت ميادينها الخاصة. ولم تعد كل الثروة الميتافيزيائية سوى تخيلات فكر واشياء سماوية ، في نفس الوقت الذي بدات فيه الكائنات الواقعية والاشياء الارضية تجتذب كل الاهتمام ، فبهتت الميتافيزياء . وفي نفس العام الذي مات فيه الميتافيزيائيان الفرنسيان الكبيران الاخيران للقرن السابع عشر ، مالبرانش وارنولد [١] ، ولد هلفثيوس وكوندياك .

ان الرجل الذي أسقط على الصعيد النظري حظوة ميتافيزياء القرن السابععشر وكل ميتافيزياء هو بيار بايل . كان سلاحه الريبوية المصوغة بالعبارات السحرية نفسها التي تعمل بها الميتافيزياء . وكان قد انطلق من الميتافيزياء الديكارتية . وكما ان نضال فويرباخ ضد اللاهوت التأملي دفعه الى النضال ضد الفلسفة التأملية ، لانه ادرك ان التأمل آخر معقل للاهوت ، ولانه كان مضطرا ان يرغم اللاهوتيين على التخلي عن علمهم الزائف واللجوء الى الايمان الساذج المنفّر ؛ كذلك فان الشكوك الدينية قد دفعت بايل الى التشكيك بالميتافيزياء التي كانت تدعم ذلك الايمان . فأخضع الميتافيزياء ، في كل تطور التاريخي ، للنقد . وجعل من نفسه مؤرخها كي يكتب تاريخ موتها . لقد دحض بشكل خاص سبينوزا ولايبنتس .

ان بيار بايل اذ ذوب الميتافيزياء بواسطة الريبية حقق ما هو افضل من تعبيد الطريق لعملية تبني المادية وفلسفة الحس السليم في فرنسا . لقد أعلن **المجتمع الملحد** الذي قدر له ان ينشأ بعد قليل ، وذلك باثبات امكانية وجود مجتمع ملحدين خالصين ، وباثبات ان الملحد **يمكنه** ان يكون انسانا شريفا وان الانسان ينحط لا بالالحاد بل بالخرافة والوثنية .

وكما قال كاتب فرنسي : ان بيار بايل هو «آخر الميتافيزيائيين حسب مفهوم القرن السابع عشر» و«اول الفلاسفة بمفهوم القرن الثامن عشر» .

الى جانب الدحض السلبي للاهوت القرن السابع عشر وميتافيزيائه ، كان ثمة حاجة الى نظام فكري مناهض للميتافيزياء وضعي . كان ثمة حاجة الى كتاب يضع الممارسة الحية للزمن في نظام فكري ويرسيها على أسس نظرية . وجاء كتاب جان لوك «رسالة في ملكة الفهم الانساني» ، لندن ، ١٦٩٠ ، من الجانب الآخر لبحر المانش ، وكأنه جواب على طلب ، فاستقبل بحماسة وكأنه ضيف منتظر بفارغ الصبر.

يمكن طرح السؤال : لا يكون لوك ، ولو من باب المصادفة ، من أتباع سبينوزا ؟ سيكون في وسع التاريخ «الدنيوي» (غير الديني) ان يجيب :

---

١ ــ يبدو ان الامر التبس على ماركس من حيث التاريخ . والواقع ان مالبرانش قد توفي عام ١٧١٥ ، وهو عام ميلاد كوندياك وهلفثيوس . اما ارنولد ــ الكبير ــ فكان قد توفي في عام ١٦٩٤ .

المادوية هي ابن بريطانيا الحقيقي . من قبل ، كان الفيلسوف السكولاستي (المدرسي) (١) البريطاني الكبير ، دينس سكوت ، قد تساءل «عما اذا كانت المادة لا تستطيع ان تفكر (٢) ...»

سبق ان ذكّرنا الى اي حد جاء كتاب لوك في الوقت الملائم بالنسبة للفرنسيين. كان لوك قد اسس فلسفة الحس السليم ، اي انه اعلن ، بطريقة ملتوية ، انه لا يوجد فلاسفة بعيدون عن الحواس البشرية السوية الاعتيادية وعن ملكة الفهم المرتكزة عليها .

ما لبث تلميذ لوك المباشر وداعيته الفرنسي ، كوندياك ، ان وجه مذهب لوك الاحساسوي ضد ميتافيزياء القرن السابع عشر. اثبت ان الفرنسيين احسنوا صنعا بالتخلي عن تلك الميتافيزياء من حيث هي مجرد هذيان خيال وافكار لاهوتية مسبقة. نشر تفنيدا لمذاهب ديكارت ، سبينوزا ، لايبنتس ومالبرانش .

لقد طوّر كوندياك في كتابه «بحث في اصل المعارف الانسانية» افكار لوك ، وبين ان ليست النفس وحدها ، بل الحواس ايضا ، ليس فن صناعة الافكار فحسب ، بل الادراك الحسي ايضا ، تتوقف على التجربة والعادة . ان تطور الانسان بكامله يتوقف اذن على التربية والظروف الخارجية . ولم يحل محل كوندياك في المدارس الفرنسية الا الفلسفة الانتقائية .

ان الفرق بين المادوية الفرنسية والمادوية الانكليزيةهو الفرق بين القوميتين . الفرنسيون اعطوا المادوية الانكليزية الروح واللحم والدم والفصاحة . وهبوها المزاج الذي تفتقده والاناقة والرشاقة . مدنوها .

عند هلفثيوس ، الذي ينطلق من لوك ، تأخذ المادية طابعها الفرنسي المميز . ان هلفثيوس قد ادرك المادوية من خلال الحياة الاجتماعية ( هلفثيوس: «عن الانسان» ) . فالصفات الحسية ، حب الذات ، اللذة ، المصلحة الخاصة المفهومة على نحو صحيح، هي اساس كل اخلاق . ان المساواة الطبيعية بين العقول البشرية ، الصلة الوثيقة بين تقدم العقل وتقدم الصناعة ، طيبة الانسان الطبيعية ، القدرة الكلية للتربية : تلك هي العناصر الجوهرية في مذهبه .

---

١ ـ السكولاستية (فلسفة المدرسة) تعبير عام للدلالة على الفلسفة الفكرانية الدينية التي سادت العصر الوسيط والتي كان يجري تدريسها في المدارس والجامعات . ولما كانت تضع نفسها في خدمة اللاهوت ، فانها لم تكن تسعى الى تفسير الطبيعة والواقع ، بل كانت تستند الى معتقدات الكنيسة المسيحية وتجهد بواسطة التأمل الى ان تستجر من مبادئها العامة استخلاصات مشخصة وأن تحدد تصرف البشر . في مذهب «دينس سكوت» ، الذي كان احد ممثلي الفلسفة السكولاستية الهامين ، وجدت سائر الرشيمات الرئيسية لتفسخها وانحلالها . «دينس سكوت» كان من أنصار المذهب الاسموي، وهو المذهب الذي يشكل ، حسب عبارة ماركس ، «اول تعبير عن المادية» في العصر الوسيط .

٢ ـ يلي هذا مقطع أدخله انجلس في مقاله «المادية التاريخية» الذي يشكل مقدمة الطبعة الفرنسية لكتابه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» ، الذي أوردناه فيما بعد .

ان كتابات لامتري مزيج من المادية الديكارتية والمادية الانكليزية . انه يستعمل فيزياء ديكارت حتى في التفاصيل . ان «**الانسان ــ الآلة**» في فلسفته منسوخ عن «**الحيوان ــ الآلة**» لدى ديكارت . في كتاب «نظام الطبيعة» ل هولباخ ، الجزء الفيزيائي هو مزيج من الماديتين الفرنسية والانكليزية ، اما الجزء الاخلاقي ، فمبني اساسا على اخلاق هلفثيوس . ان روبينه ، ذلك الفيلسوف الفرنسي ، المادوي ، المرتبط غالبا بالميتافيزياء ، والذي يحظى ، بسبب ذلك ، بتقدير هيغل ، يرجع الى آراء لايبنتس بخاصة في كتابه «عن الطبيعة» .

لا حاجة للكلام عن فولناي ، ديبوي ، ديدرو، الخ ، وكذلك عن الفيزيوقراطيين، ذلك بأنه سبق لنا ان برهنا على الاصل المزدوج للمادية الفرنسية المنبثقة من فيزياء ديكارت والمادية الانكليزية ، وعلى معارضة المادية الفرنسية لميتافيزياء القرن السابع عشر ، ميتافيزياء ديكارت ، سبينوزا ولايبنتس . لم يدرك الالمان هذا التعارض الا منذ ان وجدوا انفسهم متعارضين مع الميتافيزياء التأملية .

فكما ان المادية الديكارتية تنتهي الى علم الطبيعة بالمعنى الضيق للكلمة ، كذلك فان التيار الآخر للمادية الفرنسية يصب مباشرة في الاشتراكية والشيوعية .

عندما يدرس المرء تعاليم المادية حول طيبة الانسان الاصلية ، المواهب الذهنية المتساوية لدى الناس ، القدرة الكلية للتجربة ، للعادة ، للتربية ، وحول تأثير الظروف الخارجية على الانسان ، على المغزى الكبير للصناعة ، على مشروعية اللذة ، الخ ، لا يحتاج الى بصيرة كبيرة ليدرك الرابطة الضرورية بين الاشتراكية والشيوعية. اذا كان الانسان يستمد كل معرفة ، كل احساس ، الخ ، من العالم الحسي ، من التجربة الكامنة في العالم الحسي ، ينبغي بالتالي تنظيم العالم الاختباري بحيث يتمثل الانسان فيه كل ما هو انساني حقا ، يعتاده ، يختبر ذاته بصفته انسانا . اذا كانت المصلحة المفهومة فهما جيدا هي مبدأ كل اخلاق ، فان المهم هو ان نجعل المصلحة الفردية داخلة في المصلحة الانسانية . واذا كان الانسان غير حر ، بالمعنى المادي ، اي اذا كان حرا لا بالقدرة السلبية على تلافي هذا الامر أو ذاك ، بل بالقدرة الايجابية على تقييم فرديته الحقيقية ، وجبعندئذ ان لا نعاقب الجريمة لدى الفرد، بل ان نهدم بؤر الجريمة المناوئة للمجتمع ، ان نعطي كل انسان المجال الضروري للتعبير الجوهري عن حياته . اذا كان الانسان من صنع الظروف ، فيجب ان ننشىء الظروف بصورة انسانية . اذا كان الانسان اجتماعيا بطبيعته ، فهو لا ينمي طبيعته الحقيقية الا في المجتمع ، وان قوة طبيعته يجب ان تقاس لا بقوة الفرد وحده ، بل بقوى المجتمع .

هذه الاطروحات ، واخرى مماثلة ، نكاد نجدها حرفيا عند اقدم الماديين الفرنسيين . ولا يتسع المقام هنا لمناقشتها . نستطيع تميز الاتجاه الاشتراكي للمادية في «تقريظ الرذائل» لمؤلفه ماندفيل ، احد اقدم اتباع لوك الانكليز . لقد دلل ماندفيل على ان الرذائل **ضرورية ومفيدة** في المجتمع الحالي . ولم يكن ذلك البتة دفاعا عن المجتمع القائم .

ينطلق فورييه مباشرة من مذهب المادويين الفرنسيين . وقد كان أنصار بابوف مادويين خشنين ، غير متمدنين ، لكن حتى الشيوعية المتطورة تستمد هـي ايضا أصولها من المادية الفرنسية مباشرة . ان هذه الاخيرة عادت فعلا الى وطنها الأم ، انكلترا ، في الصيغة التي منحها اياها هلفثيوس . واسس بنتام مذهبه في المصلحة المفهومة فهما صحيحا على اساس اخلاق هلفثيوس ، كما أسس أوين الشيوعية الانكليزية انطلاقا من منهج بنتام . وتأثر الفرنسي كابيه ، ابان نفيه في انكلترا ، بالافكار الشيوعية الانكليزية ، وعاد الى فرنسا حيث أصبح اكثر ممثلي الشيوعية شعبية ، وان أكثرهم سطحية . اما الشيوعيون الفرنسيون المتحلون بطابع علمي اكبر: ديزامي ، غاي ، الخ ، فقد طوروا ، على غرار أوين ، المذهب المادوي من حيث هو المذهب الانساني الحقيقي والاساس المنطقي للشيوعية .

**كارل ماركس**

# اطروحات حول فويرباخ (*)

## -١-

العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها ــ بما فيهـــا مادية فويرباخ ــ هي ان الموضوع ، الواقع ، العالم الحسي ، لا ينظر اليه فيها الا على صـــورة **الموضوع** او **الحدس** ، وليس كفاعلية انسانية حسية ، كممارسة ، ليس ذاتيا . لذا فان الجانب الفاعل قد طورته الفكرانية ، في تعارض مع المادوية ــ ولكن على نحو تجريدي فقط ، ما دامت الفكرانية لا تعرف بطبيعة الحال الفاعلية الواقعية الحسية من حيث انها فاعلية واقعية حسية . يريد فويرباخ مواضيع حسية متميزة تميزا حقيقيا عن المواضيع الفكرية ، ولكنه لا ينظر الى الفاعلية الانسانية ذاتها على انها فاعلية موضوعية . لذا فقد نظر في كتابه **«جوهر المسيحية»** الى النشاط النظري على انه الامر الانسانـــي الحق ، في حين ان الممارسة لا يعتبرها ويحددها الا في تظاهرتها المادية القـــذرة (اليهودية) . ولهذا السبب لم يدرك معنى واهمية الفاعلية «الثورية» ، الفاعليـــة العملية النقدية .

## -٢-

ان مسألة معرفة ما اذا كان الفكر الانساني قادرا على الوصول الى حقيقـــة

---

★ كتبها ماركس في خريف عام ١٨٤٥ في بروكسل . نشرت لاول مرة في العام ١٨٨٨ من قبل انجلس كملحق لطبعة منفصلة ومراجعة لكتابه: **«لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية»** ، **تحت عنوان** : «ماركس ــ حول فويرباخ» . ادخل انجلس بضع تعديلات صياغية على الاطروحات لكـــي يجعلها أسهل فهما على القارىء . ان هذه الوثيقة التي «رشقت بسرعة على الورق ، ولم تكن معدة للنشر مطلقا ، ذات قيمة لا تقدر بوصفها اول وثيقة تحتوي النواة العبقرية للمفهوم الجديد عـــن العالم» (انجلس) . النص المنشور هنا يطابق الصيغة التي أعطاها انجلس .

موضوعية ليست مسألة نظرية ، بل هي مسألة عملية . ففي الممارسة ينبغي للانسان ان يقيم الدليل على حقيقة فكره ، اي على واقعيته وقوته ودقته وشموله . ان الجدال حول واقعية او عدم واقعية الفكر ، في معزل عن الممارسة ، مسألة سكولاستية صرفة .

-٣-

ان المذهب المادوي الذي يقول ان الناس هم نتاج الظروف والتربية وان الناس الذين تغيَّروا هم نتاج ظروف اخرى وتربية تغيرت ـ ان هذا المذهب المادوي ينسى ان الناس هم الذين يغيرون الظروف وان المربي نفسه بحاجة الى ان يُربّى . لهذا فهو يصل بالضرورة الى تقسيم المجتمع الى قسمين ، احدهما فوق المجتمع (عند روبرت اوين مثلا ) .

ان توافق تغير الظروف والفاعلية الانسانية لا يمكن ان ينظر اليه الا على انه **ممارسة ثورية .**

-٤-

ينطلق فويرباخ من واقع ان الدين يجعل الانسان غريبا عن نفسه ويشطر العالم الى عالم ديني ، موضوع للتمثيل ، وعالم واقعي دنيوي . وان عمله يقوم على جر العالم الديني الى قاعدته الدنيوية . وهو لا يرى انه ، بعد انجاز هذا العمل ، يبقى الامر الرئيسي الذي ينبغي انجازه . ذلك ان كون الاساس الدنيوي ينفصل عن ذاته ويقيم نفسه في السحب كمملكة مستقلة لا يمكن تفسيره فعلا الا بالتمزق والتناقض الداخليين لهذا الاساس الدنيوي . يجب اذن ان نفهم هذا الاساس الدنيوي في تناقضه ، ومن ثم ان نقلبه ثوريا ، في العمل ، بحذف التناقض . فما ان نكشف ، مثلا ، ان الاسرة الارضية هي سر الاسرة السماوية ، حتى ينبغي لنا ان ننقد الاولى في مجال النظرية وان نقلبها ثوريا في مجال الممارسة .

-٥-

ان فويرباخ ، الذي لا يرضيه **الفكر المجرد** ، يلجأ الى التأمل الحسي ، ولكنه لا ينظر الى العالم المحسوس كفاعلية عملية ، حسية ، للانسان .

-٦-

ينحلّ فويرباخ الجوهر الديني في الجوهر الانساني . ولكن الجوهر الانساني

ليس تجريدا ملازما للفرد المعزول . ان هذا الجوهر ، في حقيقته الواقعية ، هو مجموع العلاقات الاجتماعية .

ان فويرباخ ، الذي لا يقدم على نقد هذا الجوهر الواقعي ، يجد نفسه مرغما على:

١ ـ ان يجرد من سير التطور التاريخي الشعور الديني وان يثبته كشيء قائم بذاته وان يفترض مسبقا وجود فرد انساني مجرد ، **منعزل** .

٢ ـ ان ينظر ، بالتالي ، الى الجوهر الانساني ك «نوع» فقط ، اي كفكرة عامة ، داخلية ، خرساء ، تربط بصورة **طبيعية** بحتة بين الافراد العديدين .

-٧-

لذا فان فويرباخ لا يرى ان «الشعور الديني» هو بالذات **نتاج اجتماعي** وان الفرد المجرد الذي يتناوله بالتحليل انما ينتمي في الواقع الى شكل اجتماعي معين .

-٨-

الحياة الاجتماعية هي بالاساس حياة عملية . وان كل الاسرار التي تحرف النظرية باتجاه الصوفية تجد حلها العقلاني في الممارسة الانسانية وفي تفهم هذه الممارسة .

-٩-

ان ارفع نقطة بلغتها المادية **التاملية** ، اي المادية التي لا تفهم العالم المادي على انه فاعلية عملية ، هي النظر الى الافراد منعزلين في «المجتمع البورجوازي» .

-١٠-

ان وجهة النظر المادوية القديمةهي المجتمع «**البورجوازي**». اما وجهة نظر المادوية الجديدة فهي **المجتمع الانساني** ، او الانسانية الاجتماعية (الاشتراكية) .

-١١-

لم يفعل الفلاسفة سوى تأويل العالم بطرق مختلفة، والشيء المهم الان هو تبديله.

كارل ماركس ـ فريديريك انجلس

# الايديولوجيا الالمانية (*)

اذن فالواقع هو التالي : ان افرادا معينين ، ذوي نشاط انتاجي حسب نمط معين ، يعقدون فيما بينهم هذه العلاقات الاجتماعية والسياسية المعينة . في كل حالة مفردة ، يجب ان تبين الملاحظة الاختبارية ، دون اي تأمل استدلالـي ولا اي خداع فلسفي ، الرابط بين البنية الاجتماعية والسياسية وبين الانتاج . ان البنية الاجتماعية والدولة تنبثقان باستمرار من هذه السيرورة الحيوية لافراد معينين ، لا كما يبدون لانفسهم من خلال تمثيلهم هم ، او كما يتراءون من خلال تمثيلات غيرهم لهم ، بل كما هم في **الحقيقة الواقعة** ، اي من خلال ما يعملون وينتجـون ماديا ، وبالتالي كما يفعلون انطلاقا من أسس معينة ، وضمن اطار شروط وحدود ماديـة محددة ومستقلة عن ارادتهم (١) .

ان انتاج الافكار والتمثيلات والوعي يرتبط ، قبل كل شيء ، بصورة مباشرة وصحيحة ، بنشاط البشر المادي وتعاملهم المادي ، انه لغة الحياة الواقعيـة . ان التمثيلات والفكر ، اي التعامل الذهني بين الناس ، تبدو هنا ايضا بمثابة فيـض

---

★ كتب في ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ . نشر لاول مرة في كتاب : «ماركس ـ انجلس : المؤلفات الكاملة»، القسم الاول ، المجلد ٥ ، برلين ١٩٣٢ .

١ ـ هنا يلي مقطع محذوف في المخطوطة : ان التمثيلات التي يكونها هؤلاء الافراد اما ان تكون تمثيلات عن علاقتهم بالطبيعة او عن علاقاتهم في ما بينهم ، او عن طبيعتهم هم انفسهم . بديهي ان تكون هذه التمثيلات ، في جميع هذه الحالات ، التعبير الواعي ـ الواقعي او الايهامي ـ لعلاقاتهم او نشاطهم الواقعي ، لانتاجهم ، لروابطهم ، لتنظيمهم الاجتماعي والسياسي . ان الافتراض المعاكس غير ممكن ما لم يفترض وجود فكر آخر منفصل ، بالاضافة الى فكر الافراد الواقعيين المعينين ماديا . فاذا كان التعبير الواعي عن العلاقات الواقعية بين الافراد وهميا ، اذا كانو يقلبون ، في تمثيلاتهم واقعهم على راسه ، فذلك انما هو ايضا حصيلة لنمط النشاط ضيق الحدود ، والعلاقات الاجتماعية ضيقة الافق الناجمة عنه .

مباشر من لدن تصرفهم المادي . كذلك الامر بالنسبة الى الانتاج الذهني كما يتجلى في لغة السياسة ، القوانين ، الاخلاق ، الدين ، الميتافيزياء ، الخ ، لدى شعب من الشعوب . فالبشر هم الذين ينتجون تمثيلاتهم ، افكارهم ، الخ ، لكن البشر الواقعيين ، الفاعلين ، كما يشرطهم تطور معين لقواهم الانتاجية وللعلاقات المناظرة او المقابلة لها ، بما في ذلك أوسع الاشكال التي يمكن ان تأخذها هذه العلاقات . ان الوعي لا يستطيع قط ان يكون شيئا آخر سوى الوجود الواعي ، وان وجود البشر هو سيرورة حياتهم الواقعية . واذا كان البشر وعلاقاتهم يبدون لنا ، من خلال الايديولوجيا ، مقلوبين على رؤوسهم ، كما في عدسة آلة التصوير ، فان هذه الظاهرة تتأتى من سيرورة حياتهم التاريخية ، تماما كما يتأتى قلب الاشياء على الشبكة البصرية في العين من سير تطورها الحياتي المادي بالذات .

خلافا للفلسفة الالمانية التي تهبط من السماء الى الارض ، فمن الارض الى السماء يرقون هنا . وبتعبير آخر ، لا يصح الانطلاق مما يقوله البشر ، يتخيلونه ، يتصورونه ، هم انفسهم ، لا كما يظهرون في اقوال الآخرين ، تخيلهم ، تفكيرهم وتصورهم ، للوصول فيما بعد الى البشر بلحمهم وعظمهم ؛ كلا ، بل ينبغي الانطلاق من البشر في نشاطهم الواقعي ؛ فمن سيرورة الحياة الواقعية ينبغي تمثيل تطور الانعكاسات والاصداء الايديولوجية لهذه السيرورة الحياتية . حتى هلوسات الدماغ البشري هي عمليات تصعيد ناجمة بالضرورة عن سير تطور حياتهم المادية التي يمكن معاينتها اختباريا والتي تستند الى أسس مادية . ولهذا السبب فان الاخلاق والدين وسائر الاشكال الاخرى للايديولوجيا ، وكذلك أشكال الوعي التي تناظرها ، تفقد كل ظواهر استقلالها . فلا تاريخ لها ولا تطورا ؛ بل على النقيض من ذلك ، فالبشر ، بتطويرهم انتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية يغيرون واقعهم الخاص وفكرهم ونتاج فكرهم معا . ليس الوعي هو الذي يحدد الحياة ، انما الحياة هي التي تحدد الوعي. الطريقة الاولى في النظر الى الاشياء تنطلق من الوعي باعتباره الفرد الحي ، اما الطريقة الثانية ، وهي التي تناظر الحياة الواقعية ، فتنطلق من الافراد الواقعيين ، الاحياء انفسهم ، وتعتبر الوعي وعيهم هم ليس الا .

... اذن فالوعي نتاج اجتماعي ، ويظل كذلك ما وجد بشر بصفة عامة . لا شك في أن الوعي ليس ، في البداية ، الا وعي الوسط الملموس **الاقرب** ، ووعي العلاقة المحدودة مع اشخاص آخرين وأشياء اخرى كائنة خارج الشخص الواعي ؛ وهو في نفس الوقت وعي الطبيعة التي تنتصب اول ما تنتصب قبالة البشر كقوة غريبة عنهم تماما ، كلية القدرة ، منيعة ، يتصرف تجاهها البشر بطريقة حيوانية خالصة وتفرض نفسها عليهم كما تفرضها على الحيوان ؛ من هنا جاء وعي الطبيعة الحيواني الخالص (دين الطبيعة) .

ونحن ندرك فورا ان دين الطبيعة هذا ، او هذه العلاقات المحددة تجاه الطبيعة، محكوم بشكل المجتمع وظروفه والعكس بالعكس . على هذا الصعيد ، وعلى كل صعيد آخر ، تبدو ايضا الهوية بين الانسان والطبيعة بهذا الشكل الذي يجعل التصرف

محدود الافق للبشر حيال الطبيعة يحكم تصرفهم محدود الافق حيال بعضهم ، ويكيف بالتالي علاقاتهم المحدودة بالطبيعة ، بالضبط لان التاريخ لم يكد يبدل الطبيعة من جهة ، ومن جهة اخرى لان وعي ضرورة الدخول في علاقة مع الافراد المحيطين بالانسان يشير الى انه ما زال في اولى مراحل وعيه لكونه يعيش اجمالا في المجتمع.

هذه البداية حيوانية بقدر ما تكون الحياة الاجتماعية نفسها كذلك في هذه المرحلة ؛ انها مجرد وعي قطيعي ، ويتميز الانسان عن الخروف هنا بأن وعيه يحل محل الغريزة ، او ان غريزته غريزة واعية . ان هذا الوعي الخروفي ، او القبلي ، يتطور ويتكامل فيما بعد بفعل تطور الانتاج وتزايد الحاجات ، وتكاثر السكان الذي يشكل اساسهما . وهكذا ينمو ويتطور تقسيم العمل ، الذي لم يكن في البداية الا تقسيما للعمل حسب العملية الجنسية ، ثم يغدو تقسيم العمل الذي يحدث تلقائيا او «طبيعيا» بفضل الخصائص الطبيعية (القدرة الجسدية مثلا) ، الحاجات ، المصادفات ، الخ . ان تقسيم العمل لا يصبح فعليا الا في اللحظة التي تحدث فيها عملية تقسيم العمل المادي والفكري (١) . منذ هذه اللحظة **يمكن** حقا للوعي ان يتخيل انه شيء آخر غير وعي الممارسة القائمة ، وانه يمثل بالفعل شيئا ما دون ان يمثل شيئا ما فعليا . منذ هذه اللحظة يصبح الوعي في حالة انعتاق من العالم وانتقال الى صياغة النظرية «الخالصة» ، اللاهوت ، الفلسفة ، الاخلاق ، الخ . لكن حتى عندما تدخل هذه النظرية ، هذا اللاهوت ، هذه الفلسفة ، هذه الاخلاق ، الخ ، في تناقض مع العلاقات القائمة ، فان هذا لا يمكن ان يحدث الا لان العلاقات الاجتماعية القائمة قد دخلت في تناقض مع قوى الانتاج القائمة ؛ فضلا عن ان ذلك يمكن ان يحدث أيضا في اطار علاقات قومية محددة ، لان التناقض في هذه الحال يحصل لا ضمن الاطار القومي ؛ بل بين الوعي القومي وممارسة الامم الاخرى ، اي بين الوعي القومي الخاص بأمة ما ووعيها الكوني (٢) . ولا اهمية لما يقوم به الوعي بصورة منعزلة، فكل هذا الفساد لا يؤدي الا الى النتيجة التالية : امكانية التصادم وحتميته بين اللحظات الثلاث (قوى الانتاج ، الوضع الاجتماعي ، الوعي) ، وذلك لانه ، بفضل **تقسيم العمل** ، يصبح ممكنا ، بل يصبح فعليا ، تحقيق توزيع النشاط الفكري والمادي ، المتعة والعمل ، الانتاج والاستهلاك ، بين أفراد متباينين ؛ وعندئذ فان امكانية عدم التصادم بين اللحظات الثلاث يتوقف فقط على الغاء تقسيم العمل من جديد . ان «الاشباح» ، «الحثالة» ، «الجوهر السامي» ، «المفهوم» ، «الشكوك» ، ليست سوى التعبير الذهني الفكراني ، او هي ، كما يبدو ، تمثيل

---

١ ـ مقابل هذه الفكرة كتب ماركس في العمود الايمن : يزامن هذا المستوى اول شكل من الايديولوجيين : الكهنة .

٢ ـ مقابل هذه الجمله كتب ماركس في العمود الايمن : ديانة . الالمان مع الايديولوجيا من حيث هي كذلك .

الفرد المنعزل ، تمثيل السلاسل والحدود ذات الطابع شديد التجريبية الذي يتحرك ضمنها نمط انتاج الحياة وشكل العلاقات المنوطة بها .

... اذن ، فأساس هذا المفهوم للتاريخ يستند الى تطور السيرورة الواقعية للانتاج ، وذلك انطلاقا من الانتاج المادي للحياة المباشرة ؛ انها تجعل شكل العلاقات الانسانية مرتبطا بهذا النمط الانتاجي وناجما عنه ، أعني المجتمع البورجوازي في مختلف مراحله ، باعتباره اساس التاريخ كله ، الامر الذي يقتضي تمثيله في عمله كدولة ، كما يقتضي ان نفسر بهذا المجتمع سائر أنواع المنتجات النظرية وأشكال الوعي : الدين ، الفلسفة ، الاخلاق ، الخ ، وكذلك ان نتتبع تكوينه انطلاقا من منتجاته ، الامر الذي يتيح بالطبع تمثيل الشيء بكليته (ودراسة التأثير المتبادل بين جميع هذه المظاهر المتنوعة ايضا) . ان هذا المفهوم ليس مضطرا ، شأن المفهوم الفكراني للتاريخ ، أن يبحث عن مقولة فلسفية في كل مرحلة زمنية ، بل يظل مستندا الى **أرض** التاريخ الواقعية ؛ فهو لا يفسر الممارسة انطلاقا من الفكرة ، بل يفسر تكون الافكار من زاوية الممارسة المادية ؛ فيصل بالتالي الى هذه النتيجة : ان جميع أشكال الوعي ونتاجاته يمكن ان تنحل لا بفضل النقد الفكري او العودة الى «وعي الذات» او التحول الى «رؤى» و«أشباح» و«أوهام جنونية» ، الخ ، بل فقط بالقلب العملي للعلاقات الاجتماعية الملموسة التي تفرز تلك الترهات الفكرانية . ليس النقد ، بل الثورة هي القوة المحركة للتاريخ ، للدين ، للفلسفة ولكل نظرية اخرى .

يبين هذا المفهوم ان غاية التاريخ ليست في ان تنحل في «وعي الذات» باعتباره «فكر الفكر» ، لكن كل مرحلة تجد نفسها تعطي حصيلة مادية ما ، مجموعة ما من القوى المنتجة ، علاقة ما مع الطبيعة وفيما بين الافراد خلقت تاريخيا وانتقلت من جيل سابق الى جيل لاحق ، كتلة من قوى الانتاج ورؤوس الاموال والظروف التي يعدلها الجيل الجديد تعديلا عميقا من جهة ، لكنها تفرض عليه من جهة اخرى شروط وجوده الخاصة وتطبعه بتطور معين وسمة مميزة ؛ ومما تقدم نستنتج ان الظروف تصنع البشر بمقدار ما يصنع البشر الظروف .

ان هذه الكمية من قوى الانتاج ورؤوس الاموال وأشكال العلاقات الاجتماعية ، التي يعتبرها كل فرد وكل جيل معطيات موجودة ، هي القاعدة المادية الملموسة لما تصوره الفلاسفة على انه «جوهر الانسان وماهيته» ، لما ألهوه وكافحوه ، هي القاعدة الملموسة التي لا يلغي فاعليتها وتأثيرها في تطور البشرية كون أولئك الفلاسفة يتمردون عليها باسم «وعي الذات» و«الاوحد» . ان شروط الحياة هذه ، التي تجدها الاجيال المختلفة جاهزة ، هي التي تحدد كون الهزة الثورية المتكررة دوريا في التاريخ ذات قوة كافية ام لا للاطاحة بأسس كل ما هو قائم ؛ فالعناصر المادية اللازمة لزلزلة كلية هي ، من جهة ، نشوء كتلة ثورية تصنع الثورة ، لا ضد الاوضاع الخاصة للمجتمع الماضي فحسب ، بل ضد انتاج الحياة السابق عينه ، ضد «مجموعة النشاط» التي تكون اساس ذلك الانتاج ؛ واذا لم تتوافر تلك الشروط ، فسيان

بالنسبة للتطور العملي كون **فكرة** هذه الزلزلة قد سبق التعبير عنها الف مرة ... كما يشهد بذلك تاريخ الشيوعية .

حتى الان ، كانت سائر المفاهيم التاريخية تهمل هذا الاساس الواقعي للتاريخ اهمالا تاما ، او تعتبره شيئا ثانويا لا علاقة له بمسيرة التاريخ . من هنا افترض دوما ان التاريخ ينبغي ان يكتب بموجب معيار خارج عن ذلك المفهوم . ان انتاج الحياة الواقعي يظهر في بداية التاريخ ، في حين ان ما هو تاريخي محض يبدو منفصلا عن الحياة العادية ، وكأنه شيء خارجي او علوي بالنسبة الى الارض. بذا تصبح العلاقات بين البشر والطبيعة خارج التاريخ ، الامر الذي يولد التعارض بين الطبيعة والتاريخ. وبالتالي ، فان هذا المفهوم لم يستطع ان يرى في التاريخ الا الاحداث الكبيرة التاريخية والسياسية ، الصراعات الدينية (النظرية في حاصل الكلام) ، لذا اصبح مفروضا على هذا المفهوم ان يشاطر ، في كل مرحلة تاريخية ، وهم هذه المرحلة ويتأثر به . لنفترض ان عصرا ما يتصور انه مسير بدوافع «سياسية» او «دينية» خالصة (رغم ان «السياسة» و«الدين» ليسا الا شكلين من اشكال دوافعه الواقعية) ، عندئذ يتقبل مؤرخ هذا العصر ذلك الراي . ان «التخيل» او «التمثيل» الذي يكونه اولئك الناس المعينون عن ممارستهم الواقعية يتحول الى القوة الوحيدة الحاسمة والفاعلة التي تسيطر على ممارسة اولئك البشر وتحددها . واذا كان الشكل البدائي الذي يتخذه تقسيم العمل لدى الهنود الحمر والمصريين يولد في هذين الشعبين نظام الطبقات المغلقة في دولتهم ودينهم ، فان المؤرخ يعتقد ان نظام الطبقات المغلقة هو القوة التي ولدت ذلك الوضع الاجتماعي البدائي . وفي حين ان الفرنسيين والانكليز يقفون على الاقل عند الوهم السياسي الذي يظل اقرب الاوهام الى الحقيقة الواقعة ، نرى الالمان يتحركون على صعيد «الفكر الخالص» ويجعلون من الوهم الديني القوة المحركة للتاريخ . ان فلسفة التاريخ عند هيغل هي آخر تعبير حصيف ، بلغ اعلى مراتب الصفاء والصحة التي توصل اليها الالمان في كتابة التاريخ ، التي لا تعنى بالشؤون الواقعية ولا بالمصالح السياسية ، بل بالافكار الخالصة ؛ لذا لا يستطيع هذا التاريخ الا ان يبدو في نظر القديس برونو بمثابة تتابع فكر تأتي الواحدة على الاخرى ، وتغرق اخيرا في «وعي الذات» . اما بالنسبة الى القديس ماكس شتيرنر ، الذي لا يعلم شيئا عن كل التاريخ الواقعي ، فان مسيرة التاريخ هذه لا بد ان تظهر بقوة منطقية اكبر ايضا على انها محض حكاية «فرسان» ولصوص واشباح (١) ، لا يستطيع هو بطبيعة الحال ان يفلت من رؤاهم الا بالـ«كفر» . ان هذا المفهوم ديني حقا ، ويفترض ان الانسان الديني هو الانسان البدائي الذي منه ينطلق التاريخ كله ، وهو يحل في مخيلته محل الانتاج الواقعي لوسائل العيش ومحل الحياة نفسها انتاجا دينيا لاشياء

---

١ ـ مقابل هذا السطر كتب ماركس في العمود الايمن : طريقة كتابة التاريخ المدعوة موضوعية كانت تقتضي بالضبط اعتبار العلاقات التاريخية منفصلة عن النشاط . انها طريقة ذات صفة رجعية.

وهمية . كل هذا المفهوم للتاريخ ، مع تفسخه والوساوس والشكوك الناجمة عنه ، ليس سوى امر قومي خاص بالالمان وحدهم ، وليس له سوى فائدة محلية بالنسبة لالمانيا ، كتلك المسألة المهمة ، مثلا ، التي عولجت مرارا في الماضي القريب لمعرفة كيف ينتقل المرء ، بالضبط ، من « ملكوت الله الى ملكوت البشر » كما لو ان « ملكوت الله » قد وُجد فعلا خارج مخيلة البشر ، كما لو ان هؤلاء العلماء الاجلاء لم يعيشوا من غير ان ينتابهم الشك في « ملكوت البشر» الذي يبحثون الان عن الطريق المؤدية اليه ، كما لو ان التسلية العلمية — وليس في الامر شيء اكثر من ذلك — الحاصلة من تفسير غرابة تلك التراكيب النظرية الضبابية لا تقوم ، على العكس من ذلك ، على اظهار كيفية انبثاق هذه التراكيب من العلاقات الارضية الواقعية . وبصورة عامة فان هؤلاء الالمان يجهدون دائما في تفسير «اللامعنى» الكائن في حالة من حالات الهوس ، اي بافتراض ان هذا «اللامعنى» كله ينطوي على معنى خاص يجب اكتشافه ، في حين ان المطلوب هو تفسير تلك اللفظية الطنانة النظرية بردها الى محتدها الكائن في العلاقات الواقعية الراهنة . ان الحل الحقيقي العملي لهذه اللفظية الطنانة النظرية وإزالة تلك التمثيلات من وعي البشر لا يتحقق ، ونكرر ذلك ، الا بتبديل الظروف ، لا بالاستنباطات النظرية . اما بالنسبة للسواد الاعظم ، اي بالنسبة للبروليتاريا ، فان هذه التمثيلات النظرية غير موجودة ، اذن فليسوا بحاجة الى حلها ، واذا كان لها بعض تمثيلات نظرية ، كالدين مثلا ، فان الظروف الحياتية قد حلتها منذ زمن بعيد.

٧ ٠

كارل ماركس

# شيوعية «المراقب الريناني» (*)

## ( مقتطف )

... فضلا عن الضريبة على الدخل ، فان السيد المستشار في المجمع الديني يملك وسيلة اخرى لادخال الشيوعية كما يفهمها :

> ما ألف وياء الايمان المسيحي ؟ معتقد الخطيئة الاصلية وخلاص البشر . هنا تكمن رابطة التضامن بين البشر في أشد قوتها ، الواحد للجميع والجميع للواحد.

يا له من شعب سعيد ! هي ذي **المسألة الاصلية** قد حلت الى الابد . ان البروليتاريا ستجد ، تحت جناحي النسر البروسي والروح القدس ، ينبوعين لا ينضبان للحياة : اولا ما يفيض من ضريبة الدخل عن الحاجات الاعتيادية والاستثنائية للدولة ، وهو فائض يساوي صفرا ؛ وثانيا ، دخول الاملاك السماوية للخطيئة الاصلية وخلاص البشر ، وهما يساويان صفرا ايضا . هذان الصفران يقدمان أرضا رائعة لثلث الشعب الذي لا ارض له يعيش منها ، وسندا قويا للثلث الثاني الغارق في الضنك .

بالطبع ، فان هذين الفائضين الموهومين ، الخطيئة الاصلية وخلاص البشر ، سوف يسدان جوع الشعب بشكل يختلف تماما عما تفعله خطابات النواب الليبراليين الطويلة ! ونقرأ ايضا :

> نطلب ايضا في «صلاتنا للاله الاب» : «لا تدخلنا في التجربة» . وما نطلبه لانفسنا يتعين ان نطبقه بأنفسنا على قريبنا . والحال من المؤكد ان أوضاعنا الاجتماعية هي تجربة بالنسبة للانسان وان تفاقم البؤس يدفع الى الجريمة .

**ونحن** ، ايها السادة البيرقراطيون ، قضاة ومستشارين في المجمع الديني للدولة البروسية ، نطبق هذه الحكمة بالضرب ، قطع الراس ، السجن ، الجلد بطيبة خاطر ،

---

★ نشر في العدد ٧٣ الصادر في ١٢ ايلول ١٨٤٧ من «صحيفة بروكسل الالمانية» .

وهكذا «ندخل في التجربة» البروليتاريين لكي يضربونا ، يقطعوا رؤوسنا ، يسجنونا، ثم يجلدونا فيما بعد . وهذا امر سوف يحدث لا محالة .

ان حالة كهذه للاشياء ، يصرح السيد المستشار في المجمّع الديني ، لا ينبغي للدول المسيحية ان تتسامح معها ، ينبغي ان تأتي لها بالعلاج .

نعم ، معالجتها بالشرلطانيات الحمقاء حول التزامات تضامن المجتمع ، بالفوائض الوهمية والسندات على الله الاب ، الابن وشركائهما ، التي لا يمكن الا ان يجري بشأنها نكَرة (بروتستو) .

يمكن ايضا الاقتصاد في الثرثرة المثيرة للسأم في كل الاحوال ، حول الشيوعية ، يقول مستشارنا دقيق الملاحظة في المجمع . فلن يلبث الشيوعيون ان يكفوا عن الكلام ، شريطة ان يطور المسؤولون المبادىء الاجتماعية المسيحية .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية قد توافر لها حتى الان ثمانيةعشر قرنا للتطور، وهي ليست في حاجة الى تطوير اضافي يقوم به المستشارون في المجمع الكنسي البروسي .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية قد بررت الرق القديم ، مجدت القنانة الوسطوية ، كما ارتضت ، عند الحاجة ، الدفاع عن اضطهاد البروليتاريا ، حتى وان فعلت ذلك متظاهرة بالاستياء .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية تبشر بضرورة وجود طبقة مهيمنة وطبقة مضطهَدة ، وليس لديها ما تقدمه الى الاخيرة سوى الدعاء الورع بأن تتكرم الطبقة الاولى وتحسن عليها .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية تضع في السماء ذلك التعويض عن كل المهانات التي يتحدث عنها مستشارنا ، مبررة بذلك استمرارها في هذه الدنيا .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية تعلن ان جميع القباحات التي ينزلها المضطهِدون بالمضطهَدين هي اما العقاب العادل على الخطيئة الاصلية والخطايا الاخرى ، واما الاختبارات التي يفرضها الله ، بحكمته اللامتناهية ، على الذين افتداهم .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية تدعو الى التخاذل ، احتقار الذات ، الذل ، الخنوع ، الضعة ، وبكلمة : انها تدعو الى صفات السوقة الذليلة ؛ والبروليتاريا ، التي لا ترتضي ان تعامل معاملة السوقة الذليلة ، بحاجة الى شجاعتها ، الى الشعور بكرامتها وكبريائها ، الى روحها الاستقلالية ، اكثر بكثير مما هي بحاجة الى خبزها .

ان المبادىء الاجتماعية للمسيحية هي مبادىء المرائين ، اما البروليتاريا فثورية.

هذا كافٍ بالنسبة للمبادىء الاجتماعية للمسيحية .

فلنتابع :

لقد عرفنا في الاصلاح الاجتماعي اكثر اتجاهات النظام الملكي نبلا .

اصحيح هذا ؟ حتى الان لم يطرح البتة هذا الموضوع . لكن ، ليطرح . ممّ يتألف الاصلاح الاجتماعي الذي تريده الملكية ؟ من فرض ضريبة مسروقة من اجهزة

الليبرالية ، ضريبة من شأنها ان تؤدي الى فوائض لا يعرف عنها وزير المال شيئا ، من اقامة مصارف تسليف عقاري أفلست ، من مد خطوط حديدية بروسية شرقية، وبخاصة الافادة من راسمال الخطيئة الاصلية الضخم وخلاص البشر !

«هذه هي مصلحة النظام الملكي بالذات» ـ فالى اي مستوى ينبغي ان تهبط الملكية اذن ؟

«هذا ما يتطلبه شقاء المجتمع» ـ الذي يطالب بحواجز جمركية اكثر بكثير مما يطالب بمعتقدات .

«هذا ما يوصي به الانجيل» ـ كل شيء يوصي به ، ما عدا الفراغ الهائل في صناديق الدولة البروسية ، تلك الهوة لا قرار لها ، والتي سوف تبتلع لا محالة في ثلاث سنوات الخمسة عشر مليونا روسيا . وفضلا عن ذلك ، فالانجيل يوصي بأشياء كثيرة ، منها الخصي ، بمثابة اول تدبير من الاصلاح الاجتماعي يطبقه المرء على نفسه (انجيل متى ٢٥) .

ان الملكية ، يعلن مستشارنا في المجمع الكنسي ، تشكل والشعب كلا واحدا.

ان هذه العبارة ليست سوى صيغة اخرى للتأكيد القديم : الدولة هي انا ، وهذه بالضبط هي الصيغة التي استخدمها لويس السادس عشر في ٢٣ حزيران ١٧٨٩ في مواجهة طبقات العموم (١) المتمردة : اذا لم تطيعوا ، فسأصرفكم الى بيوتكم ـ وانا وحدي سأحقق سعادة شعبي .

من المفروض ان تكون الملكية في ارتباك شديد حتى تعمد الى استعمال هذه العبارة ، وان مستشارنا في المجمع الكنسي علاّمة الى درجة انه يعرف كيف شكر الشعب الفرنسي ، في تلك الفترة ، لويس السادس عشر على استعمال تلك العبارة.

يجب على العرش ، يؤكد السيد المستشار في المجمع الكنسي ، ان يرتكز على القاعدة الواسعة من الشعب ، الامر الذي يؤمن ثباته بشكل افضل .

ما دامت اكتاف الشعب العريضة لا تلقي في الوحل ، في الواقع ، بضربة قوية هذا البنيان الفوقي المزعج .

ان **الارستقراطية** تترك ، يستنتج السيد المستشار في المجمع الكنسي ، للملكية كرامتها وتضفي عليها زينة شعرية ، لكن تسلبها السلطة الفعلية ! البورجوازية تسلبها السلطة والكرامة ، ولا تمنحها سوى لائحة مدنية . اما الشعب فيحفظ للملكية سلطتها ، كرامتها وشاعريتها .

في هذا المقطع ، نرى السيد المستشار في المجمع الكنسي يقبض بصورة جدية جدا النداء المتبجح الذي وجهه فريديريك غليوم الى **شعبه** في خطاب العرش . كلمته الاخيرة كانت : لتسقط الارستقراطية ، لتسقط البورجوازية ، لتقم ملكية مستندة الى الشعب .

---

١ ـ طبقات العموم هي طبقات الشعب الاخرى عدا الارستقراطية والاكليروس . (م)

لو ان هذه المتطلبات لم تكن نزوة خالصة ، لانطوت على ثورة شاملة .

لا حاجة للتأكيد على واقع ان الارستقراطية لا يمكن ان تقلب الا بتضافر جهود البورجوازية والشعب ، وان الحكم بواسطة الشعب في بلد ما تزال توجد فيه جنبا الى جنب ارستقراطية وبورجوازية امر محال . ومثل هذيانات مستشار في مجمع ايشهورن الكنسي لاتمكن معارضتها الا ببسط جدي للمسائل .

سوف نكتفي ببعض الملاحظات المخلصة نوجهها الى السادة الذين يريدون انقاذ الملكية البروسية المذعورة بفضل قفزة خطيرة قد تجعلها تسقط في وسط الشعب .

من سائر العناصر السياسية ، فان الشعب هو الاكثر خطرا على الملك. لا الشعب الذي يتحدث عنه فريدريك غليوم ، الذي يذوب ، وعيناه مغرورقتان بالدموع ، شكرانا لانه تلقى ركلة وقطعة فضة صغيرة ؛ هذا الشعب ليس خطرا البتة ، ذلك لانه لا يوجد الا في مخيلة الملك . لكن الشعب الحقيقي ، البروليتاريين ، الفلاحين الصغار ، العوام ، هو ، كما قال هوبس ، ولد قوي لكنه ماكر ، وهو لا يسمح بأن يخدعه لا الملوك المهزولون ولا الملوك المكرشون .

وقبل كل شيء ، ان شعبا كهذا ينتزع من الملك دستورا ينص على الاقتراع العام، حرية التجمع ، حرية النشر ومزعجات اخرى .

ما ان ينال كل ذلك ، حتى يستعمله بأقصى سرعة ممكنة في تفسير ما هي **سلطة** الملكية ، **كرامتها وشاعريتها** .

ان الفاضل واضع اليد الحالي على هذه الملكية يمكنه حينئذ ان يعتبر نفسه سعيدا اذا ما استخدمه الشعب كمنشد عام لدى جمعية الحرفيين البرلينيين بمخصصات قدرها ٢٥٠ تالير ونصف قنينة بيرة يوميا .

واذا كان السادة المستشارون في المجمع الكنسي الذين يتولون اليوم مقدرات الملكية البروسية و«المراقب الريناني» يشكون في ذلك ، فليعملوا فقط لتأمل التاريخ. ان التاريخ يتنبأ بطوالع اشد اقلاقا للملوك الذين يحتكمون الى شعوبهم .

ان شارل الاول ، ملك انكلترا ، قد لجأ ، هو ايضا ، الى **شعبه** ضد طبقات العموم . دعا شعبه الى حمل السلاح ضد البرلمان . لكن الشعب وقف ضد الملك ، طرد من البرلمان جميع الاعضاء الذين لم يكونوا يمثلون الشعب ولكي تحسم المسألة قطع راس الملك بواسطة البرلمان الذي اصبح الممثل الحقيقي للشعب . الى هذا المصير آل نداء شارل الاول الى شعبه . ولقد وقع هذا الحدث في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩ ، ولسوف يحتفل في العام ١٨٤٩ بذكرى مرور مئتي عام عليه .

ان لويس السادس عشر قد لجأ هو ايضا الى **شعبه** . خلال ثلاث سنوات لم يكف عن توجيه النداءات الى قسم من الشعب ضد الآخر ، بحث عن **شعبه** ، **الشعب الحقيقي** ، الشعب المتلهب حماسة له ، فلم يجد له اثرا. في النهاية وجده في معسكر كوبلانس ، خلف صفوف الجيوش البروسية والنمساوية . لكن شعبه في فرنسا لم يستسغ ذلك . في ١٠ آب ١٧٩٢ سجن في معتقل تامبل ذلك الذي كان ما يفتأ

يستصرخه ، ودعا «الائتلاف القومي» (١) الذي كان يمثله في جميع النواحي الى الاجتماع .

هذا الائتلاف القومي قد اعتبر نفسه اهلا للبت في نداء الملك السابق وبعد بضع مداولاتارسل المناديالى ساحة الثورة حيث ُجز راسه في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ .

هذا هو ما حدث عندما **تلجأ الملوك الى شعوبها**. اما معرفة ما يحدث عندما يريد المستشارون في المجمع الكنسي اقامة ملكية ديمقراطية ، فتقتضي الانتظار .

---

١ ـ هيئة تمثيلية فرنسية اثناء الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، استمرت من ايلول ١٧٩٢ حتى تشرين الاول ١٧٩٥ وقد عملت لتوطيد مكاسب الثورة وتصفية العلاقات الاقطاعية . (م)

٨ .

كارل ماركس ـ فريدريك انجلس

# البيان الشيوعي

## (مقتطفات من الفصلين الثاني والثالث)

... اما التهم الموجهة بصورة عامة ضد الشيوعية ، من وجهات نظر دينية ، فلسفية وايديولوجية ، فلا تستحق فحصا معمقا .

اثمة حاجة الى ثاقب نظر لكي يدرك المرء ان أفكار الناس ومفاهيمهم وتصوراتهم ، وبكلمة وعيهم ، تتغير مع كل تغير يطرأ على ظروف حياتهم ، على علاقاتهم الاجتماعية ووجودهم الاجتماعي .

الا يبرهن تاريخ الافكار على ان الانتاج الذهني يتغير مع تغير الانتاج المادي ؟ ان الافكار المهيمنة في عهد من العهود لم تكن ابدا سوى أفكار الطبقة المهيمنة .

وعندما يتحدث المرء عن أفكار تثوّر مجتمعا بأسره ، انما يعلن فحسب انه قد تشكلت ، في حضن المجتمع القديم ، عناصر مجتمع جديد ، وان انحلال الافكار القديمة يسير جنبا الى جنب مع انحلال ظروف الوجود القديمة .

عندما كان العالم القديم على اعتاب الزوال ، اندحرت الديانات القديمة امام الدين المسيحي . وفي القرن الثامن عشر ، عندما تراجعت الافكار المسيحية امام أفكار التقدم ، كان المجتمع الاقطاعي يخوض معركته الاخيرة ضد البورجوازية ، التي كانت ثورية آنئذ . ان فكرات حرية المعتقد والحرية الدينية لم تفعل شيئا سوى المناداة بسيادة حرية المنافسة في ميدان المعرفة .

يقولون : «على الارجح ، ان الافكار الدينية ، الاخلاقية ، الفلسفية ، السياسية ، الحقوقية ، الخ ، قد تغيرت في مجرى التطور التاريخي . ولكن الدين ، الاخلاق ، الفلسفة ، السياسة ، الحقوق كانت تبقى على حالها على الدوام خلال هذه التغيرات .

«كما توجد حقائق ازلية ، كالحرية ، العدالة ، مشتركة بين كل الانظمة الاجتماعية . والحال ان الشيوعية تلغي الحقائق الازلية ، تلغي الدين والاخلاق بدلا من ان تجدد صيغتهما ، الامر الذي يناقض كل التطور التاريخي السابق» .

ولكن ما خلاصة هذا الاتهام ؟ ان تاريخ كل مجتمع حتى أيامنا هذه قد صنعته

تناحرات طبقية ، تناحرات ارتدت ، تبعا للعهود ، اشكالا مختلفة .

ولكن ، أيا كان الشكل الذي ارتدته هذه التناحرات ، فان استغلال قسم من المجتمع من قبل آخر هو واقعة مشتركة بين سائر العصور السالفة . اذن فليس ثمة ما يدهش اذا كان الوعي الاجتماعي في سائر العصور ، رغم كل تنوعها واختلافها ، يتحرك في اطار بعض الاشكال المشتركة ، اشكال للوعي لن تذوب تماما الا مع زوال تناحر الطبقات زوالا تاما .

ان الثورة الشيوعية هي القطيعة الاكثر جذرية مع النظام التقليدي للملكية ؛ فلا عجب اذا بتت ، في مجرى تطورها ، وعلى النحو الاكثر جذرية، مع الافكار التقليدية.

... وكما ان الكاهن والسيد الاقطاعي يسيران دوما يدا بيد ، كذلك الامر فالاشتراكية الكهنوتية تسير جنبا الى جنب مع الاشتراكية الاقطاعية (١) .

وليس ثمة ما هو أسهل من طلي التقشف المسيحي بطلاء الاشتراكية . ألم تنهض المسيحية ، هي أيضا ، ضد الملكية الخاصة ، الزواج ، الدولة ؟ ألم تبشر ، بدلا عنها، بالمحبة والاستجداء ، بالتبتل وقتل الجسد ، بالحياة الرهبانية والكنيسة ؟ ان الاشتراكية المسيحية (٢) ليست سوى الماء المقدس الذي يكرس به الكاهن غيظ الارستقراطية .

١ ـ اتجاه رجعي كان يجهد ، من خلال ديماغوجية اجتماعية معادية للراسمالية ، لاجتذاب العمال الى صف الطبقات الاقطاعية واستخدامهم في صراع هذه الطبقات ضد البورجوازية . في فرنسا كان جزء من انصار الملكية - انصار سلالة آل بوربون ، يقوم بدعاية كهذه . في انكلترا ، قامت بهذا جماعة «انكلترا الفتاة» التي كانت تتألف من ارستقراطيين وأدباء ، وكانت قريبة من حزب «التوري» (دزرائيلي ، كارلايل ، الخ) . وقد كان لهذا الاتجاه بعض التأثير على عناصر من الحزب الاقطاعي لنبلاء الريف البروسيين . وكانت جريدة «المراقب الريناني» تنشر في المانيا وجهات نظر هذا الحزب ، وقد كتب ماركس مقاله «شيوعية المراقب الريناني» ضدها .

٢ ـ اتجاه رجعي كان يحاول تقنيع الايديولوجيا الدينية بلفظيةطنانة «إشتراكية»، كانت تستخدمها الطبقات الاقطاعية والطبقة البورجوازية على السواء . وقد تجلت في صيغة ناضجة في فرنسا في اربعينات القرن التاسع عشر ؛ وكان ممثلاه الرئيسيان «بوشيز» (١٧٩٦ ـ ١٨٦٥) و«لامينيه» . واكتسب هذا الاتجاه بعض التأثير في انكلترا ايضا ، حيث بث افكاره الاشتراكيون الاقطاعيون من جماعة «انكلترا الفتاة» . في المانيا ، في الاربعينات ، قام بالدعاية الاشتراكية المسيحية ممثلو الحزب الاقطاعي والكهنوتي للحكومة البروسية والكنيسة الكاثوليكية سواء بسواء .

٩ .

كارل ماركس ـ فريدريك انجلس

# تقرير عن كتاب ج . ف . دومر :
# « دين العصر الجديد ــ بحث في اساس تراكيبي وحكمي »
## (ثلاثة مجلدات . هامبورغ ، ١٨٥٠) ★

كان في نورمبورغ رجل ، فضلا عن انه ليبرالي ومنفتح على الاشياء الجديدة، يكره التحريض الديمقراطي كرها راعبا . كان يكرم رونجه فيملق صورته في مكتبه . لكن عندما بلغه انه الى جانب الديمقراطيين ، علق الصورة في المرحاض. قال مرة : كم كنا سعداء ، لو اننا نعيش فحسب تحت السوط الروسي ! ولقد مات خلال الاضطرابات ، وانني افترض ، رغم انه اصبح شيخا ، ان غضبه وحزنه للمنحى الذي اخذته الاشياء هما وحدهما اللذان قاداه الى القبر (المجلد٢ ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ) .

لو أن هذا الجهول المسكين ، جهول نورمبورغ ، لم يمت وشرع بجمع قلامات فكر مأخوذة من «مراسل من ولاجل المانيا» لـ شيلر وغوته»، من كتب مدرسية عتيقة، من كتب المكتبات الجديدة للاعارة ، لكان وفر على نفسه الموت وعلى السيد دومر ثلاثة مجلدات في الاساس التراكيبي الحكمي ، التي كانت ثمرة جهد مضن . وبالتأكيد لما كانت تسنت لنا عندئذ الفرصة المثقفة للتعرف على دين العصر الجديد وعلى شهيده الاول في نفس الوقت .

ان مؤلف السيد دومر مقسم الى جزئين ، جزء «تمهيدي» ، وجزء «بالمعنى الضيق» . في الجزء التمهيدي يعبر الامين ايكارت (١) الفلسفة الالمانية عن حزنه

---

★ نشرت في الصحيفة الرينانية ، مجلة اقتصادية وسياسية ، العدد ٢ ، شباط ١٨٥٠ ، هامبورغ ١٨٥٠ .

١ ـ ايكارت الامين : احد أبطال الاساطير الشعبية الالمانية في العصور الوسطى . (م)

العميق لرؤيته ، منذ سنتين ، المفكرين والمثقفين الالمان ، بالذات ، قد انجـروا الى تضحية فتوح الفكر الرائعة جدا لحساب النشاط الثوري «المخارجي» الخالص . فهو يقدر ان اللحظة الراهنة مواتية ، مرة اخرى ايضا ، لاستنهاض أرفع مشاعـر الامة ؛ ويبين ماذا يعني التخلي الطائش عن كل الثقافة الالمانية التي ، هي وحدها ، جعلت من المواطن الالماني شيئا ما . انه يجمع كل ماهية الثقافة الالمانية في أبلـغ الحـكم او الامثلة السائرة التي يوفرها له كنز مطالعاته وهو ، بالتالي ، لا يسخِّف تلـك الثقافة بأقل مما يسخف الفلسفة الالمانية . ان باقته ألتي جمعها من اسمى نتاج الفكر الالماني تتجاوز في تفاهتها وابتذالها حتى اكثر كتب المطالعة عامية وابتذالا المعـدّة لآنسات أسرة محافظة . من الهجمات الجهولة التي شنها غوته وشيلر على الثـورة الفرنسية الاولى ، (منذ العبارة الكلاسية : «من الخطر ايقاظ الاسد» (١) ) حتى الادب الاكثر حداثة ، ينبش الكاهن الكبير للدين الجديـد كل مقطع بحميـة ، حيث اللحى الالمانية العتيقة ، الكئيبة ، الناعسة ، تقفُ ضد كل تطور تاريخي يزعجهـا . ان حججا (٢) من وزن فريدريك رومر ، بارتولد ، أورباخ ، لوكنـر ، موريس كارير ، الفرد مايسنر ، كروغه ، دينغيلستيت ، رونجه ، [جريـدة] «مراسل نورمبورغ» ، ماكس فالدو ، شتيرنبورغ ، جرمان مورر ، لويز آستـون ، ايخرمـان ، نو واك ، [جريدة] اوراق من أجل السلوى الادبية ، أوغست كونزه ، غيلاني ، تيودور موندت، سافير ، غوتزكوف ، سيدة ما «من أسرة غاترر» ، الخ ... هي الدعائم التي يقـوم عليها هيكل الدين الجديد . ان الحركة الثورية ، التي ترتفع ضدها هذه الكثرة مـن الاصوات ، تقتصر في رأي السيد دومر ، من جهـة على السياسة السخيفـة لمقهى التجارة ، كما يمارسونها في نورمبورغ تحت رعاية «مراسل من ولاجل المانيا» ، و ، من جهة اخرى ، على تطرف السوقة التي يكون عنها السيد دومر فكرة لا تصـدق أبدا . ان المنابع التي يستقي منها هنا ليست أفضل من الوجوه السابقة التي تضم ، الى جانب [جريدة] «مراسل نورمبورغ» ، المذكورة قبل قليل ، «صحيفة بامبورغ»، «البريد المحلي» ، «الصحيفة العمومية» لـ أوغسبورغ ، الخ ... ان الابتذال العامي الجهول الذي لا يريد ان يرى في البروليتاريين سوى صعاليـك ماجنين وفاسدين والذي يفرك يديه راضيا عن أنباء مذابح حزيران ١٨٤٨ في باريس ، حيث قضى اكثر من ثلاثة آلاف ، هذا الابتذال العامي نفسه يسخط من التهكم الذي أنزل بجمعيـات الرفق بالحيوان .

ان الذبابات المريعة ، يصرخ دومر (ص ٢٩٣ ، المجلد الاول) ، التي يعانيها الحيوان التعيس على يد الانسان العاتية الفظة ، «لا يُعنى» بها هؤلاء البرابرة ولا ينبغي لاحد في رأيهم ان يوليها اهتماما !

---

١ ــ شيلر : «نشيد الجرس» .

٢ ــ جمع حجة ، وهي ترجمة لكلمة autorité وتعني هنا المرجع ذو الخطوة والتأثير . (م)

ان كل صراع الطبقات الحديث لا يبدو في نظر السيد دومر الا بوصفه صراع «البربرية» ضد «الحضارة» . وبدلا من ان يفسره بالشروط التاريخية لهذه الطبقات، يجد أسبابه في الدسائس التخريبية لبعض من الآثمين الذين يؤرثون الاطماع الدنيئة للسوقة ضد الطبقات المثقفة .

> ان هذا الهوس ، هوس الاصلاح الديمقراطي ؟ ... يؤرث حسد ، غيظ ، شره الطبقات الدنيا من المجتمع ضد الطبقات العليا ؛ انها لوسيلة طيبة تلك التي تجعل الانسان أنبل وأفضل وتبني ثقافة جديدة أرفع (المجلد الاول ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩) .

ان السيد دومر لا يعرف حتى اي معارك يجب ان تخوضها «طبقات المجتمع الدنيا ضد الطبقات العليا» لكي تشيع «ثقافة» ، حتى ولو كانت ثقافة نورمبورغ ، ولكي تجعل صياد مولوخ ممكنا على طريقة دومر (١) .

الجزء الثاني «بالمعني الضيق» ينطوي على عرض الجانب الايجابي من الدين الجديد . وهنا يعبر عن كل غضب فيلسوف الماني من رؤية مدى النسيان الذي سقطت فيه معاركه ضد المسيحية ، من رؤية عدم اكتراث الشعب بالدين ، وهو الموضوع الوحيد الجدير بأن يسترعي انتباه الفلاسفة . ولاجل تشريف حرفته التي قضت عليها المنافسة ، لم يبق من حل آخر لحكيمنا العالمي ، بعد ان شبع من النباح ضد الدين القديم ، الا اختراع دين جديد . لكن هذا الدين الجديد ليس شيئا آخر سوى تزويق ياقة القسم التمهيدي الذيأكمله بوقار. نجد فيه مجموعةحكم، اشعارا لالبوم عائلي ، حكما شعرية من الثقافة الالمانية الجهولة . ان سور القرآن الجديد (٢) ليست شيئا آخر سوى سلسلة جمل فارغة تجمل أخلاقيا وتضفي مسحة شعرية على الوضع القائم في المانيا . وهذه الجمل الفارغة مع انها مجردة من الشكل الديني المباشر ، الا انها مرتبطة بالدين ارتباطا حميما .

> ان بنيانا وشروطا عالمية جديدة تماما لا يمكن ان تولد الا بواسطة أديان جديدة . فالمسيحية والاسلام يمكن ان يقدما قدوة وبرهانا على سلطان الاديان ؛ والحركات التي تحققت في العام ١٨٤٨ هي مستندات مقنعة جدا وملموسة تشهد على العجز وعدم الفاعلية اللذين تعاني منهما السياسة المجردة ، السياسةالمقتصرة على ذاتها (المجلد الاول ، ص ٣١٣) .

هذه الجمل الغنية بالمعاني تبين لنا في الحال سخافة وجهل هذا «المفكر» الالماني الذي يعتبر «فتوح آذار» الصغيرة في المانيا ، وفي بافاريا على الاخص ، بالنسبة للحركة الاوروبية للعام ١٨٤٨ و ٤٩ كلها ، الذي يتطلب من الهيجانات الاولى، وهي ما

---

١ - تلميح الى مؤلف دومر «عبادة النار ومولوخ لدى العبرانيين» ، برونشفيك ١٨٤٢ ، والى كتاب «اسرار العصر القديم» ، هامبورغ ، ١٨٤٧ .

٢ - تلميح ساخر الى كتاب دومر «محمد وأعماله» ، هامبورغ ، ١٨٤٨ .

تزال سطحية جدا في حد ذاتها ، لثورة كبيرة تعد وتتكثف تدريجيا ، ان تولد «بنيانا دوليا وشروطا عالمية جديدة كليا» . ان الصراعات الاجتماعية المعقدة ، التي شوهدت أولى مناوشاتها خلال العامين الاخيرين بين باريس وديبريسزن، بين باريس وبالرمو ، تقتصر في رأي الحكيم العالمي دومر على واقع انه « في كانون الثاني ١٨٤٩ تراجعت آمال جماعات ابرلنجن الى أبعاد لا يمكن بلوغها» (المجلد الاول ، ص ٣١٢) وعلى الخوف من معركة جديدة يخشى ان تزعج مرة اخرى السيد دومر مشغول بـ حافظ ، محمد وبرتولد أويرباخ .

ان البلاهة الصفيقة بالذات تسمح للسيد دومر ان يجهل جهلا مطلقا ان المسيحية قد سبقها انهيار كلي في «البنيان العالمي» للعصر القديم ، انهيار كانت المسيحية مجرد تعبير عنه ؛ وان «بنيانا جديدا كليا» لم ينبثق من المسيحية بفضل تطور داخلي بل ولد فقط عندما «انقضَّت شعوب الهون والجرمان من الخارج على جثة الامبراطورية الرومانية» ؛ وانه بعد الاجتياح الجرماني ليس «البنيان الجديد» هو الذي احتذى المسيحية وتشكل وفقا لها ، بل ان المسيحية هي التي تحولت مع كل مرحلة من مراحل هذه الحالة الجديدة للاشياء . وفضلا عن ذلك ، فليتفضل السيد دومر باعطائنا مثلا واحدا عن دين جديد أحدث تغييرا في البنيان العالمي القديم ، من غير ان تحدث في الوقت نفسه ، بأقصى درجات العنف ، اختلاجات «خارجية وتجريديا سياسية» .

من الواضح ان زلزلة تاريخية كبيرة جدا في الشروط الاجتماعية تجر في نفس الوقت الى زلزلة في مفاهيم وتمثيلات البشر ، وبالتالي في تمثيلاتهم الدينية . لكن الفرق بين الثورة الحالية وكل ما سبقها من ثورات يتمثل بالضبط في التوصل اخيرا الى الكشف عن هذه السيرورة الداخلية للزلزلة ، وبالتالي الى نبذ كل دين ، بدلا من ان تصعّد مرة اخرى ايضا هذه السيرورة التاريخية،«الخارجية»، في صورة متعالية لدين جديد .

بعد التعاليم الاخلاقية الحلوة للحكمة الكونية الجديدة التي تتجاوز كينفه (١) بقدر ما تتضمن ما ينبغي معرفته لا حول العلاقات مع البشر فقط ، بل ايضا حول العلاقات مع الحيوانات ــ بعد حِكَم سليمان ، هوذا نشيد أنشاد سليمان الجديد :

> **الطبيعة والمرأة** هما الالهي الحقيقي بالتقابل مع **البشري والرجولي** ...
> ينبغي للبشري ان ينذر نفسه للطبيعي ، والرجولي للانثوي : هوذا التواضع الاصيل ، الحقيقي الوحيد ، هبة الذات ، الفضيلة ، التقوى السامية ، بل التقوى الوحيدة الكائنة (المجلد ٢ ، ص ٢٥٧) .

هنا نرى الجهل المنافق للمفكر ــ المؤسس للدين يتحول الى جبن مميز . السيد

---

١ ــ تلميح الى كتاب أدولف كينفه «في التعامل بين الناس» .

دومر ، أمام المأساة التاريخية التي تتهدده عن كثب ، يلجأ الى طبيعة ما مزعومة ، اي الى الغزليات الريفية الحمقاء ؛ انه يبشر بعبادة المرأة ليخفي خنوعه ، خنوع المرأة العجوز .

ان عبادة الطبيعة لدى السيد دومر هي ، فضلا عن ذلك ، من نوع خاص مفرد. لقد انتهى الى اتخاذ موقف رجعي ، حتى قياسا بالمسيحية . انه يحاول ان يبعث ويرمم الدين الطبيعي القديم السابق للمسيحية في صيغة عصرية . وعندما يفعل ذلك ، لا يتجاوز بالطبع ثرثرة على الطريقة المسيحية ـ الجرمانية ـ البطريركية ، وهذه عينة منها :

أيتها الطبيعة العذبة ، المقدسة ،
دعيني اقتفي اثركِ
امسكي بيدي وقوديني
مثل ولد مشدود بطوق .

ان افكارا مماثلة فاتت موضتها ، لكن الثقافة ، التقدم والسعادة البشرية لم تفد منها شيئا (المجلد ٢ ، ص ١٥٧) .

ان عبادة الطبيعة تقتصر ، كما نرى ، على نزهات ريفي ربانية ، يظهر اندهاشه الساذج لرؤية [طائر] ألكوكو يضع بيضه في أعشاش غريبة (المجلد ٢ ، ص ٤٠) ، لملاحظة ان للدمع وظيفة ترطيب سطح العين (المجلد٢ ، ص ٧٣) الخ، والذي ينتهي بأن ينشد برعدة مقدسة لاولاده «انشودة الربيع» لـ كلوبستوك (المجلد ٢ ، ص ٢٣ وما يليها) . اما العلوم العصرية في الطبيعة التي تزلزل ، بترابط مع الصناعة العصريه ، الطبيعة كلها وتضع كذلك وفي آن معا حدا لموقف الانسان الصبياني تجاه الطبيعة ولصبينات اخرى ، ـ كل هذا ليس واردا عنده بالطبع . عوضا عن ذلك ، يقدم لنا تلميحات غامضة وهواجس وحدوس جهولة حول نبوءات نوستراداموس والرؤية الثانية للايكوسيين والمغناطيس الحيواني . ومن جهة اخرى ، فمن المرجو ان نجد هذا الاقتصاد الفلاحي البافاري (وهو تربة يتزايد فيها الكهنة وأمثال دومر) يضطرب ويتزلزل في النهاية بسبب الاساليب الزراعية والماكينات الحديثة .

وعبادة المرأة شأنها شأن عبادة الطبيعة بالضبط . من البديهي ان السيد دومر لا يقول كلمة واحدة حول الوضع الاجتماعي الراهن للنساء ، بل يقصر كلامه على المرأة في ذاتها . انه يحاول تعزية النساء في وضعهن الاجتماعي البائس بتكريسه لهن لفظيات طنانة خاوية بقدر ما هي ملغزة بزيف . انه يهدئهن بقوله انه اذا انتهت مواهبهن مع الزواج، فذلك لانهن مدعوات بعده للاهتمام بالاولاد (المجلد٢ ، ص ٢٣٧)، وانهن يمتلكن القدرة على تغذية الاولاد، حتى يبلغن سن الستين (المجلد ٢ ، ص ٢٤٤)، الخ . ان السيد دومر يسمي هذا «تعبد الرجولي للانثوي» . ولكي يجد في بلاده الشخصيات النسوية التي يحتاج اليها في تعبده الرجولي ، يضطر الى البحث عن ملجأ بين عدة سيدات من ارستقراطية القرن الماضي . وتختزل عبادة المرأة مرة اخرى

ايضا الى علاقات أدباء مكتئبين بمحسنات محترمات ـ فلهلم مايستر (١) .

ان الثقافة ، التي ينحب السيد دومر على انحطاطها ، هي ثقافة الفترة التي كانت فيها نورمبورغ ، المدينة الحرة للامبراطورية ، مزدهـــرة ، وحيث كانت صناعـــة نورمبورغ ، هذا الشيء المزيج من فن وحرفة ، تلعب دورا مهمـــا ، هـــي ثقافـــة البورجوازية الالمانية الصغيرة وان هذه الثقافة تزول بزوال هذه البورجوازيةالصغيرة. اذا كان انحطاط طبقات اخرى ، كطبقة الفرسان ، قد أستطاع تقديم مادة لآثار فنية عظيمة مأساوية ، الا انه امر متفق مع طبيعة البورجوازية الصغيرة الجهولة الا تنتـــج شيئا آخر سوى التعبير العاجز عن لؤم متعصب ومجموعة من الحكم والتعاليم كالتي جاء بها سانخو بانسا(٢). ان السيد دومر يكمل هانس ساخس، لكنه هانس ساخس ما جاف لا يعرف الدعابة . ان الفلسفة الالمانية تتقلب لوعة وتنوح على سرير وفـــاة البورجوازية الالمانية الصغيرة الجهولة ، أمها المرضعة : هذه هي اللوحة المؤثرة التـــي يعرضها امام أعيننا دين العصر الجديد .

---

١ ـ يشير ماركس وانجلس هنا الى رواية غوته : «أسفار فيلهلم مايستر» ، حيث تبين بعض المشاهد الخضوع المذل المفروض على رجال العلم والفنانين ازاء الناس ذوي الالقاب .

٢ ـ سانخو بانسا : احدى شخصيات رواية دون كيخوت ، تتميز بالثرثرة والجهل . (م)

١٠ ٠

فريدريك انجلس

# حرب الفلاحين(*)

ان تجميع الانظمة ، وقد أصبحت متعددة جدا ، في وحدات أهم كان قد تعطل كلية تقريبا بفعل اللامركزية والاستقلال المحلي والاقليمي ، العزلة التجارية والصناعية لمختلف الاقاليم عن بعضها والحالة السيئة لطرق المواصلات . لم يقم ذلك التجميع الا مع حركة الاصلاح الديني ، مع انتشار الافكار الثورية ، الدينية والسياسية . ان مختلف الطبقات التي تعتنق تلك الافكار او ترفضها كانت تحشد الامة ، والحق يقال، بشكل مخلخل وتقريبي تماما في ثلاثة معسكرات كبيرة : المعسكر الكاثوليكي او الرجعي ، المعسكر اللوثري البورجوازي ـ الاصلاحي والمعسكر الثوري . واذا كان قد ُوجد ضمن هذا التجزيء الكبير للامة قليل من المنطق ، اذا كانت قد وجدت احيانا العناصر نفسها في المعسكرين الاولين ، فذلك كان عائدا الى حالة الانحلال التي كانت عليها في ذلك العهد غالبية الانظمة الرسمية الموروثة عن العصر الوسيط والى اللامركزية التي كانت في مختلف المناطق تدفع الفئات نفسها موقتا في اتجاهات متعارضة . كثيرا ما حدث لنا ، خلال هذه السنوات الاخيرة ، في المانيا ، ان شهدنا ظاهرات متشابهة لدرجة ان مثل ذلك الخليط الظاهري بين الفئات والطبقات في ظروف القرن السادس عشر المعقدة جدا لم يعد يدهشنا .

ان الايديولوجيا الالمانية ، رغم التجارب حديثة العهد ، لا ترى في صراعات العصر الوسيط سوى مشاجرات لاهوتية عنيفة . فلو تمكن الناس في ذلك العصر من الاتفاق على الاشياء السماوية لما بقي اي سبب للخصومة حول امور هذا العالم ، على حد آراء مؤرخينا ورجال الدولة الذين نحن بصددهم . هؤلاء الايديولوجيون قوم سذج بحيث

---

★ كُتبت عام ١٨٥٠ ، ونشرت في «الصحيفة الرينانية الجديدة ، المجلة السياسية والاقتصادية»، العددان ٥ و٦ ، هامبورغ ، ايار وتشرين اول ١٨٥٠ .

يحملون على محمل الجد كل الاوهام التي ينسجها عصر عن نفسه ، او التي يتصورها ايديولوجيو عصر ما عنه . هذا النوع من الناس لا يرى ، مثلا ، في ثورة ١٧٨٩ الا جدالا على جانب من العنف حول حسنات الملكية الدستورية قياسا بالملكية المطلقة ؛ ولا يرى في ثورة تموز الا جدالا عمليا حول استحالة الدفاع عن الحق الالهي ، لا يرى في ثورة شباط سوى محاولة لحل معضلة : جمهورية أم ملكية ، الخ. اما **صراع الطبقات** ، الذي يتوالى عبر جميع تلك الزلزلات، الذي تعبر عنه الشعارات السياسية المنقوشة على رايات الاحزاب المتصارعة ، فلا يكاد ايديولوجيونا يفطنون له اليوم ، رغم ان خبره يأتيهم من البلاد الاخرى بشكل كاف ، بل رغم انه يدوي في الغضب الراعد للالوف المؤلفة من بروليتاريا بلادنا .

حتى في ما يدعى حروب الدين في القرن السادس عشر ، كانت المسالة قبل كل شيء مسألة مصالح مادية طبقية اكيدة تماما ، وان هذه الحروب كانت صراعات طبقية ، تماما كالمصادمات الداخلية التي حصلت فيما بعد في انكلترا وفرنسا . اذا كانت هذه الصراعات الطبقية قد اتخذت ، في ذلك العصر ، طابعا دينيا ، اذا كانت مصالح مختلف الطبقات وحاجاتها ومطاليبها قد تسترت بقناع الدين ، فذلك لا يبدل من الامر شيئا ، ويمكن تفسيره بسهولة بشروط العصر .

ان العصر الوسيط قد انطلق من العناصر الاولى الاولية . لقد ازاح كليا الحضارة القديمة ، الفلسفة ، السياسة ، الفقه القديم ، ليبدأ كل شيء من جديد . لم يبق من العالم القديم المنقرض سوى المسيحية وبضع مدن نصف مهدمة فقدت كل حضارتها . كانت النتيجة ، كما في جميع المراحل البدائية للتطور ، ان احتكر الكهنة الثقافة الذهنية ، واتخذت الثقافة نفسها سمة لاهوتية في جوهرها . بقيت السياسة والتشريع بين ايدي الكهنة ، شأن كل العلوم الاخرى ، مجرد فرعين من فروع علم اللاهوت ، واصبح البحث فيهما يجري وفق المباديء المطبقة في اللاهوت . فأصبحت معتقدات الكنيسة مسلمات أو حقائق سياسية مقررة ، وأخذت نصوص الكتاب المقدس صفة القانون أمام جميع المحاكم . وعندما نشأت طبقة مستقلة من المشرعين ، استمر التشريع زمنا طويلا تحت وصاية اللاهوت . لقد كانت هيمنة اللاهوت على الحقل الفكري برمته النتيجة الضرورية لوضع الكنيسة ، وهي التركيبة الاشمل للسيطرة الاقطاعية وجزاؤها ، في آن .

اصبح من الواضح اذن ان كل الهجمات الموجهة عموما ضد الاقطاعية تعتبر قبل كل شيء هجمات ضد الكنيسة ، وكل المذاهب الثورية، الاجتماعية منها والسياسية، تعتبر ، في آن وبصورة خاصة ، هرطقات لاهوتية . ولكي يغدو التعرض للظروف الاجتماعية ممكنا ، كان ينبغي تجريدها من سمتها المقدسة .

ان المعارضة الثورية للاقطاع قد استمرت طوال العصر الوسيط . فهي تظهر ، حسب الظروف ، تارة بشكل صوفي ، تارة ثانية بشكل هرطقة مكشوفة ، تارة ثالثة بشكل انتفاضة مسلحة . اما الصوفية ، فنحن نعرف كم كان مصلحو القرن السادس عشر يدينون لها . بل ان مونزر نفسه يدين لها بالكثير . كانت الهرطقات اما تعبيرا عن

ردة فعل رعاة جبال الالب ذوي المفاهيم البطريركية تجاه الاقطاعية المتسللة اليهم (الفوديون)(١)، واما تعبيرا عن معارضة المدن للاقطاعية (الالبيجيون(٢)، ارنولد دي برشيا، الخ)، واما مجرد انتفاضات قروية (جون بال، سيد هنفاريا (٣) في بيكارديا، الخ). وبامكاننا ان نهمل هنا هرطقات الفوديين البطريركية، وكذلك انتفاضات السويسريين، لانها، من حيث شكلها ومضمونها، محاولات رجعية لحجر حركة التاريخ، وليس لها سوى أهمية محلية. ونجد في الشكلين الاخيرين للهرطقة الوسطوية في القرن الثاني عشر رواد التناحر الكبير بين المعارضة البورجوازية وبين معارضة الفلاحين وعوام المدن، وهو التناحر الذي كان السبب الرئيسي في فشل حرب الفلاحين، اذ انه قد استمر طوال العصر الوسيط.

ان هرطقة المدن ـ وهي، بحصر المعنى، الهرطقة الرسمية للعصر الوسيط ـ كانت موجهة ضد الكهنة، وتهاجم ثراءهم ومكانتهم السياسية. وكما تطالب البورجوازية الآن بحكومة **رخيصة**، كذلك كان بورجوازيو العصر الوسيط يطالبون بـ «كنيسة رخيصة». فالهرطقة البورجوازية، وهي رجعية في شكلها، شأن كل هرطقة لا ترى في تطور الكنيسة والمعتقدات الا انحطاطا، كانت تطالب باعادة الدستور الاول الاولي للكنيسة وبالغاء سلطة الاكليروس التنفيذية. ان مؤسسة رخيصة كهذه كان من شأنها ان تؤدي الى ازالة الرهبان، الاحبار، البلاط الروماني، وباختصار كل ما كان يكلف غاليا في الكنيسة. ان المدن، وهي في حد ذاتها جمهوريات، قد عبرت، رغم أنها كانت تحت حماية ملوك، لاول مرة وعلى نحو شامل، من خلال الهجمات التي شنتها على البابوية، عن هذه الحقيقة، حقيقة ان الشكل الطبيعي لحكم البورجوازية هو الجمهورية. ان معارضتها لسلسلة كاملة من معتقدات الكنيسة وشرائعها تجد تفسيرها جزئيا في ما تقدم، وجزئيا في شروط وجودها الاخرى.

---

١ ـ ويسمون ايضا «فقراء ليون». وهم فرقة دينية اسسها بطرس فالدوس عام ١١٧٣ في ليون. كانت تبشر بالفقر كمثل اعلى، ولم تتخذ في البدء موقفا معاديا للكنيسة الكاثوليكية. وقد حرم البابا تلك الفرقة عام ١١٨٤، فدفعها بذلك الى معسكر المعارضة. والفوديون، وكان نفوذهم كبيرا، كانوا يتجمعون خاصة في اقاليم فرنسا وايطاليا، حيث الحريات القديمة كانت ما تزال قائمة لتوافر الشروط او الظروف الطبيعية. لقد كانت الحركة الفودية «من حيث شكلها ومضمونها، محاولة رجعية لحجر حركة التاريخ»، محاولة «رعاة الالب العائشين على النمط البطريركي ... لقطع الطريق على الاقطاعية والحيلولة دون تسربها اليهم» (انجلس).

٢ ـ فرقة دينية نشأت في أواخر القرن الثاني عشر في جنوبي فرنسا؛ حملت اسم مركزها الرئيسي، مدينة آلبي؛ أبدت عداء للكنيسة الكاثوليكية وللبابا. قاد سيمون دي مونفورت حملة صليبية ضدهم (حرب الالبيجيين: ١٢٠٩ ـ ١٢١٦) قضى خلالها على الاكثرية الكبرى منهم.

٣ ـ أطلق اسم سيد هنفاريا على احد رؤساء الحركة الفلاحية في فرنسا ١٢٥١ (انتفاضة «الرعاة»).

فلماذا ، مثلا ، كانت تجرّح بعنف عزوبية الكهنة ؟ لا احد يفسر هذا الامر على نحو افضل من بوكاسس . ان ارنولد دي بريسيا في ايطاليا والمانيا ، سكان مدينة البا في جنوب فرنسا ، جون ويكليف (١) في انكلترا ، هوس والكاليكستينيين (٢) في بوهيميا ، ـ كل هؤلاء كانوا ممثلي تلك النزعة الرئيسيين . واذا كانت المعارضة للاقطاعية لا تتجلى هنا الا بشكل معارضة للاقطاعية **الكنسية** ، فذلك يعود ، بكل بساطة ، الى ان المدن كانت تؤلف في كل مكان نظاما معترفا به ، وانها كانت تملك ، بما لديها من امتيازات وجيوش ومجالس ولايات، وسائل كافية للصراع ضد الاقطاعية الدنيوية .

هنا ايضا ، أصبحنا نرى ، سواء في جنوب فرنسا او في انكلترا وبوهيميا ، القسم الاكبر من النبالة [طبقة النبلاء] الصغيرة يحالف المدن في الصراع ضد الكهنة ويشاركها هرطقتها ، وهي ظاهرة تفسرها علاقة النبالة الصغيرة بالمدن وارتباط مصالحها مع المدن هذه ضد الامراء والاحبار ؛ ونحن نجد ذلك في حرب الفلاحين .

اما سمة الهرطقة فكانت شيئا آخر تماما ، اذ كانت التعبير المباشر عن حاجات الفلاحين وعوام المدن ، كما كانت مرتبطة دائما بانتفاضة ما من الانتفاضات . بالطبع، كانت تنطوي على كل مطالب الهرطقة البورجوازية الخاصة بالكهنة والبابوية وبعث دستور الكنيسة الاولى الاولية ، لكنها كانت ترمي الى أبعد من ذلك بكثير . كانت تريد بعث شروط او ظروف المساواة لدى المسيحية الاولى الاولية بين اعضاء الجماعة، وتعتبر تلك الشروط معيارا للمجتمع المدني . من «المساواة بين الناس امام الله» كانت تستجر المساواة المدنية ، بل المساواة في الثروات ، جزئيا . ان المساواة بين النبالة والفلاحين ، الحرفيين والبورجوازيين ذوي الامتيازات وعوام المدن ، الغاء عمليات السخرة الاقطاعية ، الجعالة ، الضرائب والامتيازات و ، في كل الاحوال ، الغاء الفروق الهائلة بين الثروات ، ـ تلك كانت المطالب التي طرحتها بهذه الدرجة او تلك من الوضوح ودعمتها بوصفها نابعة من مذهب المسيحية الاولى الاولية . ان تلك الهرطقة الفلاحية العامية ، التي كان يصعب تمييزها ، في فترة أوج الاقطاعية ، كما هي عند سكان مدنية البا مثلا ، عن الهرطقة البورجوازية ، تحولت ، في القرن الرابع

---

١ ـ **جون ويكليف** (١٣٢٨ ـ ١٣٨٤) : استاذ في جامعة اوكسفورد وأحد ايديولوجيي حركة الاصلاح الديني الانكليزية . كان يمثل ، بنقده لمعتقدات الكنيسة الكاثوليكية الرئيسية ، آمال البورجوازية الانكليزية والسلطة الملكية في تحرير الكنيسة الانكليزية من تأثير البابا واخضاعها للملك . ان نقد ويكليف وأفكاره قد أثرا تأثيرا عميقا في مذاهب جميع المصلحين الدينيين البورجوازيين للكنيسة في اوروبا الغربية خلال قرنين .

٢ ـ ويسمون ايضا الاوتراكسيت . وهم الجناح المعتدل من الهوسيت الذين كانوا يستندون الى بورجوازيي المدن الاغنياء والى النبالة . كانوا يهتمون خاصة بالعلمانية وباصلاح الكنيسة . أُطلق عليهم اسم الاوتراكسيت لانهم كانوا يطالبون بالمناولة في شكليها من الخبز والخمر .

عشر والخامس عشر ، الى برنامج حزب مميز بوضوح ، وبدت عادة في شكل مستقل تماما الى جانب الهرطقة البورجوازية . هكذا كان جون بال داعية انتفاضة وات تايلر (١) في انكلترا ، الى جانب حركة ويكليف ؛ وكان التابوريون (٢) الى جانب الكاليكستيين ، في بوهيميا . ان النزعة الجمهورية كانت قد بدأت تظهر لدى التابوريين تحت اشكال البهرجات التيوقراطية ، وهي النزعة التي بلغت درجة اكتمالها ، في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، بفعل ممثلي العوام في المانيا .

وينتمي الى هذا الشكل من الهرطقة هوس الفرق الصوفية : الـ فلاجيلان (٣) ، الـ لولارد (٤) ، الخ ، الذين واصلوا التقاليد الثورية خلال فترات الردة .

كان عوام المدن في ذلك العصر يشكلون الشريحة الوحيدة الموضوعة خارج المجتمع الرسمي . كانوا خارج التجمع الاقطاعي وخارج التجمع البورجوازي في آن معا . لم تكن لهم امتيازات ولا ملكية ، بل لم يكونوا يملكون، كالفلاحين والبورجوازيين الصغار، شيئا ، ولو مثقلا بالضرائب الباهظة . اينما نظرت اليهم ألفيتهم لا يملكون شيئا ولا حقوق لهم . ظروف حياتهم لا تضعهم في تماس مباشر مع المؤسسات القائمة التي

---

١ ـ انفجرت تلك الحركة الفلاحية الانكليزية المعادية للاسياد الاقطاعيين عام ١٣٨١ في مقاطعتي كانت وايسيكس ، وأخذت اسمها من رئيس الانتفاضة وات تايلر من مقاطعة كانت . لقد سحقت هذه الانتفاضة ، التي انزلت ضربة خطيرة بالاقطاعية في انكلترا ، بسبب عدم تنظيم الفلاحين وعزلتهم وفقدان القوة القيادية (كان عوام المدن ما زالوا ضعفاء وغير منظمين) .

٢ ـ هم الجناح اليساري من الـ هوسيت الذي كان مركزه في تابور في بوهيميا الجنوبية . كان انصاره يخرجون من صفوف الفلاحين ، الصناع وعمال المناجم . ثار الـ تابوريون ضد المراتبية او الهرمية المدنية والكنسية وضد التفاوت في الثروات ؛ وكانوا يطالبون بالاستقلال القومي وبنظام ديمقراطي جمهوري . ثم ضربت الحركة الـ تابورية عام ١٤٣٤ على يد الـ كالكستيين ، وفي عام ١٥٤٢ سقطت آخر نقاط استنادها ، تابور . وفقدت فيما بعد سمتها الثورية البدائية .

٣ ـ فرقة عاشت من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر في ايطاليا وألمانيا . كان اعضاؤها يؤمنون بالحصول على غفران خطاياهم بجلد أنفسهم بالسياط .

٤ ـ يدل هذا الاسم الآتي من هولندا على اعضاء المرتبة الدنيا والمتوسطة من الاكليروس الذين كانوا ينشرون في القرن الرابع عشر فيانكلترا نظريات ويكليف . ولقد اكتسبت عظات «الاخوةالفقراء» او «الكهنة الفقراء» ، كما كانوا يكنون ، صفة معادية للاقطاعية اكثر فأكثر ، بسبب الاستغلال وبفضل تأثير الفلاحين المستائين من ظلم الكنيسة الاقطاعي . وعلى هذا الاساس كانوا يبشرون بانجيل الاخوة والمساواة الذي كانت تقول به الكنيسة الاولى الاولية . مركز فرقة الـ لالورد الانكليزية كان مدينة نورفلك حيث كانت صناعة الصوف متطورة تطورا كبيرا . كان عمال النسيج قد نشروا فيها آراء الشيوعية البدائية التي ذاعت في هولندا حيث تجمع عمال النسيج في فرقة الـ بيغار او الـ لالورد الشيوعية .

كانت تجهلهم تماما. انهم الرمز الحي لانحلال المجتمع الاقطاعي الاصنافي البورجوازي و ، في الوقت ذاته ، أول طلائع المجتمع البورجوازي الحديث .

هذا هو الوضع الذي يفسر لماذا لم يكن باستطاعة فئة العوام الوقوف، منذ ذلك الحين ، في حدود الصراع ضد الاقطاعية والبورجوازية المنعمة بالامتيازات ؛ بل كان عليها ، نظريا على الاقل ، ان تتجاوز المجتمع البورجوازي الحديث الذي ما كاد يولد. ان ذلك الوضع يفسر لماذا تعين على تلك الفئة المطرودة من كل ملكية ان تتصدى لمؤسسات ومفاهيم وافكار مشتركة بين جميع اشكال المجتمع القائم على التناقضات الطبقية . ان الاحلام الالفوية (١) للمسيحية الاولى الاولية كانت تؤلف نقطة ارتكاز مواتية لذلك. لكن ، في الوقت ذاته، لم يكن ممكنا لهذا الاستباق للحاضر وللمستقبل الا يتصف بسمة عنيفة خيالية ، وتعين عليه ان يسقط ضمن الحدود الضيقة التي فرضتها شروط العصر ، لدى أول محاولة تحقيق عملية . وانتهت الحملات على الملكية الخاصة والمطالبة بجعل الثروات ملكا جماعيا وآلت الى جمعية سخيفة من جمعيات أعمال الاحسان . ان المساواة المسيحية الغامضة كان بمقدورها ، في أحسن الاحوال ، التوصل الى المساواة المدنية امام القانون ؛ واصبح الغاء كل سلطة ، في النهاية ، دستور الحكومات الجمهورية المنتخبة من الشعب . فاستباق الشيوعية في الخيال كان ، في الواقع ، استباقا للشروط البورجوازية الحديثة .

هذا الاستباق للتاريخ اللاحق ، استباق عنيف ولكنه مفهوم ومبرر بظروف وشروط وجود فئة عوام المدن ، نصادفه أولا في المانيا لدى توماس مونزر وأنصاره . لقد كان لدى الـ تابوريين جماعات او أرهاط ألفوية ، لكن هذه الجماعات والارهاط كانت ذات صفة عسكرية فقط. ان تلك الاصداء الشيوعية لم تصبح تعبيرا عن تطلعات شريحة حقيقية من المجتمع الا عند مونزر . فهي لم تتخذ شكلا واضحا نوعا ما الا عنده ، ونجدها بعده في كل انتفاضة شعبية كبيرة ، الى ان تنصهر شيئا فشيئا في الحركة العمالية الحديثة ؛ كما ان نضال الفلاحين الاحرار في العصر الوسيط ضد الاقطاعية ، التي تضيق عليهم خناق شباكها شيئا فشيئا ، انصهر في صراع الاقنان والخاضعين للسخرة بغية الاطاحة بالسيطرة الاقطاعية اطاحة تامة .

في حين ان اول المعسكرات الثلاثة التي تتوزع الامة ، معسكر **المحافظين ـ الكاثوليك** كان يضم جميع العناصر ذات المصلحة في المحافظة على النظام القائم : سلطة امبراطورية ، كهنوت وقسم من الامراء العلمانيين ، طبقة الاشراف الاغنياء ، الاحبار وأبناء سلالات المدن ، ـ نجد ان المعسكر الثاني ، معسكر حزب الاصلاح **اللوثري ـ البورجوازي** المعتدل ، يضم العناصر المالكة المعارضة ، جمهور النبالة الصغيرة ، البورجوازية ، بل قسما من طبقة الامراء العلمانيين الطامحين الى الثراء

---

١ ـ العقيدة الالفوية : القول بالعصر الالفي الذي سيملك فيه المسيح على الارض . تستند هذه العقيدة الى نصوص مختلفة من الكتاب المقدس . ان عودة المسيح الى الارض تعلن بداية هذا العصر .

بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة والراغبين في الافادة من الفرصة السانحة للحصول على استقلال اكبر تجاه الامبراطورية . واخيرا كان الفلاحون وعوام المدن يؤلفون الحزب **الثوري** الذي عبر توماس مونزر عن مطاليبه وعقائده تعبيرا واضحا جدا .

ان لوثر ومونزر يمثلان بشكل مدهش الحزبين اللذين كانا يقودانهما ، من حيث مذهبيهما او طبيعتيهما وافعالهما سواء بسواء .

من عام ١٥١٧ الى عام ١٥٢٥ عانى لوثر نفس التطور الذي عاناه الدستوريون الالمان العصريون بين عامي ١٨٤٦ و١٨٤٩ ؛ لقد عانى نفس تطور حزب بورجوازي تجاوزه ، بعد ان كان على رأس الحركة فترة من الزمن ، حزب العوام او حزب البروليتاريا الذي كان دعامة له حتى ذلك الحين .

عندما هاجم لوثر عام ١٥١٧ معتقدات الكنيسة الكاثوليكية ودستورها ، لم يكن لمعارضته بعد طابع محدد تحديدا بينا . ومع ان معارضته لم تتجاوز مطالب الهرطقة البورجوازية القديمة ، الا انها لم تكن تستبعد اي اتجاه اكثر جذرية ، كما انه لم يكن بامكانها ان تفعل ذلك . اذ كان على لوثر ، في البداية ، ان يحشد كل عناصر المعارضة ، ان ينمي الطاقة الثورية الاشد تصميما وان يجسد مجموع المذاهب الهرطقية ضد الكاثوليكية الاورثوذكسية . وبهذا المعنى بالضبط كان بورجوازيونا الليبراليون ما يزالون ثوريين في العام ١٨٤٧ ، يدعون انهم اشتراكيون وشيوعيون ويحلمون بتحرر الطبقة العاملة . ان طبيعة لوثر القروية القوية قد تجلت خلال تلك الفترة الاولى من نشاطه بشكل جد ملتهب .

كتب لوثر بخصوص الكهنة الرومان :

> اذا كان هيجانهم المنفلت سيستمر ، فاظن ان أفضل وسيلة وانجع علاج هو ان يتدخل الملوك والامراء بالقوة ، يهاجموا هذه 'الطغمة النحسة التي تسمم العالم، يضعوا بالسلاح لا بالكلام حدا لمشروعهم . وكما نعاقب اللصوص بالمشنقة ، القتلة بالسيف ، الهراطقة بالنار ، فلمَ لا نهاجم اساتذة الدمار ومسببي الضرر ، هؤلاء البابوات والكرادلة والاساقفة وكل زمرة سدوم الرومانية ، بكل الاسلحة التي في حوزتنا ، لمَ لا نغسل ايدينا بدمهم (١) ؟

لكن هذه النار الثورية الاولى الاولية لم تدم طويلا . الصاعقة التي اطلقها لوثر أصابت مرماها . تحرك الشعب الالماني بأكمله . فمن ناحية ، رأى الفلاحون والعوام في دعواته الى النضال ضد الكهنة وفي مواعظه عن الحرية المسيحية ايذانا بالانتفاضة، ومن ناحية أخرى تجمع حوله البورجوازيون المعتدلون وقسم كبير من النبالة الصغيرة، بل جروا معهم عددا لا يستهان به من الامراء . ظن بعضهم ان الفرصة قد سنحت لتصفية حساباته مع مضطهديه ؛ وتمنى البعض الآخر ازالة سلطة الكهنة والاستغناء

---

١ ـ عن كتاب لوثر : «مقتطف من جواب مارتن لوثر» ، ١٥٢٠ . راجع الطبعة المبنية على اصول اعمال لوثر الكاملة : «المراسلات» ، المجلد الثاني ، فايمار ، ١٩٣٩ ، ص ٣٤٧ .

عن الارتباط بروما والغاء المراتب الكاثوليكية وطمعوا في الاغتناء بواسطة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة . افترقت الاحزاب واختارت الناطقين باسمها . وكان على لوثر ان يختار بين تلك الاحزاب . ان هذا الرجل الكبير ، المتمتع بحماية امير مقاطعة ال ساكس ، الاستاذ اللامع في جامعة ويتنبرغ ، الحائز بين عشية وضحاها على الشهرة والقوة ، المحاط بجمهور من المتعلقين بشخصه ومن المتزلفين ، ـ هذا الرجل لم يتردد لحظة . خان العناصر الشعبية في الحركة وانضم الى حزب النبالة والبورجوازية والامراء . فخمدت الدعوات الى حرب الابادة ضد روما . ها هوذا لوثر يبشر الان بالتطور السلمي والمقاومة السلبية (راجع ، مثلا ، نداء الى نبالة المانيا ، ١٥٢٠) . على دعوة أولريخ دي هوتن الى لقائه هو وزيكنغن في ايرنبورغ ، وهي مركز تآمر النبالة ضد الاكليروس والامراء ، رد بقوله :

لا أوافق على نصرة قضية الانجيل بالعنف واراقة الدماء . بالكلمة غلب العالم ، بالكلمة صمدت الكنيسة ، بالكلمة ستصلح . وكما استولى المسيح الدجال عليها من غير عنف ، فسيسقط ايضا من غير عنف (١) .

وفي اليوم الذي اخذت نزعة لوثر هذا الاتجاه ، وبالاحرى تجمدت بهذا الشكل المحدد ، قامت تلك المساومة حول المؤسسات والمعتقدات التي يجب الحفاظ عليها او اصلاحها ، ذلك الاسلوب المخاتل والمثير للاشمئزاز ، بما فيه من دبلوماسية والاعيب ودسائس واتفاقات ، أدت الى «بيان ايمان اوغسبورغ» (٢) وتأسيس الكنيسة البورجوازية البروتستانتية (اللوثرية) ، تأسيس تم تحقيقه لقاء صفقات وضيعة . ان هذه المتاجرة الوضيعة نفسها تكررت حديثا حتى بلغت درجة القرف ، وتجلت بشكلها السياسي في المجالس القومية الالمانية ، مجالس التوفيق ، مجالس اعادة النظر وبرلمان إيرفورت (٣) . وخلال تلك المفاوضات فقط تجلت السمة البورجوازية

---

١ ـ هذا النص مأخوذ من رسالة باللاتينية من لوثر الى هوتن . وقد ورد في كتاب لوثر الى سبالاتين المؤرخ في ١٦ كانون الثاني ١٥٢١ (راجع الطبعة الكاملة لاعمال لوثر : «المراسلات» ، المجلد ٢ ، فايمار ، ص ٢٤٩) .

٢ ـ ان بيان ايمان الكنيسة اللوثرية ، الذي صاغه ميلانفتون ، قد سلمه البروتستانت الى الامبراطور شارل الخامس في ٢٥ حزيران ١٥٣٠ في برلمان اوغسبورغ . انه وثيقة تحاول التوفيق بين المطالب البورجوازية بـ «كنيسة رخيصة الكلفة» (الغاء البهرجة في الطقوس الكاثوليكية ، تبسيط التراتب الكنسي ، الخ) وبين مصالح الامراء المدنيين . لكن الامراء الكاثوليك والامبراطور رفضوا هذا البيان . وانتهت حرب شارل الخامس ضد الامراء المناصرين للاصلاح الديني اللوثري عام ١٥٥٥ بصلح أوغسبورغ الذي اعطى كل أمير الحق في ان يعين ديانة رعيته كما يشاء .

٣ ـ المقصود هو البرلمان المنعقد بين ١٠ آذار و٢٩ نيسان ١٨٥٠ في ايرفورت ، والذي كان يتألف من ممثلين عن الولايات المنتمية للاتحاد الالماني الذي أقامته بروسيا . اهتم البرلمان بصياغة خطط لتوحيد المانيا تحت هيمنة الملكية البروسية الرجعية ، لكن اخفاق مشاريع التوحيد وانفراط عقد الاتحاد الالماني أنهيا برلمان ايرفورت .

الصغيرة لحركة الاصلاح البروتستانتي الرسمية .

واذا كان لوثر ، الذي عُرف منذ ذلك الحين بأنه ممثل حركة الاصلاح البروتستانتية البورجوازية ، قد بشّر بالتقدم ضمن اطار الشرعية ، فذلك لاسباب عديدة . ان غالبية المدن كانت قد اختارت الاصلاح المعتدل ، كما ان النبالة الصغيرة اخذت تنحاز اليه شيئا فشيئا . وتبناه عدد من الامراء ، وتردد آخرون . وهذا يعني ان انتصاره غدا مضمونا ، على الاقل في جزء كبير من المانيا . ولو ان الامور كانت قد استمرت في التطور بشكل سلمي ، لما كان باستطاعة المقاطعات الاخرى ، على تمادي الزمن ، ان تصمد امام ضغط المعارضة المعتدلة . لكن كل ارتجاج عنيف كان من شأنه ان يضع الحزب المعتدل في نزاع مع حزب العوام والفلاحين المتطرف ، ان يبعد عن الحركة الامراء والنبالة وعدداً من المدن ، بحيث لا يبقى في النهاية من امكانيات الاختيار سوى اغراق الحزب البورجوازي على يد حزب الفلاحين والعوام او سحق جميع احزاب الحركة وذلك باعادة الكاثوليكية واحيائها . بهذه الطريقة حاولت احزاب البورجوازية ، اثر حصولها على اقل قدر من الفوز ، ان تتأرجح في سيرها نحو التقدم ضمن اطار القانون ، بين دلف الثورة ومزراب الرجعة ، وهذا ما دلتنا عليه الاحداث التي انقضت منذ قليل .

وبما ان الظروف العامة الاجتماعية والسياسية لتلك الفترة كان من شأنها ان تجعل نتائج كل تغيير في صالح الامراء بالضرورة ، لذا كان محكوما على حركة الاصلاح الديني البورجوازي أن تسقط اكثر فأكثر تحت رقابة الامراء البروتستانت ، بقدر ما يزداد انفصالها عن العناصر العوامية والفلاحية . واصبح لوثر بالذات خادمهم اكثر فاكثر ، وعرف الشعب ما يفعله عندما اتهمه بأنه أصبح كالآخرين عبدا للأمراء ، وعندما طرده بالحجارة ، كما حدث في أور لاموند .

عندما اندلعت حرب الفلاحين ، وفي المقاطعات التي كان اغلب الامراء والنبلاء فيها من الكاثوليك بالتأكيد ، حاول لوثر ان يلعب دور الوسيط . هاجم الحكومات بحزم . أعلن انها مسؤولة عن الانتفاضة بسبب اعمال الابتزاز والاغتصاب التي مارستها . ليس الفلاحون هم الذين يثورون عليها ، بل الله بالذات . لكنه ، من ناحية اخرى، كان يؤكد ان التمرد كفر وتنكر لتعاليم الانجيل. وأخيرا نصح الحزبين المتعادين ان يتساهلا وان يعقدا اتفاقا حبيا بينهما .

لكن الانتفاضة انتشرت سريعا ، رغم اقتراحات الوساطة المخلصة . بل امتدت الى مقاطعات بروتستانتية كانت تحت حكم أمراء ونبلاء ومدن نصيرة للوثر، وتجاوزت سريعا الاصلاح الديني البورجوازي «المتزن» . وفي لصق لوثر ، في مقاطعة تورينغ، اقامت الفئة الاكثر تصميما من المتمردين ، بقيادة مونزر ، اركانها العامة . ولو انها احرزت بضع نجاحات اخرى لالتهبت المانيا كلها ، لطوّق لوثر ، لربما أعدم رميا بالرصاص كخائن ، لجرف سيل الثورة العامية والفلاحية حركة الاصلاح الديني البورجوازية . لم يكن ثمة مجال للتردد . ففي خضم الثورة يسدل الستار على

سائر العداوات القديمة . ومقارنة بالعصابات الفلاحية ، كان خدم سدوم الرومانية يبدون حملانا بريئة وأبناء الله الوديعين . بورجوازيون وأمراء ، نبالة واكليروس ، لوثر والبابا ، ـ كل هؤلاء اتحدوا «ضد عصابـــات الفلاحين النهابين والقتلة» . صرخ لوثر :

> يجب تمزيقهم اربا اربا ، خنقهم ، ذبحهم ، في السر والعلن ، كما تقتل الكلاب المسعورة ! لهذا ، ايها السادة الاعزاء ، اذبحوهم ، اقتلوهم ، اخنقوهم ، حرروا هنا ، انقذوا هناك ! واذا صُرعتم في القتال متم ميتة مقدسة !

ان الفلاحين ليسوا في حاجة الى الشفقة المزيفة . انهم يمتزجون هم انفسهم بالمتمردين ، أولئك الذين يرأفون بمن لا يرأف بهم الله ، بل ، على العكس ، يريد معاقبتهم وإبادتهم . وبعدئذ ، سيتعلم الفلاحون ، هم انفسهم ، ان يحمدوا الله ، اذا اضطروا للتنازل عن احدى أبقارهم ، واستطاعوا الاحتفاظ بسلامة الاخرى ؛ ولسوف تبين الانتفاضة للأمراء عقلية الشعب الذي لا يمكن حكمه الا بالقوة .

يقول الحكيم :

> ان في رؤوس الفلاحين تبن الشعير ، فهم لا يسمعون البتة كلام الله ، انهم لاغبياء ؛ لذلك يجب اسماعهم السوط والبنادق ، ففي هذا نفع لهم . ولنصلِ من اجلهم كي يطيعوا . والا فلا رحمة ! اجعلوا البنادق تتكلم ، والا فسيزداد الامر سوءا (١) .

هكذا بالضبط كان بورجوازيونا الاشتراكيون والمحبون للبشر يتكلمون عندمـــا جاءت البروليتاريا غداة ايام آذار تطالب بحصتها من ثمار النصر .

كان لوثر قد منح حركة العوام سلاحا قويا بترجمته الكتاب المقدس .بالانجيل ، عارض مسيحية ذلك العصر المقطعنة (اي المكيفة اقطاعيا) بمسيحية القرون الاولـــى المتواضعة ، عارض المجتمع الاقطاعي المتحلل المتداعي بصورة مجتمع يجهل هرمية (او مراتبية) الاقطاع الواسعة الحاذقة . فاستعمل الفلاحون ذلك السلاح في كل الاتجاهات ضد الامراء ، النبالة والاكليروس . والآن يستدير لوثر ضدهم ويستل من الكتاب المقدس نشيدا حنيقيا لمجد السلطات التي أقامها الله ، نشيدا لم ينظم مثله قط الشعراء المداحون التزلفون للحكم الملكي المطلق ! فالسلطة الاميرية ذات الحق الإلهي ، الطاعة السلبية ، بل القنانة ، ـ ثبتت كلها من قبل لوثر على مرتكزات من الكتاب المقدس . وهكذا أخفقت لا انتفاضات الفلاحين فحسب ، بل ثورة لوثر كلها ضد السلطات الروحية والزمنية . وهكذا خينت لصالح الامراء لا الحركة الشعبية فحسب ، بل الحركة البورجوازية ايضا .

هل من حاجة لتسمية البورجوازيين الذين أعطونا ، منذ مدة يسيرة ، أمثلة

---

١ ـ راجع كتاب لوثر الى جوهان روهل المؤرخ في٣٠ ايار ١٥٢٥ (الطبعةالمبنية على اصول اعمال لوثر الكاملة : المراسلات ، المجلد ٣ ، ص ٥١٥) .

على هذا الجحود لماضيهم نفسه ؟ لنقابل الان بين المصلح الديني البورجوازي لوثر والثائر الشعبي مونزر .

ولد توماس مونزر في شتولبيرغ ، في مقاطعة الهارز ، حوالي العام ١٤٩٨ . مات ابوه شنقا ، ضحية حكم أشراف شتولبيرغ التعسفي . أسس في الخامسة عشرة من عمره في المدرسة ، في هاله ، جماعة سرية معادية لرئيس اساقفة ماغدبورغ والكنيسة الرومانية . ونال باكرا ، بفضل معرفته العميقة بلاهوت ذلك العصر ، رتبة دكتور ووظيفة راعي كنيسة دير للراهبات في هاله . منذ ذلك الحين اخذ يزدري معتقدات الكنيسة وطقوسها ، فيحذف كليا من القداس استحالة القربان (١) ، وبهذا كان يبتلع ـ كما يروي لوثر ـ القرابين غير المقدسة . ودرس بصورة رئيسية صوفية العصر الوسيط ، وخاصة كتابات يواكيم الكالابري من جماعة المؤمنين بالعقيدة الألفوية . بدا لـ مونزر ان ساعة الملكوت الالفي وإدانة الكنيسة المتفسخة والعالم الفاسد (التي تحدث عنها ووصفها ذلك الكاتب) قد حانت مع حركة الاصلاح الديني والغليان العام لذلك العصر . فبشّر بذلك في المقاطعة التي يعيش واحرز نجاحا كبيرا. عام ١٥٢٠ ذهب الى زفيكو بصفة واعظ انجيلي اول ، فوجد هناك احدى تلك الشيع او الفرق الألفوية المتحمسة ، التي كانت ما تزال تعيش في الصمت في عدد كبير من المناطق ، وخلف تواضعها وتحفظها الموقت كانت تكمن المعارضة المتعاظمة للطبقات الاجتماعية الدنيا ضد الاوضاع القائمة ؛ والآن ، مع التحريض المتنامي ، اخذت تبدي نشاطا متزايد العناد والعلنية . تلك هي فرقة اللامعمدانيين التي يتزعمها نيكولاس شتوركه . كانوا يبشرون بدنو الدينونة الاخيرة والملكوت الالفي ؛ وكانوا يمتلكون «الرؤى ، الوجد وروح النبوة» . وسرعان ما اصطدموا بمجلس زفيكو . دافع عنهم مونزر دون ان ينضم اليهم ، لكنه اخذ يؤثر شيئا فشيئا عليهم . وقف المجلس ضدهم بحزم ، فاضطروا لمغادرة المدينة ومونزر في صحبتهم . كان ذلك في نهاية العام ١٥٢١ .

سافر مونزر الى براغ وحاول جهده ان يثبت أقدامه باقامة علاقات مع بقايا الحركة الهوسية ، لكن تصريحاته أدت الى ارغامه على الفرار من بوهيميا ايضا . عام ١٥٢٢ عين واعظا في الشتيدت من مقاطعة تورينغ ، حيث قام باعادة اصلاح طقوس العبادة . وقبل ان يجرؤ لوثر على الذهاب الى هذه الحدود ، ابطل استعمال اللغة اللاتينية كليا وادخل في التلاوات الطقسية كل الكتاب المقدس ، لا الاناجيل والرسائل فقط المفروضة في صلوات نهار الاحد . في نفس الوقت ، نظم حملة التبشير في المنطقة ، فأقبل عليه الشعب من جميع الجهات ، وما لبثت الشتيدت ان اصبحت مركز الحركة الشعبية المعادية للكهنة في مقاطعة تورينغ بأسرها .

في تلك الفترة ، كان مونزر ما يزال لاهوتيا قبل كل شيء ؛ كانت حملاته

---

١ ـ تحول خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه . ـم ـ

موجهة ضد الكهنة وحدهم . لكنه لم يكن يعظ ، كما بدأ يفعل لوثر ، بالتطور السلمي وبالنقاش الهادىء . كان يواصل النسج على منوال لوثر القديم في المواعظ العنيفة، داعيا الامراء السكسونيين والشعب للنضال المسلح ضد الكهنة الرومانيين .

> ألم يقل المسيح لم آتِ لاحمل لكم السلام بل السيف ؟ لكن ماذا ستفعلون به [ايها الامراء السكسونيون] ؟ ستستعملونه لابادة الاشرار الذين يقفون حجر عثرة في سبيل الانجيل ، اذا ما شئتم ان تكونوا عباد الله الابرار . لقد امر المسيح على رؤوس الاشهاد (انجيل لوقا : ١٩ ، ٢٧) : اقبضوا على أعدائي واذبحوهم أمامي ... فلا تتذرعوا بتلك السخافات القائلة ان قدرة الله ستصنع ذلك من غير ان تستنجد بسيوفكم ؛ والا فقد تصدأ في أغمادها . اذ ان من يعارض بشارة الله يجب القضاء عليهم دون هوادة ، كما قضى حزقيال ، قورش ، أوغياس وايليا على كهنة بعل . لا يمكن اعادة الكنيسة المسيحية الى اصالتها بغير ذلك . يجب اقتلاع الاعشاب الضارة من كرم الرب في زمن القطاف . لقد قال الله (موسى : ٥ ، ٧) : «لا ترحموا عبدة الاصنام . دمروا مذابحهم ، حطموا صورهم واحرقوها ، كي لا يحل غضبي بكم» (١) .

لكن ذلك التحريض الموجه للامراء لم ينتج شيئا ، في حين ان الغليان الثوري كان يتعاظم في أوساط الشعب . ان مونزر ، الذي كانت افكاره تزداد وضوحا وجراة ، قد انفصل على نحو بات وحازم عن حركة الاصلاح الديني البورجوازية ، وأخذ يمثل بعدئذ بشكل مباشر دور محرض سياسي .

ان مذهبه اللاهوتي والفلسفي كان ، في النتيجة ، يهاجم جميع النقاط الاساسية لا في المذهب الكاثوليكي فحسب ، بل في المسيحية ايضا . كان يعلّم ، بصيغ مسيحية ، افكارا حلولية تشبه المفاهيم التأملية الحديثة (٢) شبها عجيبا ، وتلامس الالحاد احيانا . كان يرفض الكتاب المقدس من حيث هو وحي وحيد ومنزه. ان الوحي الحقيقي الحي ، كما كان يقول ، هو العقل ــ الوحي ، الموجود منذ الازل ولدى جميع الشعوب ، والذي ما فتيء موجوداً . ان معارضة العقل بالكتاب المقدس هو قتل الفكر والروح بواسطة الحرف . لان الروح القدس الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس لا يوجد خارجنا . ان الروح القدس هو العقل بالضبط . الايمان ليس الا تجسيد العقل في الانسان ، لهذا يمكن للوثنيين ايضا ان يكونوا مؤمنين . بفضل هذا الايمان ، بفضل العقل الذي أصبح حيا ، يؤله الانسان نفسه ويتقدس ويتطهر . لذلك فالسماء ليست شيئا ما في الماوراء (او شيئا ما ماورائيا) ، بل يجب البحث

---

١ ــ مقتطف من عظة لـ توماس مونزر (الكتابات السياسية ، لـ توماس مونزر ، مع تعليق لـ كارل هنريخ . هاله ، ١٨٥٠ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

٢ــ يشير انجلس الىنظريات الفيلسوفين الفكرانيينشتراوس وفويرباخ اللذين يمثلان، فيكتاباتهما الاولى ، وجهة نظر حلولية في المسائل الدينية .

عنها في حياتنا ذاتها ؛ ومهمة المؤمنين هي بالضبط اقامة هذه السماء ، ملكوت الله، على الارض . وكما انه لا توجد سماء في الماوراء ، كذلك لا يوجد جهنم او قصاص أبدي . كذلك الامر ، لا يوجد شيطان سوى الغرائز والشهوات السيئة لدى البشر. ان المسيح كان انسانا كالآخرين ، نبيا ومعلما ، والعشاء السرّي مجرد مأدبة تذكارية استهلك فيها الخبز والخمر من غير ان يكتسبا صفة قدسية .

كان مونزر ينشر هذا المذهب مخفيا اياه في كثير من الاحيان بأسلوب مسيحي ، تعين على الفلسفة الجديدة ان تخفي نفسها وراءه مدة من الزمن . لكن الفكر عميق الهرطقية ينضح من جميع كتاباته ، ومن الملاحظ انه يحمل القناع التوراتي على محمل أقل جدية بكثير من العديد من تلامذة هيغل اليوم . علما بأن ثلثماية عام تفصل مونزر عن الفلسفة الحديثة .

ان مذهبه السياسي كان يتفق تماما مع ذلك المفهوم الديني الثوري ، ويتجاوز العلاقات الاجتماعية والسياسية القائمة ، كما ان لاهوته كان يتخطى مفاهيم عصره الدينية . وكما ان لاهوته كان يلامس الالحاد ، كذلك كان برنامجه السياسي يلامس الشيوعية ، حتى ان العديد من الفرق الشيوعية الحديثة ، عشية ثورة آذار ، لم تكن تملك ترسانة نظرية اغنى من ترسانة الفرق المونزرية في القرن السادس عشر . ان هذا البرنامج ، الذي كان تركيبا لمطالب العوام عصرئذ أقل من كونه استباقا عبقريا لشروط انعتاق العناصر البروليتارية الجنينية في رحم أولئك العوام ، كان يطالب باقامة ملكوت الله على الارض مباشرة ، الملكوت الالفي للانبياء ، عبر العودة بالكنيسة الى أصلها وعبر الغاء سائر المؤسسات المتناقضة مع هذه الكنيسة التي زعم انها بدائية ، ولكن جديدة كليا في الحقيقة . ان ملكوت الله ، في رأي مونزر ، ليس شيئا آخر سوى مجتمع لا تفاوت طبقيا فيه البتة ، لا ملكية خاصة ، لا سلطة لدولة غريبة عن اعضاء المجتمع ، مستقلة عنهم او متعارضة معهم . وعنده ان جميع السلطات القائمة ينبغي تدميرها اذا رفضت الخضوع والانضمام الى الثورة ؛ ويجب ان تصبح كل الاعمال والخيرات مشتركة بين الناس وان تسود أكمل مساواة بينهم . لذا يجب تأسيس منظمة غايتها تحقيق ذلك البرنامج لا في المانيا بأسرها فقط ، بل في العالم المسيحي كله . ينبغي دعوة الامراء والنبلاء الى الانضمام الى الثورة ، فاذا رفضوا عمدت المنظمة الى اسقاطهم في اول سانحة بقوة السلاح ، او بقتلهم .

وباشر مونزر العمل لتشكيل تلك المنظمة . اتخذت عظاته طابعا ثوريا اكثر عنفا. لم يعد يكتفي بمهاجمة الكهنة ، وانما اخذ يثير السخط على الامراء ، النبالة والبطرقة le patriciat . كان يصور بألوان صارخة الاضطهاد القائم ويعارضه بلوحة خيالية للملكوت الالفي للمساواة الاجتماعية والجمهورية . وفي نفس الوقت كان ينشر مقالات نقدية ثورية الواحدة بعد الاخرى ويبعث بالرسل في كل الاتجاهات ، على حين تولى هو تنظيم الجماعة في ألشتيدت وجوارها .

كان اول نتائج تلك الدعاية تدمير كنيسة مريم العذراء في ماليرباخ ، قرب ألشتيدت ، تطبيقا للأمر : «دمروا مذابحهم ، حطموا أعمدتها واحرقوا أصنامها ،

لانكم شعب مقدس» (تثنيه الاشتراع ، ٧ ، ٥) . فلنتقل الامراء السكسونيـون بأنفسهم الى الشتيدت لتهدئة التمرد ، ودعوا مونزر الى قصرهم . فأتى اليهم وألقى عظة لم يسمعوا مثلها من لوثر ، وسماها «لحم فايتمبرغ الطري» . وأعلن ، مستندا الى العهد الجديد ، انه يجب قتل الملوك الكفرة ، وخاصة الكهنة والرهبـان الذين يأخذون الانجيل على انه هرطقة . اذ ان الكفرة لا حق لهم في الحياة ، ولا يعيشون الا بفضل المصطفين (او المختارين) . واذا امتنع الامراء عن ابادة الكفرة ، فسيجردهم الله من سيوفهم ، **وذلك لان استخدام السيف من حق الجماعة** . ان بؤرة الربا ، السرقة ، اللصوصية هم الامراء والاسياد الذين يجعلون من الخلائق الحية ملكا لهم : السمك في المياه ، الطيور في الفضاء ، النبات في الارض . وبعدها يعظون الفقراء بالوصايا . لا تسرق ! أما هم فيستولون على ما يقع في متناول أيديهم ، يسلبون الفلاح والصانع ؛ اما اذا استولى فقير على اي شيء فجزاؤه الشنق ، وإزاء كل ذلك يقول الفقيه الكاذب في الدين : آمين !

> الاسياد أنفسهم هم المسؤولون عن صيرورة الفقراء اعداء لهم . اذا امتنعوا عن ازالة سبب التمرد ، فكيف يأملون القضاء على التمرد نفسه ؟ آه ! ايها الاسياد الاعزاء ، ما أجمل ضربات الرب بعصا من حديد على «الآنية العتيقة» ! واذا نعتموني لهذا بأني متمرد ، فاني متمرد ! (١) .

طبع مونزر موعظته ، فطرد الدوق جان دي ساكس الناشر الألشتيدي من البلد، وقضى بأن تخضع كتابات مونزر بعد ذلك لرقابة حكومة فايمار . لكنه لم يعر ذلك التدبير اي اهتمام . عقب ذلك ، طبع في مدينة مولهاوزن الامبراطورية بيانا عنيفا للغاية ، طالبا الى الشعب أن «يوسع الثقب كثيرا ، كي يستطيع العالم كله ان يدرك من هم اغنياؤنا الذين أهانوا الله بحيث جعلوا منه مخلوقا صغيرا ملونا» ، وختـم البيان بالقول التالي : «على العالم بأكمله ان يتحمل صدمة كبيرة . فالكفرة سيسقطون والوضعاء سيرتفعون» . وكتب مونزر ذو المطرقة تعريفا لبيانه :

> اسمع ، لقد وضعت كلامي في فمك كي تقتلع ، تحطم ، تدمر ، تقلب ، كي تبني وكي تزرع . ان جدارا حديديا قد شيد بين الملوك والامراء والكهنة وبين الشعب . ليقتتلوا ! ان النصر لمؤكد في معركة هلاك الطغاة الكفرة العتاة (٢) .

كانت القطيعة بين مونزر من جهة ولوثر وحزبه من جهة اخرى قد اصبحت تامة منذ زمن طويل . كان لوثر قد اضطر ان يقبل عددا من التعديلات الطقسية في العبادة التي كان مونزر قد تبناها دون استشارة لوثر . وكان ينظر الى نشاط مونزر المريب

---

١ ــ ان الاستشهاد بتوماس مونزر الذي يأتي به فيلهلم زيميرمان يقوم على نصين مأخوذين من خطابين مختلفين (كتابات مونزر السياسية ، المذكورة آنفا) . راجع فيلهلم زيميرمن : «التاريخ العام في حرب الفلاحين» ، المجلد الثاني ، شتوتغارت ، ١٨٤٢ ، ص ٧٥ .

٢ ــ راجع «كتابات مونزر السياسية» مع تعليقات كارل هنريخ ، هاله ، ١٩٥٠ ، ص ٢٩ــ٤١ ، ٣١.

نظرة المصلح المعتدل الى الحزب الثوري الصلب الاكثر حيوية والذي يذهب بعيدا . منذ ربيع العام ١٥٢٤ ، كتب مونزر الى ميلانكتون ، الذي كان مثال الجاهل المريض المقعد ، ان لا هو ولا لوثر يفهمان شيئا من الحركة ، وانهما حاولا خنقهـــا بالايمان الحرفي بالكتاب المقدس . وان مذهبهما بأكمله متهافت يتآكله السوس :

ايها الاخوة الاعزاء ! كفى انتظارا وترددا ! لقد ازفت الساعة . الصيـــف يقرع ابوابنا . اقطعوا صداقتكم مع الكفرة فهم يمنعون كلمة الله ان تفعل فعلها. لا تتزلفوا لامرائكم ، والا حكمتم على انفسكم بالهلاك معهم . ايها العلماء الطيبون، لا تؤاخذوني ، فليس في وسعي ان اتكلم غير هذا الكلام (١) .

لقد تحدى لوثر مونزر بالمناظرة الشفهية مرارا ، ألا ان مونزر ، المتهيء لخوض النضال أمام الشعب ، بين لحظة واخرى ، لم يكن يرغب في الانجرار الى المشاجرة اللاهوتية امام جمهور جامعة فايتمبرغ المتحيز . لم يكن يشاء «ان يشهد للروح في حضرة الجامعة وحدها» . فاذا كان لوثر مخلصا ، فما عليه ألا ان يستغل مكانتــه لانهاء الدعاوى ضد ناشري كتب مونزر وإنهاء الرقابة المفروضة على كتاباته ، كي يمكن للصراع ان يسير قدما حرا في الصحافة .

في هذه المرة ، وبعد صدور مقالة مونزر النقدية الثورية ، التي تحدثنا عنهـــا آنفا ، هاجمه لوثر علنا . ففي «رسالة الى أمراء ساكس ضد روح التمرد» (٢) ، أعلن لوثر ان مونزر أداة الشيطان وطلب الى الامراء التدخل وطرد دعاة التمرد من البلاد ، اذ انهم لا يكتفون بنشر تعاليمهم السيئة ، بل يحرضون على التمرد وعلى مقاومة السلطات بالسلاح .

في اول شهر آب ، دُعي مونزر الى قصر فايمار ليدفع أمام الامراء عن نفسه تهمة التمرد . وكان عدد من الوقائع الخطيرة قائما ضده ، اذ اكتشف امر منظمته السرية ، انفضح نشاطه في جمعيات عمال المناجم والفلاحين ، فهُدد بالنفي . وما كاد يعود الى الشتيد حتى بلغه أن الدوق جورج دي ساكس يطالب بتسليمه له . ان بعض رسائل المنظمة المكتوبة بخط يده وقعت في أيدي السلطة ، وهي رسائل يحرض فيها رعية ذلك الدوق على مقاومة أعداء الانجيل بالسلاح . ولو لم يغــادر المدينة في الوقت المناسب لسلمه المجلس للسلطات .

في اثناء ذلك ، كان التحريض المتزايد في اوساط عوام المدن والفلاحين قد مهد لدعاية مونزر ، التي وجدت عونا كبيرا لدى جماعة تجديديّي العماد (٣) . هـــذه الفرقة ، التي لا تملك معتقدا محددا تحديدا جيدا ، والتي كان عداؤها لجميع الطبقات

---

١ ــ الاستشهاد مأخوذ من رسالة مونزر الى ميلانكتون ، مؤرخة في ٢٩ آذار ١٥٢٥ .

٢ ــ الطبعة المبنية على أصول اعمال لوثر الكاملة، المجلد ١٥ ، فايمار ١٨٩٩ ، ص ٢١٠–٢٢١ .

٣ ــ فرقة بروتستانتية نشأت بعيد عام ١٥٢٠ وتميزت بالشروط القاسية التي وضعتها لعضوية الكنيسة ، واصرارها على اعادة تعميد البالغين ورفض عماد الاطفال . ــم.

المسيطرة واعتقادها بالتعميد الثاني قد صانا تلاحمها ، المتقشفة في عاداتها ، الجلودة، المتعصبة ، المنغمرة بلا خوف في التحريض ، كانت تتجمع اكثر فأكثر حول مونزر . ان تجديديّي العماد ، الذين حرمتهم الاضطهادات من كل اقامة مستقرة ، كانوا يجوبون المانيا كلها داعين في كل مكان للمذهب الجديد الذي منحهم مونزر بواسطته وعيا بحاجاتهم وتطلعاتهم . ان عددا كبيرا منهم قد أخضع للتعذيب ، أميت حرقا، أعدم بمختلفُ أنواع الاعدام ، لكن جراتهم وصمودهم بقيا ثابتين ، وغدا نجاح نشاطهم فريدا من نوعه ، بسبب غليان الشعب المتزايد . وهذا يفسر كيف وجد مونزر الطريق ممهدا اينما اتجه اثناء فراره من تورينغ ، وأصبح بمقدوره ان يذهب منذ ذلك الحين حيثما شاء .

قرب نورمبورغ ، حيث حل مونزر في البداية ، كانت قد خنقت في المهد قبل شهر من وصوله ثورة فلاحية ، كان مونزر قد قام بتحريض سري فيها . بعيد ذلك دخل الحلبة اناس دافعوا عن افكاره اللاهوتية الاكثر جسارة حول الطابع غير الالزامي للكتاب المقدس وحول بطلان الاسرار واكدوا ان المسيح ليس سوى انسان ، واعلنوا كافرةً السلطة الزمنية ، الامر الذي جعل لوثر يصرخ : «نلمس هنا فعل إبليس ، روح الشتيدت !» . في نورمبورغ طبع مونزر رده على لوثر ، واتهمه بالتزلف للامراء وبمساندة الحزب الرجعي بسبب تردده . واضاف : «لكن الشعب سيتحرر رغم ذلك ، وسيغدو الدكتور لوثر اشبه بثعلب وقع في الفخ» . صودر المقال بأمر من المجلس وأرغم مونزر على مغادرة نورمبورغ .

اجتاز مونزر نهر السوآب ، وجاء الى الالزاس ، ومنها ذهب الى سويسرا ، وعاد الى جنوب الغابة السوداء حيث كانت الانتفاضة قد اندلعت منذ عدة شهور ، وحيث كان رسله تجديديّي العماد هم الى حد كبير الذين سرّعوا اندلاعها . ان رحلة مونزر الدعائية هذه قد ساهمت مساهمة قوية في تنظيم الحزب الشعبي ، في تحديد مطالبه تحديدا واضحا ، وأخيرا في اشعال ثورة نيسان الشاملة عام ١٥٢٥ . ان نشاط مونزر المزدوج ، من ناحية تجاه الشعب الذي كان يخاطبه بلغة النبوة ، اللغة الوحيدة المفهومة في عصره ، ومن ناحية اخرى تجاه المسارّين الذين كان يستطيع أن يصارحهم بأهدافه الحقيقية ، ــ هذا النشاط قد تجلى هنا بوضوح شديد . وإذ جمع حوله في تورينغ انصارا ووضع على راس الجماعة السرية فريقا من الرجال شديدي الحزم المتحدرين لا من الشعب فقط بل من الاكليروس السفلي ايضا ، في الغابة السوداء ، اصبح محور الحركة الثورية لالمانيا الجنوبية الغربية كلها . ونظم الاتصال بين مقاطعة الساكس ومقاطعة تورينغ عبر فرانكونيا ونهر السوآب ، حتى مقاطعة الالزاس وتخوم سويسرا ، ودخل في عداد تلامذته وعداد رؤساء المنظمة محرضو المانيا الجنوبية ، امثال هوبماير في فالدشوت ، كونراد غريبل في زوريخ ، فرانز رابمان في غريسن ، شابلر في مامينجن ، جاكوب ويهي في لايبهايم ، الدكتور مانتل في شتوتغارت ، وغالبيتهم من رجال الكنيسة الثوريين . كان هو نفسه يقيم بصورة عامة في غريسن على حدود مقاطعة شافهوز ، حيث شرع

يتجول عبر مقاطعة هيغو ومقاطعة كليتغو ، الخ . اما الاضطهادات الدموية ، التي انزلها الامراء والاسياد ، المضطربون ، بتلك الهرطقة العامية الجديدة في كل مكان ، فقد ساهمت مساهمة قوية في ايقاد روح التمرد وتدعيم المنظمة . وهكذا احـدث مونزر هزّة مدة خمسة اشهر تقريبا في المانيا الجنوبية . قبيل اندلاع المؤامرة عاد الى تورينغ ليقود منها الثورة ، وسنجده فيها بعد ذلك .

سنرى الى اي حد يعكس طبع ووضع وموقف كل من زعيمي الحزبين وضع حزبه تماما ؛ كيف كان تردد لوثر ومخاوفه عن الجدية التي ارتدتها الحركة ، خنوعه الجبان امام الامراء ، مناظرا لـ / ومتفقا مع السياسة البورجوازية المترددة والملتبسة؛ وكيف ان اندفاع مونزر وصلابته الثورية كانا يعبران عن اندفاع وصلابة الفئة المتقدمة من العوام والفلاحين . ان الفرق الوحيد يكمن في ان لوثر كان يكتفي بالتعبير عـن مفاهيم غالبية طبقته وباكتساب شعبية هينة من وراء ذلك ، وبالعكس ، فقد كان مونزر يتخطى كثيرا المطالب المباشرة للفلاحين والعوام . لقد انشأ ، مع نخبة مـن العناصر الثورية ، حزبا لم يمثل البتة سوى اقلية من جمهور المتمردين ، اقلية من حيث مشاطرة الجمهور في افكارها وامتلاك طاقتها .

١١ ·

# مقتطفات من مراسلات ماركس وانجلس(*)

**من فريدريك انجلس الى كارل ماركس (حوالي ٢٤ ايار ١٨٥٣) ·**

... البارحة قرات المؤلف الصادر عن الكتابات العربية المحفورة الذي حدثتك عنه . ان الشيء لا يخلو من فائدة ، رغم ان رائحة الكاهن والمدافع عن التوراة تفوح منه الى مسافة كبيرة . واكبر انتصار حققه هو اثباته ان «جيبون» (١) قد ارتكب بعض الهفوات في جغرافيا العالم القديم ، الامر الذي يمكن ان يستنتج منه ان آراء جيبون في اللاهوت هي ايضا ضعيفة الركائز . هذا الشيء هو كتاب «الجغرافيا التاريخية لجزيرة العرب» الذي الفه الاب «تشارلز فورستر» . وافضل ما يمكن ان يستخلص منه هو ما يلي :

١ ــ ان الانساب الواردة في سفر التكوين ، والتي تظهر في صورة تسلسل نوح ، ابراهيم ، الخ ، هي تعداد صحيح تقريبا لقبائل البدو في ذلك العصر ، طبقا لقرابتهم اللسانية الكبيرة والصغيرة الخ ... فكما هو معلوم ما زالت قبائل البدو تسمي نفسها حتى اليوم باسم Beni Saled (٢) ، بني يوسف ، وهكذا دواليك ، اي اولاد فلان وفلان . ان هذه التسمية التي تنبع من نمط الحياة البطريركي القديم ، تقود في النهاية الى هذا النوع من الانساب . ان التعداد لوارد في سفر التكوين يؤيده في كثير او قليل الجغرافيون القدامى ، كما ان الرحالة الحديثين قد برهنوا

---

★ نقلا عن : «كارل ماركس ــ فريدريك انجلس ــ المراسلات» ، المجلد ١ (١٨٤٤–١٨٥٣) ، برلين ، ١٩٤٩ .

١ ــ جيبون : مؤرخ انكليزي من القرن الثامن عشر الف كتابا عن تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية برهن فيه ان المسيحية كانت احد العوامل الرئيسية في تداعي روما وسقوطها .

٢ ــ ربما يقصد بني صالح ، او بني خالد . (م)

ان معظم الاسماء القديمة ما زالت موجودة مع بعض التغيرات اللسانية . وعلى كل حال ، ينجم عن ذلك ان اليهود انفسهم لم يكونوا في الاصل سوى، قبيلة صغيرة من البدو ، كالقبائل الاخرى ، وقد ادت الظروف المحلية (الزراعة وغيرها) الى وضعهم في حالة تعارض مع البدو الآخرين .

٢ ــ فيما يتعلق بالفتح العربي الكبير الذي تحدثنا عنه سابقا : كان البدو يقومون بغزوات دورية ، شأنهم شأن المغول ، وقد تأسست الامبراطورية الآشورية والامبراطورية البابلية سواء بسواء على يد قبائل بدوية في نفس المكان الذي ظهرت فيه خلافة بغداد فيما بعد . ان مؤسسي الامبراطورية البابلية ، وهم «الكلدان»، ما زالوا موجودين اليوم يحملون الاسم نفسه ، بني خالد ، وفي المكان نفسه . ان الظهور السريع الذي عرفته مدن ضخمة ك «نينوى» و«بابل» قد حصل بالطريقة ذاتها التي نشأت بها منذ حوالي ثلاثمئة سنة فقط مدن ضخمة ك «عجرة» و«دلهي» و«لاهور» ، و«موتان» في شرق الهند ، نتيجة غزو أفغاني او نتري . وهكذا يفقد الفتح المحمدي كثيرا من طابعه المميز .

٣ ــ يبدو ان العرب حيث كانوا قد استوطنوا في الجنوب الغربي كانوا شعبا لا يقل مدنية عن المصريين والآشوريين وغيرهم ، كما يتبين ذلك من المباني التي شيدوها . هذا ايضا يفسر الشيء الكثير عن الفتح المحمدي . وبقدر ما يتعلق الامر بهذه الصورة التي هي الدين ، يبدو ، استنتاجا من الكتابات القديمة في الجنوب، حيث ما زال التراث العربي ــ القومي القديم ، تراث دين التوحيد ، هو الغالب (كما هو الامر بين الهنود الامريكيين) ، والذي لا يؤلف التراث اليهودي الا **جزءا صغيرا** منه ، يبدو ان ثورة محمد الدينية ، شأنها شأن كل ثورة دينية ، كانت من **الوجهة الشكلية ردة** ، رجوعا معلنا نحو القديم ، نحو البسيط .

ان الكتاب اليهودي المسمى «الكتاب المقدس» ليس سوى ذكرى تقليد عربي قديم ، ديني وقبلي بدله انفصال اليهود المبكر عن جيرانهم الذين هم اخوانهم في الدم ولكنهم من البدو الرحل ــ هذا امر غدا بالنسبة الي واضحا تماما الان ، وان كون فلسطين محاطة من الجانب العربي بالصحاري فقط ، اي بأرض البدو الرحل ، يعلل التطور المنفصل . غير ان الكتابات العربية القديمة ، التقاليد ، القرآن ، السهولة التي يمكن بها فهم جميع الانساب الخ ، ــ ذلك كله يشهد بأن المحتوى الرئيسي كان عربيا او بالاحرى ساميا بوجه عام كما بالنسبة الينا الأيدا والساغا الجرمانية .

**ف.ا.**

## من كارل ماركس الى فريدريك انجلس

لندن ، ٢ حزيران ١٨٥٥

... بخصوص العبرانيين والعرب ، عنيت برسالتك كثيرا . بالمناسبة :

١ ــ يمكن البرهان على وجود علاقة **عامة** ، منذ ان بدا التاريخ عند جميع القبائل

الشرقية ، بين توطن قسم من القبائل واستمرار حياة البداوة عند القبائل الاخرى.
٢ ــ في عصر محمد ، كان الطريق التجاري بين اوروبا وآسيا قد تبدل تبدلا كبيرا، وكانت مدن جزيرة العرب التي شغلت قبل ذلك قسطا كبيرا من التجارة مع الهند وغيرها ، كانت في حالة من الانحطاط التجاري الامر الذي أسهم في اطلاق الحركة.
٣ ــ فيما يتصل بالدين تحل المشكلة نفسها في مسألة هي مسألة عامة وبالتالي سهلة الجواب : لماذا يظهر تاريخ الشرق في صورة تاريخ أديان ؟

فيما يتعلق بتشكيل المدن المشرقية لا يجد المرء كتابا افضل من الكتاب اللامع الحي النافذ الذي ألفه الفرنسي القديم برنييه (الذي عاش طبيبا عند اورانج ــ زيب (١) لمدة تسع سنوات) وعنوانه : «رحلات تتضمن وصفا لممالك كبير المغول» الخ. وقد وصف ايضا النظام العسكري ، طريقة اطعام هذه الجيوش الكبيرة ، الخ ، وصفا جيدا تماما . وهو يلاحظ عن هذين الموضوعين في جملة ما يلاحظ ، ما يلي:

**يشكل سلاح الفرسان القطاع الاكبر . اما المشاة فليست كبيرة بقدر مــا يشاع ، الا اذا عُدّ الخدم ورجال الاسواق والبازارات الذيـــن يسيرون وراء الجيش مع القوة المحاربة الحقيقية . في هذه الحال يمكنني ان اصدق انهم على حق في تقدير عدد الرجال في الجيش وحده الذي يرافق الملك بحوالي ٢٠٠ او ٣٠٠ الف وأحيانا اكثر حين يكون من المؤكد مثلا انه سيغيب عن العاصمة لمـدة طويلة . وهذا لا يدهش كثيرا من يعرف «ثقل» الخيم ، المطابخ ، الالبسة ، المعدات وفي احيان كثيرة النساء ، وبالتالي ايضا الفيلة ، الجمال ، الاغنام ، الخيول ، الحمالين ، متعهدي العلف والاغذية ، الباعة المتنوعين والخدم الذين يسوقهم هذا الجيش وراءه ، او من يفهم الظرف الخاص والحكم الخاص في هذه البلاد ، نقصد ان الملك هو المالك الوحيد لكل الارض في المملكة ، الامر الذي ينجم عنه ان مدينة رئيسية كدلهي او عجرة تكاد تعيش كليا على الجيش ، وهي بالتالي مضطرة لتتبع الملك اذا ذهب الى القتال لمدة ما من الزمن ، ذلك لان هذه المدن ليست ولا يمكن أن تكون شيئا يشبه مدينة باريس ، فهي ليست بالاصل سوى معسكرات ، معسكرات افضل بقليل وأقيمت في مكان انسب من معسكر قائم في الارض المكشوفة » .**

وبمناسبة زحف كبير المغول في كشمير على راس جيش يضم ٤٠٠ الف رجل، الخ ، كتب برنييه يقول :

**«الصعوبة هي معرفة من اين وكيف يستطيع ان يعيش في الميدان جيش كبير كهذا ، يضم هذا العدد من الرجال والدواب، لمعرفة ذلك ، يكفي ان نفترض، وهذا امر صحيح تماما ، ان الهنود جد قنوعين وبسيطين في غذائهم ، وان الذين**

---

١ ــ اورانج‌ــزيب : كبير ملوك المغول. في عهده ، بلغت الامبراطورية الهند المغولية أوجها (النصف الثاني من القرن السابع عشر) . ــن‌ــ

**ياكلون لحما اثناء المسير لا يتجاوزون واحدا من عشرة بل من عشرين من تعداد الخيالة الضخم . وهم يكتفون باكل الكشري ، وهو خليط من الرز والخضار المسلوقة التي يضعون عليها بعض السمن . كذلك يجب ان نعلم ان الجمال تتمتع بجلد كبير ازاء العمل وازاء الجوع والعطش ، فهي تعيش على القليل ، وتاكل اي شيء كان ، وانه ما ان يصل الجيش الى مكانه ، حتى يسوق الجمالة الجمال الى الرعي في الارض المكشوفة حيث تاكل اي شيء تجده . فضلا عن ذلك ، ان الباعة ذاتهم ، الذين يشغلون البازارات في دلهي ، مرغمون ان يقيموها في الميدان ايضا ، وكذلك صغار الباعة الخ . واخيرا ، فيما يتصل بالعلف ، فان كل هؤلاء المساكين يجوبون الريف ليشتروا العلف ويحققوا به بعض الكسب . ان موردهم الاساسي والمعتاد هو نبش اراض واسعة باداة يدوية صغيرة للحصول على العشب ، ودرس العشب وتنظيفه ، ثم جلبه وبيعه الى الجيش ...**

ويرى برنييه بحق ان اساس كل ظواهر الشرق ــ ويخص بالذكر تركيا وفارس وهندوستان ــ هو **عدم وجود الملكية الخاصة للارض** . هذا هو المفتاح الحقيقي حتى بالنسبة للسماء الشرقية ...

## من فريدريك انجلس الى كارل ماركس

مانشستر ، ٦ حزيران [١٨٥٣] ، المساء

«... ان عدم وجود ملكية الارض هو بالحقيقة مفتاح كل اوضاع الشرق . في هذا يكمن تاريخه السياسي والديني . ولكن كيف جرى أن الشرقيين لم يصلوا الى ملكية الارض ، حتى في شكلها الاقطاعي ؟ أعتقد ان ذلك مرده بصورة رئيسية الى المناخ ، مأخوذا في صلته مع طبيعة التربة ، وبخاصة مع المساحات الصحراوية الكبرى التي تمتد من الصحراء الافريقية عبر جزيرة العرب وفارس والهند وبلاد التتر الى الهضبة الآسيوية العليا . الري الصناعي هو اول شرط للزراعة ، وهذا عمل للبلديات ، او المقاطعات [الإيالات ، الاقاليم] ، او الحكومة المركزية . ان حكومة شرقية تشمل دائما ثلاثة فروع فقط : المالية (النهب في الداخل) ، الحرب (النهب في الداخل والخارج) ، والاشغال العامة (تأمين تجديد الانتاج) . ولقد ادارت الحكومة البريطانية في الهند ألفرع الاول والفرع الثاني بعقلية ضيقة ، واسقطت الفرع الثالث كليا ، مما أدى الى خراب الزراعة الهندية . ان «التزاحم الحر» قد فقد حظوته تماما هناك . هذا الري الصناعي للارض ، الذي انقطع فور تدهور جهاز الري ، يعلل تلك الظاهرة الغريبة ، الا وهي ان مساحات كبيرة كانت في الماضي مساحات زراعية مزدهرة هي اليوم قاحلة جرداء ، (تدمر ، البتراء ، الخرائب في اليمن ، اقاليم في مصر وفارس وهندوستان) . كما ويعلل الحقيقة التالية ألا وهي ان حربا واحدة مدمرة تستطيع ان تقضي على سكان بلد من البلدان لمدة قرون وان تجرد هذا البلد

من كل حضارته . هنا ايضا ، يأتي دور خراب تجارة الجنوب العربي قبل محمد ، وهو العامل الذي اعتبرته بحق واحدا من العوامل الرئيسية في الثورة المحمدية . اني لا أعرف التاريخ التجاري للقرون الميلادية الستة الاولى بصورة كافية تمكنني من تقدير دور الظروف العالمية العامة في جعل الطريق التجاري المار عبر فارس الى البحر الاسود وعبر خليج فارس الى سوريا وآسيا الصغرى يفضل على طريق البحر الاحمر . ولكن في جميع الحالات ، كان لأمن القوافل النسبي في امبراطورية الفرس الساسانيين المنظمة اثر ضخم ، بينما كانت اليمن بين أعوام ٢٠٠ و٦٠٠ م تعاني بصورة دائمة تقريبا من سيطرة وغزو ونهب الاحباش . ان مدن الجنوب العربي ، التي كانت لا تزال مزدهرة في عصر الرومان ، غدت مقفرة ومخربة في القرن السابع وخلال ٥٠٠ سنة من التطور كان البدو المجاورون قد تبنوا أفكارا أسطورية وخيالية تماما عن اصلهم (انظر القرآن والمؤرخ العربي النويري Novairi ) ، والابجدية التي كتبت بها كتابات تلك المناطق غدت مجهولة تماما تقريبا ، رغم انه لم يكن هنالك اي ابجدية اخرى ، فحتى الكتابة كانت سقطت في عالم النسيان . ان اشياء من هذا النوع تفترض ، الى جانب «عملية تبديل» سببتها الظروف العامة للتجارة ، عملية تدمير مباشرة وعنيفة لا يمكن تفسيرها الا بالغزو الحبشي . ان طرد الاحباش حدث قبل محمد بزهاء ٤٠ سنة ، وكان ، بشكل واضح ، الفعل الاول للشعور (للوعي) القومي العربي المستيقظ ، الذي حركته من جهة غزوات الفرس من الشمال التي اندفعت الى مكة تقريبا . وسأدرس في الايام القليلة القادمة تاريخ محمد نفسه . الا انه يبدو لي ان الامر يحمل طابع ردة بدوية ضد فلاحي Fellaheen المدن المتحضرين ولكن المنحلين الذين اصبحوا في ذلك الوقت جد منحطين في دينهم ، وهو خليط من عبادة للطبيعة مفسدة ومن يهودية ومسيحية مفسدتين .

ان اقوال برنييه جميلة حقا . انها لمتعة ان يقرأ الانسان مرة اخرى شيئا كتبه فرنسي عريق ، قنوع وصاح يدق المسمار في الرأس وكأنه لا يلاحظ اهمية ما يفعل ... » .

## ١٢ •

**كارل ماركس**

# الحركة المضادة للاكليروس
# تظاهرة في هايد بارك(*)

انه درس قديم من دروس التاريخ ، يتمثل في ان القوى الاجتماعية التي تخطاها الزمن ، والتي ما زالت تملك اسميا جميع صفات السلطة ، رغم ان ركائز وجودها قد تقوضت تحت قدميها منذ زمن طويل ، والتي تستمر في حياة خاملة ، لان نزاعات قد انفجرت بين الورثة حول تملك التركة قبل طبع ورقة النعوة وفتح الوصية ، ـ هذه القوى تتمالك نفسها مرة اخرى قبل معركة النزع الاخير ، تنتقل من الدفاع الى الهجوم ، تستفز بدلا من ان تقاتل متراجعة ، تسعى لاستخلاص إستنتاجات متطرفة مغالية من مقدمات ليست موضع شك فحسب بل مدانة ايضا. تلك هي اليوم حال الاوليغارشية الانكليزية . وتلك هي ايضا حال شقيقتها التوأم ، الكنيسة . لقد حدثت داخل الكنيسة الرسمية ، العليا والدنيا (١) ، محاولات لا تحصى لاعادة التنظيم ، للعثور على قاسم مشترك للتفاهم مع المنشقين ، ليتكون ـ على هذا النحو ـ تحالف يجابه الكتلة غير المتدينة من الامة ؛ وتعاقبت بسرعة تدابير القسر الديني ـ ان الكونت التقي شافتيسبوري ، المعروف سابقا باسم اللورد

---

★ نشر في صحيفة «نيو اودير ـ سايتونغ» ، العدد ٢٩٥ ، الصادر في ٢٨ حزيران ١٨٥٥ .

١ ـ الكنيسة العليا والدنيا : نزعتان متنافستان داخل الكنيسة الانكليزية : كان للاولى انصارها بصورة رئيسية في الطبقة الارستقراطية ، وكانت تكافح للحفاظ بدقة على الطقوس الاحتفالية القديمة الفخمة ، وتؤكد على الصلة الوراثية بالكاثوليكية . اما النزعة الثانية فكانت منتشرة على الاخص في المراتب الدنيا من رجال الاكليروس وفي اوساط البورجوازية ، التي لم تكن تولي أدنى اهتمام بالطقوس الخارجية ، وكانت تشدد على ضرورة الدعاية الدينية بروح الرياء الخلقي البورجوازي .

آشلي ، قد اعلن بنواح في «المجلس الاعلى» ان خمسة ملايين شخص في بريطانيا وحدها لم يصبحوا غرباء عن الكنيسة فحسب ، بل عن المسيحية ايضا . «أجبروهم على العودة الى حظيرة الدين» : هكذا اجابت الكنيسة الرسمية . وتركت للورد آشلي وللمتعصبين المتصلبين وامثالهم من سائر المتزمتين والمهتاجين مهمة ان يخرجوا من النار الكستناء التي تريد الكنيسة الرسمية ان تاكلها .

كانت اول وسيلة للقسر الديني هي القانون الخاص بالبيرة ، الذي يقضي باقفال جميع الملاهي العامة يوم الاحد ، باستثناء الفترة ما بين الساعة السادسة والعاشرة مساء . جرى إمرار هذا القانون ، تهريبا ، في مجلس قل عدد الحضور من اعضائه، عند نهاية الجلسة ، بعد ان كسب الاتقياء تأييد كبار باعة البيرة في لندن ، ضامنين لهم بقاء نظام براءة الترخيص ، اي احتكار الرساميل الكبرى . ثم جاء دور القانون الخاص بتجارة يوم الاحد ، الذي اعيد الان للبحث مرة ثالثة في مجلس العموم ، والتي كانت مختلف بنوده موضوع مناقشات في اللجنة البرلمانية . لامرار هذا التدبير القسري الجديد ، كان قد ضمن مجددا تصويت الرأسمال الكبير الى جانبه ، وذلك لان صغار التجار هم وحدهم الذين يفتحون محلاتهم يوم الاحد ، ولان المخازن الكبرى على استعداد تماما لان تزيح من طريقها بواسطة البرلمان المزاحمة التي تأتيهم يوم الاحد من اصحاب الحوانيت الصغيرة . في الحالتين كان ثمة تحالف بين الكنيسة والاحتكار الذي يحوزه راس المال ، لكن في كلا الحالتين كان ثمة قانونان جزائيان دينيان موجهان ضد الطبقات الدنيا لطمأنة ضمير الطبقات المتميزة . لم يكن «القانون حول البيرة» يمس النوادي الارستقراطية بأكثر مما كان القانون الخاص بالتجارة يوم الاحد يمس الاشغال المنزلية [للطبقات] المتميزة . الطبقة العاملة تتلقى أجرها في ساعة متأخرة من مساء السبت ؛ لذا فالبيع يوم الاحد قد وجد لها وحدها . وهي وحدها المجبرة على ان تقوم بمشترياتها الصغيرة يوم الاحد . اذن ، فالقانون الجديد موجه ضدها وحدها . في القرن الثامن عشر ، كانت الارستقراطية الفرنسية تقول : لنا فولتير ، وللشعب القداس ودفع العشور . في القرن التاسع عشر تقول الارستقراطية الانكليزية : لنا الكلام المتعصب ، وللشعب الممارسة المسيحية . لقد كان قدامى قديسي المسيحية يميتون أجسادهم في سبيل خلاص روح الجمهور ، اما القديسون العصريون ، فمن اجل خلاصهم يميتون أجساد الجمهور .

ان هذا التحالف بين ارستقراطية متفسخة ، منحطة ، آخذة في الانهيار ، منصرفة الى متعها وملذاتها ، وبين الكنيسة ، المدعوم بالحسابات الكريهة لملوك البيرة وكبار التجار الاحتكاريين ، قد استثار أمس في الـ «هايد بارك» تظاهرة جماهيرية، لم تشهد لندن مثيلا لها منذ وفاة جورج الرابع ، «جنتلمان اوروبا الاول» . وقد شهدنا هذه التظاهرة من بدئها حتى نهايتها ، ولا نعتقد اننا نبالغ بالقول ان الثورة الانكليزية قد بدأت أمس في الهايد بارك . وقد شكلت الانباء الاخيرة الواردة من القرم عنصرا اساسيا لهذه التظاهرة «غير البرلمانية» ، التي «جرت خارج البرلمان» ، و«على نحو مضاد للبرلمان» .

اللورد روبرت غروزفينور ، وهو صاحب المبادرة في القانون حول التجارة يوم الاحد ، أجاب على الاعتراض القائل بأن القانون الذي دعا الى اقراره موجه فقط ضد الطبقات الفقيرة لا ضد الطبقات الغنية ، بقوله :

«ان الارستقراطية تمتنع ٥ على نطاق واسع ، عن تشغيل خدمها وخيولها يوم الاحد » .

في الايام الاخيرة من الاسبوع الماضي ظهر على جميع جدران لندن الملصق التالي مطبوعا بحروف ضخمة ، وهو صادر عن **الشارتيين** (١) :

«انه قانون جديد لايام الآحاد هدفه ان يعطل ، في يوم الاحد ، اصدار الجرائد ، محلات الحلاقة ، حوانيت التبغ ، المآكل ، سائر انواع الاغذية والتسلية الجسدية والروحية التي ما زال الشعب الفقير يستطيع نيلها في الوقت الحاضر . سيقام في هايد بارك اجتماع جماهيري في الهواء الطلق للحرفيين والعمال و«الطبقات الدنيا» في العاصمة ، وذلك بعد ظهر الاحد . وسيبحث المجتمعون تلك الروح الدينية التي يتقيد بموجبها الارستقراطيون بيوم العطلة الاسبوعية الدينية ومدى اهتمام الارستقراطية بعدم تشغيل خدمها وخيلها في اليوم المذكور» . راجع خطاب اللورد روبرت غروزفينور . موعد الاجتماع الساعة الثالثة بعد الظهر ، على الضفة اليمنى للسربنتين ( نهر صغير في الهايد بارك) في ناحية حدائق كنسنغتون . تعالوا الى هناك ! احضروا معكم زوجاتكم وافراد عائلاتكم لكي يفيدوا من العبرة التي يقدمها لهم «رؤساؤهم» ! »

ويجب ان نعرف ان طريق هايد بارك المحاذية لنهر السربنتين تشكل بالنسبة للطبقة الراقية الانكليزية نفس ما يشكله منتزه لونشان بالنسبة **لمجتمع باريس الراقي** ـ اي المكان الذي يتبختر فيه افراد تلك الطبقة بعد الظهر ، ولاسيما ايام الآحاد ، بعرباتهم الفخمة وزيناتهم ، وحيث تتهادى بهم جيادهم وتتراقص ، تتبعهم افواج من الخدم والحشم . وقد رأينا من نص الملصق المذكور آنفا ان النضال ضد الاكليركية يتخذ طابع جميع المعارك الجدية في انكلترا ، طابع **صراع طبقي** يخوضه الفقير ضد الغني ، الشعب ضد الارستقراطية ، الناس «اللي تحت» ضد الناس «اللي فوق» .

عند الساعة الثالثة ، كان زهاء خمسين الف شخص قد اجتمعوا في المكان المعين ، على ضفة السربنتين اليمنى ، وفوق مروج هايد بارك الخضراء الشاسعة ، كما كان اشخاص يتوافدون ايضا من الضفة اليسرى ، بحيث أصبح عدد المحتشدين،

---

١ ـ Chartisme وتعني «الميثاقية» : هي الشكل الذي اتخذته الحركة الثورية ، لكن غير الاشتراكية ، للعمال الانكليز في الاعوام ١٨٣٦ ـ ١٨٤٨ ، وكانت تناضل لتنفيذ «ميثاق الشعب» (Peopel's Charter) ، التي اقتصرت مطالبه على اشاعة الديمقراطية في الدولة الانكليزية . وقد لعبت الشارتية دورا تاريخيا بصفتها «اول حركة جماهيرية بروليتارية ، ثورية ، واسعة ومحددة المعالم سياسيا» . (لينين) .

شيئا فشيعا ، مئتي الف شخص ، على الاقل . وكانت ترى تجمعات تدفع من موضع الى آخر ، وكان مفوضو الشرطة الانكليز ، الذين ارسلوا الى هناك بأعداد غفيرة ، يسعون بشكل ظاهر ليجردوا منظمي الحشد مما كان يتطلبه أرخميدس ليرفع الكرة الارضية الى اعلى : نقطة ارتكاز وطيدة . واخيرا استطاع تجمع اكبر عددا ان يتمركز في موضع معين ، وقد ارتقى الشارتي بلايغ مرتفعا صغيرا قائما وسط الجماهير وتراس الحشد . وما كاد بلايغ يبدأ خطابه حتى تقدم منه مفتش الشرطة بانكس على رأس اربعين مفوض شرطة شاهري الهراوات ، واعلن ان ذلك المنتزه هو ملكية خاصة للملكة ، وانه لا يحق لاحد عقد اجتماع فيه . بعد نقاش معين ، سعى بلايغ لاثبات ان منتزه الهايد بارك هو ملك للجمهور ، فرد بانكس بأن لديه أمرا باعتقاله اذا هو اصر على عزمه في عقد الاجتماع . ووسط زمجرة الجمهور المخيفة ، صاح بلايغ :

«ان شرطة جلالتها تعلن ان هايد بارك هو ملكية خاصة للملكة ، وان جلالتها لا تريد ان تعير ارضها للشعب كي يعقد فيها اجتماعه . فهيا بنا ، اذن ، ننتقل الى اوكسفورد ماركت» .

وسط الهتاف الساخر : «حمى الله الملكة !» تفرق الجمهور متوجها الى اوكسفورد ماركت . لكن اثناء ذلك ، اندفع فينلن ، عضو اللجنة المركزية الشارتية ، نحو شجرة بعيدة حيث لحقت به جماعات من الجمهور ، فشكلت في طرفة عين حلقة متراصة وكثيفة جدا ، بحيث احجم رجال الشرطة عن محاولة الوصول الى فينلن .

«انهم يستعبدوننا طوال ستة ايام من الاسبوع ، ويريد البرلمان ان يسلبنا ايضا القليل من الحرية المتوفرة لنا في اليوم السابع . ورجال الاقلية الحاكمة هؤلاء ، ومعهم الراسماليون ، المتحالفون مع الكهنة الذين يقلبون اعينهم في رياء، يريدون ان يحققوا فعل التوبة ، لا على اشخاصهم بل علينا ، لكي يكفروا عن المذبحة الجاحدة للدين ، مذبحة ابناء الشعب الذين جرت تضحيتهم في القرم».

تركنا هذا التجمع، واقتربنا من تجمع آخر ، حيث كان خطيب يتمدد بكل جسمه على الارض متوجها بكلامه ، وهو بهذا الوضع الافقي ، الى الجمهور . فجاة دوت من كل جانب صيحة : «هيا الى الجادة ! اهجموا على العربات !»» في حين اخذت الشتائم تنهال على ركاب العربات والخيالة . وهجم رجال الشرطة ، الذين كانوا يتلقون النجدات من المدينة بلا انقطاع ، وطردوا المتنزهين من الطريق . وبذلك اسهم رجال الشرطة في تشكيل حاجزين كثيفين من الكائنات البشرية ، وذلك على مساحة من الارض تزيد عن ربع فرسخ عن جانبي الجادة ، من ابسيلاي هاوس روتن رود حتى كنسفتون غاردنس ، صعودا الى ضفة السربنتين . كان الجمهور يتألف بثلثيه تقريبا من عمال والثلث الباقي من الطبقة الوسطى ، وكلهم مع نسائهم واولادهم . ان الممثلين بالرغم عنهم ، السادة ذوي الوسامة والسيدات الانيقات ، «اللوردات والنواب في مجلس العموم» الذين يستقلون عربات عالية فخمة ويسعى أمامهم ووراءهم خدم تزين بزاتهم الاشرطة، سادة مسنون هنا وهناك لعبت الخمرة برؤوسهم

ويمتطون جيادهم ، ـ كل هؤلاء لم يقوموا هذا اليوم باستعراضهم المعتاد، بل قاموا به عبر العصي والقضبان . اذ سرعان ما غمرهم من الجانبين سيل عارم من صيحات الهزؤ والاستفزاز والشتائم البذيئة التي لا تفوق اللغة الانكليزية بفناها فيها أية لغة اخرى . ونظرا لان الحفلة الموسيقية كانت مرتجلة ، فقد كانت تنقصها الالات . فكان على اعضاء الجوقة ، والحالة هذه ، ان يستعملوا اعضاءهم انفسهم ، والاقتصار على الموسيقى الصوتية . وكانت حفلة موسيقية جهنمية ، تتصاعد فيها الزمجرات ، النعيق، الصفير، الهرير، الهدير، الدندنة، الدمدمة، صأي الطيور، النباح ، الانين الصرير والتنغيمات النشاز . كانت موسيقى تستطيع اثارة الجنون وايقاظ الموتى . انفجارات من السخرية الاصلية «الانكليزية ـ العتيقة» ، من الغضب الهادر الذي احتبس طويلا في الصدور ، تختلط بصورة عجيبة غريبة : «اذهبوا الى الكنيسة !». تلك كانت العبارة الجلية الوحيدة التي يمكن تميزها . ومدت «ليدي» (١) نحو الجمهور ، بغية التهدئة ، «كتاب صلوات» ذا غلاف جليل ، مظهرة اياه من باب العربة . «أعطيه لجيادك لتقرأه !» : ذلك كان الجواب المدوي الذي اطلقه في جوقة واحدة ألف صوت وصوت . حين بدات الجياد تجفل ، تهتاج ، تشب بقوة الى الاعلى وتعض لجاماتها ، حين كان خطر الموت يهدد حمولاتها الانيقة ، كانت صيحات السخرية تزداد صخبا وتشتد تهديدا وقسوة . ان لوردات نبلاء وسيدات ارستقراطيات ، بينهن الكونتيسة غرانفيل زوجة الوزير ورئيس المجلس الخاص ، قد اجبروا على النزول من العربات واستعمال سيقانهم هم انفسهم . وحين كان يبدو جنتلمانات مسنون ، يمتطون جيادهم ، تبدي ملابسهم ، وبخاصة قبعاتهم واسعة الحوافي ، ادعاءات خاصة باكتمال الايمان ، كانت جميع صيحات الغضب الشديدة تتحول ، وكأنما بسحر ساحر ، الى تفجر من الضحك القوي الذي لا انتهاء له . وقد فقد احد هؤلاء الجنتلمانات الصبر ، فأبدى كـ «ميفيستوفيليس» حركة غير لائقة ، ومد لسانه للعدو . فدوّت صيحة من جانب الطريق : «هذا ثرثار ! وعضو برلمان ! انه يقاتل بسلاحه الخاص !» ، ومن الجانب الآخر دوّت صيحة اخرى : «وهذا قديس ! انه يرتل مزامير !» .

الا ان جميع مراكز البرق في العاصمة اعلنت لجميع مراكز الشرطة ان فتنة يجري اعدادها في هايد بارك وأمرتهم بالتوجه الى ميدان العمليات . وهكذا اخذت فصائل من رجال الشرطة تتعاقب في فترات متعاقبة ، سائرة في عرض عسكري في ابسيلاي هاوس وكنسنغتون غاردنس ، بين الحاجز البشري المزدوج ، فكان رجال الشرطة يستقبلون كل مرة بالاغنية الشعبية :

ـ الى أين رحلت طيور الاوز ؟

ـ وجهوا سؤالكم الى البوليس !

وكان ذلك تلميحا الى سرقة اشتهر امرها لطيور اوز ارتكبها مؤخرا احد رجال

---

١ ـ Lady لقب للمراة يقابل لقب لورد للرجل ، في انكلترا .

الشرطة . لقد استمرت هذه الفضيحة ثلاث ساعات . ان الرئات الانكليزية هي وحدها القادرة على القيام بمثل هذه «المرجلة» . اثناء الروايـة ، كان يسمـع بـين مختلف الجماعات : «هذه ليست سوى البداية» ، «انها الخطوة الاولى» ، «نحن نكرههم !»، الخ. وفي حين كانت ترى علائم الغضب على وجوه العمال ، فاننا لم يسبق لنا أبـدا ان رأينا على ثغور افراد الطبقات الوسطى ابتسامات تدل على مثـل هـذا السرور والارتياح . وقبيل النهاية بقليل ، ازداد عنف التظاهرة. كانت الهراوات تشهر باتجاه عربات الارستقراطيين ، وتحول مجموع الاصوات المتنافرة الى هـذه الشتيمـة : «انذال !» . طوال الساعات الثلاث ، كان شارتيون من الرجال والنساء يتجولون بين الجمهور ، موزعين مناشير تحمل بحروف كبيرة هذه العبارة :

> **نحو تنظيم الشارتية مجددا** ! سيعقد يوم الاربعاء القادم في ٢٦ حزيران حشد جماهيري كبير ، وذلك في المعهد الادبي والعلمي للدكتور كومون ، شارع فريار ، لانتخاب مندوبين لمؤتمر تنظيم الشارتية في العاصمة . الدخول مباح للجميـع .

ان صحافة لندن لم تعط اليوم سوى نبأ وجيز عن حوادث هايد بارك . ولم تكتب بعد افتتاحيات ، باستثناء جريدة اللورد بالمستون ، موزننغ بوست . وقـد جاء في افتتاحيتهـا :

> انه لمشهد مخجل وخطر الى اقصى حد ذلك الـذي جرى في هايد بارك ، وهو انتهاك موصوف للقانون وخرق للاخلاق الحميدة . انها محاولة غير مشروعة لجعل القوة الجسدية تتدخل في الممارسة الحرة للسلطة التشريعية . هـذه الرواية لا ينبغي ان تتكرر يوم الاحد القادم ، على نحو ما سمعنا من تهديد .

لكن الجريدة تصف في الوقت نفسه ذلك «المتعصب» اللورد غروز فينور بأنـه «المسؤول الوحيد» عن الاضطراب، وتعلن انه «استثار الغضب المشروع لدى الشعب» وكأن البرلمان ليس هو الذي أقر ، بعد ثلاث قراءات ، القانون الذي اقترحه اللـورد غروزفينور ! فهل انه أستعمل كذلك «القوة الجسدية للضغط على الممارسة الحـرة للسلطة التشريعية» ؟

## ١٣ .

كارل ماركس

# رأس المـــال

## تطور الانتاج الرأسمالي

ان مجتمعا يأخذ بصورة عامة ناتج العمل فيه شكل سلعة ، وبالتالي حيث العلاقة الأعم بين المنتجين هي مقارنة قيمة منتوجاتهم ، وتحت غلاف الاشياء هذا ، مقارنة اشغالهم بعضها ببعض بوصفها شغلا بشريا متساويا ، ـ ان مجتمعا كهذا يجد في المسيحية ، مع تقديسها الانسان المجـرد ، وبخاصة انماطها البورجوازيـة ، البروتستانتية ، التأليهوية ، الخ ، التتمة الدينية الاكثر ملاءمة . في أنماط انتاج آسيا القديمة ، والعصر القديم عموما ، لا يلعب تحول الناتج الى سلعة الا دورا ثانويا، بيد انه يكتسب المزيد من الاهمية كلما اقتربت تلك المجتمعات من تحللها . ان الشعوب التاجرة بالمعنى الضيق للكلمة لم توجد الا في شقوق العالم القديم ، على طريقة آلهة ابيقوروس ، أو كاليهود في مسام المجتمع البولوني . ان هذه الهيئات الاجتماعيـة القديمة هي ، بتأثير علاقة الانتاج ، ابسط وأكثر شفافية للغاية من المجتمـع البورجوازي ؛ ولكن قاعدتها هو عدم نضج الانسان الفرد (الذي لم يقطع بعد تاريخه الحبل السري الذي يلحقه بالجماعة الطبيعية لقبيلة بدائيـة) او ظروف الاستبداد والرق . ان الدرجة المتدنية لتطور قوى العمل المنتجة التي تتصف بها ، والتي تؤثر بالنتيجة على كل دائرة الحياة المادية ، ضيق علاقات الناس سواء فيما بينهم او مع الطبيعة ، تنعكس بطريقة فكرانية في الاديان القومية القديمة . وبصورة عامة ، فان الانعكاس الديني للعالم الواقعي لا يمكن ان يزول الا حين تقدم شروط العمل والحياة العملية للانسان علاقات شفافة وعقلانية مع الناس ومع الطبيعة . ان الحيـاة الاجتماعية ، التي يشكل قاعدتها الانتاج المادي وما يستلزمه من علاقات ، لن تتخلص من الضباب الروحاني الذي يقنع وجهها ، الا يوم يتجلى فيها عمل البشر المتشاركين بحرية ، المتصرفين بوعي والمتحكمين بحركتهم ، هم ، الاجتماعية . لكن هذا يتطلب ان يتحقق في المجتمع جملة من شروط الوجود المادي لا يمكن ان تكون ، هي ذاتها ، سوى نتاج تطور طويل ومؤلم .

يقينا ان الاقتصاد السياسي قد حلل القيمة ومقدار القيمة ، وان على نحو غير مكتمل الى حد كبير . لكنه لم يتساءل قط لماذا يتمثل العمل في القيمة وقياس العمل بمدته في مقدار قيمة المنتوجات . ان اشكالا تبدي من اول نظرة انها تنتسب الى مرحلة اجتماعية يحكم فيها الانتاج وعلاقاته الانسان بدلا من ان يحكمها ، تظهر لوعيه البورجوازي ضرورة طبيعية تماما ، كالعمل المنتج سواء بسواء . فلا عجب ان يعالج الاقتصاد السياسي البورجوازي اشكال الانتاج الاجتماعي كما كان آباء الكنيسة يعالجون الاديان التي سبقت المسيحية .

... بوسع تاريخ نقدي للتقنولوجيا ان يبين بصورة عامة مدى صعوبة ان ينسب ابتكار واحد ما من ابتكارات القرن الثامن عشر الى فرد واحد . ليس ثمة اي عمل من هذا النوع . وقد استلفت داروين الانتباه نحو تاريخ **التقنولوجيا الطبيعية** ، اي حول تكوّن اعضاء النباتات والحيوانات المعتبرة بمثابة وسائل انتاج لحياتها . وتاريخ الاعضاء المنتجة للانسان الاجتماعي ، الاساس المادي لكل تنظيم اجتماعي ، أليس جديرا بأبحاث مماثلة ؟ افلن يكون من الاسهل المضي في هذا المشروع الى غايته الناجحة ، نظرا الى ان تاريخ الانسان ، كما يقول فيكو ، يتميز عن الطبيعة في اننا صنعنا الاول ولم نصنع الثاني ؟ ان التقنولوجيا تلقي ضوءاً كاشفا على نمط فعل الانسان في الطبيعة ، على تقدم انتاج حياته المادية ، وبالتالي على اصل العلاقات الاجتماعية وما ينبع منها من افكار ومفاهيم عقلية . تاريخ الدين ذاته ، اذا صرفنا النظر عن هذا الاساس المادي ، يصبح مفتقرا الى معيار [كاشف] . الواقع ان من الاسهل بكثير جداً ان نلتقط بواسطة التحليل المحتوى والنواة الارضيين للمفاهيم الدينية الضبابية [الغامضة] ، من ان نبين بطريقة معاكسة كيف ترتدي الشروط او الظروف الواقعية شيئا فشيئا شكلا اثيريا روحانيا . ذلك هو المنهج المادوي الوحيد، وبالتالي العلمي . أما بالنسبة للمذهب المادوي المجرد للعلوم الطبيعية ، الذي لا يقيم وزنا للتطور التاريخي، فان نواقصه تظهر جليةمن وجهة نظر الناطقين باسمه، المجردة والايديولوجية ، عندما يجرؤون على الخروج خطوة خارج حقل اختصاصهم .

ربما اعترض على ما اقول بذكر كتاب «**محاولة حول السكان**» الصادر عام ١٧٩٨ ، لكن كتاب مالثوس هذا ليس في شكله الاول سوى قطعة انشاء تلميذ مقتبسة من دي فوي ، فرانكلين ، والاس ، السير جيمس ستيوارت ، تاونسند ، الخ . ليس في كتاب مالثوس بحث او فكرة من عندياته .

ان الاحساس الكبير الذي احدثه هذا الكراس الفتي قد نجم عن روح التحزّب فقط . لقد وجدت الثورة الفرنسية مدافعين عنها بحرارة في الجانب الآخر من بحر المانش ، و«مبدأ السكان» الذي كان قد صيغ شيئا فشيئا في القرن الثامن عشر ، والذي زُفّ بصخب شديد وسط ازمة اجتماعية كبرى على انه الترياق المضمون تماما ضد مذاهب كوندورسيه ، الخ ، ــ هذا «المبدأ» قد هللت له الاوليغارشية

الانكليزية باعتباره مطفأة كل تطلع الى التقدم الانساني . منذ ذلك الحين اخذ مالثوس ، الذي دهش كثيرا للنجاح الذي أصابه ، يحشو بلا انقطاع في الاطار القديم مواد جديدة مجمعة بصورة مصطنعة . ـ في الاصل ، كان الاقتصاد السياسي قد طوّر وأنضج من قبل فلاسفة ك هوبس ، لوك ، هوم ، ومن قبل رجال اعمال ورجال دولة ك توماس مور ، تامبل ، سولي ، ويت ، نورث ، لاو ، فاندرلنت ، كانتون ، فرانكلين و ، بأكبر قدر من النجاح ، من قبل اطباء ك بيتي ، باربون ، ماندنفيل ، كيسني ، الخ . حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، كان القس توكر ، الاقتصادي المرموق بالنسبة لعصره ، يظن نفسه ملزما للاعتذار لكونه يتدخل، رغم وضعه الديني ، في أمور مامون إله المال . ثم اتخذ القسس البروتستانت لانفسهم مواقع في الاقتصاد السياسي تحت شعار «مبدأ السكان» ، وحينئذ فرّخوا فيه . وباستثناء الراهب أورتيس من البندقية ، وهو الكاتب الذكي الاصيل ، فان اكثر الدكاترة في علم السكان كانوا كهنة بروتستانت . نذكر منهم ، على سبيل المثال ، بروكنر الذي سبق ، في كتابه **«نظرية المنظومة الحيوانية»** (لايدن ــ ١٧٦٧) ، كل النظرية العصرية في السكان ، «المحترم» والاس ، «المحترم» تاونسند ، «المحترم» مالثوس ، «المحترم جدا» ث. شالمرز . ورغم ان مالثوس كان كاهنا من كبار كهنة الكنيسة الانغليكانية ، فقد نذر على الاقل نذرا بالبقاء عازبا بصفته زميلا في هيئة تدريس جامعة كمبريدج :

نحن لا نسمح بأن يتزوج زملاء مبرزون من المجامع الكنسية ، لكن ما ان يتزوج احدهم حتى يكف عن ان يكون زميلا في الكلية .

وبصورة عامة ، فان الكهنة البروتستانت، بعد انخلعوا نير العزوبية الكاثوليكية، طالبوا ، وكأنها رسالة خاصة بهم ، بتنفيذ وصية الكتاب المقدس «تناسلوا، تكاثروا»، وفي نفس الوقت لم يمنعهم هذا الامر من أن يعظوا العمال ب «مبدأ السكان» . لقد احتكروا تقريبا هذه النقطة من المذهب الحساس ، هذا التنكير الاقتصادي للخطيئة الاصلية ، تفاحة آدم هذه ، «الشهية المتلظية» و«العقبات التي تنزع الى فك سهام كيوبيد» ، كما يقول في مرح «المحترم» تاونسند . وكأنما كان بيتي يتوقع مجيء هؤلاء المسفين حين كتب يقول :

يزدهر الدين على الاخص حيث يعاني الكهنة اكبر قدر من الاماتة، كما يزدهر القانون حيث يموت المحامون جوعا .

لكن اذا كان القسس البروتستانت يصرون على عدم طاعة القديس بولس الرسول، ولا ان يقوموا بفعل الإماتة لجسدهم بواسطة العزوبية ، فعليهم ان يحترسوا على الاقل من ان يولدوا عددا من الكهنة اكبر مما تسمح باعالته الوظائف ذات الدخل المتاحة .

اذا لم يكن يوجد اثني عشر الف وظيفة كنسية ذات دخل ، فمن الخطر استيلاد اربعة وعشرين الف كاهن ، ذلك لان الاثني عشر الفا الذين لا وظيفة لهم سوف يسعون باستمرار لكسب عيشهم ؛ ولبلوغ هذا الغرض ، لن يجدوا وسيلة افضل من السعي بين ابناء الشعب واقناعه بأن الاثني عشر الفا

من الكهنة الآخرين اصحاب الوظائف ذات الدخل يسممون النفوس ، يجوعــون الشعب ويبعدونه عن الدرب الصحيح الموصل الى السماء (وليم بيتي : **«بحث في الرسوم والضرائب»** ، لندن ، ١٦٦٧ ، ص ٥٧) .

على غرار بيتي ، فقد أصاب آدم سميث بغض طغمة الاكليروس . يمكن ان نتأكد من ذلك بالاطلاع على كراس بعنـــوان **«رسالة الى آدم سميث ، حول حياة وموت وفلسفة صديقه دافيد هوم . بقلم واحد من الناس المدعويــــن مسيحيين»** ، الطبعة الرابعة ، اوكسفورد ، ١٧٨٤ . ان كاتب هذه الرسالة الهجائية ، الدكتور هورن ، اسقف نورويش الانغليكاني ، ينهال موعظة على آدم سميث لنشره رسالة الى م. ستراهان «يبخر فيها لصديقه دافيد [هوم]» ، حيث يروي للملأ ان هوم كان وهو على سرير الموت يتسلى بقراءة لوقيانوس واللهو بلعبة الهويست ، وحيث يصل به التهور حداً يعترف فيه قائلا :

لقد كنت دائما اعتبر هوم ، خلال حياته وبعد وفاته على حد سواء ، كاقرب ما يكون الى الحكيم المثالي الكامل المفعم بالفضائل وباكثر ما يحتمل الضعف البشري .

ويصيح الكاهن وقد استشاط غضبا :

هل يليق ، اذن ، ايها السيد ، ان تقدم لنا بوصفها ذروة الحكمة والفضيلة طباع وسلوك رجل تتملكه بغضاء شديدة ضد كل ما يحمل اسم الدين ، بحيث كان يبذل كل ما في وسعه ليمحو هذا الاسم من ذاكرة البشر؟... لكن لا تفقدوا الشجاعـــة يا اصدقاء الحقيقة، فالالحاد لن يعمر طويلا ... امـــا انت [ آدم سميث ] فقـــد بلغ مـــن انحرافك انك اخـذت تنشر الالحاد فـــي البـلاد ( وبخاصة « نظرية المشاعر الاخلاقية » ) ... نحن نعرف حيلـــك واحابيلك ، ايها الاستاذ العليم ، لا تنقصنك النية في الالحاد ، لكنك تفتقر الى صحبة زميلك الراحل . انك تريد ان تقنعنا ، مستشهدا بمثال دافيد هوم المبجل، بانه ما من دواء لنفس محطمة ولا من ترياق ضد خوف الموت سوى الالحاد ... فاضحكوا اذن على أطلال بابل ، وهنئوا فرعون ، ذلك المجرم الفاسق المتحجر ! (المرجع المذكور . ص ٨–١٧ ، ٢١ ، ٢٢) .

وهناك انغليكاني آخر ، أورثوذكسي ، حضر دروس آدم سميث ، يروي لنـــا ظرف وفاته :

ان صداقة سميث لهوم منعته من ان يكون مسيحيا ... كان يؤمن بكلام هوم ؛ لو قال له هوم ان القمر مصنوع من الجبنة الخضراء لصدقه . لذلك فقد صدقه حين قال له انه لا وجود للرب ولا للمعجزة ... وكان في مبادئه السياسية يقارب النزعة الجمهورية ... (النحلة ، بقلم جيمس اندرسون ، ١٨ مجلد ، ١٧٩١ – ٩٣ ، المجلد ٣ ، ص ١٦١ ، ١٦٥) .

واخيرا فان «المحترم» شالمرز يتهم آدم سميث بأنه ابتكر مقولة «الشغيلة غـــير المنتجين» قاصدا بذلك ، بصورة خاصة ، الكهنة والقسس البروتستانت ، رغم عملهم المثمر في كرمة الرب .

١٤ ٠

فريدريك انجلس

# أدب المهاجرين(*)

## (مقتطفات من المقال الثاني)

... ان أصحابنا البلانكيين (١) يشاطرون الباكونينيين (٢) أنهم يريدون تمثيل النزعة الاكثر راديكالية ، النزعة التي تذهب أبعد من كل النزعات . ولنقل مرورا أنهم كثيرا ما يلتقون مع هؤلاء في الوسائل ، وان كانوا يتعارضون معهم فيما يحددونه من اهداف . لذا فانهم الاكثر جذرية من سائر الآخرين ، بالنسبة للالحاد . ان يكون المرء ملحدا لم يعد اليوم براعة كبيرة ، لحسن الحظ . فالالحاد يغدو تقريبا شيئا بديهيا في الاحزاب العمالية الاوروبية ، مع انها يمكن أن تتخذ في بعض البلدان مظهر الحاد ذلك الباكونيني الاسباني الذي كان يرى الايمان بالله موقفا مضادا للاشتراكية ، لكن الايمان بمريم العذراء شيء ما مختلف تماما : على كل اشتراكي حقيقي ان يؤمن بالعذراء . بل يمكن القول عن الاكثرية الكبرى من العمال الالمان الاشتراكيين الديمقراطيين بأن الالحاد قد فات أوانه عندهم وتم تجاوزه ؛ فهذه الصيغة السلبية الخالصة لم تعد تنطبق عليهم ، ذلك لانهم لم يصبحوا بعد في موقف معارضة نظرية

---

* نشرت في صحيفة «دولة الشعب» (الناطقة بلسان الاشتراكيين الالمان) ، العدد ٧٣ ، الصادر في ٢٦ حزيران ١٨٧٤ . عن كتاب فريديريك انجلس : «مسائل عالمية بحثت في صحيفة «دولة الشعب» من عام ١٨٧١ حتى ١٨٧٦» ، برلين ، ١٨٨٤ .

١ ــ **البلانكية** : احد تيارات الحركة الاشتراكية الفرنسية ، سميت باسم الثوري الكبير لويس اوغست بلانكي (١٨٠١ ــ ١٨٨١) . كتب لينين : ان النزعة البلانكية تتوقع تحرير البشرية من عبودية العمل بالاجرة لا بصراع البروليتاريا الطبقي ، بل بتآمر اقلية صغيرة من المثقفين» .

٢ ــ الباكونينيون : انصار الفوضوي الروسي ميخائيل الكسندروفيتش باكونين (١٨١٤ــ١٨٧٦). كان عضوا في الاممية الاولى ، وقد اختلف مع ماركس مرارا . طرد منها في مؤتمر لاهاي . الباكونينية هي ، حسب عبارة لينين ، مفهوم للعالم يحمله «بورجوازي صغير يائس من خلاصه» ، خلاص العالم .

فحسب بل عملية للايمان بالله ، وبكل بساطة لقد **انهوها مع الله** ، وهم يعيشون ويفكرون بالعالم الواقعي الفعلي ، وبالتالي فهم مادويون . وعلى الارجح فان الامر يجري على هذا النحو ايضا في فرنسا . لكن اذا لم يكن الامر كذلك ، فلا أسهل من العناية بنشر الادب المادوي الفرنسي الرائع للقرن الاخير بكثافة بين العمال ؛ فهذا الادب يشكل ، من حيث الشكل والاساس ، احدى ذرى العقل الفرنسي وهو ــ مع اخذ حالة العلم عصرئذ بالاعتبار ــ ما يزال يحتل حتى اليوم موقعا عاليا للغاية من حيث الجوهر والمضمون ، اما من حيث الشكل فلم يبلغ أحد مستواه قبلا . لكن هذا لا يمكن ان يناسب أصحابنا البلانكيين . فلكي يبرهنوا عن تطرفهم الاشد حزما وتصميما ، فانهم يلغون الله بمرسوم ، على غرار ما حدث عام ١٧٩٣ :

فلتحرر الكومونة البشرية الى الابد من شبح بؤسها الماضي هذا (الله) من « هذه العلة » ( الله الذي لا وجود لـه يعتبر هنا « علة » ) ، علة بؤسها الراهن . لا مكان في الكومونة للكهنة ؛ يجب منع كل مظهر من مظاهر الدين ، وكل تنظيم ديني .

هذه الرغبة الطامحة الى تحويل الناس الى ملاحدة بقرار من فوق حمل توقيع عضوين من اعضاء الكومونة ، الذين أتيح لهم مع ذلك مقدار كاف من الفرص لكي يعلموا ، أولا ، انه يمكن اصدار مقدار هائل من الاوامر على الورق دون ان يؤدي ذلك الى تنفيذها ، وثانيا ، ان أعمال الاضطهاد هي أفضل وسيلة لمنح القوة للقناعات المكروهة ! والامر المؤكد هو ان الخدمة الوحيدة التي يمكن الاستمرار في تأديتها لله في أيامنا هذه هي ان يجعل من الالحاد فعل ايمان الزامي ، وان يضاف ، الى قوانين بسمارك المعادية للكاثوليكية (١) ، قوانين «النضال في سبيل الثقافة» ، قوانين بحظر الدين عموما ...

---

١ ــ المقصود هنا جملة التدابير التي توصل بسمارك الى فرضها في سبعينات القرن التاسع عشر في كفاحه ضد حزب الوسط (الكاثوليكي) ، وذلك لاضعاف الخصوصية الاقليمية في المانيا الجنوبية. وهذا «النضال في سبيل الثقافة» الذي خاضه بسمارك قد تجسد في قانون مكافحة الجزويت الصادر في ٤ تموز ١٨٧١ وفي قوانين ايار : ١١ ايار ١٨٧٣ حول اعداد الكهنة وتعيينهم ، قانون ١٢ ايار حول السلطة الانضباطية في الميدان الديني وحول اقامة المحكمة الملكية للشؤون الدينية ، قانون ١٣ ايار ١٨٧٣ حول حدود ممارسة حق العقوبة والقسر الدينيين ، قانون ١٤ ايار ١٨٧٣ حول الاستقالة من سلك الكهنوت . أغلب هذه التدابير قد روجعت او خففت بعدئذ . ان قوانين ايار قد علقت عام ١٨٨٠ ، ثم الغيت .

**١٥ ·**

**كارل ماركس**

# ملاحظات هامشية
# على برنامج حزب العمال الالماني (*)

**حرية الضمير!** اذا كان يراد، بأيام «الكفاح من أجل التقافة» **Kultur Kampf** (١) هذه ، تذكير الليبراليين بشعاراتهم القديمة ، فليس بالأمكان تلبية هذه الرغبة الا على النحو التالي : «ينبغي ان يكون في وسع كل امرىء تلبية حاجاته الدينية والجسدية، دون ان يحشر البوليس أنفه في الموضوع» . لكن كان على حزب العمال ان ينتهز الفرصة ليعبر عن يقينه بأن «حرية الضمير» البورجوازية ليست سوى التسامح ازاء جميع الانواع الممكنة من **حرية المعتقد الديني** ، في حين انه يجهد لتحرير الوعي من الاستشباح **la fantasmagorie** الديني . غير أنهم يرضون بعدم تجاوز المستوى «البورجوازي» (٢) .

---

★ كتبت في اول ايار ١٨٧٥ ، ونشرت للمرة الاولى في مجلة «العصر الحديث» ، السنة التاسعة (١٨٩٠ — ٩١) ، المجلد الأول .

١ — ان «الكفاح من اجل الثقافة» الذائع الصيت هو الكفاح الذي قاده بسمارك بعد العام ١٨٧٠ ضد الحزب الكاثوليكي الالماني ، حزب «الوسط» ، بواسطة اعمال القمع البوليسية الموجهة ضد الكاثوليكية . بهذا الكفاح لم يحقق بسمارك شيئا سوى تقوية الاكليروسية الكفاحية لدى الكاثوليك ؛ لم يفعل سوى انزال الضرر بقضية الثقافة الحقيقية ، عندما وضع في المركز الاول الانقسامات الدينية، بدلا من الانقسامات السياسية ، فحرف انتباه بعض شرائح الطبقة العاملة والشرائح الديمقراطية عن المهام الاساسية ، التي يقتضيها النضال الطبقي والثوري ، نحو عداء للاكليروسية سطحي جدا ومتبرجز كاذب . ( لينين : «حول موقف حزب العمال من الدين» ) .

٢ — ينتقد ماركس هنا اتجاه الحركة الاشتراكية — الديمقراطية الالمانية التي لم تفصح بكل وضوح في البرنامج انها تطرح موقف رفض يتخذه حزب العمال ازاء التبليد الديني ، بل اكتفى بترديد المطالب الدائمة للاحزاب البورجوازية والمتعلقة ب «حرية لضمير» .

## ١٦ ·

فريدريك انجلس

# ضد دوهرينغ (*)

لم تعرف المسيحية سوى مساواة **واحدة** بين جميع البشر ، هـي المساواة في الخطيئة الاصلية المتساوية ، التي توافق تماما طابعها كدين للعبيد والمضطهدين . الى جانب ذلك ، كانت تعرف بالكاد مساواة المختارين ، وهي ، على كل حال ، لم تبرز الا في البداية . ان آثار شيوع الاموال ، التي وجدت كذلك في بدايات الدين الجديد ، تعود بالاحرى الى التضامن بين المضطهدين اكثر مما تعود الى افكـار واقعيـة في المساواة . وسرعان ما وضع تبلور التعارض بين الكهنة والعلمانيين حدا حتى لهـذا الاصل الاولي للمساواة المسيحية . ـ ان اجتياح أوروبا الغربية من قبل الجرمـان استبعد طوال قرون جميع افكار المساواة ، بسبب واقع انه قد تكوّن شيئا فشيئـا تراتب هرمي اجتماعي وسياسي بلغ مدى من التعقيد لا مثيل له من قبل ؛ لكنـه في الوقت ذاته جر اوروبا الغربية والوسطى الى حركة التاريخ ، خلق لاول مرة منطقـة حضارية متماسكة ، اقام في هذه المنطقة منظومة من الدول ذات طابع قومي قبل كل شيء ، كانت تتبادل التأثيرات ، ويدفع بعضها بعض الى الاخفاق . لذا فان هـذا الاجتياح قد هيأ الارضية الوحيدة التي مكنت في ازمنة لاحقة من الحديث عن قيمة البشر المتساوية ، عن حقوق الانسان . . .

. . . ان سيادة الفرد تقوم اساسا في أن «الفرد يكون ازاء الدولة في **حالة قسر مطلق**»، لكن هذا القسر لا يمكن تبريره الا بقدر ما «يخدم فعليا العدالة الطبيعية» . لهذه الغاية سيكون ثمة «تشريع وقضاء» ، لكن «عليهما ان يبقيا مع الجماعة» ؛ اضف الى ذلك ، ان هناك حلفا دفاعيا يتجلى بـ «التضامن في الجيش أو في فرع تنفيذي

---

★ كتب من مطلع تشرين الثاني ١٨٧٦ حتى نهاية آذار ١٨٧٨ .

ضروري لخدمة الامن الداخلي» ، وبالتالي ايضا ، جيش ، شرطة ودرك . الحقيقة ان السيد دوهرينغ قد برهن كثيرا من قبل عن صفاته كبروسي شجاع ! انه يظهر نفسه هنا على مثال ذلك البروسي النموذجي الذي «يجثم دركيه في قلبه» ، كما يقول المرحوم فون روشوو . لكن هذه النزعة الدركية المستقبلية لن تكون بمثل خطورة دركيي اليوم . فمهما تكن أعمال العنف التي ترتكبها ضد الفرد السيد ، فسيكون لديه تعزية على الدوام .

> فالعدالة او الجور ، حسب الظروف ، التي ينزلها به المجتمع الحر « لا يمكن ان تكون **شيئا ما** اسوأ مما تسببه **حالة الفطرة** بالذات !

إثر ذلك ، وبعد ان يجعلنا السيد دوهرينغ نهوي مرة اخرى على حقوق التاليف المتوجبة له ، يؤكد لنا ان عالمه المقبل سيوفر «حق المرافعة الذي سيكون ، وهذا أمر بديهي ، حرا وشاملا تماما» . ان «المجتمع الحر المتخيل اليوم» يصبح أكثر فأكثر خليطا من مهندسين ، عمال يدويين ، ادباء ، رجال درك ، و ، فوق كل ذلك ، محامين ! ان هذا «الملكوت الفكري الصلب والنقدي» يشبه ، الى اقصى حد ، مختلف الملكوتات السماوية لمختلف الاديان ، التي يجد فيها على الدوام المؤمن الامور التي لطفت حياته الارضية مجمّلة . والسيد دوهرينغ الا ينتمي للدولة [البروسية] حيث «يستطيع أي كان ان يحقق خلاصه وفق طريقته» ؟ فماذا تريدون اكثر من ذلك ؟

ومن جهة اخرى ، فان ما يمكن ان نطلبه لا يثير الاهتمام . المهم هو ما يريده السيد دوهرينغ . والسيد دوهرينغ يتميز عن فريديريك الثاني في ان دولته المستقبلية لا تسمح البتة لاي شخص ان يحقق خلاصه وفق طريقته . ان دستور دولة المستقبل هذه ينص على ما يلي :

> في المجتمع الحر ، لا يمكن ان تكون ثمة عبادة ؛ ذلك لان كل فرد من افراده قد تخطى الوهم البدائي والطفولي القائل بأن وراء الطبيعة او فوقها توجد كائنات يمكن التأثير عليها بأضاح او بصلوات . ويتعين بالتالي على منظومة ذات طابع اجتماعي ان تلغي كل جهاز الشعوذة الكهنوتي و ، من ثم ، جميع العناصر الاساسية في العبادات (١) .

ان السيد دوهرينغ يريد منع الدين .

والحال ان كل دين ليس سوى الانعكاس الواهم ، في دماغ البشر ، للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي ، هذا الانعكاس الذي تتخذ فيه القوى الارضية شكل قوى فوق أرضية . في بدايات التاريخ ، كانت قوى الطبيعة هي الخاضعة لهذا الانعكاس الذي يتحول ، لدى مختلف الشعوب ، الى التشخيصات الاكثر اختلافا وتنوعا. ان هذه السيرورة الاولى قد أرجعتها الميتولوجيا [علم الاساطير]

---

١ ـ راجع : أوجين دوهرينغ : «محاضرات في الفلسفة ...» ، لايبزغ ، ١٨٧٥ ، ص ٢٨٥ ، و«محاضرات في الاقتصاد السياسي والاجتماعي ...» ، الطبعة الثانية ، برلين ، ١٨٧٦ ، ص٣٤٥ .

المقارنة ،على الاقل بالنسبة للشعوب الهندية ــ الاوروبية، الى اساطير الـ فيدا الهندية ، ثم في استمرارها ظهرت تفصيلا لدى الهندوس ، الفرس ، اليونانيين ، الرومان ، الجرمان ، وكذلك ، وبقدر ما نملك من وثائق كافية ، السيلتيين ، الليتوانيين والسلاف . لكن لم تلبث ان دخلت الميدان ، الى جانب القوى الطبيعية ، قوى اجتماعية ، قوى تنتصب أمام البشر ، تبدو غريبة كل الغرابة و ، في البداية، غامضة ملغّزة كذلك ، وهيمنت عليهم بنفس مظهر الضرورة الطبيعية وقوى الطبيعة ذاتها سواء بسواء . وان الشخصيات الوهمية العجائبية التي لم تكن تنعكس فيها في البدء سوى قوى الطبيعة الخفية تتلقى من وراء ذلك صفات اجتماعية ، وتصبح ممثلة القوى التاريخية(١) . في مرحلة اكثر تقدما من التطور، تنقل جملة الصفات الطبيعية والاجتماعية للالهة الكثيرة العدد الى اله واحد كلي القدرة ، ليس سوى انعكاس للانسان المجرد . على هذا النحو ولدت ديانة التوحيد ، التي كانت في التاريخ آخر نتاج للفلسفة اليونانية العامية في فترة انحطاطها ووجدت تجسيدها جاهزا تماما في اله اليهود الخاص ، يهوه . في هذا الشكل البسيط ، الملائم ، المرن والقابل للتكيف مع كل شيء ، أمكن للدين ان يستمر كشكل مباشر ، اي شعوري ، لموقف البشر بالنسبة للقوى الغريبة ، الطبيعية والاجتماعية ، التي تسيطر عليهم ما داموا تحت سيطرة هذه القوى . والحال اننا رأينا مراراً ان البشر ، في المجتمع البورجوازي الحالي ، تسيطر عليهم العلاقات الاقتصادية التي خلقوها هم أنفسهم ، ووسائل الانتاج التي انتجوها هم بالذات ، كما لو انها قوة غريبة عنهم وخارجية . في هذه الحالة فان الاساس الحقيقي للفعل المنعكس الديني يبقى مستمرا ، ويستمر معه الانعكاس الديني نفسه . وحتى اذا كان الاقتصاد البورجوازي يتيح القاء نظرة سريعة على التسلسل السببي لهذه السيطرة الاجنبية ، فهذا لا يغير شيئا في المسألة . فليس باستطاعة الاقتصاد البورجوازي لا ان يحول دون الازمات بصورة عامة ، ولا ان يحمي الراسمالي الفرد من الخسائر ، الديون والافلاس ، أو العامل الفرد من البطالة والبؤس . ويظل المثل صحيحا : الانسان يقترح والله يقرر (الله هنا بمعنى السيطرة الخارجية لنمط الانتاج الراسمالي) . ان المعرفة وحدها ، حتى حين تصل الى أبعد وأعمق من معرفة الاقتصاد البورجوازي ، لا تكفي لاخضاع القوى الاجتماعية لهيمنة المجتمع ، بل يلزم لذلك ، قبل كل شيء ، **فعل** اجتماعي . عندما ينجز هذا الفعل ،

---

١ ــ هذا الطابع المزدوج اللاحق للاشخاص الالهيين هو علة الغموض الذي دخل في زمن لاحق على الميثولوجيات ، علة لم ترها الميثولوجيا المقارنة ، التي عنيت فقط بخاصة الآلهة بوصفها انعكاسات لقوى طبيعية . وعلى هذا ، ففي بعض القبائل الجرمانية ، نرى ان اله الحرب النوروية القديمة يسمى تير ، وفي اللغة الالمانية القديمة جدا يسمى زيو ، فيطابق والحالة هذه زيوس باليونانية و جوبيتر باللاتينية ، مقابل ديو بيتر ؛ في لغات اخرى ، يسمى ار اور فيطابق والحالة هذه في اليونانية آريس وفي اللاتينية مارس .

وحين يكون المجتمع ، بامتلاك مجمل وسائل الانتاج وتسييرها المخطط ، قد تحرر وحرر جميع أفراده من العبودية التي تحكم بها عليهم حاليا وسائل الانتاج التي انتجوها هم انفسهم ، ولكن التي تنتصب أمامهم كقوة خارجية مرهقة ؛ وبالتالي عندما يكف الانسان عن كونه مجرد مقترح ، بل مقرر ايضا ، ـ عندئذ فقط سيزول آخر سلطان غريب ما يزال ينعكس في الدين ، ومن خلال ذلك وبواسطته سيزول الانعكاس الديني ذاته ، وذلك لسبب بسيط وهو انه لن يعود هناك ما يعكس .

بالعكس ، فان السيد دوهرينغ لا يستطيع ان ينتظر ان يموت الدين هذه الميتة الطبيعية المكتوبة له . انه يتصرف بصورة اكثر راديكالية . انه اكثر بسماركية من بسمارك ؛ يصدر قوانين أيار مشدّدة ، لا ضد الكاثوليكية فقط ، بل ضد كل دين بشكل عام ، أنه يطلق دركه المستقبليين مطاردا الدين ، وبهذا يساعده في ان يصل الى حد الاستشهاد فيطيل حياته . حيثما نظرنا ، نرى انها الاشتراكية البروسية المميَّزة ! ...

**عدالة . مساواة .** ـ فكرة ان المساواة هي التعبير عن العدالة ، عن مبدأ النظام السياسي والاجتماعي الكامل ، قد ولدت بصورة تاريخية تماما . في الجماعات الطبيعية ، لم يكن لهذه الفكرة وجود ، او على الاقل لم تكن موجودة الا على نحو جد محدود ، وذلك بالنسبة لعضو جماعة خاصة، يتمتع بكامل حقوقه : لقد كانت مشوبة بالعبودية . على غرار ذلك كانت الحال في الديمقراطية القديمة . ان المساواة بين جميع البشر ، اليونان ، الرومان والبرابرة ، الاحرار والارقاء ، الوطنيين والاجانب ، المواطنين والزبن ، الخ، لم تكن حماقة فحسب بالنسبة لدماغ تلك الازمنة، بل كانت جريمة ، وبدايتها الاولى اضطهدت عمليا في المسيحية . في الكاثوليكية ، بادىء بدء **نجد المساواة السلبية لجميع البشر امام الله بصفتهم خطاة** ، وفي مفهوم أضيق المساواة بين ابناء الله المغفورة خطاياهم ، على اختلاف اوضاعهم ، بالنعمة الالهية وبدم المسيح . وقد اندمج المفهومان في دور المسيحية ، بصفتها دين العبيد المغضوب عليهم ، المنبوذين والمضطهدين . بانتصار المسيحية ، انتقل هذا الدافع (١) الى المرتبة الثانية والتعارض بين المؤمنين والوثنيين ، بين الاورثوذكس والهراطقة ، أصبح اساسيا . مع ظهور المدن ، ومن ثم ظهور عناصر متطورة الى هذا الحد او ذاك من البورجوازية والبروليتاريا ، كان لا بد لمطلب الحرية من ان يظهر شيئا فشيئا كشرط لوجود البورجوازية ، كما ارتبطت به الطريقة البروليتارية في الربط المنطقي بين المساواة السياسية والمساواة الاجتماعية . ومن الطبيعي ان يجري ذلك في صيغ دينية تجسدت بصورة واضحة ، بادىء بدء ، في حرب الفلاحين . ـ ان الجانب البورجوازي قد صيغ للمرة الاولى بدقة ، ولكن بصورة كانت ما تزال انسانية كليا ،

---

١ ـ اي كون المسيحية دين منبوذين . (م)

من قبل جان جاك روسو . وكما هي الحال في جميع مطالب البورجوازية ، تنهض البروليتاريا هنا أيضا بصفتها شبحا حتميا وتستجر نتائجها (بابوف) . يجب شرح هذا الترابط بين المساواة البورجوازية والطريقة البروليتارية في استجرار النتائج المنطقية منها .

ان الانعكاس الصحيح **للطبيعة** البالغ الصعوبة هو نتاج تاريخ تجربة طويل. وقوى الطبيعة كانت شيئا ما غريبا ، ملغزا ، متعاليا ، بالنسبة للانسان البدائي . عند مرحلة معينة ، ثمر بها **جميع** الشعوب المتمدنة ، كان الانسان البدائي يمثل تلك القوى عبر تشخيصها . ان غريزة التشخيص هذه هي التي أوجدت في كل مكان آلهة ، وان اتفاق البشر Consensus Gentium ، فيما يخص برهان وجود الله ، لا يثبت ، على وجه التحديد ، سوى كونية غريزة التشخيص هذه ، بصفتها مرحلة انتقالية ضرورية ، وبالتالي كونية الدين ايضا . ان المعرفة الحقة للقوى الطبيعية هي وحدها التي تطرد الالهة او الاله من موقع بعد الآخر . ان هذه السيرورة أصبحت حاليا جد متقدمة ، بحيث يمكن اعتبارها منجزة نظريا .

في الامور الاجتماعية ، يكون الانعكاس اكثر صعوبة ايضا . والمجتمع يتحدد بالعلاقات الاقتصادية ، علاقات الانتاج والتبادل ، وكذلك بالشروط التاريخية السابقة .

## ١٧ ●

**فريدريك انجلس**

# ديالكتيك الطبيعة

## مدخـل

ان الدراسة الحديثة للطبيعة ، ـ وهي الدراسة الوحيدة التي توصلت الى تطور علمي ، منهجي وكامل ، خلافا للحدوس العبقرية التي صاغها القدامى في ميـدان فلسفةالطبيعة، وخلافا للاكتشافات العربيةالبالغة الاهمية ولكنالمشتتة والتيما زالت بمعظمها بلا نتائج ، ـ هذه الدراسة الحديثة للطبيعة ، شأن كل التاريخ الحديث ، تبدأ من ذلك العصر العظيم الذي نسميه ، نحن الالمان ، الاصلاح [الديني] ، من زاوية الشقاء القومي الذي يلفنا في هذه الاوقات ، ويسميه الفرنسيون النهضة ، والايطاليون الـ «شينكوي شينتو» ★ ، رغم ان اي من هذه العبارات لا تؤدي الفكرة كلها . انه العصر الذي بدأ مع النصف الثاني للقرن الخامس عشر . ان الملكية قد استندت الى بورجوازية المدن وحطمت سلطان النبالة الاقطاعية وخلقت دولا ملكية كبيرة مستندة أساسا على القومية ، وفي اطار هذه الدول الملكية تطورت الامم الاوروبية الحديثة والمجتمع البورجوازي الحديث ؛ وفي حين ان البورجوازية والنبالة كانتا ما تزالان تصطرعان ، زفت حرب الفلاحين في المانيا نبويا الصراعات الطبقية المقبلة ، اذ حملت على المسرح لا الفلاحين الثائرين ـ وليس في هذا الامر جديد ـ بل حملت وراءهم ايضا رواد البروليتاريا الحديثة ، العلم الاحمر في قبضتهم ومطلب شيوع الممتلكات على شفاههم . في المخطوطات التي انقذت عند سقوط بيزنطة ، في الانصاب القديمة التي سحبت من خرائب روما ، برز امام الغرب المذهول عالم جديد : العصر الاغريقي القديم ؛ وأمام أشكال هذا العصر المتألقة تبددت اشباح القرون الوسطى ، ففي أيطاليا حدث ازدهار فني لا شك فيه ، بدا كانعكاس للعصر الكلاسي

---

★ Cinque Cento ، تعني حرفيا السنوات الخمسمئة ، اي القرن السادس عشر .

القديم ، لم ينشأ مثيلا له فيما بعد . في ايطاليا ، في فرنسا ، في المانيا ، ظهر أدب جديد ، كان أول أدب حديث ؛ بعيد ذلك عاشت بريطانيا واسبانيا عصرهما الادبي الكلاسي . تحطمت حواجز العالم القديم ★ ؛ وللمرة الاولى اكتشفت الارض حقا ، وارسيت أسس الانتقال من الحرفة الى المانيفاتورة ، التي كانت بدورها نقطة انطلاق الصناعة الكبيرة الحديثة . الدكتاتورية الروحية للكنيسة قد حطمت ؛ خلعت اغلبية الشعوب الجرمانية نير هذه الدكتاتورية واعتنقت البروتستانتية ، اما لدى الشعوب الرومانية فان فكرا حيا حرا ، اخذ عن العرب وغذي بالفلسفة اليونانية المكتشفة منذ قليل ، كان يتأصل اكثر فأكثر ويمهد التربة لمادية القرن الثامن عشر .

كان هذا اعظم زلزلة تقدمية بين جميع الزلزلات التي عرفتها البشرية حتى ذلك الوقت ، كان عصرا بحاجة الى عمالقة كما أنجب عمالقة: عمالقة الفكر والهوى والطبع، عباقرة الشمولية وروح البحث والتنقيب . ان الرجال الذين أرسوا اسس الهيمنة العصرية للبورجوازية كانوا كل شيء،عدا ان يكونوا حبيسي ضيق الافق البورجوازي. بل على العكس ، فروح العصر المغامرة قد أصابتهم بدرجات متفاوتة بعصفها . فقد كان صعبا في ذلك الوقت ان يوجد رجل ذو شأن لم يقم بجولات واسعة ، لا يتكلم اربع لغات او خمس ، لم يجل في عدة اختصاصات . ان «ليوناردو دي فنشي» لم يكن رساما عظيما فحسب ، بل ايضا رياضيا وميكانيكيا ومهندسا عظيما يعود اليه فضل اكتشافات هامة في اكثر فروع الفيزياء تنوعا . وكان «ألبرت دورر» رساما ونقاشا ومثالا ومعماريا ، أضف الى ذلك أنه اخترع نظاما للتحصين يتضمن عددا من الافكار استعادها بعد فترة غير قصيرة «مونتالمبير» وفن التحصين الحديث في المانيا. وكان «مكيافيللي» رجل دولة ، مؤرخا ، شاعرا ، وكان في نفس الوقت أول كاتب عسكري في الازمنة الحديثة يستحق التنويه . ان «لوثر» قد نظف لا اصطبلات «أوجياس» في الكنيسة فحسب ، بل في اللغة الالمانية أيضا ؛ فهو الذي خلق النثر الالماني الحديث ونظم ولحن ذلك النشيد المفعم ثقة بالنصر الذي اصبح «مارسيلييز» القرن السادس عشر . ان ابطال ذلك الزمن لم يكونوا قد أصبحوا بعد عبيدا لتقسيم العمل ، الذي استشعرنا في كثير من الاحيان لدى اخلافهم الحدود التي يفرضها وضيق الافق الذي يولده . ولكن ما كان يميزهم على الاخص هو كون الجميع تقريبا كان غارقا في حركة زمنه ، في النضال العملي ؛ كانوا يتحزبون ويخوضون غمار معارك ، البعض بالكلمة والقلم ، البعض الآخر بالسيف ، وفي أحيان كثيرة بالوسيلتين معا . ومن هنا ذلك الكمال وتلك القوة في الطبع التي جعلت منهم رجالا مكتملين . العلماء المتوحدون في المكاتب كانوا استثناء : اما اناس من المرتبة الثانية او الثالثة ، او جهولون متحذرون لا يريدون حرق اصابعهم .

---

★ orbis terrarum ، معناها الحرفي : دائرة الاراضي؛ هكذا كان الرومانيون القدماء يسمون العالم ، الارض . (م)

في هذا الزمن ، كانت دراسة الطبيعة تجري ، هي ايضا ، في مناخ ثورة عامة مواتٍ ، وهي نفسها كانت ثورية : الم يكن مفروضا عليها ان تنتزع حقها في التواجد في الصراع ؟ يدا بيد مع الايطاليين العظام ، الذين تبدأ الفلسفة الحديثة معهم، قدمت شهداءها للمحارق ولاقبية محاكم التفتيش . وانه لامر مميز ان يكون البروتستانت قد تفوقوا على ألكاثوليك في اضطهاد الدراسة الحرة للطبيعة . لقد أحرق «كالفن» «سيرفيه» ، في لحظة كان فيها على وشك اكتشاف الدورة الدموية، بشيِّهِ حيا طوال ساعتين ؛ اما محاكم التفتيش فقد اكتفت ، على الاقل ، بمجرد احراق «جوردانو برونو» .

ان الفعل الثوري ، ألذي نادى من خلاله علمُ الطبيعة باستقلاله مكررا تقريبا تصرف «لوثر» عندما أحرق القرارات والبراءات البابوية ، ــ هذا الفعل هو نشر المؤلف الخالد (١) الذي تحدى فيه كوبرنيك ــ وان بخجل ، و ، يمكن القول ، عندما كان على فراش الموت ــ سلطان الكهنوت فيما يتعلق بامور الطبيعة . من هذا الفعل يبدأ تحرر علم الطبيعة من اللاهوت، ، رغم ان الاستجلاء التفصيلي لحقوقهما المتبادلة امتد حتى أيامنا هذه ، وان في بعض العقول ما يزال بعيدا عن الانتهاء . ولكن هذا لم يمنع ان يكون تطور العلوم قد تقادم منذ ذلك الحين بخطوات عملاقة واشتد ، اذا جاز التعبير ، بنسبة مربع البعد (في الزمن) من نقطة انطلاقه . فكأنه كان ينبغي ان يبرهن للعالم ، من الان وصاعدا ، ان النتاج الارفع للمادة العضوية ، الفكر الانساني ، يخضع لقانون للحركة معاكس لقانون حركة المادة غير العضوية .

ان العمل الرئيسي لعلم الطبيعة في بداية هذه المرحلة الاولى كان اكتساب السيطرة على المواد التي كانت في متناول اليد . في معظم الميادين ، انطلقوا من الصفر . من العصر القديم بقي اقليدس (٢) ونظام بطليموس الشمسي (٣) ؛ من العرب الترقيم العشري ، مبادىء الجبر ، الارقام الحديثة والسيمياء ؛ من العصر الوسيط المسيحي لم يبق شيء البتة . في مثل هذا الوضع ، كان من المحتم ان تحتل المرتبة الاولى ألمبادىء الاولية جدا لعلوم الطبيعة، اي ميكانيك الاجسام الارضية والسماوية، وان يقوم الى جانبه وفي خدمته اكتشاف وتحسين مناهج الرياضيات . وفي هذا

---

١ ــ عنوانه : «حركة الاجرام السماوية» ، نورمبورغ ، ١٥٤٣ . وقد عرض فيه كوبرنيك النظرية الشمسية المركز . وبموجب هذه النظرية لم تعد الارض مركز منظومة السيارات ، كما كان مقبولا في السابق ، بل الشمس . والارض ، التي تدور حول الشمس ، تدور حول محورها ايضا.

٢ ــ «ابو الهندسة» . اول من قدم عرضا متسقا للهندسة . ان مبادىء اقليدس كانت خلال زمن طويل الاساس الوحيد للهندسة في العالم بأسره .

٣ ــ حسب النظام الارضي للفلكي اليوناني بطليموس ، توجد الارض في مركز العالم . هذه النظرية كانت في اساس المفهوم الديني للكون . في علم الفلك ، احتفظت هذه النظرية بمكانتها حتى الاكتشاف العظيم الذي حققه كوبرنيك .

الميدان انجزت أعمال كبيرة. عندما انتهت الفترة التي سجل «نيوتن» و «لينه» نهايتها، وصلت هذه الفروع العلمية الى درجة معينة من النجاز . فالمناهج الرياضية الاكثر اساسية قد تحددت في خطوطها العريضة : الهندسة التحليلية بفضل «ديكارت» بخاصة ، اللوغاريتما بفضل «نيبر» ، حساب التفاضل والتكامل بفضل «ليبنتس» وربما «نيوتن» . وكذلك الامر بالنسبة لاوالة (ميكانية) الجوامد ، التي وضعت قوانينه الرئيسية بصورة نهائية . واخيرا ، ففي علم الفلك المتعلق بالنظام الشمسي اكتشف «كبلر» قوانين حركة الكواكب وجاء «نيوتن» ليقدم لها صياغة من زاوية القوانين العامة لحركة المادة . الفروع الاخرى من علم الطبيعة كانت بعيدة حتى عن مثل هذا النجار التمهيدي . وفي أواخر هذه الفترة فحسب درست إوالة السوائل والغازات بمزيد من العمق (١) . ان الفيزياء ، بالمعنى الضيق للكلمة ، لم تكن قد تجاوزت المبادىء الاولية ، خلا البصريات التي احرزت تقدما استثنائيا حركته الحاجات العملية لعلم الفلك . وكانت الكيمياء قد بدأت تتحرر للتو من السيمياء بواسطة نظرية «سائل اللهب» (٢) . الاراضة (الجيولوجيا) لم تكن قد تجاوزت المرحلة الرشيمية من علم التعدين ؛ لذا لم يكن ممكنا بعد ان يظهر علم الاحاثة . واخيرا ، في ميدان الحياوة (البيولوجيا) كانوا لا يزالون يهتمون من حيث الاساس بتكديس وفرز مواد ومستنذات ضخمة سواء في علم النبات والحيوان ام في علم التشريح وعلم الوظائف (الفسيولوجيا) . لم يكن من الممكن بعدُ البتة مقارنة اشكال الحياة فيما بينها ، دراسة توزعها الجغرافي ، شروط وجودها المناخية وغيرها . هنا ، قاربه علم النبات وعلم الحيوان وحدهما الاكتمال التقريبي بفضل «لينه» .

ولكن ما يسم على الاخص هذه المرحلة هو انها شهدت تكون مفهوم شمولي خاص بها ، نقطته المركزية هي فكرة **ثبات الطبيعة المطلق** . فأيا كان الطريقة التي تكونت بموجبها الطبيعة ، فانها ما أن وجدت حتى بقيت هي هي نفسها طوال استمرارها وبقائها . وما ان حركت الكواكب وتوابعها بفعل «الصدمة الاولية» الملغزة ، حتى واصلت الدوران حسب الخطوط الاهليلجية المرسومة لها على مدى ألدهور او ، في كل الاحوال ، حتى نهاية جميع الاشياء . وهدات النجوم الى الابد بلا حركة في اماكنها ، مثبتة بعضها بعضا فيها بواسطة «الجاذبية الكونية» . وبقيت الارض ثابتة لا تتغير اما منذ الازل ، او – حسب الفرضية الاخرى – منذ يوم خلقها . ان «اجزاء العالم الخمسة» قاراته الحالية كانت موجودة على الدوام ، وعلى الدوام كان فيها

---

١ – في هامش المخطوط كتب انجلس بالقلم هذه الملاحظة : «توريشيلي بمناسبة ضبط مياه الالب».

٢ – théorie du phlogistique ، وهي النظرية التي كانت سائدة في الكيمياء في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت تقبل الزعم بأن عملية الاحتراق مشروطة بوجود سائل خاص في الجسم هو «سائل اللهب» . ان ابحاث «لومونوسوف» (١٧١١ – ١٧٦٥) و لافوازييه (١٧٤٥ – ١٧٩٤) كشفت ان لا اساس لهذه النظرية .

نفس الجبال ، نفس الوديان ، نفس مجاري المياه ، نفس المناخ.، نفس النباتات ونفس الحيوانات، على الاقل حتى امتدت اليها يد الانسان وأحدثت فيها تغييرات وتبديلات. ان الانواع النباتية والحيوانية قد تحددت مرة واحدة والى الابد عند ولادتها ، الشبيه يولد دوما شبيهه ، وكان «لينه» قد تجاوز الحد عندما قبل امكانية تكوّن انواع جديدة هنا وهناك بواسطة التهجين . وخلافا لتاريخ البشرية الذي ينبسط في الزمان ، فانهم لم يَعزوا لتاريخ الطبيعة سوى الانبساط في المكان . لقد انكروا كل تغير وكل تطور في الطبيعة . ان علم الطبيعة ، الذي كان في بداياته ثوريا ، يجد نفسه فجأة أمام طبيعة محافظة قطعا ، من المتعين ان يبقى كل شيء فيها كما هو حتى نهاية العالم او الى الابد .

وبقدر ما كان علم الطبيعة ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، متفوقا على العصر الاغريقي القديم ، من حيث حجم معارفه وحتى من حيث تصنيف مواده، بقدر ما كان متأخرا عنه من حيث استيعاب الفكر لهذه المواد ومن حيث المفهوم العام للطبيعة . في رأي الفلاسفة الاغريق ، ان العالم كان من حيث الاساس شيئا ما خرج من سديم ، تطور ونما ، جاء حصيلة صيرورة . اما في رأي علماء الطبيعة في المرحلة التي نتحدث عنها فالعالم شيء ما متعظّم ، ثابت لا يتغير : شيء ما قد خَلق ، في رأي معظمهم ، دفعة واحدة . كان العلم ما يزال مأخوذا باللاهوت . يفتش في كل مكان ليجد في الدفعة من الخارج العلة الاخيرة ، التي لا يمكن تفسيرها الا انطلاقا من الطبيعة بالذات . حتى اذا تصورنا الجاذبية ، التي سماها «نيوتن» بأبهة «الجاذبية الكونية» ، خاصة اساسية من خواص المادة ، فمن اين تأتي اذن القوة المماسية غير المفهومة التي تحقق ، للمرة الاولى فحسب ، حركة الكواكب على المدارات ؟ كيف انبثقت الانواع التي لا تحصى، من النباتات والحيوانات ؟ وبالاحرى ، كيف ظهر الانسان الذي ثبت ، مع ذلك ، انه لم يوجد منذ الازل ؟ هذه الاسئلة ، لم يجب عنها علم الطبيعة في غالب الاحيان الا باسناد مسؤولية كل الاشياء الى الخالق . افتتح «نيوتن» هذه المرحلة بتوجيه رسالة قطيعة الى اللاهوت ، واختتمها بمصادرة (مسلـّمة) الدفعة الاولى التي امر بها الله . ان اعلى فكرة عامة ارتفع اليها علم الطبيعة هذا انما هي فكرة قصدية الاحوال والترتيبات القائمة في الطبيعة ، وهي لاهوت «فولف» المسطح ، الذي يزعم ان القطط قد خلقت لتأكل الفئران ، والفئران لكي تأكلها القطط ، وان الطبيعة قد خلقت لكي تقر حكمة الخالق وتحترمها. وانه لشرف عظيم لفلسفة هذه الفترة الا تترك نفسها تنساق الى الخطأ بسبب محدودية وضع المعارف التي كانوا يملكونها آنئذ عن الطبيعة ، وانها ثابرت ــ بدءاً من «سبينوزا» ووصولا الى الماديين الفرنسيين الكبار ــ على تفسير العالم ذاته ، تاركة لعلم الطبيعة في المستقبل امر تقديم تعليلات تفصيلية .

واذا كنت أصنف ايضا ماديي القرن الثامن عشر في اطار هذه المرحلة ، فذلك لانه لم يكن تحت تصرفهم معطيات علمية اخرى سوى المعطيات التي وصفتها قبلا . ان مؤلَّف «كانط» الحاسم بقي سرا بالنسبة اليهم و«لابلاس» لم يأت الا بعدهم بزمن

طويل . ولا ننس ان هذا المفهوم البالي عن الطبيعة ، رغم ان تقدم العلم قد مزقه اربا اربا ، قد هيمن على كل النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وان الاساسي منه ما يزال يدرس اليوم في جميع المدارس (١) :

ان اول ثغرة فتحت في هذا المفهوم المتحجر للطبيعة لم يفتحها عالم بل فيلسوف. ففي عام ١٧٥٥ ظهر كتاب **«كانط»** : **«تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء»** . لم تعد المسألة مسألة الصدمة الاولية ؛ والارض والنظام الشمسي كله ظهرا **كنتيجة صيرورة** في الزمان . ولو ان الاغلبية الكبرى من العلماء كانت أقل انسياقا في النفور من الفكر الذي عبر عنه تحذير «نيوتن» : «ايتها الفيزياء احترسي من الميتافيزياء» ، ـ لما فاتها ان تستجر من هذا الاكتشاف العبقري الذي جاء به كانط استنتاجات كانت انقذتها من متاهات لا نهاية لها ، ووفرت عليها ذلك القدر الهائل من الوقت والجهد انفقته في اتجاهات خاطئة . ذلك ان اكتشاف «كانط» كان مصدر كل تقدم لاحق . فما دامت الارض قد جاءت حصيلة صيرورة ، لذا فان حالتها الجيولوجية ، الجغرافية ، المناخية الحالية ، نباتاتها وحيواناتها كانت بالضرورة ، هي ايضا ، حصيلة صيرورة ؛ وكان لها بالضرورة تاريخ ليس مصنوعا من تراصف في المكان فقط ، بل من تعاقب في الزمان . ولو انهم دفعوا على الفور بحزم البحوث في هذا الاتجاه ، لاصبح علم الطبيعة اليوم اكثر تقدما بكثير مما هو عليه اليوم . لكن هل كان من الممكن ان يأتينا شيء حسن من الفلسفة . ان مؤلَّف «كانط» بقي بدون نتيجة مباشرة لسنوات عديدة الى اليوم الذي جاء فيه «لابلاس» و«هرشل» فطوّرا محتواه واعطياه اساسا اكثر تحديدا عندما شرّفا رويدا رويدا «الفرضية السديمية» (٢) . وجاءت اكتشافات اخرى لتحقق لها الانتصار في النهاية ؛ اهمها هي الحركة الخاصة

---

١ ـ النص الكلاسيكي التالي يبين اي ايمان لا يتزعزع بهذا المفهوم يمكن ان يحمله حتى العام١٨٦١ وجل أسهمت ابحاثه العلمية اسهاما واسعا في جعله يضمحل . « ان كل ترتيبات نظامنا الشمسي موجهة ، بقدر ما نستطيع تفهمها ، نحو الحفاظ على ما هو موجود واستمراره بلا تغيير . وكما ان ، منذ أقدم الازمنة ، اي حيوان او اي نبات في الارض لم يرق الى الاحسن والاكمل ، او لم يتغير بصورةعامة ، وكما اننا لا نصادف في كل العضويات الا منظومة من الدرجات **المتراصفة لا المتعاقبة** ، وكما ان نوعنا بقي باستمرار هو هو من الناحية الجسمانية ، كذلك حتى اكبر التنوع في الاجرام السماوية المتواجدة لا يخولنا ، هو ايضا ، الحق في قبول ان هذه الاشكال هي مجرد درجات مختلفة في سير تطور ما ؛ بل على العكس ، فان كل الاشياء المخلوقة هي كاملة في حد ذاتها» . (مدلر : «علم الفلك المبسط» ، برلين ، ١٨٦١ ، الطبعة الخامسة ، ص ٣١٦) (ف.١٠) .

في الهامش نقرأ هذه الملاحظة بالقلم الرصاص : «ان السمة الجامدة للمفهوم القديم للطبيعة هي التي أتاحت استخلاص النتائج العامة لعلم الطبيعة منظورا اليه ككل أحد : الموسوعيون الفرنسيون هم اواليون خالصون ايضا ، وثم ، سان سيمون والفلسفة الالمانية للطبيعة في نفس الوقت ، التي اكملها هيغل » .

٢ ـ فرضية ولادة اجسام سماوية من كتل سديمية ذائبة .

بالنجوم الثابتة ؛ البرهان على وجود وسط مقاوم في الفضاء الكوني ، البرهان بفضل التحليل الطيفي على التماثل الكيماوي بين المادة في الكون ووجود سديمات ملتهبة كالتي افترضها «كانط» (١) .

ولكن ليس من الاكيد ان اكثرية العلماء كانت ستعي بسرعة ان ثمة تناقضا في القول بأن ارضا تتغير لا بد ان تحمل عضويات لا تتغير ، لو ان المفهوم الوليد او الناشيء لطبيعة لا **تكون** ، بل **تصير وتزول** ، لم يلق دعما من جهة اخرى. ان الإراضة (الجيولوجيا) قد ولدت وكشفت لا الطبقات الارضية المتعاقبة والمتراصفة ، بل اكتشفت داخل هذه الطبقات قواقع وهياكل محفوظة لحيوانات انقرضت وجذوع وأوراق وثمار نباتات لم تعد موجودة . فاضطروا للاعتراف انه لا جماع الارض فحسب ، بل ايضا وجهها الخارجي الحالي والنباتات والحيوانات التي تعيش عليها لها تاريخ في الزمان . في البداية ، سلموا بذلك على مضض . ان نظرية «كوفييه» حول ثورات الارض كانت ثورية قولا ورجعية فعلا . لقد عوضت الخلق الإلهي الاوحد بسلسلة من أفعال الخلق المكرورة ، بجعلها المعجزة عاملا اساسيا في الطبيعة .

وكان «لايل» هو الذي أدخل العقل في الإراضة عندما أبدل فكرة الثورات المفاجئة الناجمة عن نزعات الخالق بفكرة المفاعيل (او الآثار) التدريجية لتغير بطيء للارض (٢) .

ان نظرية «لايل» كانت كذلك اكثر تعارضا من النظريات التي سبقتها مع فرضية الانواع العضوية الثابتة . ان التغير التدريجي لوجه الارض ولسائر شروط وظروف الحياة قاد مباشرة الى التغير التدريجي للعضويات والى تكيفها مع الوسط المتغير ، قاد الى تغيرية الانواع . لكن التقليد ليس قوة في الكنيسة الكاثوليكية فقط ، بل هو كذلك في علم الطبيعة . فخلال سنوات ، لم يرَ «لايل» نفسه التناقض ، بله تلاميذه. وهذه الواقعة لا تفسر الا بالمركز المهيمن الذي احتله اثناء ذلك ، في ميدان علم الطبيعة ، تقسيم العمل ، الذي حرم معظم الباحثين ، اذ قيد الى هذا الحد او ذاك كل واحد منهم في ميدان اختصاصه ، من ملكة الرؤية الجماعية .

مع ذلك فان الفيزياء كانت قد احرزت تقدمات كبيرة ، لخص نتائجها في نفس الوقت تقريبا ثلاثة رجال عام ١٨٤٢ ، العام الحاسم بالنسبة لهذا الفرع من دراسة العلم (٣) . ان «ماير» في (مدينة) «هيلبرون» و«جول» في (مدينة) «مانشستر» قد

---

١ ـ ملاحظة لـ «انجلس» على الهامش : «الان فقط نفهم اكتشاف كانط ، اكتشاف كبح دوران الارض بواسطة المدود» .

٢ ـ ان نقيصة مفهوم لايل ـ في صيغته الاولى على الاقل ـ تتمثل في انها تعتبر القوى الفاعلة على الارض قوى دائمة ، في الكمية والنوعية على السواء . في رايه ان ابتراد الارض غير واقع ؛ ان الارض لا تتطور في اتجاه محدد ، بل هي تتغير على نحو غير متسق واحتمالي . ـف.١٠.ـ

٣ ـ لم يكن انجلس يعرف ان قبل «ماير» ، «جول» و«غروف» ، كان العالم الروسي «لومونوسوف» =

برهنا على تحول الحرارة الى قوة إوالية (ميكانية) والقوة الإوالية الى حرارة . ان اقامة واثبات معادل إوالي للحرارة جعل هذه النتيجة محققة . في نفس الفترة ، فان «غروف» (١) ــ الذي لم يكن عالما محترفا ، بل محاميا انكليزيا ــ قد برهن ، مقتصرا فقط على بلورة وتنظم مختلف النتائج التي تم الحصول عليها قبلا في الفيزياء ، ان كل ما يسمى بالقوى المادية ، القوى الإوالية ، الحرارة، الضوء، الكهرباء، المغناطيس، بل القوة المسماة كيماوية ، انما يتحول بعضها الى بعض في شروط محددة ، دون ان ينجم عن ذلك اي فقدان للقوة ؛ وبهذا برهن بعد فوات الوقت ، في ميدان الفيزياء، على افتراض «ديكارت» الذي يقول ان كمية الحركة الموجودة في الكون ثابتة . ومن هنا فان القوى الخاصة بالمادة ، التي كانتها تقريبا «الانواع الثابتة» ، كانت تنحل في اشكال للحركة مميَّزة تمبزا متنوعا وتتحول الواحدة الى الاخرى وفقا لقوانين محددة. وان العَرَضية في حضور هذه الكمية او تلك من القوى المادية قد الغيت من العلم ، وذلك لانهم برهنوا على روابطها المتبادلة وتحولات الواحدة الى الاخرى . ان الفيزياء، شأن علم الفلك في السابق ، قد توصلت الى نتيجة دلت بالضرورة على ان الدورة الابدية للمادة المتحركة هي النتيجة النهائية للعلم وحصيلته الاخيرة .

ان تطور الكيمياء عجيب السرعة منذ «لافوازييه» ، ومنذ «دالتون» بخاصة ، قد هاجم ايضا من جانب آخر التمثيلات القديمة للطبيعة . ان الحصول بطريق غير عضوي على تراكيب كان يتم الحصول عليها حتى ذلك الحين من العضوية الحية وحدها قد برهن على ان قوانين الكيمياء هي ايضا صحيحة بالنسبة للاجسام العضوية والاجسام اللاعضوية بسواء ورذمت الى حد كبير الهوة بين الطبيعة غير العضوية والطبيعة العضوية ، التي كان «كانط» ما يزال ينظر اليها كهوة لا يمكن اجتيازها .

واخيرا ، ففي ميدان البحث البيولوجي بالذات أيضا ، فان الرحلات والبعثات العلمية التي استمرت على نحو منهجي منذ أواسط القرن الاخير بخاصة، الاستكشاف الاكثر دقة للمستعمرات الاوروبية في سائر أجزاء العالم من قبل اختصاصيين مقيمين ، فضلا عن التقدمات في علم الاحاثة ، علم التشريح والفيزيولوجيا عموما ، وبخاصة منذ الاستخدام المنهجي للمجهر واكتشاف الخلية ، كدست كثيرا من المواد، بحيث اصبح تطبيق المنهج المقارن امرا ايجابيا وضروريا في آن . من جهة ، بفضل الجغرافية الطبيعية المقارنة ، استجلوا شروط حياة النباتات والحيوانات المختلفة ؛ ومن جهة أخرى قارنوا مختلف العضويات فيما بينها في اعضائها المتشابهة لا في

---

= (١٧١١–١٧٦٥) قد صاغ المبدأ العام لحفظ الطاقة . كان «لومونوسوف» قد عرض افكاره حول «القانون العام الطبيعي» لحفظ المادة والحركة ، الذي يعانق «سائر التغيرات التي تحدث في الطبيعة» في رسالة الى «ل. ايلر» (١٧٤٨) وفي كتابه «تأملات حول صلابة الاجسام وميوعتها» (١٧٦٠) .

١ ــ ان كتاب «الفعل المتبادل بين القوى المادوية» قد ظهر عام ١٨٤٦ . ان أصول الكتاب هي محاضرة لـ «غروف» ألقاها في شباط ١٨٤٢ ، ونشرت بعيد ذلك .

مرحلة نضجها فحسب ، بل في سائر مراحل تطورها . وبقدر ما كانت هذه الدراسة تقاد بعمق ودقة ، بقدر ما كانوا يشهدون مع الاحتكاك بها انهيار المنظومة الصلبة لطبيعة عضوية ثابتة ثباتا راسخا . [تبين من خلال الدراسة] ان مختلف الانـــواع الحيوانية والنباتية كانت مندمجة أكثر فأكثر الواحد منها في الآخر ، بل ظهـــرت حيوانات جديدة ، كال «امفيوكس» (١) وال «ليبدوزيرين» (٢) ، تحدت كل تصنيف سابق ! (٣) وانتهوا باكتشاف عضويات لم يكن ممكنا الجزم بأنها تنتمي الى العالم النباتي ام الى العالم الحيواني . ان ثغرات علم الاحاثة كانت تنسد اكثر فأكثر ، فتكره حتى أعند الناس على الاعتراف بالتوازي المذهل القائم بين تاريخ تطور العالم العضوي في جماعه وتاريخ تطور الجسم الفردي ، هذا التوازي هو خيط «آريان» الــذي يفترض فيه ان يخرج من المتاهة التي يبدو ان علم النبات وعلم الحيوان كانا يتخبطان فيها اكثر فأكثر . وانه لأمر مميز انه في اللحظة التي كان فيها «كانط» يهاجم سرمدية المنظومة الشمسية المركز ، عام ١٧٥٩ ، كان «فولف» يشن اول هجوم على ثباتية الانواع وينادي بنظرية التحدّر . ولكن ما كان عنده مجرد استباق عبقري ، تشكل [او تبلور] عند «اوكين» ، «لامارك» ، «باير» ، ثم فرض نفسه فرضا مظفرا مـــع «داروين» بعد مئة عام ، في عام ١٨٥٩ . وفي نفس الوقت تقريبا ، لوحظ ان الجبلة والخلية ، وكانوا قد برهنوا قبلا انهما العنصرين المؤسسين الاخيرين لسائر العضويات، تشاهدان بوصفهما الشكلين العضويين الاوليين ، الحيين والمستقلين . وهكذا ، من جهة ، ضؤلت الى أقصى حد الهوة بين الطبيعة العضوية والطبيعة غير العضوية ، ومن جهة أخرى فان احدى العقبات الاساسية التي كانت تعترض حتى ذلك الحين نظرية تحدّر العضويات قد أزيلت . ان تكون المفهوم الجديد للطبيعة كان قد انجز في خطوطه العريضة : هوذا مذابا ما كان صلبا ، متبخرا ما كان ثابتا ، بائدا ما كان يعتبر سرمديا ؛ لقد برهن على أن الطبيعة تتحرك في دفقان ودوران سرمديين .

اذن ، ها نحن قد عدنا الى وجهة نظر كبار مؤسسي الفلسفة اليونانية ، ترى ان وجود الطبيعة كلها من أصغره الى أكبره ، من حبة الرمل الى الشموس ، مـــن

---

١ ـ حيوان صغير يشبه السمكة (طوله حوالي ٥ سنتم) ظهر في بحار ومحيطات مختلفة (المحيط الهندي ، على سواحل جزر ماليزيا واليابان ، في البحر المتوسط ، البحر الاسود ، الخ) . وهو شكل وسيط بين الحيوانات اللافقرية والحيوانات الفقرية .

٢ ـ حيوان يعيش في امريكا الجنوبية ، وله في آن معا رئات وغلاصم .

٣ ـ في الهامش ، ملاحظة بالقلم : تسيراتوديس . وكذلك ارشيبوبتيريكس ، الخ .

ال «تسيراتودس» سمكة لها جهاز تنفسي مزدوج تعيش في المياه الاوسترالية . ال «ارشيبوبتيريكس» هو حيوان قد انقرض ، أقدم ممثل لفئة العصافير ، ويملك عددا من خاصيات الزواحف .

الفرطيس (١) الى الانسان ، هو في حالة ولادة وموت سرمديين ، في حالة دفقان لا ينقطع، فيحالة حركة وتغير لا تتوقف. ولكنثمة فارقا اساسيا يتمثل في ان ما لدى الاغريق كان حدسا عبقريا، وما لدينا هو حصيلةابحاث علميةبحصر المعنىواختبارية، وبالتالي فانها تظهر في صيغة ادق واوضح . يقيننا ان البرهنة الاختبارية لهذه الدورة ليست خالية من الثغرات ، ولكن هذه الثغرات غير ذات بال قياسا بما تم احرازه وثبت بمتانة ، وان هذه الثغرات تنسد اكثر فأكثر كل سنة . ومع ذلك كيف يمكن للبرهان التفصيلي ان يكون بدون عيب ، اذا تذكرنا ان الفروع الاكثر اساسية في العلم ــ علم الفلك ، الكيمياء ، الجيولوجيا ــ بلغت بالكاد قرنا من الوجود العلمي ، ان الطريقة المقارنية في الفيسيولوجيا بلغت نصف قرن بالكاد ، وان الشكل الاساسي لكل تطور الحياة ، الخلية ، قد اكتشف منذ اقل من اربعين سنة !

انطلاقا من الكتل المدوّمة من الغاز الملتهب ، التي ربما تفشي حركتُها قوانينَها عندما يلقي لنا رصد عدة قرون الضوء على الحركة الخاصة بالنجوم ، تطورت بالتضاد والابتراد الشموس والمنظومات الشمسية التي لا تعد لجزيرتنا الكونية التي تحدها اقصى الدوائر النجمية في المجرة . ومن الواضح تماما ان سير التطور هذا لم يحصل في كل مكان بالوتيرة والمسيرة نفسها . ان وجود اجرام مظلمة في منظومتنا النجمية ، اجرام ليست مجرد كواكب بل هي شموس مبتردة بالتالي ، امر يفرض نفسه اكثر فاكثر على علم الفلك (مدلر) ؛ ومن جهة اخرى (حسب رأي سيكي) فان قسما من البقع السديمية الغازية انما ينتمي الى منظومتنا النجمية بوصفه شموسا لما تكتمل ، الامر الذي لا يستبعد ان تكون سدوم أخرى ، كما يؤكد «مدلر» ، جزرا كونية بعيدة ومستقلة ، سيتعين على المنظار الطيفي ان يقدر درجة تطورها .

ان تطور المنظومة الشمسية انطلاقا من سديم معطى قد برهن عليه «لابلاس» بالتفصيل بطريقة لم يجر تجاوزها حتى الان ؛ وان العلم اللاحق قد ثبت اكثر فأكثر منحاه في التفكير .

في كل من الاجرام المتكونة على هذا النحو ــ شموس وكواكب سيارة وكواكب تابعة سواء بسواء ــ يسود في البداية ذلك الشكل من حركة المادة الذي نسميه حرارة . ربما لم تكن هذه الحرارة تراكيب كيماوية للعناصر ، حتى في درجة حرارة هي ، اليوم ايضا ، في مثل درجة حرارة الشمس ؛ اما في اي حدود تتحول الحرارة فيها الى كهرباء او مغناطيسية ، فان المراقبة المواظبة للشمس ستبينها ؛ اما الحركات الإوالية التي تحصل على سطح الشمس فاصلها الوحيد هو النزاع بين الحرارة والجاذبية ، ومن الممكن ان نعتبرها منذ الان امرا ثابتا .

ان مختلف الاجرام تبترد بسرعة لاسيما عندما تكون صغيرة . تبترد اولا

---

١ ــ protiste : رتبة من المتعضيات وحيدة الخلية . (م)

الكواكب التابعة ، النيازك ، الشهب ، شأن حالة قمرنا الذي خمد منذ زمن طويل ؛ ابتراد الكواكب كان أبطأ ؛ والجرم المركزي جاء في المرتبة الاخيرة .

وبقدر ما يزداد الابتراد ، تحتل المقام الاول اكثر فأكثر لعبة الاشكال المادية للحركة فيتحول الواحد منها الى الآخر حتى تبلغ في النهاية نقطة تبدأ فيها الالفة الكيماوية تعرّف بوجودها ، والعناصر التي كانت حتى هذا الحين لامبالية كيماويا تتمايز كيماويا الواحد تلو الآخر ، تكتسب خواصا كيماوية ، تتراكب مع بعضها . هذه التراكيب تتغير باستمرار مع انخفاض الحرارة ، الذي يؤثر بصورة مختلفة لا على كل عنصر فحسب ، بل ايضا على كل تركيب خاص من العناصر ، مع انتقال - تبعا للابتراد - قسم من المادة الغازية الى حالة سائل اولا ، ثم الى حالة جماد ، ومع الشروط الجديدة التي قامت على هذا النحو .

ان المرحلة التي يحمل فيها الكوكب على سطحه قشرة صلبة وتراكمات الماء انما تتزامن مع المرحلة التي تبدأ منها حرارته الخاصة تنكسف أمام الحرارة التي يبعث بها اليها الجرم المركزي . ويصبح جو الكوكب مسرحا لظاهرات جوية (ميتييورولوجية) بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة اليوم ؛ ويصبح سطحه مسرحا لتغيرات جيولوجية تغلب فيها الترسبات الناجمة عن الهواطل الجوية اكثر فأكثر على التأثيرات الخارجية، المتناقصة ببطء ، للنواة الداخلية المشتعلة .

واذا توازنت اخيرا الحرارة ، على الاقل في قسم كبير من السطح ، الى درجة انها لا تعود تتجاوز الحدود التي يمكن للآحين ان يعيش داخلها ، وكذلك اذا كانت الشروط الكيماوية المسبقة مواتية ، تتشكل جبلة حية . اما ما هي هذه الشروط المسبقة ، فهذا لم نعرفه بعد حتى اليوم ؛ وليس في هذا الامر ما يدهش البتة ، وذلك لانه لم توضع بعد حتى الان الصيغة الكيماوية للآحين ، ولاننا لم نعرف بعد كم يوجد من الاجسام الآحينية المختلفة كيماويا ، ولاننا عرفنا منذ عشرة أعوام فقط ان الآحين معدوم البنية بتاتا يمارس سائر الوظائف الاساسية للحياة : الهضم ، الطرح، الحركة ، التقلص ، رد الفعل على الإثارات ، التكاثر (١) .

ومن المرجح ان تكون قد انقضت آلاف السنين قبل ان تأتي الشروط التي أتاحت التقدم التالي ، والتي أمكن لهذا الآحين عديم الشكل ان ينتج في اطارها الخلية الاولى بتشكيل نواة وغلاف . ولكن مع هذه الخلية الاولى ، كان اساس التكوين التشكلي

---

١ - من المحتمل جدا ان انجلس يلمح هنا الى تأكيد «هايكل» - لم يثبت فيما بعد - ان الكائنات الحية الاكثر بساطة التي فحصها وسماها «احاديات الخلية» (moneres) ، كانت كتلا صغيرة من المواد الآحية معدومة البنية (او الهيكل) والتي لم تكن تقوم بكافة الوظائف الاساسية للحياة . راجع «ارنست هايكل» : «علم التشكل (المورفولوجيا) العام للعضويات . عناصر عامة في علم التشكل العضوي المبني اوليا بواسطة نظرية التحدر التي اعاد صياغتها شارلز داروين» ، المجلد ١ ، برلين ١٨٦٦ ، ص ١٣٣-١٣٦ .

(المورفولوجي) للعالم العضوي هو ذاته قد أرسي . بادىء بدء ، ويفترض فينا ان نقبل بذلك اذا حاكمنا المسألة استنادا الى وثائق علم الاحاثة ، تطورت انواع لا تحصى من الفرطيسات غير الخلوية والخلوية، والتي كان الـ «إيوزون كانادانس» (١) هو الوحيد الذي وصلنا ، والذي تخلّق بعضها شيئا فشيئا ليشكل أولى النباتات ، وبعضها الآخر ليشكل اولى الحيوانات . انطلاقا من الحيوانات الاولى ، تطور من حيث الاساس عبر التخلّق المستمر عدد لا يحصى من صنوف حيوانية ، فصائل ، عائلات، انواع واجناس حيوانية ، ليؤول الى الشكل الذي بلغت فيه الجملة العصبية نموها الاكثر اكتمالا ، شكل الفقريات ، وفي آخر المطاف الى ذلك الحيوان الفقري الـذي توصلت فيه الطبيعة الى وعي ذاتها : الانسان .

ان الانسان قد انبثق ، هو ايضا ، بواسطة التخلّق . وهذا صحيح لا بمعنى الفرد فحسب ، حيث يحصل التطور بدءاً من الخلية الوحيدة للبيضة وصولا الـى العضوية الاكثر تعقيدا التي تخلقها الطبيعة ، ـ بل هو صحيح ايضا بمعنى تاريخي. ففي اليوم الذي تم فيه ، بعد دهور طويلة من الصراع ، تخلق (او تميز) اليد تخلقا نهائيا عن الرجل وتحقق الوقفة المستقيمة في النهاية ، انفصل الانسان عن القرد ، وارسيت الاسس لتطور لغة واضحة النطق ولاكتمال معجز للدماغ ، الذي جعل البون بين الانسان والقرد شاسعا لا يمكن عبوره . تخصص اليد ، هذا ما تعنيه الـ **اداة** ، والاداة تعني النشاط البشري المميز الخاص بالبشر وحدهم ، تعني الفعل (او التفاعل) المغيّر للانسان في الطبيعة ، اي الانتاج . ثمة حيوانات بالمعنى الضيـــق للكلمة : النملة ، النحلة ، القندس التي تملك ادوات ، ولكن هذه الادوات ليست سوى اعضاء من اجسامها ؛ كما ان ثمة حيوانات اخرى تنتج ، ولكن فعلها الانتاجي في الطبيعة المحيطة صفر تقريبا قياسا بالطبيعة . الانسان وحده هو الذي توصل الى ان يسم الطبيعة بميسمه لا بتغيير مكان العالم النباتي والحيواني فحسب ، بل ايضا بتغيير مظهر ومناخ سكناه ، لا بل غيّر الحيوانات والنباتات ايضا ، ـ غيّرها الى مدى لا يمكن فيه لنتائج نشاطه ان تزول الا مع الذبول الشامل للارض . واذا كان الانسان قد توصل الى هذه النتيجة ، فبفضل **اليد** اولا واساسا . حتى الماكينة البخارية ، التي ما تزال حتى الان اقوى اداة لديه لتحويل الطبيعة ، ترتكز في آخر تحليل ، لانها اداة ، على اليد . لكن الراس رافق خطوة فخطوة سير تطور اليد ؛ بادىء بدء جاء الوعي بالشروط المطلوبة لكل نتيجة عملية نافعة ، وفيما بعد ، وكنتيجة ، لدى الشعوب الاكثر حظوة، جاء ادراك القوانين الطبيعية التي تشرط هذه النتائج النافعة. ومع المعرفة المتنامية بسرعة لقوانين الطبيعة ، تنامت ايضا وسائل الفعل والتأثير في الطبيعة ؛ فلم يكن البتة لليد وحدها ان تصنع الماكينة البخارية لو أن دماغ الانسان

---

١ ـ Eozon Canadense هو أحفور اكتشف في كندا ، ينظر اليه كبقايا عضوية بدائية قديمة جدا . عام ١٨٧٨ ، دحض «موبيوس» مفهوم الاصل العضوي لهذا «الأحفور» .

لم يتطور بترابط مع اليد والى جانبها ، وبفضلها جزئيا .

مع الانسان ، ندخل **في التاريخ** . ان للحيوانات ايضا تاريخ، هو تاريخ تحدرها وتطورها التدريجي حتى حالتها الراهنة . ولكن هذا التاريخ ، لا تصنعه هي ، وفي الحدود التي تسهم فيها وتشارك ، فانها تفعل ذلك دون ان تعرف ذلك او تعيه وتقصده . وبالعكس ، فبقدر ما يزداد ابتعاد البشر عن الحيوانات بالمعنى الضيق للكلمة ، بقدر ما يزدادون هم بالذات قدرة على صنع تاريخهم بوعي ، بقدر ما يضعف تأثير المفاعيل غير المتوقعة وغير المراقبة او غير المضبوطة على هذا التاريخ ، بقدر ما يصبح اكثر دقة توافق النتيجة التاريخية مع الهدف المحدد سلفا . بيد اننا اذا طبقنا هذا المعيار على التاريخ البشري ، حتى على تاريخ الشعوب الأكثر تقدما في عصرنا، نجد هنا ايضا ان التفاوت كبير بين الاهداف المحددة سلفا والنتائج المحرزة ، ان المؤثرات غير المنتظرة تسود ، ان القوى غير المراقبة اقوى بكثير من القوى المستخدمة حسب خطة . ولا يمكن ان يكون الحال خلاف ذلك ما دام النشاط التاريخي الاكثر اساسية ، النشاط الذي رفعهم من الحيوانية الى البشرية ، النشاط الذي يشكل المرتكز المادي لسائر انواع انشطتهم الأخرى ، ـ انتاج ما هم بحاجة اليه لكي يعيشوا ، اي الانتاج الاجتماعي اليوم ـ يبقى خاضعا للعبة المؤثرات غير القصدية للقوى غير المراقبة ولا يبلغ الا استثناء الهدف المراد ، ويؤول في الغالب الى نتيجة معاكسة . في البلدان الصناعية الاكثر تقدما ، روضنا قوى الطبيعة ووضعناها في خدمة البشر ؛ ولهذا ضاعفنا الانتاج كثيرا ، بحيث ان الطفل ينتج اليوم اكثر مما كان ينتجه مئة شخص بالغ في السابق . ولكن ما هي عواقب ذلك كله ؟ مزيد من العمل الكثيف ومزيد من البؤس ، مع كارثة كبرى كل عشر سنوات . ان «دارون» لم يعرف اي هجاء مقذع للبشرية ، ولمواطنيه بخاصة ، قد كتب عندما برهن ان المنافسة الحرة، ان الصراع لاجل الحياة ، اللذين مجدهما الاقتصاديون بوصفهما اعلى فتوح التاريخ، هما حالة اعتيادية او طبيعية **في مملكة الحيوان** . التنظيم الواعي للانتاج الاجتماعي، حيث الانتاج والتوزيع مخططين ، هو وحده الذي يستطيع ان يرفع البشر الى فوق العالم الحيواني من زاوية اجتماعية ، مثلما رفعهم الانتاج بالذات بوصفهم نوعا . ان التطور التاريخي يجعل تنظيما كهذا اكثر الحاحا وضرورة يوما بعد يوم ، واكثر قابلية للتحقيق يوما بعد يوم . من هذا التنظيم سيبدأ عصر تاريخي جديد ، حيث سيشهد البشر انفسهم ، ومعهم سائر فروع انشطتهم ، وبخاصة علوم الطبيعة ، تقدما سيكشف بقوة كل ما سبقه .

لكن «كل ما يولد يستحق الهلاك» (١) . ملايين من السنين يمكن ان تتصرم ، ومئات الآلاف من الاجيال تولد وتموت ، ولكن ستأتي حتما الساعة التي لا تعود فيها الحرارة الآفلة للشمس كافية لاذابة الجليد النازل من القطبين ؛ حيث البشر ،

---

١ ـ من اقوال «ميفستو» في مسرحية «فاوست» ل غوته (الفصل الاول ، المشهد الثالث) .

المتكومون اكثر فاكثر حول خط الاستواء ينتهون الى ان لا يجدوا بعد ما يكفي من الحرارة للحياة ؛ حيث يتلاشى رويداً رويدا آخر اثر للحياة العضوية وحيث الارض او الكرة تموت وتبترد كالقمر ، تدور في اعماق مظلمة ، راسمة مدارات تضيق اكثر فأكثر حول الشمس الميتة ايضا ، تدور الى ان تسقط في النهايـــة على الشمس بالذات . ستسبقها الى هذا المصير كواكب اخرى ، وستتبعها كواكب غيرها ؛ وبدلا من المنظومة الشمسية الموزعة توزيعا متناسقا ، المضيئة ، الحارة ، لن يبقى سوى كوكب بارد وميت ، يتابع طريقه وحيدا عبر الفضاء . و، عاجلا ام آجلا ، سيحل المصير الذي لقيته المنظومة الشمسية بمنظومات اخرى في جزيرتنا الكونية ، حتى تلك المنظومات التي لن يبلغ نورها الارض يوما ما دامت هناك عين بشرية عليها في وسعها ان تراه .

عندما تختم احدى هذه المنظومات الشمسية مجرى حياتها وعندما تستسلم لقدر كل شيء منتهٍ ، الموت ، ماذا يحدث ؟ جَدَث الشمس هل سيبقى الى الابد جدثا دوارا عبر الفضاء اللامتناهي وقوى الطبيعة كافة ، وكانت البارحة متمايزة بتنوع ، هل تتحول الى شكل أوحد للحركة ، الى جاذبية ؟ «أم انه توجد في الطبيعة القوى القادرة على اعادة المنظومة الميتة الى الحالة الاصلية للسديم الملتهب وعلى ايقاظها الى حياة جديدة ؟ نحن لا نعرف ذلك» (١) («سيكي» ، ص ٨١٠) .

نعم ، نحن لا نعرف ذلك بالمعنى الذي نعرف به أن ٢×٢ = ٤ ، او ان جاذبية المادة تتغير بنسبة مربع المسافة . لكن ، في العلم النظري الذي ينظم قدر الامكان مفاهيمه عن الطبيعة في كلٍ منسجم ، وبدون هذا العلم في زمننا لا يستطيع حتى أفقر الاختباريين فكرا ان يتقدم ، يتعين علينا ان نحسب كميات معروفة بشكـــل ناقص جدا ، وان منطق الفكر ملزم في كل الاوقات ان يتلافى نقص المعارف . لقد تعين على علم الطبيعة الحديث ان يقتبس من الفلسفة مبدأ لا زوالية الحركة ؛ وبدون هذا المبدأ ما كان ممكنا ان يقوم . ولكن حركة المادة ليست الحركة الإوالية البسيطة فقط ، ليست مجرد تغيير المكان ؛ انها الحرارة والنور ، التوتر الكهربائي والمغناطيسي، التركيب والحل الكيماوي ، الحياة وأخيرا الوعي . القول بأن المادة خلال كل وجودها اللامتناهي في الزمن لا تجد نفسها الا مرة واحدة ، ولزمن قصير جدا قياســـا بسرمديتها ، قادرة على تمييز حركتها وعلى أن تعرض بالتالي كل غنى هذه الحركة ، القول انها ، من قبل ومن بعد ، تبقى محدودة للأبد بتغيير المكان فقط ، — انما يعني التأكيد على ان المادة فانية والحركة عابرة . ان لازوالية الحركة لا يمكن ان تفهم من زاوية كمية فقط ، بل من زاوية نوعية ايضا ؛ وان مادة يكون تغيرها الإوالي المحض

---

١ — هذا المقطع الذي استشهد به انجلس مأخوذ من مؤلف العالم الفلكي الايطالي «انجيلوسيكي» وعنوانه : «الشمس ؛ أهم الاكتشافات الحديثة حول بنيتها ، اشعاعها ، مكانها في الكون وعلاقاتها مع الاجرام السماوية الاخرى» .

في المكان حاملا بالتأكيد في حد ذاته إمكانية التحول في ظروف مؤاتية الى حرارة ، كهرباء ، فعل كيماوي ، حياة ، ولكن غير القادرة على ان تخلق انطلاقا من ذاتها هذه الشروط ــ ان مادة كهذه قد فقدت الحركة ؛ وان حركة فقدت خاصة التحول في مختلف الاشكال التي تخصها ما تزال تملك بالتأكيد الدينامية La dynamis ، ولكن لم يعد لديها الطاقة l'energeia وانها قد فنيت جزئيا بالتالي . والحال ان هذا وذاك غير معقولين .

وفي كل الاحوال فان ثمة امرا أكيدا : كان زمن حولت فيه مادة جزيرتنا الكونية الى حرارة كمية كهذه من الحركة ، ــ لا نعرف حتى الان من اي نوع هي ، ــ وانه انطلاقا من ذلك أمكن للمنظومات الشمسية ان تتطور ناصبة (حسب راي «مدلر») عشرين مليون نجمة على الاقل ، وهي منظومات لا ريب في اضمحلالها التدريجي . كيف جرى هذا التغير؟ نحن لا نعرف ذلك بعد ، كما ان الاب «سيكي» لا يعرف ما اذا كان الراس الميت caput mortuum (١) المقبل لمنظومتنا الشمسية سيتحول يوما الى مادة اولية لمنظومات شمسية جديدة . ولكن هنا ، اما أن نلجأ الى الخالق، واما ان نكون ملزمين بالاستنتاج بأن المادة الاولية الملتهبة للمنظومات الشمسية في جزيرتنا الكونية قد انبثقت بصورة طبيعية بواسطة تغيرات الحركة **الملازمة بطبيعتها** للمادة المتحركة والتي لا بد لشروطها وظروفها ، بالنتيجة ، من ان تخلق من جديد ايضا بواسطة المادة ، حتى وان تم ذلك في ملايين وملايين السنين وبالصدفة تقريبا، ولكن مع الضرورة التي هي ايضا ملازمة للصدفة .

انهم يقبلون اكثر فأكثر امكانية تغير كهذا . يعودون الى هذه الفكرة ، فكرة ان مصير الاجرام السماوية هو ان تتساقط في النهاية بعضها فوق بعض ، بل يحسبون كمية الحرارة التي يفترض ان تنتشر عندما تقع مثل هذه الاصطدامات . ان الظهور المفاجىء للنجوم الجديدة التزايد المفاجىء ايضا لنورانية النجوم المألوفة ــ وهي ظاهرة وصفها لنا علم الفلك ــ تجد في مثل هذه التصادمات التفسير الاسهل . أضف الى ذلك انه ليست مجموعة كواكبنا هي وحدها التي تدور حول الشمس وشمسنا تدور داخل جزيرتنا الكونية ، بل ان كل جزيرتنا الكونية تمور في الفضاء في توازن نسبي وموقت مع الجزر الكونية الاخرى ، وذلك لانه حتى التوازن النسبي للاجرام المحوّمة بحرية لا يمكن ان ينوجد الا بفضل حركة مشروطة بصورة متبادلة ؛ وفضلا عن ذلك ، يقبل بعضهم ان درجة الحرارة ليست هي نفسها في الفضاء الكوني ؛ واخيرا ، فنحن نعرف انه فيما عدا جزء ضئيل للغاية ، تضيع حرارة

---

١ ــ وتعني مجازيا : البقايا الميتة ، النفايات بعد التسخين والتفاعل الكيماوي ، الخ . والمقصود هنا الشمس المنطفئة مع الكواكب الخالية من الحياة والواقعة عليها .

شموس لا تحصى من جزيرتنا الكونية في الفضاء دون ان تؤدي الى رفع درجة حرارة الفضاء ولو جزءا من مليون جزء من الدرجة . ما الذي تصير اليه هذه الكمية الهائلة من الحرارة ؟ هل تنفد الى الابد في محاولة تدفئة الفضاء ، هل زالت عمليا من الوجود ، الا تستمر نظريا فقط بواقع ان الفضاء قد تسخَّن بواسطة كسر عشري من درجة يبدأ بعشرة اصفار واكثر ؟ هذه الفرضية تنكر لازوالية الحركة ؛ وهي تقبل كأمر ممكن ، بسبب السقوط المتتابع للاجرام السماوية الواحد فوق الآخر ، ان كل الحركة الإوالية الموجودة تتحول الى حرارة ، وان هذه الحرارة تشع في الفضاء الكوني ، الامر الذي يؤدي ، رغم كل «لازوالية القوة» ، الى وقف مطلق لكل حركة. (لننوه مرورا كم هي مغلوطة صيغة : لازوالية القوة ، بدلا من : لازوالية الحركة) . لذا نصل الى الاستنتاج ، ويعود الى علماء المستقبل ايضاح ذلك واثباته ، بأن الحرارة المشعة في الفضاء ينبغي ان تملك بالضرورة امكانية التحول الى صيغة اخرى من صيغ الحركة ، تستطيع من خلالها ان تتركز من جديد وأن تصير فاعلة من جديد. وهكذا تسقط الصعوبة الاساسية التي تعترض على تحول الشموس الميتة الى سديم ملتهب .

وفضلا عن ذلك ، فان تعاقب عوالم متكرر أبدا في الزمان اللامتناهي ليس سوى التكملة المنطقية لتواجد عوالم لا تحصى في الفضاء اللامتناهي ــ وهذه قضية فرض لزومها نفسه حتى على عقل مغلق على النظرية ، كعقل اليانكي «درابر» (١) .

في دورة سرمدية تمور المادة : دورة لا تكمل بالتأكيد ثورتها الا خلال حقبات ليست سنتنا الارضية وحدة قياس كافية بالنسبة اليها ، دورة تكون فيها ساعة التطور السامي ، ساعة الحياة العضوية ، وكذلك الساعة التي تعيش فيها الكائنات الواعية ذاتها والطبيعة ، مقاسة بتقتير شأن ذلك الحيز الذي توجد فيه الحياة ووعي الذات ؛ دورة يكون كل نمط مكتمل لوجود المادة ــ سواء كان شمسا أو سديما ، حيوانا مفردا او نوعا حيوانيا ، تركيبا كيماويا او حلا ــ عابرا كذلك ، وحيث لا شيء سرمديا سوى المادة السرمدية التغير ، السرمدية الحركة ، سوى القوانين التي تتحرك وتتغير وفقا لها . ولكن مهما يكن التواتر ومهما تكن الصرامة القاسية التي تكتمل حسبهما هذه الدورة في الزمان وفي المكان ، ومهما يكن عدد الشموس والاراضي التي تنشأ وتهلك ، ومهما تطاول الزمن اللازم لكي تنشأ في منظومة شمسية ما شروط الحياة العضوية ، ولو في كوكب واحد ؛ ومهما كثرت الكائنات العضوية التي ينبغي ان تنشأ وتهلك قبل ان تنبثق من حضنها حيوانات بدماغ قادرة على التفكير وتجد في وقت قصير الشروط الخاصة بحياتها ، لكي يقضى عليها فيما بعد بلا شفقة ، ــ فاننا على يقين انه ، في سائر التغيرات ، تبقى المادة هي نفسها الى الابد ، وأن ايا من صفاتها لا

---

١ ــ «ان تعددية العوالم في الفضاء اللامتناهي تقود الى مفهوم تعاقب للعوالم في الزمن اللامتناهي» (درابر : «تاريخ تطور اوروبا الفكري» ، المجلد ٢ ، ص ١٦) . ــف.ا.ــ

يمكن ان ينفقد ، وانه ، بالتالي ، اذا تعين عليها ان تبيد من الارض يوما ، بضرورة حتمية ، إزهارها الاسمى ، اي العقل المفكر ، فيتعين عليها وبالضرورة ذاتها ان تعيد انتاجه في مكان آخر وفي زمان آخر .

الضدان يلتقيان : تلك صيغة ديالكتية قديمة انتقلت الى الوعـــي الشعبي . وبالتالي فلن نخطىء مطلقا اذا فتشنا عن آخر درجات التخيل المجنون ، عـــن السذاجة ، عن الخرافة ، لا عند ممثلي مدرسة علوم الطبيعة الذين يطمحون ، شأن فلاسفة الطبيعة الالمان ، الى ان يدخلوا قسرا العالم الموضوعي في اطار فكرهـــم الذاتي ، بل على العكس فاننا نجدها لدى ممثلي النزعة المعارضة الذين يعاملـــون الفكر ، لعدم اخذهم في الحسبان الا التجربة وحدها ، بازدراء متعالٍ جدا ، ازدراء ينبغي اعتباره فعلا بوصفه قد دفع الى أبعد ما يمكن تشتت الفكر . هذه المدرسة تسود في انكلترا . ان عميدها ، «فرنسيس بيكون هذا!» الذي امتُدح كثيرا ، يطلب ان يجري تطبيق منهجه الجديد التجريبي ، الاستقرائي ، قبل كـل شيء لأجل : إطالة الحياة ، تجديد الشباب الى حد معين ، تغيير القامة والملامح ، تحويل الاجسام الى اجسام أخرى ، انتاج انواع جديدة ، السيطرة على الاجواء واطلاق الزوابع ؛ وهو يشكو من ان مثل هذه الابحاث قد أهمل ، ويعطي في كتابه عن تاريخ الطبيعة وصفات ممتازة الصياغة لصنع الذهب وتحقيق مختلف انواع المعجزات . كذلك فان «اسحق نيوتن» قد عني كثيرا في ايام شيخوخته بتقديم تفسير لـ «رؤيا يوحنا» . ليس من المدهش اذن أن نرى ، خلال السنوات الاخيرة ، التجريبيـــة الانكليزية . بشخص بعض من ممثليها ــ وليسوا أسواهم ــ قد انهمكت ، دون ان نستطيـــع ظاهريا انقاذها ، في ممارسات مستوردة من امريكا ، تهـــدف الى طرد الارواح الضاربة (١) واستحضار الاشباح .

## علم الطبيعة في عالم الارواح

اول عالم نعده من هؤلاء هو العالم البارز في علمي الحيوان والنبات «ألفرد رسل والاس» ، وهو بالذات ذلك العالم الذي اثبت في نفس الوقت مع «دارون» نظرية تغير الانواع بالانتقاء الطبيعي . في كراسه ( «المعجزات والارواحية الحديثة»، بورنز ، لندن ، ١٨٧٥) ، روى ان اختباراته الاولى في هذا الفرع من العلوم الطبيعية ترقى الى عام ١٨٤٤ ، التاريخ الذي حضر فيه محاضرات السيد «سبنسر هال» عن المسمرية (٢) ، الامر الذي قاده الى القيام باختبارات مماثلة على تلامذته . «كنت

---

١ ــ ارواح يزعم انها تعلن عن حضورها بعد ضربات في الجلسات الروحية . ــم ــ

٢ ــ التنويم المغناطيسي على طريقة «مسمر» . ــم ــ

مهتما الى اقصى حد بهذا الموضوع ، فعكفت عليه بحمية شديدة» (ص ١١٩) . ولم يقم «س. هال» فقط بعمليات تنويم مغنطيسي ، ترافقها ظاهرات تصلب مفصلي وانعدام حساسية موضعي ، بل لقد تفحص صحة موضعات «غال» الدماغية بأن خلق لدى المعالج (او المنوّم) ، عبر ملامسة مركز ما من مراكز «غـــال» ، النشاط المقابل ، النشاط الذي كان يتجلى على النحو الموصوف بايماءات وإشارات حادة . فضلا عن ذلك فانه قد لاحظ انه يكفي ان يلمس المنوم لكي يجعله يشارك في جميع مشاعر القائم بالعملية ؛ فكان يسكره بكأس ماء لمجرد انه يقول له انه كأس كونياك . في حالة اليقظة ، استطاع حتى ان يجعل ولدا ابله ، الى حد ان هذا الولد لم يعد يعرف اسمه ، وهذه نتيجة يحصل عليها على كل حال ، دون ايـــة «مسمرية» ، اساتذة آخرون من هذه المدرسة . وهلمّ جرا .

والحال انه قد صدف لي رؤية السيد «سبنسر هال» هذا ، بالتحديد فـــي شتاء ١٨٤٣ ــ ٤٤ ، في مانشستر . انه مشعوذ عادي تماما ، وتحت رعاية بعض الكهنة كان يجوب البلاد حيث يجري على فتاة تجارب مغنطيسيـــــة ــ فراسية (١) مكرسة لاثبات وجود الله ، خاود الروح ، تفاهة المادية ، التي كان يبشر بها في ذلك الحين في جميع المدن الكبرى تلامذة «أوين» . كان يجري تنويم السيدة مغنطيسيا، وما ان يلمس المنوم نقطة ما من جمجمتها مقابلة لاحد مراكز «غال» حتى تقوم على مرأى من الناس بحركات واوضاع مسرحية وتبيانية تمثل تظاهرة او تجلي المركـــز المعني ؛ عندما كان يجس مركز حب الاطفال مثلا ، كانت هذه المرأة تناغي وتقبّل طفلا متوهما ، الخ . بيد ان «هال» الشاطر قد اغنى جغرافية «غال» «الجمجمية» بجزيرة «باراتاريا» (٢) ما جديدة ؛ ففي أعلى الجمجمة ، اكتشف في الواقع مركزا للعبادة ؛ وعندما كان يجس هذا المركز ، كانت الآنسة المنومة تركع على ركبتيها ، ضامة يديها وعارضة على جمهور الجهلة المذهولين صورة الملاك المأخوذ في بحران التعبد .. كانت تلك نتيجة التمثيل وذروته . لقد تم اثبات وجود الله .

التأثير على صديق وعليّ كان هو نفسه على السيد «والاس» : الظاهرات أثارت اهتمامنا وحاولنا انتبين مدى قدرتنا على اجرائها مجددا. ولد نابه في الثانيةعشرة عرض لنا نفسه ليكون موضوعا للتنويم . كان يكفي النظر اليه ببعض التركيز او جسه جسات خفيفة حتى يستغرق دون صعوبة في نوم مغنطيسي . لكن نظرا لاننا كنا نجري ذلك على نحو أقل سذاجة وحمية من السيد «والاس» ، توصلنا الى نتائـــج مختلفة تماما . فبالاضافة الى التصلب العضلي وانعدام الاحساس، سهلي الاستثارة، وجدنا حالة من السلبية التامة للارادة مرتبطة بتهيجية مفرطة جدا في الحساسية. المنوّم ، الذي اخرج من غيبوبته بتحريض خارجي ما ، يظهر مقدارا من الحيوية اكثر

---

١ ــ دراسة شكل الجمجمة بوصفه يدل على الشخصية والملكات العقلية . ــم.

٢ ــ اسم جزيرة اسطورية في فصل هزلي من رواية «دون كيخوت» .

بكثير منه وهو في حالة اليقظة . لم نجد للعلاقة الخفية مع المنوّم اثرا ؛ وفي وسع اي كان ان يحرك المنوّم بسهولة . وتشغيل مراكز «غال» الجمجمية كان بالنسبة لنا طفولة الفن ؛ وذهبنا الى أبعد من ذلك ايضا : لم نستطع ان نقلب هذه المراكز ونقلها الى مجمل انحاء الجسم فحسب ، بل صنعنا مراكز اخرى امتعتنا ايضا ، مراكز تحدث الغناء ، الصفير ، التبويق ، اللكم ، الخياطة ، تصليح الاحذية ، تدخين التبغ ، الخ ، ونقّلنا هذه المراكز حيث شئنا . واذا كان والاس يسكر المنوّم بالماء ، فاننا اكتشفنا في الباهم الاكبر مركزا لاستثارة السكر ما كان لنا الا ان نجسه قليلا حتى نطلق كوميديا لنشوة السكر . لكن ثمة شيء بالطبع: ما من مركز كان يقوم بأدنى عمل ما لم يجرِ تلقين وافهام المنوّم ما ينتظر منه ؛ وما لبث الفتى ان مهر في التطبيق العملي بحيث كانت تكفيه ابسط اشارة . والمراكز المنشأة على هذا النحو كانت آنئذ تحتفظ بفعاليتها على الدوام حتى لعمليات تنويم لاحقة ، الا اذا جرى تغييرها بالطريقة ذاتها . كان للشخص المنوم ذاكرة مزدوجة : الاولى لحالة اليقظة ، أما الثانية ، المتميزة تماما عن الاولى ، فلحالة التنويم . اما بالنسبة لاستسلامية الارادة، اخضاعها المطلق لارادة شخص ثالث ، فتفقد مظهر المعجزة اذا لم ننس ان في منشأ هذه الحال خضوع المنوَّم لارادة المنوِّم ، ولا يمكن خلق هذه الحال دونه . ان المنوّم الذي يملك اكبر قدرة عجائبية يصبح في حيرة من الامر فور ان يستهزىء به المنوم مواجهة .

وفي حين اننا كنا نجد ، على هذا النحو ، بتشككنا العابث هذا كأساس للشعوذة المغنطيسية ــ الفراسية سلسلة من الظاهرات التي لا تختلف ، في معظم الحالات ، الا من حيث الدرجة عن حالات اليقظة ، والتي لا تحتاج الى أي تفسير سحري او خفي ، فان هوى السيد والاس كان يقوده الى سلسلة من الاوهام التي قام بواسطتها بالتحقق من موضعات «غال» الدماغية في جميع تفاصيلها ولاحظ علاقة ملغزة بين المنوّم والمنوَّم (١) . ان كل حكاية المستر والاس ، الحكاية المخلصة الى حد السذاجة، تترك الانطباع بأن اهتمامه بدراسة الخفايا الفعلية للدجل اقل بكثير من اهتمامه بصنع تلك الظاهرات بأي ثمن . ويكفي هذا الاستعداد الذهني لتحويل الباحث في البدء الى تلميذ تابع خلال مدة قصيرة ، بواسطة وهم بسيط وسهل . لقد انتهى الامر بالسيد والاس الى الايمان بالمعجزات المغنطيسية ــ الفراسية ، وآنئذ كان قد وضع أولى قدميه في عالم الارواح .

ولقد وضع قدمه الاخرى فيه في العام ١٨٦٥ . لدى عودته من الاثنتي عشرة سنة من الاسفار في المنطقة الاستوائية ، ادخلته تجارب الطاولات الدوارة الى وسط

---

١ ــ كما سبق وقلنا ، فان الاشخاص الذين ينومون سيمهرون بالممارسة . فمن الممكن اذن انه ما ان تتحول الطاعة الى عادة حتى تجري العلاقة بين المشتركين على نحو اكثر حميمية ، وان تشتد ظواهر منعزلة ، وتتجلى بدرجات ضعيفة حتى في حالة اليقظة . ــف.ا.ــ

او مجتمع مختلف ، وسط «الوسطاء الروحانيين» . الى اي حد كانت تقدماته سريعة ، والى اية درجة كان يملك ناصية موضوعه جيدا : هذا ما يشهد عليه الكراس المذكور قبلا . يتطلب هذا الكراس ان نؤمن لا بمعجزات «هوم» المزعومة والاخوة «دافنبور» وغيرهم من الوسطاء ، الذين يعرضونها تقريبا بمقابل مالي ويتكشفون في اغلب الاحيان عن مشعوذين ، بل ان نؤمن ايضا بسلسلة من الحكايات الروحانية عن الماضي يُزعم انها موثوقة . ان العرّافات اليونانيات ، ساحرات العصر الوسيط ، كنّ «وسيطات» ، وان «جامبليك» قد وصف في كتابه «حول التنجيم» بصورة صائبة جدا الظاهرات المدهشة جدا للأرواحية الحديثة» (ص ٢٢٩) .

نقدم مثالا واحدا لنبين الى اي حد يتهافت منطق السيد والاس حين يكون ازاء الاثبات والتوثيق العلمي لهذه المعجزات . من المبالغة بالتأكيد الزعم بأن السادة الارواح تسمح لاحد بالتقاط صور فوتوغرافية لها ، ولنا الحق بلا شك في ان نطالب ، قبل اعتبارها حقة ومطابقة للواقع ، بأن تكون صور الارواح موثوقة على نحو لا يرد . والحال ان السيد والاس يروي (ص ١٨٧) انه في آذار ١٨٧٢ كانت الوسيطة هي السيدة «غوبي» ابنة «آل نيكولسن» قد تصورت فوتوغرافيا مع زوجها وولدها الصفير عند السيد هدسون في «نوتنغ هايل» ، وانه على صورتين سلبيتين مختلفتين كان ثمة طيف طويل ، لامرأة مدثرة بستر شفاف ابيض ، ذات ملامح شرقية نوعا ما ، قد ظهر وراء السيدة «غوبي» ، كان يباركهم .

> والحال اننا هنا أمام امرين ، أحدهما هم الصحيح قطعا . فاما ان كائنا حيا (١) ، وهب ذكاء ، لكن متخفيا ، كان حاضرا ، واما ان السيد والسيدة غوبي والمصور وشخصا رابعا قد ركبوا اكذوبة قدرة ما انفكوا يؤكدونها منذ ذلك الحين . لكنني اعرف جيد جدا السيد والسيدة غوبي ، وانني على يقين مطلق بأنهما غير قادرين على القيام بمثل هذا التزوير، شأن اي باحث جدي عن الحقيقة في ميدان علم الطبيعة (ص ١٨٨) .

اذن ، فاما ان يكون ثمة تزوير ، واما تصوير فوتوغرافي للارواح. موافق . في حالة الخداع ، اما ان يكون الروح قد صوّر مسبقا على اللوحات الحساسة [للتصوير الفوتوغرافي] ، او ان اربعة اشخاص قد اشتركوا في تلك العملية ، وربما ثلاثة ، اذا تركنا جانبا السيد غوبي بوصفه خارج المسألة او مغفلا ، غوبي العجوز الذي توفي في كانون الثاني ١٨٧٥ في سن الرابعة والثمانين (كان يكفي ارساله الى ما وراء الحاجز الخلفي) . اما كون مصور فوتوغرافي قد استطاع الحصول دون صعوبة على

---

١ ـ Here then, One two things are absolute by certain .

ان عالم الارواح فوق قواعد اللغة . استدعى مزّاح مرة روح النحوي «لندلي موراي» . لسدى سؤالها : «هل انت هنا» ؟، اجابت I are (باللهجة او اللغة المحلية الامريكية ، بدلا من I am حسب اللغة الفصحى) . الوسيط كان امريكيا . (ف.ا.)

«نموذج» للروح المنوي تصويره فأمر لا جدوى من الالحاح عليه . لكن يُعيد ذلك اتهم المصور «هدسون» علنا بأنه زوّر تكرارا صور الارواح بحيث ان السيد والاس قال على سبيل التهدئة :

ثمة شيء واضح : في حالة وجود تزوير ، فانه قد اكتشف فورا من قبل مناجي الارواح [او العلماء الروحانيين] أنفسهم (ص ١٨٩) .

اذن لا يمكن الاعتماد على المصور الفوتوغرافي كذلك . تبقى السيدة غوبي ولا يدعمها في زعمها سوى «اليقين المطلق» لصاحبنا والاس ولا شيء سواه — لا شيء سواه ؟ بلى . لصالح الثقة المطلقة التي يمكن ان تولى للسيدة غوبي يوجد تأكيدها هي ذاتها : في مساء احد الايام ، حوالي أوائل حزيران ١٨٧١ ، تنقلت هذه المرأة عبر الفضاء في حالة من اللاوعي ، من منزلها في حي «هايغبوري هيل بارك» الى المنزل رقم ٦٩ من شارع «لامبس كوندويت» (أي مسافة ثلاثة اميال انكليزية في خط مستقيم) ووضعت على الطاولة في المنزل المذكور ، رقم ٦٩ ، في جلسة روحانية . ابواب الغرفة كانت مغلقة بالمفتاح ، ومع ان السيدة غوبي كانت من سيدات لندن البدينات ، بل لم تكن بدانتها عادية ابدا ، الا ان ادخالها المباغت الى الغرفة مقفلة الابواب بالمفاتيح بدون ان تترك اي ثقب لا في الابواب ولا في السقف (حسبما تروي صحيفة « صدى لندن » في ٨ حزيران ١٨٧١) . وليفعل ما يشاء من لا يصدق حقيقة الصور الفوتوغرافية الروحية .

النصير البارز الثاني من بين العلماء الانكليز هو السير «وليم كروكس» الذي اكتشف جسما كيماويا هو التاليوم (١) ، والذي ابتكر الراديومتر (المسمى أيضا مطحنة النور (٢) ، في المانيا) . لقد بدأ السير كروكس ، حوالي العام ١٨٧١ ، دراسة التظاهرات الروحانية ، واستخدم لهذا الغرض مجموعة من الاجهزة الفيزيائية والآلية ، الموازين ذات النوابض ، البطاريات الكهربائية ، الخ . اما فيما اذا كان قد جاء بالجهاز الاساسي ، وهو الراس الانتقادي والمتشكك ، فهذا ما سوف نراه . وعلى كل حال ، فانه يلزم زمن طويل لكي يسيطر السيد والاس على السيد كروكس على نحو كامل .

منذ بضع سنوات ، برهنت امراة شابة ، هي الآنسة «فلورانس كوك» عن صفات بارزة كوسيطة ؛ وفي الآونة الاخيرة بلغت هذه الصفات الأوج بخلق صورة نسائية كاملة كانت تزعم انها قادمة من عالم الارواح وكانت تظهر عارية القدمين وبثياب بيضاء فضفاضة ، في حين ان الوسيطة ، اللابسة ثيابا سوداء ، كانت ممددة ، موثقة وغارقة في رقاد عميق ، في غرفة جدرانها مكسوة

---

١ — اكتشفه كروكس عام ١٨٦١ .

٢ — أداة لقياس الاشعاع اخترعها كروكس في عامي ١٨٧٣ — ٧٤ . ويشار بعبارة «مطحنة النور» الى دولاب مطحنة صغير يدور تحت تأثير اشعة النور والحرارة .

بالستائر او في غرفة صغيرة مجاورة (المرجع المذكور ، ص ١٨١) .

ذات مساء ، هذا الروح ، الذي لقب نفسه بالاسم «كيتي» والذي كان يشبه شبها مذهلا الآنسة كوك ، أمسك بشكل مفاجيء وقوي من خصره من قبل السيد «فولكمان» — الزوج الحالي للسيدة غوبي — لكي يرى فيما اذا كان هذا الروح الطبعة الثانية للآنسة كوك . وتكشف الروح عن امراة شابة حازمة ، فدافع عن نفسه بعزم شديد ، تدخّل النظارة ، أطفيء الغاز ، وحين عاد الهدوء بعد المشاجرة بقليل، واضيئت القاعة مجددا كان الروح قد غاب ، والآنسة كوك راقدة ، موثقة ، فاقدة الوعي ، في زاويتها . لكن يقال ان السيد ولكمان ما زال يدّعي حتى اليوم انه أمسك بالضبط بقامة الآنسة كوك لا بقامة اي شخص آخر سواها . وللتحقق من هذه المسألة علميا ، قام كهربائي مشهور ، السيد فارلاي ، باجراء أختبار آخر ، حين قام بامرار تيار كهربائي من بطارية عبر الوسيطة ، الآنسة كوك ، بحيث لم يكن باستطاعتها ان تقوم بدور الوسيط دون قطع التيار . مع ذلك فان الروح قد ظهر. اذن لقد كان شخصا آخر غير الآنسة كوك .وتتمة العملية كانت من شأن السيد كروكس . وكان مسعاه الاول كسب **ثقة** السيدة الشبح . هذه **الثقة** — كما يقول هو ذاته في صحيفة «الروحاني» في ٥ حزيران ١٨٧٤ — ،

قد كبرت شيئا فشيئا بحيث ان السيدة الشبح كانت ترفض اقامة جلسة الا اذا قمت انا بتدبير شؤونها . وكانت تقول انها تأمل بأن تراني دائما الى جانبها او الى جانب الغرفة ؛ وكنت اجد — بعد ان قامت هذه الثقة بيننا واصبحت متأكدة من انني لن انكث بعهد أعطيته لها — ان حالات ظهور الارواح تزداد كثرة الى حد كبير ، وان براهين قد قدمت تطوعا بحيث لم يكن بالامكان الحصول عليها بطريق اخرى . وكانت كثيرا ما تستشيرني في صدد الاشخاص الحاضرين في الجلسات والاماكن التي يجب منحها لهم ، ذلك لانها اصبحت في الآونة الاخيرة شديدة القلق والنرفزة ، وذلك نتيجة لبعض الايحاءاتغير العاقلة القائلة بأنه ، الى جانب طرائق الاستقصاء الاخرى ، الاكثر علمية ، يجب استعمال **القوة** ايضا .

لقد كافأت الآنسة — الشبح بسخاء هذه الثقة ، اللطيفة والعلمية على حد سواء . فقد ظهرت — وهذا أمر لم يعد يستثير دهشتنا — حتى في منزل السير كروكس ، لعبت مع اولاده ، روت لهم «النوادر عن مغامراتها في الهند» ، أفضت ايضا الى السير كروكس ب «بعض تجاربها المريرة في حياتها الماضية» ، سمحت له بأن يطوقها بذراعيه لتثبت له صفتها المادية القابلة للجس جيدا ، جعلته يتحقق من عدد نبضات قلبها وتنفسها في الدقيقة ، وفي خاتمة المطاف سمحت بالتقاط صورة فوتوغرافية لها الى جانب السيد كروكس .

ان هذا الوجه ، بعد ان شوهد ، لمس وصُوّر فوتوغرافيا ، تبودل الحديث معه ، **اختفى** تماما في غرفة صغيرة ، حيث لم يكن هناك مخرج آخر سوى عبر غرفة انتظار ، ملأى بالنظارة (المرجع المذكور ، ص ١٨٣) .

هذا الامر لا يشكل عملا بطوليا ، والحق يقال ، ما دمنا قد قبلنا بأن النظارة كانوا من التهذيب بحيث لم يكونوا يظهرون للسيد كروكس ، الذي كانت تحدث في منزله هذه الامور ، ثقة أقل مما كان يظهر هو نفسه للروح العجيبة .

لسوء الحظ ، فان هذه «الظاهرات الثابتة قطعا» هي ، منذ الوهلة الاولى ، غير قابلة للتصديق بتاتا ، حتى بالنسبة لمناجي الارواح (او العلماء الروحانيين) . لقد رأينا قبلا كيف ان العالم الروحاني جدا السيد ولكمان قد أجاز لنفسه تدخلا جد مادي . وها هو رجل دين ، عضو «الجمعية الوطنية البريطانية لمناجي الارواح» ، قد حضر هو ايضا احدى جلسات الآنسة كوك وتحقق دون صعوبة من ان الغرفة ، التي كان الروح يأتي ويختفي فيها ، تتصل بالعالم الخارجي **بباب ثان** . ان سلوك السيد كروكس ، الذي كان حاضرا هناك ايضا، «قد وجَّه الضربة الحاسمة لاعتقادي بأنه يمكن ان يكون ثمة شيء جدي في هذه التظاهرات» (صوفي لندن ، بقلم الاب المحترم ش. موريس دايفس ـ لندن ـ تينسلي براذر [ص ٣١٩] ) . وعلاوة على ذلك، فقد أظهروا لنا في امريكا كيف يجري «تحضير» الـ«كاتاي»ات★ les Katey. ان أسرة «هولمس» قد قدمت في فيلادلفيا عروضا ظهرت فيها «كاتاي» ، قدم لها السذج عطايا نفيسة . مع ذلك فان متشككا لم ينِ عن التفتيش حتى وجد أثرا لـ«كاتاي» المذكورة، التي قامت مع ذلك باضراب عن العمل مرة من المرات بسبب الاجر: لقد اكتشفها في نزل عائلي في شكل سيدة شابة من لحم ودم بلا جدال وكانت معها كافة الهدايا التي قدمت للروح .

بيد انه كان ينبغي ان يكون للبر الاوروبي ، هو ايضا ، مُدّعو رؤية للعلم . ان جماعة علمية من سان بطرسبرغ، ولست أدري بالضبط ما اذا كانت تلك الجماعة تمثل الجامعة او الاكاديمية، أوفدت السيدين مستشار الدولة «أكساكوف» والكيميائي «بوتليروف» لدراسة ظاهرات استحضار الارواح ؛ لكن لا يبدو ان الامر أدى الى شيء عظيم (١) . وبالمقابل ، اذا كان ينبغي ايلاء بعض الثقة ببيانات مستحضري الارواح ، فقد قدمت المانيا الان مدعي رؤية خاص بها ، هو البروفسور «زولنر» من مدينة «لايبزيغ» .

---

★ اسم الروح المستحضرة .

١ ـ المقصود هو «لجنة فحص ظاهرات الوساطة الروحانية» ، التي أنشئت في ٦ ايار ١٨٧٥ من قبل الجمعية الفيزيائية لجامعة بطرسبرغ والتي أنهت نشاطاتها في ٢١ آذار ١٨٧٦ . وهذه اللجنة اتصلت بشخصيات كانت تنشر مسائل الوساطة الروحانية واستحضار الارواح في روسيا : اكساكوف (١٨٣٢ـ١٩٠٣) وبوتليروف (١٨٢٨ـ١٨٨٦) ، الخ ، مقترحة عليهم اعطاء مدخل الى ظاهرات روحانية «صادقة حقيقية» . وكان من اعضاء هذه اللجنة العلماء مندلييف (١٨٣٤ـ١٩٠٧) وبوبيليف (١٨٤٢ـ١٩١٧) وكراجيوتش ، الخ . توصلت اللجنة الى الاستنتاج بأن الظاهرات الروحانية واستحضار الارواح يجب ردها الى حركات لا واعية او الى خدع واعية وان الارواحية خرافة» ، ونشرت اللجنة نتائج تحقيقاتها في جريدة «غولوس» (الصوت) في عدد ٢٥ آذار ١٨٧٦ . وقد نشر مندلييف وثائق اللجنة تحت عنوان «وثائق للحكم على استحضار الارواح» في سان بطرسبرغ عام ١٨٧٦ .

من المعروف ان السيد زولنر قد عمل كثيرا في «البعد الرابع» للفضاء ؛ وقد اكتشف اشياء كثيرة مستحيلة في فضاء ذي ثلاثة ابعاد ، لكنها اشياء بديهية تماما في فضاء ذي اربعة ابعاد . وهكذا ، ففي الفضاء الاخير ، يمكن ان تقلب ، كما يقلب القفاز ، كرة معدنية دون احداث ثقب فيها ، كما يمكن عقد عقدة في خيط لا نهاية له او مثبت من طرفيه ، او ايضا وصل خاتمين منفصلين ومقفلين دون فتح احدهما ، وتجارب اخرى من هذا النوع تستلزم قوة . وحسب نشرات النصر الواردة مؤخرا من عالم الارواح ، فان السيد زولنر قد توجه الى واحد او اكثر من الوسطاء لكي يحدد بمساعدتهم ، بصورة اكثر دقة ، مكان وجود البعد الرابع . وكان النجاح مذهلا حسبما رُوي . ان ظهر الكرسي ، وكان يسند اليه ذراعه ، في حين ان يده لم تترك الطاولة ، قد شبّك بذراعه بعد الجلسة ، وانعقدت [تلقائيا] اربعة عقد في خيط كان خاليا تماما من اية عقدة ، الخ . وباختصار ، فان جميع معجزات البعد الرابع قد انجزتها الارواح . لاحظوا جيدا انني ، وانا اروي ما اقرأ ، لا اضمن صحة نشرات الارواح ، واذا كانت تتضمن اشياء اخرى غير صحيحة او غير دقيقة فينبغي للسيد زولنر ان يلزمني باعطائه المجال لتصحيحها . لكن اذا كانت هذه النشرات تعيد بأمانة تجارب السيد زولنر ، فانها تسجل بوضوح عهدا جديدا في علم استحضار الارواح كما في الرياضيات . ان الارواح تثبت وجود البعد الرابع، وكذلك فهذا البعد يضمن وجود الارواح . وما ان تثبت هذه النقطة حتى نرى انه قد انفتح امام العلم حقل جديد كليا وشاسع جدا . ان الرياضيات كافة وعلم الطبيعة حتى ايامنا تغدو مجرد مدرسة اعدادية لرياضيات البعد الرابع والأبعاد التالية ، كما للميكانيك ، الفيزياء ، الكيمياء وفيزيولوجية الارواح التي تكمن في هذه الأبعاد العليا . أفلم يتحقق السيد كروكس علميا مما تخسره الطاولات والاثاث من وزن لدى مرورها (ونستطيع الان ان نقول ذلك) في البعد الرابع ، والسيد والاس ألم يعلن بمثابة شيء ثابت ان النار في البعد الرابع لا تضر بالجسم البشري . وهاكم الان فيزيولوجية هذه الاجسام الاشباح ! انها تتنفس ، لها نبض ، وبالتالي رئتان ، قلب وجهاز جريان الدم ، ومن ثم فهي بالتأكيد مجهزة على الاقل مثلي ومثلك بسائر اعضاء الجسد . ذلك انه لا بد لنا ، لكي نتنفس ، من مائيات [هيدرات] الكربون التي تحترق في الرئتين ، وهذه لا يمكن ان تأتي الا من الخارج : اذن تلزم معدة ، امعاء وتوابعها ... وما ان نتحقق من هذا كله حتى تأتي البقية بدون صعوبة . لكن وجود أمثال هذه الاعضاء يستلزم امكان اصابتها بالمرض احيانا ، وعلى هذا الاساس ، يمكن ان يحدث ان يضطر السيد فيرشوو لتأليف كتاب عن علم امراض خلايا الارواح . ونظرا لان معظم هذه الارواح هن نساء شابات ذوات جمال رائع ، لا يتميزن بشيء ، بأي شيء ، عن سائر آنسات الارض الا من حيث جمالهن الخارق فكيف يمكن ان يفوتهن الظهور خلال زمن طويل على «الرجال الذين يحسون بالحب» (١) ؛ واذا كان ، وفقا لما تحقق منه السيد

١ ــ عبارة من نص اوبرا موزار : «القيثارة السحرية» (الفصل الاول ــ المشهد ١٨) .

كروكس بواسطة النبضات ، «القلب النسائي غير معدوم» ، فهذا ايضا بُعد رابع ينفتح أمام عملية الانتقاء الطبيعي ، بُعد ليس عليه ان يخاف الانخلاط مع الاشتراكية الديمقراطية الشريرة (١) .

هذا يكفي . لقد شهدنا هنا بوضوح ما هي الطريقة الاشد وثوقا لانزلاق من علم الطبيعة الى الصوفية . ولا نشهد هنا الانتفاخ النظري الشديد لفلسفة الطبيعة بل التجريبية الاكثر سطحية ، المزدرية كل نظرية ، الحذرة من كل فكر . هنا ليست الضرورة القَبلية هي التي تبرهن عن وجود الارواح ، بل الملاحظة الاختبارية للسيدين والاس وكروكس وشركاهم . واذا كنا نؤمن بمعاينات التحليل الطيفي لـ كروكس التي ادت الى اكتشاف التاليوم ، او نؤمن بالاكتشافات الفنية في عالم الحيوان التي حققها والاس في جزر الملايو ، فانهم يطلبون منا ان نؤمن كذلك بالتجارب والكشوف الروحانية لهذين العالمين . واذا ما أعلنّا بأن ثمة فرقا صغيرا مع ذلك ، الا وهو اننا نستطيع التحقق من تلك لا من هذه ، يرد علينا مدّعو الرؤية الروحانيون ان الامر ليس كذلك وانهم على استعداد لاعطائنا الفرصة للتحقق ايضا من ظاهرات الاستحضار الروحاني .

والواقع انه لا يمكن ازدراء الديالكتيك بلا عقاب . ايا كان الازدراء الذي يفتذونه لكل فكر نظري ، فانه لا يمكن على كل حال الربط بين واقعين من وقائع الطبيعة ، او فهم العلاقة القائمة بينهما دون تفكير نظري . عندئذ فان المسألة ، في هذه الحالة، هي فقط مسألة ما اذا كانوا يفكرون تفكيرا صائبا ام لا ، وبديهي ان ازدراء النظرية هو اضمن وسيلة للتفكير بنهج طبيعوي Naturaliste ، اي التفكير على نحو خاطىء . والحال ، حسب قانون قديم معروف جيدا من قوانين الديالكتيك ، ان التفكير الخاطىء ، المدفوع الى نتيجته المنطقية، يؤول بانتظام الى عكس نقطة انطلاقه. اليكم كيف يدفع ثمن الازدراء التجريبي للديالكتيك : يقود بعضا من التجريبيين الاكثر ابتذالا وعامية الى اكثر الخرافات سخفا ، الى الارواحية الحديثة .

والامر على غرار ذلك بالنسبة للرياضيات . ان الرياضيين المبتذلين من الطراز الميتافيزي يفخرون كثيرا لكون علمهم يحرز نتائج لا مجال لدحضها مطلقا . والحال انه يوجد ايضا ، بين هذه النتائج ، كميات كبيرة من الاوهام ، تكتسب من هذا الواقع بعض طابع الحقيقة . لكن ما ان يعتاد المرء على ان ينسب الى $\sqrt{-1}$ أو الى

---

١ ــ يلمح انجلس الى الهجمات الرجعية ضد الداروينية التي شنت في المانيا ، بعد كومونة١٨٧١ على الاخص . حتى عالم مرموق مثل فيرشوو ، الذي كان نصيرا للداروينية ، اقترح عام ١٨٧٧ حظر مذهب داروين مدعيا ان الداروينية على علاقات وثيقة بالحركة الاشتراكية ، وبالتالي فهي خطرة على النظام الاجتماعي القائم .

البعد الرابع حقيقة واقعية ما خارج راسنا ، حتى يصبح من السهل القيام بخطوة جديدة والقبول ايضا بعالم الوسطاء . ويكون الامر على غرار ما قاله كيتلر عن دولنجر :

> هذا الرجل قد دافع عن سخافات كثيرة في حياته ، بحيث لم يعد لديه مانع في الحقيقة من قبول (معتقد) العصمة ايضا (١) .

والواقع ان التجريبية الخالصة ليست قادرة على القضاء على الارواحية . اولا، ان «الظاهرات العليا» لا يجري اظهارها ابدا الا حين يكون العالم المعني مسيطرا عليه الى حد انه لا يعود يرى الا ما يراد له ان يرى ، او ما يريد ان يراه — كما يصف كروكس ذلك هو نفسه بسذاجة لا مثيل لها . ثانيا ، مع ذلك فليس بذي بال بالنسبة للارواحيين ان يكشف القناع عن مئات من الوقائع المزعومة كعمليات خداع واحتيال وعن عشرات من المزعومين وسطاء روحانيين موثوقين كمحتالين مبتذلين . فما دامت كل معجزة على حدة لم تكنس بالتفسير فسيبقى لهؤلاء ما يكفي من الارضية ؛ ووالاس نفسه يقول ذلك بوضوح بمناسبة الصور الفوتوغرافية المزيفة للارواح : ان وجود عمليات التزوير يثبت صحة الصور الفوتوغرافية الحقيقية .
وحينئذ تجد التجريبية ذاتها مرغمة على ان تعارض مضايقات الارواحيين ، لا باختبارات تجريدية ، بل بتأملات نظرية ، والقول مع هيكسلي :

> في رايي ان الخير الوحيد الذي يمكن ان ينتج عن اثبات الارواحية ، هو انها تقدم حجة جديدة ضد الانتحار . والاحرى للمرء ان يكنس الطرق طوال حياته من أن يروي ، بعد موته ، بلاهات حمارية بفم وسيط ارواحي يؤجر نفسه بجنيه كل جلسة (٢) .

---

١ — في ١٨ تموز ١٨٧٠ اعلن في روما معتقد «عصمة البابا عن الخطأ» . وقد رفض عالم اللاهوت الالماني الكاثوليكي دولنجر الاعتراف بهذا المعتقد . كان مطران مايانس ، كيتلر ، ضد هذا المعتقد ايضا في البدء ، لكنه سرعان ما غدا المدافع المتحمس عنه .

٢ — اقتطفنا هذا الاستشهاد من رسالة للعالم البيولوجي توماس هيكسلي الى «الجمعية الجدلية» في لندن التي دعته للاشتراك في عمل اللجنة لدراسة الظاهرات الارواحية . وقد رفض هيكسلي تلبية هذه الدعوة شافعا رفضه ببعض ملاحظات ساخرة حول الارواحية . وقد نشرت رسالة هيكسلي المكتوبة بتاريخ ٢٩ كانون الاول ١٨٦٩ في صحيفة «الاخبار اليومية» (دايلي نيوز) ١٧ تشرين الاول ١٨٧١ .

# اسهام العمل في تحويل القرد الى انسان

( مقتطـف )

في الواقع ، نحن نتعلم كل يوم ان نفهم على نحو اضبط هــذه القوانين وان نتعرف على النتائج البعيدة الى هذا الحد او ذاك لتدخلاتنا في المسار الاعتيادي او الطبيعي لاشياء الطبيعة . بصورة رئيسية ، منذ التقدمات هائلة الضخامة التــي حققتها العلوم الطبيعية خلال هذا القرن ، أصبحنا قادرين اكثر فاكثر على ان نعرف ايضا العواقب الطبيعية البعيدة ، على الاقل لافعالنا الاكثر اعتياديــة في ميدان الانتاج ، وان نسيطر عليها بالتالي . وبقدر ما سيتقدم البشر في هذا الطريق بقدر ما سيزدادون شعورا بل معرفة من جديد بأنهم جزء من الطبيعة ، وبقدر ما ستصبح غريبة هذه الفكرة غير المعقولة وضد الطبيعة ، فكرة التعارض بين الروح والمادة ، الانسان والطبيعة ، النفس والجسد ، الفكرة التي انتشرت في اوروبا منذ زوال العصر القديم والتي عرفت مع المسيحية اكبر توسع .

## [ موجز ومقاطع ]

### نبذة تاريخية

ان الدراسة الحديثة للطبيعة (وربما كانت هي وحدها التي يمكن اعتبارها علما، بعكس حدوس اليونان العبقرية وأبحاث العرب المتفرقة واللامترابطة) تبدأ مع هذا العصر الهائل الذي حطمت فيه البورجوازية هيمنة الاقطاعية ، حيث ظهر في خلفية الصراع بين بورجوازيي المدن والنبالة الاقطاعية الفلاح المتمرد ، و ، خلف الفلاح ، البدايات الثورية للبروليتاريا الحديثة ، الراية الحمراء في قبضتها والشيوعية على شفاهها ــ مع هذا العصر الذي انشأ الملكيات الكبرى في اوروبا ، حطم دكتاتورية البابا الروحية ، بعث العصر الاغريقي العظيم وولد في نفس الوقت أرفع تطور فني في العصور الحديثة ، فجّر الحدود الضيقة القديمة واكتشف بالمعنــى الحصري للكلمة الارض لاول مرة .

كانت تلك اكبر ثورة عرفتها الارض من قبل . ان دراسة الطبيعة ، هي ايضا ، التي عاشت وتطورت في مناخ هذه الثورة ، كانت ثورية حتى العظم ، سارت يدا بيد مع فلسفة الطليان الكبار العصرية ، قدمت شهداءها على المحارق وفي الزنزانات . انه لامر مميز ان البروتستانت والكاثوليك قد تنافسوا لاضطهادها . هؤلاء احرقوا «سيرفيه» ، أولئك أحرقوا «جيوردأنو برونو» . كان عصرا بحاجــة الى عمالقة ،

فأوجد عمالقة ، عمالقة في البحث والتنقيب ، في العقل والطباع. كان العصر الذي سماه الفرنسيون بحق عصر النهضة (او البعث) Renaissance ، سمته اوروبا البروتستانتية ، وبصورة وحيدة الجانب ومحدودة، عهد الاصلاح Reforme

كان لعلم الطبيعة ، هو ايضا ، في ذلك العهد ، بيان استقلال (استقلاله) ، الذي لم يأت منذ البداية بالتأكيد ، شأن لوثر ، الذي لم يكن اول بروتستانتي . ما فعله لوثر في الميدان الديني عندما ألقى قرار البابا في النار ، هو عين ما فعله في علم الطبيعة مؤلف كوبرنيكوس العظيم الذي تحدى الخرافات الكهنوتية ، وان كان قد فعل ذلك بحياء ، وعقب ستة وثلاثين عاما من التردد ، و ، يمكن القول ، هو على سرير الموت . منذئذ كان علم الطبيعة قد تحرر ، من حيث الاساس ، من الدين ، رغم ان الاستجلاء الكامل في جميع التفاصيل قد استمر حتى ايامنا هذه ، وأنه في كثير من العقول ما يزال بعيدا عن ان يكتمل . هذا لم يمنع ان يكون تطور العلوم قد تقدم منذ ذلك الحين بخطى عملاقة ، وكبُر ، اذا جاز التعبير ، بنسبة مربع البعد (في الزمن) من نقطة انطلاقه ؛ ويبدو انه يريد ان يبرهن للعالم ان حركة الإزهار الاسمى للمادة العضوية ، العقل الانساني ، يحكمها قانون معاكس لقانون حركة المادة غير العضوية .

ان المرحلة الاولى لعلم الطبيعة الحديث تنتهي ، في ميدان العالم غير العضوي ، مع نيوتن . انها المرحلة التي اكتسب فيها العلم السيطرة على المواد المعطاة ؛ وتحققت فيها اشياء عظيمة في ميدان الرياضيات، الميكانيك ـ علم الفلك، السكوني والدينامي La Statique et la dynamique ، وبخاصة بفضل كيبلر وغاليله، التي استخرجت استنتاجاتهما من نيوتن . لكن لم يتم ، في الميدان العضوي ، تجاوز المبادىء الاولية. ان دراسة أشكال الحياة التي تتعاقب وتتنافى في التاريخ ، وكذلك اشكال الشروط المتغيرة للحياة التي تقابلها ، ـ علم الاحاثة والإراضة ـ ، لم تكن قد وجدت بعد . ولم تكن الطبيعة ، في الحاصل ، تعتبر كشيء ما يتطور في التاريخ ، شيء لـه تاريخه في الزمن ؛ ولم يكن يؤخذ بالحسبان سوى الامتداد في المكان ، ولم يقم العلماء بتصنيف مختلف الاشكال تبعا لتعاقبها ، لكن فقط تبعا لتراصفها ؛ وكان تاريخ الطبيعة صالحا لجميع الازمنة ، مثل الاشكال الاهليلجية التي ترسمها الكواكب ؛ وكل دراسة اكثر تعمقا لاشكال الحياة العضوية كانت تفتقر الى قاعدتين اساسيتين : الكيمياء ومعرفة البنية العضوية الاساسية ، الخلية . ان علم الطبيعة، الذي كان ثوريا في بداياته ، قد وجد نفسه ازاء طبيعة محافظة قطعا ، كل ما فيها كان ، واليوم ايضا ، كما كان منذ بداية العالم ، وفيها يبقى ، حتى نهاية العالم ، كل ما كان موجودا منذ البداية .

وانه لأمر مميز ان يكون هذا المفهوم المحافظ للطبيعة ، سواء في الميدان غير العضوي ام في الميدان العضوي [...] (١) .

---

١ ـ لم يكمل انجلس هذه العبارة .

| | |
|---|---|
| علم الفلك | علم المعادن |
| الميكانيك | فيزيولوجية النبات |
| الرياضيات | فيزيولوجية الحيوان |
| الفيزياء | علم التشريح |
| الكيمياء | علم العلاج والشفاء |
| الإراضة | علم التشخيص |
| الإحاثة | |

الثغرة الاولى : كانط ولابلاس . الثانية : الإراضة والاحاثة (لايل ، تطور بطيء). الثالثة : الكيمياء العضوية ، التي تنتج أجساما عضوية وتبرز صلاحة القوانين الكيميائية للاجسام الحية . الرابعة : ١٨٤٢ [نظرية] ميكانيك الحرارة ، غروف . الخامسة : داروين ، لامارك ، الخلية ، الخ ، (لوت ، كوفييه وآغاسيز) . السادسة: **العنصر المقارن** في التشريح والمناخة (خطوط التحارر) ، الجغرافيا الحيوانية والنباتية ، (رحلات الاستكشاف العلمية منذ منتصف ألقرن الثامن عشر) ، الجغرافيا المادية بصورة عامة (هامبولدت) . ربط المواد . علم التشكل (علم الاجنة ، باير) .

لقد ذهبت الغائية القديمة الى الشيطان ، الا ان ثمة يقينا قويا بأن المادة ، في دورها الابدي ، تتحرك وفقا لقوانين تنتج بالضرورة ، في مرحلة محددة ، ــ تارة هنا وطورا هناك ، ــ في كائنات عضوية العقل ــ المفكر .

ان الوجود الاعتيادي للحيوانات قد جاء في الشروط او الظروف المزامنة لوجودها التي تعيش فيها وتتكيف معها ؛ اما شروط وجود الانسان ، منذ أن تميز عن الحيوان ، بمعنى الكلمة الضيق ، فهي شروط جديدة وأصيلة ؛ وينبغي ان تصاغ في البداية بالتطور التاريخي الذي يلي . ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع ان يخرج بواسطة الشغل من الحالة الحيوانية الخالصة ؛ وحالته الاعتيادية هي الحالة التي تطابق الوعي ، **والتي يتعين عليه هو ذاته ان يوجدها** .

... لم يعامَل الله أسوأ من معاملة العلماء المؤمنين به له . المادويون يكتفون بمجرد تفسير **الشيء** ، دون الدخول في هذه العبارات الجوفاء : انهم لا يفعلون ذلك الا حين يريد مؤمنون لجوجون ان يفرضوا عليهم إلها ، وفي هذه الحالة فانهم يقدمون جوابا وجيزا ، إما كجواب لابلاس : مولاي ... لم تكن لي حاجة ، الخ، "... (١)، واما بلهجة اكثر فظاظة على طريقة التجار الهولنديين ، الذين اعتادوا ان يستبعدوا المثلين التجاريين الالمان حين يريد هؤلاء ان يفرضوا عليهم بضاعتهم : «لا يمكنني ان استعمل هذا الشيء» ، وينتهي الامر . لكن ما إكثر ما عانى الله من المدافعين عنه !

---

١ ــ «مولاي ، لم تكن لي حاجة بهذه الفرضية» : بهذه الجملة رد لابلاس على نابوليون حين سأله لماذا لم يذكر الله في علم الميكانيك السماوي الذي وضعه لابلاس .

في تاريخ العلوم الحديثة للطبيعة ، يعامَل الله من جانب المدافعين عنه كما عومل فريديريك غليوم الثالث من قبل جنرالاته وموظفيه بعد معركة «إيينا» . كان قسم بعد آخر من الجيش يلقي السلاح ، حصن بعد آخر يستسلم امام التقدم الظافــر للعلم الذي سينتهي بفتح كل ميدان الطبيعة الشاسع ، دون ان يُبقي مكانا للخالق. ظل نيوتن يمنحه «الدفعة الاولى» ، لكنه لم يكن يريد ان يسمع الحديث عن تدخل آخر في منظومته الشمسية . والأب سيكي لم يكن أقل تأكيدا وصراحة من نيوتن في استبعاد الله من منظومته الشمسية ، وذلك مع كل مجاملاته ورغم كل مظاهر التكريم الطقوسية لله عز وجلّ ، ولم يعترف له بعمل خلاق الا بالنسبة للسديم الاول الاولي . والامر على غرار ذلك في جميع الميادين . كان آغاسيز يعتقــد ان البيولوجيا ، وهي «دون كيشوتها» الاخير ، قابلة بالتأكيد للسخافات . فهو لا يخلق، كما يبدو ، الحيوانات الفعلية الحقيقية وحدها ، بل ايضا الحيوانات المجردة ، فكرة السمكة في حد ذاتها . واخيرا فان تيندال يحرم عليه كليا بلوغ الطبيعة ، ويطرده الى ميدان الانفعالات ، ولا يمنحه الوجود الا لانه يلزم لاحد ما ان يعرف اكثر من جون تيندال حول هذا كله ! (حول الطبيعة) (١) . ما ابعد المسافة هنا عــن الله القديم ــ خالق السماء والارض ، الذي يمسك في يده كل شيء ، والذي بدونه لا يمكن ان تسقط اية شعرة من راس ما .

ان حاجة تيندال الانفعالية لا تثبت شيئا . فالفارس دي غريو كان ايضا بحاجة انفعالية الى ان يحب ويمتلك مانون ليسكو التي كانت تبيع نفسها وتبيعه يوما بعد يوم ؛ وقد أصبح غشاشا رقوادا في سبيل حبها ، واذا كان تيندال يريد الان ان يوجه الملامة الى ذلك الفارس، فبوسع هذا ان يجيبه متحدثا عن«حاجته الانفعالية»: الله : انا لا اعرف . لكن الجهل ليس حجة (سبينوزا) (٢) .

١ ــ يرجع انجلس الى محاضرة القاها تيندال في اجتماع لـ «الاتحاد العلمي الانكليزي» عقد في بلفاست يوم ١٩ آب ١٨٧٤ (نشر في مجلة «طبيعة» الصادرة في ٢٠ آب ١٨٧٤) . في رسالته الــى ماركس المؤرخة في ٢١ ايلول ١٨٧٤ ، كتب انجلس عرضا وتحليلا مفصلين لهذه المحاضرة .

٢ ــ في ملحق الجزء الاول من كتاب «الاخلاق» تحدث سبينوزا عن اللجوء الى الجهل ، الحجة الوحيدة التي يستخدمها أنصار المفهوم الديني اللاهوتي للطبيعة .

۱۸ .

فريديريك انجلس

# برونو بوير والمسيحية الأولى الأولية(*)

في ۱۳ نيسان توفي في برلين رجل سبق له ان قام بدور ما كفيلسوف وعالم لاهوت ، لكن لم يعد ، وهو شبه منسي منذ سنوات ، يستلفت نحوه انتباه الجمهور الا من حين الى حين ، كضرب من الادب «طريف» . وكان علماء اللاهوت الرسميون، بما في ذلك «رينان» ، ينتحلون افكاره ، ولذلك السبب أجمعوا على القاء اسمه في طيات النسيان . ورغم ذلك فانه اكبر قيمة منهم ، وقد حقق اكثر منهم في الميدان الذي يعنينا ، نحن ايضا ، معشر الاشتراكيين ، مسألة منشأ المسيحية التاريخي .

فلتكن وفاة هذا الرجل مناسبة لوصف الوضع الراهن للمسألة وإسهام بوير في حلها .

ان المفهوم الذي ساد منذ مفكري العصر الوسيط الاحرار حتى فلاسفة عصر الانوار للقرن الثامن عشر ، والذي جعل من جميع الاديان ، وبالتالي المسيحية ايضا ، عمل دجالين ، غير كافٍ منذ ان حدد «هيغل» كمهمة للفلسفة تبيان ان التاريخ الكوني يخضع لسير تطور عقلاني .

وبديهي تماما انهاذا كانت أديان طبيعوية، مثل صنموية او تيموية Fétichisme الزنوج او دين الآريين (۱) البدائي ، قد ولدت دون ان يلعب التدجيل دورا في هذه

---

★ نشر في مجلة «الاشتراكي الديمقراطي» ، في العددين ۱۹ و۲۰ الصادرين في ٤ و۱۱ ايار ۱۸۸۲ .

۱ ـ ان مصطلح «آري» يعتبر اليوم شائخا وغير علمي . وهو ليس في الاصل سوى الاسم الذي أطلق على قدامى سكان الهند وايران ؛ وهذا التعبير يستعمل ، ابتداء من القرن التاسع عشر ، من قبل بعض العلماء ، كمرادف لمصطلح «هندي ـ اوروبي» ، اي للدلالة على جميع الشعوب الناطقة باللغات الهندية الاوروبية . وقد حاولوا فيما بعد ان يفبركوا بواسطة مفهوم «الآري» وحدة عنصرية من الشعوب الهندية الاوروبية، هذه الوحدة التي لم يكن لها وجود البتة . لقد استخدم الفاشيون =

القضية ، فان التطور اللاحق سرعان ما جعل تدجيل الكهنة امرا محتوما . اما الاديان المصنوعة ، الى جانب الحماسات الدينية المخلصة التي تخلقها ، فلا تستطيع ان تستغني ، منذ تأسيسها ، عن التدجيل وتلفيق التاريخ ، وان لدى المسيحية هي ايضا ، منذ بداياتها ، ما تقدمه من نتائج حسنة جدا في هذا المجال ، على نحو ما بيّنه بوير في نقده لـ «العهد الجديد» . لكن هذا ليس سوى معاينة لظاهرة عامة لا تفسر الحالة الخاصة التي نحن بصددها هي بالتحديد .

لن نتخلص من دين أخضع لسيطرته العالم الروماني وهيمن طوال الف وثمنماية عام على الشطر الاكبر من البشرية المتحضرة ، اذا اقتصرنا على اعلان ان ذلك الدين هو نسيج من السخافات فبركها دجالون . لن ننتهي منه الا اذا عرفنا كيف نفسر اصل هذا الدين وتطوره منذ الظروف التاريخية التي كانت قائمة عند ولادته وصيرورته دينا مهيمنا . وهذا صحيح بخاصة فيما يتعلق بالمسيحية . ونحن بالضبط ازاء حل مسألة معرفة كيف أمكن ان تفضل الكتل الشعبية في الامبراطورية الرومانية على سائر الاديان الاخرى هذا الشيء اللامعقول ، والذي بشّر به ، علاوة على ذلك ، عبيد أرقاء واشخاص مضطهَدون ، الى أن انتهى الامر بـ «قسطنطين» الطموح الى اعتبار اعتناق هذا الدين أفضل وسيلة للتوصل الى ملك لا يشاطره فيه احد على العالم الروماني .

ان اسهام برونو في الاجابة عن هذه الاسئلة هي أهم بكثير من اسهام اي شخص آخر . بدراسة اللغة ، كان «ويلكه» قد أثبت ان الاناجيل قد تعاقبت في الزمان وانها مترابطة . وقام بوير باثبات ذلك مجددا على نحو لا يُدحض ، انطلاقا من مضمون الاناجيل ، رغم رغبة علماء اللاهوت أنصاف المؤمنين خلال فترة الرجعة التي تلت ١٨٤٩ في معارضته . لقد كشف عن الطابع اللاعلمي لنظرية «شتراوس» المشوشة حول الاساطير والتي كانت تسمح لاي كان بأن يعتبر كما يشاء حقيقة تاريخية ما يروق له من القصص الواردة في الاناجيل . واذا كان قد ظهر في هذه القضية أنه من سائر محتوى الاناجيل لا يوجد شيء تقريبا يمكن التحقق منه من الزاوية التاريخية — بحيث انه يمكن التشكيك بوجود مسيح ما ، فان برونو بوير اذ قام بذلك ، انما مهّد الارض للاجابة عن مسألة : ما هو منشأ التمثيلات والافكار التي جمعت في المسيحية في ضرب من منظومة ، وكيف توصلت الى الهيمنة على العالم ؟

هذه المسألة هي التي عني بها برونو بوير حتى النهاية . تجلت ذروة ابحاثه في

---

= الالمان هذه التسمية جاعلين من «الاريين» ممثلي عرق زعم ـه متفوق . ان فريديريك انجلس الذي استعمل مصطلح «آري» كان يتقيد بالتسمية التي كان يسـ ـلم في زمنه ، انما كان يعني بالـ «هندية الاوروبية» «تلك الشعوب التي تتجمع لغاتها حول السنسكريتية ، أقدم لغة من لغاتها» ( ف. انجلس : «اسهام في تاريخ الجرمان القدامى» ) .

هذه النتيجة : ان اليهودي الاسكندري «فيلون» ، الذي كان ما يزال على قيد الحياة في سنة ٤٤ م ، لكن الذي بلغ من العمر عتيا آنئذ ، هو ابو المسيحية الحقيقي ، وان الفيلسوف الرواقي الروماني «سينيكا» كان عم المسيحية تقريبا . ان الكتابات العديدة ، التي نقلت الينا والتي تنسب الى فيلون ، قد نشأت في الواقع من اندماج تقاليد يهودية مفسرة بمنظور عقلاني ومرمَّز (او استعاري) Allégorique بالفلسفة اليونانية ، والرواقية منها على الاخص . هذه المصالحة بين مفاهيم شرقية وغربية كانت تتضمن منذ ذلك الحين سائر الافكار الاصلية الذاتية في المسيحية : فكرة ان الخطيئة شيء فطري في الانسان ، ان اللوغوس ، الكلمة التي في الله والتي هي الله ذاته ، يخدم كوسيط بين الإله والانسان ؛ لا ينال الانسان التكفير بالأضاحي الحيوانية ، بل بتقديمه قلبه بالذات قرباناً لله ؛ واخيرا هذه السمة الاساسية ، فالفلسفة الدينية الجديدة قد قلبت النظام او الترتيب السابق للعالم ، فتشت عن انصارها بين الفقراء ، البؤساء ، العبيد الارقاء ، المنبوذين ، وازدرت الاغنياء ، الاقوياء والمحظوظين ، وبالتالي اعلنت بمثابة قاعدة اساسية ازدراء سائر المباهج الدنيوية وإماتة الجسد .

ومن جهة اخرى فان «اوغسطس» كان قد حرص على اعتبار لا صيغة «الانسان ـ الإله» فقط ، بل صيغة «الحبل بلا دنس» ايضا ، مفروضتان ومبررتان بمصلحة الدولة . وهو لم يبجل «يوليوس قيصر» ونفسه بالذات بوصفهما إلهين فحسب ، بل لقد نشر خرافة تقول ان اوغسطس قيصر Divus المؤله ، لم يكن ابنا لوالده الدنيوي (او الارضي) ، بل ان امه قد حملت به من الإله «ابولون» . وكلنا امل في ان لا يكون الاله ابولون هذا من اقارب ذلك الإله الذي تغنى به «هنريخ هاينه» (١) .

أصبح الامر واضحا : لكي تكتمل المسيحية في خصائصها الرئيسية لم يكن ينقصها سوى حجر الفلَق : تجسّد الكلمة في شخص معين والتضحية التكفيرية لهذا الشخص على الصليب لاسترجاع الانسانية المخطئة .

كيف اندرج تاريخيا حجر الفلَق هذا في تعاليم فيلون الرواقية ؟ في هذه المسألة ، تعوزنا المصادرة الجديرة بالثقة حقا . لكن ما هو مؤكد ، هو ان هذا الحجر لم يدرج من قبل الفلاسفة أنصار فيلون او الرواقيين . ان الاديان يؤسسها أناس يكابدون هم بالذات حاجة دينية ويتحسسون الحاجة الدينية لدى الجماهير ، وهذه ليست ، بصورة عامة ، حال فلاسفة المدرسة . وبالمقابل ، فاننا نرى ، في الفترات التي يتفسخ فيها كل شيء ـ حاليا ايضا ، مثلا ـ الفلسفة والمعتقدات الدينية تفقد كل عمق وتسطح وتبتذل ، تنتشر في كل مكان . واذا كانت الفلسفة الكلاسيكية اليونانية قد آلت ، في أشكالها الاخيرة ـ وبخاصة في الصيغة التي قدمتها المدرسة

---

١ ـ يفكر انجلس هنا بقصيدة هايني : «الاله ابولون» .

الابيقورية ـ الى مادية ملحدة ، فان الفلسفة اليونانية العامية قادت الى مذهب الإله الواحد وخلود الروح . حدث نفس الشيء في اليهودية ، التي تعممت وابتُذلت وصارت عقلانية باحتكاكها مع / وتأثرها بالاجانب وأنصاف اليهود ؛ الى جانب اهمال طقوس الناموس المقدس وتحويل الإله القومي السابق واليهودي حصراً «يهوه» (١) الى إله ـ الإله الحقيقي الوحيد ـ خالق للسماء والارض ، وقبول فكرة خلود الروح التي كانت في الاصل غريبة عن اليهودية . هكذا حدث لقاء بين الفلسفة العامية التوحيدية [القائلة بإله واحد] وبين الدين العامي الذي قدم لها الها واحدا وحيدا جاهزا . على هذا النحو اصبحت ممهدة التربة التي قامت عليها التمثيلات القادمة من «فيلون» والتي اصبحت بدورها عامية ، وأنضجت لكي تلد المسيحية لدى اليهود ، وعلى هذه التربة أمكن لهذا الدين ، ما ان قام ، ان يلقى ترحابا لدى اليونان ولدى الرومان . لقد تحدرت المسيحية من التمثيلات المقتبسة من «فيلون» ولكن المشبعة بروح شعبية ، لا من كتابات «فيلون» مباشرة ؛ وبرهان ذلك قدمه واقع ان «العهد الجديد» يهمل تماما تقريبا القسم الرئيسي من كتاباته ، اي التفسير الفلسفي ـ الاستعاري (المرموزي) لحكايات العهد القديم . هذا جانب لم يأخذه «بوير» باعتبار كافٍ .

من الممكن تكوين فكرة عما كانته المسيحية في شكلها الاول الاولي بقراءة «رؤيا القديس يوحنا» . تعصبية ضارية ومشوشة ؛ من كل معتقد لا نرى سوى رشيمات، ومما يطلق عليه الاخلاق المسيحية نجد إماتة الجسد فقط ؛ وبالمقابل نجد رؤى ونبوءات كثيرة جدا . ان الاعداد النهائي للمعتقدات وللاخلاق كان صنيع مرحلة لاحقة كتبوا خلالها الاناجيل وما يسمونه «رسائل الرسل» . ولقد استخدموا آنئذ ـ بالنسبة للاخلاق على الاقل ـ بدون أدنى حرج الفلسفة الرواقية وبخاصة «سينيكا» . لقد برهن «بوير» ان «رسائل الرسل» قد سُرقت من الاخير («سينيكا»)، واحيانا حرفيا ؛ والحقيقة ان هذا الواقع قد ادهش قبلا المؤمنين مستقيمي الرأي (الاورثوذوكس) ، غير أنهم كانوا يدّعون ان سينيكا هو الذي نسخ «العهد الجديد» قبل ان يكتب . تطورت المعتقدات من جهة بترابط مع سيرة المسيح الانجيلية ، التي كانت آنئذ قيد الاعداد ، ومن جهة اخرى في الصراع بين مسيحيين من اصل يهودي ومسيحيين من اصل وثني .

اما بالنسبة للاسباب التي اتاحت للمسيحية احراز النصر ومد سيطرتها الى

---

١ ـ كما بين «ايفالد» ، فان اليهود قد كتبوا ، في مخطوطاتهم المرقمة (اي التي تتضمن حروفا صوتية واشارات تنقيط للوقف) ، تحت الحروف الساكنة لاسم «يهوه» ، انه كان محظورا لفظ الحروف الصوتية في كلمة «آدوناي» Adonai التي تقرأ بدلا منها وهذا ما اعطى كلمة «يهوه» للاجيال اللاحقة . اذن فهذه الكلمة ليست إله ما ، بل هي مجرد خطأ نحوي : هذه الكلمة في العبرية غير ممكنة فحسب .

العالم ، فان «بوير» يعطي ايضا تواريخ ثمينة . ولكن هنا تأتي الفكرانية الخاصة بالفلسفة الالمانية لتعيق وتمنع تكوّن رؤية واضحة جدا وصياغات جلية لديه . حول هذه النقطة الحاسمة او تلك ، كثيرا ما تحل جملة جوفاء محل الواقع . لذا بدلا من الدخول في تفاصيل وجهات نظر «بوير» ، نفضل تقديم مفاهيمنا الخاصة حول هذه النقطة ، المبنية على مؤلفات «بوير» وكذلك على دراساتنا الشخصية .

لقد فسَّخ الفتح الروماني في سائر البلدان الخاضعة ، بصورة مباشرة بادىء بدء البنية السياسية السابقة ، ثم بصورة غير مباشرة الشروط او الظروف القديمة للحياة الاجتماعية . اولا بتعويض التقسيم القديم الى طبقات مغلقة Castes (بغض النظر عن الرق) بمجرد فارق بين المواطنين الرومان وغير المواطنين او التابعين. ثانيا وبصورة رئيسية بأعمال الابتزاز التي اقترفها باسم الدولة الرومانية . واذا كانت الامبراطورية قد بذلت ما في وسعها ، لمصلحة الدولة بالذات ، لتضع حدا للجشع الضاري للولاة الرومان ، ولكن عوّض الجشع بالضرائب المجباة لصالح الخزانة الامبراطورية ، وهي ضرائب كانت ترهق السكان بشكل متزايد ـ وقد كان لهذا الاستثمار تأثير مفسخ . ثالثا واخيرا ، في كل مكان اصبح القضاء يمارس حسب القانون الروماني وبواسطة قضاة رومان ، وكان التقعيد او التقنين المحلي (او الاصلي) يعتبر بسبب هذا الواقع بلا قيمة ، بالقدر الذي لا يتطابق فيه مع قواعد القانون الروماني . كان لا بد لهذه الوسائل الثلاث من ان تحدث تأثيرا ممهدا ، وبخاصة عندما استخدمت خلال عدة قرون ضد سكان كان عنصرهم الاكثر صلابة وشدة قد اهيض وضُرب او حوّل الى رقيق خلال الصراعات التي سبقت ، ترافقت، بل في كثير من الاحيان تلت الفتح . تقاربت اكثر فأكثر الظروف الاجتماعية في الاقاليم مع الشروط الاجتماعية في العاصمة وفي ايطاليا . وانقسم السكان اكثر فأكثر الى ثلاث طبقات مكونة من عناصر وقوميات متباينة أشد التباين : الاغنياء ، من بينهم عدد من الارقاء المعتقين (راجع : بيترون) ، كبار الملاكين العقاريين ، المرابون، او كليهما معا ، كهذا العم ، عم المسيحية ، سينيكا ؛ الناس الاحرار البروليتاريون ، المعالون واللاهون في روما على حساب الدولة ــ وفي الاقاليم ، الذين يعيلون انفسهم ؛ واخيرا الكتلة الكبرى ــ الرقيق . ازاء الدولة ، اي ازاء الامبراطور ، كانت الطبقتان الاوليان محرومتين من الحقوق شأن العبيد تقريبا ازاء اسيادهم او مالكيهم . وبخاصة منذ «تيبريوس» والى «نيرون» ، كانت القاعدة السائدة هي اعدام اغنياء رومان بهدف مصادرة ثروتهم . وبالنسبة لكل دعم ، فقد كانت الحكومة تتصرف ، ماديا ، بجيش غدا أشبه بكثير بجيش مرتزقة منه بالجيش الروماني القديم المؤلف من الفلاحين ، و ــ معنويا ــ براي منتشر انتشارا شاملا يقول بأن ليس ثمة اية أمكانية في الخروج من هذا الوضع ، وان الامبراطورية المبنية على الهيمنة العسكرية ضرورة دائمة ، حتى وان كان ممكنا ان يتغير هذا الامبراطور او ذاك . وليس هنا مجال فحص الوقائع المادية التي يستند اليها هذا الراي .

هذا الحرمان الشامل من الحقوق وغياب كل أمل في اقامة وضع افضل للاشياء

قابلتها او ناظرتها ميوعة وتثبيط شاملان . قدامى الرومان النادرون ذوو سلوك الأشراف الرومان وعقليتهم الذين كانوا ما يزالون موجودين ، قضي عليهم او خفتوا؛ وكان آخرهم «تاسيت» ؛ الآخرون كانوا جد مسرورين لانهم استطاعوا البقاء بعيدين تماما عن الحياة العامة ؛ ان يصبحوا اغنياء وان يتمتعوا بهذا الغنى ، هذا ما كان يملأ وجودهم ، وكذلك الثرثرة الخاصة والدسائس الخاصة . البشر الاحرار البروليتاريون ، الذين كانوا يتلقون في روما أجرا من الدولة ، كانوا بالمقابل يعانون في الاقاليم حالة صعبة . كانوا مجبرين على العمل وكانوا يواجهون فوق ذلك سوق عمل الارقاء المنافِسة . ولكنهم لم يكونوا موجودين الا في المدن . والى جانب هؤلاء كان ما يزال موجودا في الاقاليم فلاحون ، ملاكون عقاريون احرار (هنا وهناك ، كان يوجد على الارجح اراضٍ مشاعة) او ، كما في الغال ، أقنان بسبب ديون كبار الملاكين العقاريين عليهم . هذه الطبقة كانت الطبقة الاقل اصابة بالزلزلة الاجتماعية؛ كذلك كانت الطبقة التي قاومت أطول مقاومة الزلزلة الدينية (١) . وأخيرا ، فان الارقاء ، المحرومين من الحقوق ومن الحرية ، كانوا عاجزين عن تحرير انفسهم ، كما اثبتت ذلك قبلا هزيمة سبارتاكوس ؛ ومع ذلك فان قسما كبيرا منهم كانوا رجالا احرارا او أبناء رجال ولدوا احرارا . اذن ، فبينهم يفترض ان توجد أشد البغضاء ضد ظروف حياتهم ، بغضاء حية ، رغم ان مآلها الى العجز ، ظاهريا .

ان طابع ايديولوجيي هذه الفترة يطابق (او يناظر) ايضا حالة الاشياء هذه . كان الفلاسفة اما مجرد معلمين بسطاء يعملون في هذه المهنة ليكسبوا عيشهم ، واما مهرجين مأجورين لدى اغنياء ماجنين . بل كان الكثير منهم أرقاء . ان مثال السيد «سينيكا» يظهر لنا ماذا كان يحدث لهؤلاء الايديولوجيين في أفضل الاحوال . هذا الرواقي ، الذي كان يدعو الى الفضيلة والتقشف (او الزهد) ، كان استاذا في الدسائس في بلاط «نيرون» ، الامر الذي لم يجعله بمنجاة عن النذالة والمذلة ؛ لقد كانوا يقدمون له المال ، الممتلكات ، الحدائق ، القصور ؛ وفي حين انه كان يعرض او يطرح «عازار» فقيرا كقدوة او كنموذج ، كان في الواقع غني [كالتي تصفه] الامثال الانجيلية . فقط عندما اراد نيرون دق عنقه ، توسل الى الامبراطور ان يستعيد كل هداياه ، قائلا ان فلسفته تكفيه . ولم يكن ثمة سوى النادر جدا من الفلاسفة ، مثل

---

١ ـ في رأي «فالميراير» ، في شبه جزيرة ال «بيلوبونيز» ، في القرن التاسع ، كان الفلاحون ما يزالون يقدمون أضاحي للاله «زيوس» (ف.١.) . كتب «فالميراير» : «لا أريد ان أثير من جديد جدالا حول سكان واسم مقاطعة «ماني» او «مينا» لكن ثمة شيئا قد حسم : «ان مانيي ... القرن التاسع بعد الميلاد كانوا ما يزالون وثنيين ...» (راجع يعقوب فيليب فالميراير : «اي تأثير احدث احتلال اليونان من قبل السلاف على مصير مدينة «اثينا» وال «أيتك» ؟ او حجج جديدة لدعم الاطروحة حول أصل اليونان الحديثة ، عرض في المجلد الاول من كتاب «تاريخ شبه جزيرة موره في العصور الوسطى»، (شتوتغارت وتيبنغن ، ١٨٣٥ ، ص ٧٨-٧٩) .

«برسيوس» ، الذي شهر على الاقل سوط النقد على معاصريه المنحطين . اما فيما يتعلق بالنمط الثاني من الايديولوجيين ، فقهاء الحقوق ، فقد كانوا أنصارا متحمسين للظروف الإجتماعية الجديدة ، وذلك لان الغاء كل الفروق بين الطبقات (المغلقة) ترك لهم حرية التصرف في ضبط وتركيز قانونهم العزيز ، القانون المدني ، مقابل ذلك، صنعوا فيما بعد للامبراطور القانون الدستوري الذي لم يوجد قط ما هو اكثر منه استعبادا وإذلالا .

بتدمير الخاصيات السياسية والاجتماعية للشعوب ، كانت الامبراطورية الرومانية قد حكمت بتدمير أديان تلك الشعوب الخاصة . ان سائر أديان العصر القديم كانت ادیانا طبیعوية لقبائل وفيما بعد لأمم ، ولدت من الوضع الاجتماعي والسياسي لكل شعب وبارتباط وثيق به . ما ان دمرت الاسس ، ما ان دمرت الاشكال الاجتماعية والتنظيم السياسي التقليدي وكذلك الاستقلال القومي ، حتى أصبح من البديهي ان الدين ، الذي كان يشكل جسما واحدا مع هذه المؤسسات ، سينهار ايضا . ان الآلهة القومية يمكن ان تتسامح بقبول آلهة قومية أخرى الى جانبها ، وكانت هذه هي القاعدة في العصر القديم : لكن لا آلهة فوقها . عندما نقلت عبادات الشرق الى روما ، ولم يكن لهذا الامر الا ان يلحق ضررا بالدين الروماني ، لكنه لم يستطع ان يؤخر انحلال الاديان الشرقية . ما ان تعجز الآلهة القومية عن ان تكون الارباب الحامية لاستقلال وسيادة أمتها ، حتى تقتل هي نفسها . لقد حدث ذلك في كل مكان (عدا الفلاحين ، وفي الجبال بخاصة) . ما كان في روما واليونان عمل فلسفة عامية ، واكاد اقول «الفولتيرية»، كان في الاقاليم الخضوع لروما وإبدال بشر احرار معتزين بوجودهم برعايا مستكينين منقادين وصعاليك انانيين .

ذلك ما كانه الوضع المادي والمعنوي . الحاضر لا يطاق ، المستقبل ، اذا وُجد، اشد وعيدا وتهديدا . لا مخرج . اليأس او اللجوء الى اكثر المتع ابتذالا ــ على الاقل بالنسبة لهؤلاء الذين باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك ، وهم أقلية صغيرة . وإلا لا يبقى سوء اللجوء الى الانقياد والخضوع الاعمى للمحتوم الذي لا رادّ له .

ولكن لا بد ان ينوجد في كل الطبقات عدد من الناس الذين يئسوا من خلاص مادي فحاولوا التعويض بخلاص روحي ــ عزاء على صعيد الوعي يمكن ان يقيهم من يأس كلي . الفلسفة الرواقية لم تستطع ان تقدم هذا العزاء ، وكذلك مدرسة ابيقوروس ، بالتحديد لانهما كانتا فلسفتين ، و، بهذه الصفة ، لم تكونا موجهتين الى وعي العامة وثانيا لان تصرّف أنصارهما قد زرع عدم الثقة بتعاليم هاتين المدرستين . لم يكن لهذا العزاء المنشود ان يعوّض الفلسفة الضائعة ، بل الدين الضائع ، كان لا بد لهذا العزاء ان يتجلى في صيغة دينية ، شأن سائر الافكار التي كُتب لها ان تستولي على الجماهير في تلك المرحلة وحتى القرن السابع عشر .

وتكاد لا تكون ثمة حاجة للاشارة الى ان اكثرية هؤلاء الذين كانوا يتطلعون الى هذا العزاء على صعيد الوعي ، الى هذا الفرار من العالم الخارجي الى العالم الداخلي من المفترض بالضرورة ان يأتوا ... من بين **الارقاء** .

في هذا الوضع من التفسخ والانهيار الشامل ، الاقتصادي ، السياسي ، الفكري والاخلاقي ، ظهرت المسيحية . وتعارضت تعارضا جذريا مع الاديان السابقة كلها .

في الاديان السابقة كلها، الطقوس كانت هي الجوهر. فقط بالمشاركه بالاضاحي والزياحات ، وفي الشرق (بالاضافة الى ذلك) بمراعاة التعليمات التفصيلية المتعلقة بالنظام الغذائي والطهارة ، كان يمكن للناس ان يظهروا او يعبروا عن انتمائهم . وفي حين ان روما واليونان كانتا متسامحتين في هذا المضمار ، كان يسود في الشرق سُعار من التحريمات الدينية لم يكن دورها بسيطا في الانهيار النهائي . ان اشخاصا ينتسبون الى دينين مختلفين (مصريين ، فرس ، يهود ، كلدانيين) لم يكن بامكانهم ان يأكلوا سوية ، ولا ان يقوموا بصورة مشتركة بأي عمل يومي ، بالكاد كانوا يستطيعون تبادل الكلام . ان هذا العزل للبشر هو واحد من الاسباب الكبرى لاضمحلال العالم الشرقي القديم . ان المسيحية تجهل هذه الطقوس التي كانت تكرس العزل ، كما انها كانت تجهل الاضاحي ومواكب العالم القديم . ان المسيحية ، اذ رفضت على هذا النحو سائر الاديان القومية والطقوس الشائعة فيها ، اذ توجهت الى الشعوب كافة بدون تمييز ، اصبحت هي ذاتها **اول دين كوني ممكن** . اليهودية ايضا ، بإلهها الكوني الجديد ، تقدمت خطوة نحو الدين الكوني ؛ لكن بني اسرائيل يبقون دوما ارستقراطية بين المؤمنين والمختونين ؛ وكان لا بد اولا ، ان تتخلص المسيحية نفسها من فكرة رفعة شأن المسيحيين ذوي الاصل اليهودي (وهي سائدة في رؤيا القديس يوحنا) قبل ان يصبح بمقدورها ان تصير فعليا دينا كونيا . ومن جهة اخرى ، فان الاسلام ، باحتفاظه بطقوس شرقية مميزة قد حدّ بنفسه دائرة انتشاره في حدود الشرق وافريقيا الشمالية التي فتحت وجدّد إسكان البدو العرب فيها : هنا استطاع ان يصبح الدين المهيمن ، في الغرب لم ينجح في ذلك .

ثانيا ، ان المسيحية قد ضربت على وتر كان لا بد ان يكون حساسا في عدد لا يحصى من القلوب . على الأنين من شقاء الحياة ومن البؤس المادي والمعنوي الشامل، كان الوعي المسيحي المفعم بفكرة الخطيئة يجيب : هكذا الواقع ، ولا يمكن ان يكون على نحو آخر ؛ المسؤولون عن فساد وضلال العالم هو انت ، هو انتم ، هو فساد الاخلاق لدى كل شخص ! واين كان الانسان الذي يستطيع ان يقول لا ؟ خطيئتي ! Mea-culpa . كان من المستحيل رفض الاعتراف بنصيب كل واحد من الذنب في الشقاء الشامل وكان هذا ايضا الشرط المسبق للخلاص الروحي [على يد المسيح] الذي كانت المسيحية قد اعلنته في نفس الوقت . وهذا الخلاص الروحي قد صيغ على نحو يستطيع اتباع سائر الجماعات الدينية الاخرى فهمه بسهولة . بالنسبة لسائر هذه الديانات القديمة ، ان فكرة التضحية التكفيرية التي يتصالحون بواسطتها مع الألوهة المهانة كانت فكرة شائعة ؛ كيف يمكن الا تلاقي فكرة الشفيع الذي يمحو مرة واحدة والى الابد بتضحيته الخاصة خطايا البشرية تربة ملائمة ؟ اذن ، فالمسيحية باعطائها ، بواسطة فكرة الضمير الشخصي المفعم بفكرة الخطيئة ،

تعبيرا واضحا عن شعور منتشر انتشارا شاملا بأن البشر هم بالذات مسؤولون عن الشقاء الكوني ، وفي نفس الوقت بتقديمها عن طريق التضحية بالحرق من قبل ديانها ، شكلا سهل المنال لكل العزاءات على صعيد الضمير ، الذي يشبع رغبة عامة في ألتكفير داخليا عن فساد العالم ، ـ المسيحية تبرهن بذلك كله على قدرتها في ان تصير دينا كونيا ودينا يلائم بالضبط العالم القائم .

لهذا السبب ، ومن دون آلاف الانبياء والمبشرين في الصحراء الذين ملأوا ذلك الزمن بتجديداتهم التي لا تحصى في المضمار آلديني ، فان مؤسسي المسيحية هم وحدهم الذين كللوا بالنجاح . لا في فلسطين وحدها ، بل في الشرق بأسره ، الذي كان يعج بمؤسسي الاديان هؤلاء الذين نشبت بينهم معركة داروينية حقا لاجل الوجود على صعيد الافكار . ومن الجلي انه بفضل العناصر التي بسطناها آنفا انتصرت المسيحية . اما كيف تابعت رويدا رويدا صياغة وانضاج طابعها كدين كوني ، عن طريق الانتقاء الطبيعي في المعركة التي نشبت بين الفرق [المسيحية] فيما بينها وفي الصراع ضد العالم الوثني ، ـ فهذا ما يعلمنا اياه بالتفصيل تاريخ الكنيسة في القرون الثلاثة الاولى لعصرنا .

١٩ .

فريديريك انجلس

# سفر «رؤيا القديس يوحنا» (*)

ان النقد التاريخي واللغوي للكتاب المقدس (التوراة)، دراسة عمر، أصل، القيمة التاريخية لمختلف الكتابات التي تؤلف «العهد القديم» و«العهد الجديد»، هما علم لا يعرفه احد تقريبا في هذا البلد، باستثناء بعض علماء اللاهوت الليبراليين الذين يحاولون ابقاءه سريا ما أمكن.

هذا العلم هو تقريبا الماني حصرا. وفضلا عن ذلك فالقليل الذي اجتاز الحدود الالمانية ليس أفضله بالضبط؛ وهو هذا النقد الليبرالي الذي يتبجح بأنه ميرأ من الاحكام المسبقة، جامع مانع وفي نفس الوقت مسيحي. يقول هذا النقد: ان الاسفار ليست بالضبط تجليات الروح القدس، بل هي تجليات الإلهي عبر الروح المقدسة للبشرية، الخ. ولهذا فان ممثلي مدرسة «توبنغه» (١) (بور، غفرورر، الخ). مثمنون في هولندا وسويسرة وانكلترا على حد سواء، واذا اراد المرء ان يمضي الى ابعد بقليل، فانه يتبع «شتراوس». ان نفس العقل المتساهل، ولكن اللاتاريخي تماما، هو المهيمن عند «ارنست رينان» الشهير، الذي لا يعدو كونه منتحلا فقيرا للانتقادات الالمانية. ومن سائر اعماله، لا نجد ما يعود اليه شخصيا الا العواطفية الجمالية للافكار التي تتجلى فيها والطلاء البراق للغة الذي يكسو كل شيء.

---

★ نشرت لاول مرة باللغة الانكليزية في مجلة «التقدم» (Progress)، المجلد ٢، لندن، ١٨٨٣، ص ١١٢-١١٦.

١ ـ «مدرسة توبنغة :» مدرسة للبحث الانجيلي وللنقد الانجيلي أسسها في النصف الاول من القرن التاسع عشر «فرديناند كريستيان بور». ان النقد العقلاني للانجيل الذي عكف عليه اعضاء هذه المدرسة اتسم بالتهافت وبالرغبة في الحفاظ على بعض القضايا الاساسية في الانجيل على انها جديرة بالتصديق تاريخيا. ومع ذلك، وبدون قصد، عمل هؤلاء الباحثون كثيرا لاضعاف تأثير الانجيل وحظوته.

مع ذلك كان لدى «ارنست رينان» صيغة جيدة :

اذا اردتم ان تكوّنوا فكرة صحيحة تماما عما كانته الجماعات المسيحية الاولى ، لا تقارنوها بالجماعات الدينية في ايامنا ؛ فهي تشبه بالاحرى الفروع المحلية لرابطة الشغيلة الاممية .

هذا صحيح . فالمسيحية قد استولت على الجماهير كما تفعل الاشتراكية الحالية ، على شكل عصب كثيرة ، بل ايضا عن طريق آراء فردية متناقضة ـ بعضها اكثر وضوحا ، والبعض الآخر اكثر التباسا وتشوشا ، ويشكل البعض الاخير الاغلبية الكبرى ـ ولكنها كلها معادية للمنظومة المهيمنة لـ «القوى القائمة» .

لنأخذ مثلا كتابنا ، سفر «رؤيا القديس يوحنا» ، سنرى انه ليس السفر الاكثر ابهاما والاكثر تلغيزا من سائر أسفار «العهد الجديد» ، بل هو ابسطها وأوضحها . حتى إشعار آخر ، علينا ان نطلب الى القارىء ان يؤمن بما سنبرهن عليه شيئا فشيئا : انه السفر الذي كتب عام ٦٨ او في كانون الثاني ٦٩ من عصرنا [عصر ما بعد الميلاد] وانه ليس فقط السفر الوحيد من أسفار «العهد الجديد» الذي اصبح تاريخ كتابته مؤكدا حقا ، بل هو ايضا أقدم سفر من أسفار هذا «العهد الجديد» . نرى فيه ، وكأنما في مرآة ، ملامح المسيحية عام ٦٨ .

في المقام الاول ، نرى عُصبا ومزيدا من العصب . في الرسائل الى كنائس آسيا السبع ، ورد ذكر ثلاث عُصب على الاقل ، لا نعرف عنها شيئا اكثر من ذلك : «النيقولائيين» ، «البلعاميين» ومُعاصبي امراة رُمز اليها هنا باسم «جيزابيل» . يُزعم ان هذه العصب الثلاث كانت تسمح للمنتسبين اليها بأن يأكلوا أضاحيهم للاصنام وأن يتعاطوا الفجور . وانه لواقع ملفت للنظر ان في كل حركة ثورية كبرى تظهر مسألة «الحب الحر» في ألصف الاول ؛ فبالنسبة لقسم من الناس ، يعتبر تقدما ثوريا نبذ القيود التقليدية التي لم يعد لها اية ضرورة ، وبالنسبة لقسم آخر يعتبر مذهبا مواتيا يُرحب به ، جد ملائم لتغطية كل انواع المجون بين الرجل والمراة . هذا القسم الاخير ، اي الجهولون ، يبدو انه هو الذي تغلب بعد قليل ؛ ذلك لان «الزنا» قد جُعل دوما على صلة بواقع أكل «نتاج الاضاحي المقدمة الى الاصنام» ، وهي ممارسة محرّمة بصراحة على اليهود والمسيحيين ، لكن قد يكون في بعض الاحيان من الخطر او غير المستحب رفض القيام به . وهذا يبين بشكل واضح ان مُعاصبي الحب الحر ، الذي تحدثنا عنه هنا ، كانوا يجهدون بصورة عامة ليكونوا اصدقاء للجميع ، وان لهم قماشة الشهداء .

شأن سائر الحركات الثورية الكبرى ، المسيحية من صنع الجماهير . لقد ولدت بكيفية نجهلها كليا ، في فلسطين ، في فترة كانت تظهر فيها بالمئات عُصب جديدة ، ديانات جديدة وأنبياء جدد . والواقع اننا لسنا الا ازاء ظاهرة محصلة ، ولدت تلقائيا من الاحتكاكات المتبادلة الاكثر تقدمية لهذه العُصب ، والتي تحولت فيما بعد الى مذهب ، بانضمام نظريات لليهودي الاسكندري «فيلون» الى ترشحات قوية ، جاءت فيما بعد ، من الفلسفة الرواقية . والواقع اننا اذا تأملنا المذهب ، يمكن ان نسمي

«فيلون» اب المسيحية و«سينيكا» عمها . ثمة مقاطع كاملة من «العهد الجديد» يبدو انها منسوخة كلمة كلمة تقريبا من مؤلفاتهما ؛ ومن جهة اخرى من الممكن ان نجد في اهاجي «برسيوس» مقاطع يبدو انها مقتبسة من «العهد الجديد» ، الذي يبدو انه لم يكن قد كتب بعد في تلك الفترة . عن كل هذه العناصر المتعلقة بالمذهب ، لا يوجد اثر في سفر «رؤيا القديس يوحنا» . نجد فيه المسيحية في أقدم أشكالها الاولى الاولية ، حيث حفظه لنا . لا نجد فيه من تشديد سوى على نقطة واحدة من المعتقد: أن تضحية المسيح هي التي انقذت المؤمنين . كيف ولماذا ، لا شرح البتة . هذا ليس شيئا آخر غير الفكرة القديمة اليهودية والوثنية ، فكرة ان من الممكن استرضاء الإله او الآلهة بواسطة الاضاحي ، التي حوّلت الى هذه الفكرة المسيحية المميزة (التي جعلت بالفعل من المسيحية دينا كونيا) القائلة بأن موت يسوع هو التضحية الكبرى، الكافية مرة واحدة للأبد .

الخطيئة الاصلية لا أثر لها . لا شيء البتة عن «الثالوث» . يسوع هو «الحمَل» ، ولكنه تابع لله . وهو بالفعل قد وُضع في مقطع (١٥ ، ٣) على مستوى واحد مع موسى . وبدلا من الروح القُدس الواحدة توجد «ارواح الله السبعة» (٣ ، ١ و ٤ ، ٥) . نفوس الذين قُتلوا من اجل كلمة الله ومن اجل الشهادة التي كانت عنده [تنادي] : «حتى متى ايها السيد القدوس لا تقضي ولا تنتقم لدمائنا من الساكنين على الارض» (٦ ، ١٠) — ان شعورا كهذا قد استبعد فيما بعد بعناية من شرعة الاخلاق النظرية للمسيحية ، ولكنه طبق عمليا بشدة ، لاسيما منذ ان انتصر المسيحيون على الوثنيين .

لا تمثل المسيحية ، من حيث طبيعتها ، سوى فرقة من اليهودية . ولهذا ورد في الرسائل الى الكنائس السبع : «انا اعرف تجديف القائلين انهم يهود» (لم يقل : مسيحيون) «ليسوا يهودا بل هم مجمع الشيطان» (٢ ، ٩) ؛ وكذلك (٣ ، ٩) «من مجمع الشيطان من القائلين انهم يهود وليسوا يهودا» . ان المؤلف ، مؤلفنا ، لم يكن يملك أدنى فكرة ، في العام ٦٩ من عصرنا، عن انه يمثل مرحلة جديدة في سير التطور الديني ، مهيأة لان تصير احدى العناصر الاساسية للثورة . ولهذا ، فعندما ظهر القديسون امام عرش الرب ، تقاطر اولا الـ ١٤٤٠٠٠ يهوديا ، ١٢٠٠٠ من كل سبط، وبعدهم فقط أدخل الوثنيون الذين التحقوا في هذه المرحلة الجديدة باليهودية .

ذلك ما كانه مراى المسيحية في العام ٦٨ ، كما وصفه أقدم سفر من أسفار «العهد الجديد» ، السفر الوحيد الذي لا يحوم شك حول صحته . نحن لا نعرف من هو مؤلفه . بل انه لا يعتبر نفسه «الرسول» يوحنا ، وذلك لان في أسس «أورشليم الجديدة» دُفنت «اسماء رسل الحمَل الاثني عشر» (٢١ ، ١٤) . اذن فمن المفروض ان يكونوا امواتا عندما كُتب هذا السفر . كان يهوديا . يتجلى هذا بوضوح من العبراوية [او أسلوب التعبير العبراني] الغزيرة في لغته اليونانية التي تعج بأخطاء نحوية اكثر من اخطاء أسفار العهد الجديد الاخرى . حتى اذا فرضنا ان ذلك لم يثبت ، مع انه قد ثبت، استنادا الى الآراء المتناقضة تماما الواردة فيه ، فان

اللغة تبين بجلاء ان «انجيل يوحنا» ، رسائل يوحنا وهذا السفر (رؤيا القديس يوحنا) قد كتبها ثلاثة مؤلفين على الاقل .

ان الرؤى التي يتضمنها سفر «رؤيا القديس يوحنا» ، والتي هي مادة كل الوحي السماوي ، هي في معظم الحالات مأخوذة حرفيا من أنبياء العهد القديم ومن مقلديهم اللاحقين ـ ، بدءاً من سفر «دانيال» (حوالي ١٩٠ ق.م. ، الذي تنبأ بأحداث وقعت قبل ذلك بعدة قرون) ، وصولا الى «سفر أخنوخ» ، وهو مؤلف مختلق باللغة اليونانية ، كتب قبيل بدء عصرنا بقليل . ان تركيب الاساطير الاصلي، بل تسلسل الرؤى المنحولة ، فقير جدا . لقد القى البروفسور «فرديناند بيناري» في جامعة برلين عام ١٨٤١ سلسلة محاضرات اقتبس منها ما يلي ،. وقد اثبت فيها فصلا فصلا وعبارة عبارة من اين اخذ مؤلفنا كل رؤيا من رؤاه المزعومة . اذن لا فائدة من متابعة صاحبنا «يوحنا» في جميع اختلاقاته الحمقاء . من الافضل الانتقال مباشرة الى نقطة تكشف النقاب عن سر سفر مرموق على كل حال .

وبتناقض كلي مع جميع مفسريه مستقيمي الرأي (الاورثوذوكس) الذين ما يزالون ينتظرون تحقق جميع نبوءاته ، بعد مضي ما يزيد عن الف وثمنماية عام ، لم يكف «يوحنا» عن القول : «الازمنة قريبة ، كل هذا سيحدث عما قريب» . وهذا يتعلق بوجه خاص بالازمة التي تنبأ بها ، ومن الواضح تماما انه يأمل في ان يشهدها .

هذه الازمة هي المعركة الكبيرة الحاسمة بين الرب و«المسيح الدجال» ، كما سماه آخرون . الفصلان الحاسمان هما الاصحاحان ١٣ و١٧ . لنضع جانبا الزخارف النافلة : يرى «يوحنا» ان حيوانا بسبعة رؤوس وعشرة قرون (القرون لا تهمنا) يخرج من البحر . «احد رؤوسه يبدو مصابا بجرح مميت ؛ لكن هذا الجرح المميت لا يندمل» . كُتب لهذا الوحش ان يسود الارض ضد الله والحمَل مدة اثنين واربعين شهرا (نصف الاعوام السبعة المقدسة) ، ويتوجب ارغام جميع البشر ان يحملوا خلال هذه الفترة اشارة هذا الحيوان او رقم اسمه على اليد اليمنى او على جبينه . «ها هي الحكمة . من هو ذكي ، **ليحسب رقم الحيوان ؛ وذلك لانه رقم انسان ورقمه هو ستماية وست وستون .** »

في القرن الثاني ، كان «ايرينيه» يعرف ايضا ان الرأس الجريح الذي شفي يعني الامبراطور «نيرون» . كان نيرون اول مضطهِد كبير للمسيحيين. عند موته انتشرت، بخاصة في «آشاي» وفي «آسيا» ، شائعة تقول انه لم يمت بل جُرح فقط ، وانه سيعاود الظهور يوما لينشر الرعب في العالم أجمع (تاسيت ، التاريخ ، ١١ـ٨) (١) .

---

١ ـ جاء في تاريخ «تاسيت» : في الفترة ذاتها ، وقعت «آشاي» [منطقة البيلوبونيز في اليونان] و«آسيا» فريسة رعب لا مبرر له كما لو ان نيرون قد عاد ، وذلك لان شائعات كثيرة كانت تنتشر في صدد موته واخترع كثيرون أسطورة واعتقدوا انه ما زال حيا .

في نفس الوقت ، كان «ايرينيه» يعرف صيغة اخرى ، بموجبها يعطى الاسم الرقم ٦١٦ بدلا من ٦٦٦ .

في الاصحاح ١٧ ، يظهر الحيوان ذو الرؤوس السبعة مجددا ، تمتطيه هذه المرة المرأة القرمزية المعروفة جيدا التي يستطيع القارىء ان يجد هو ذاته في السفر وصفا لطيفا لها . ملاك يصرح ليوحنا :

انا اقول لك سر المرأة والوحش الحامل لها الذي له السبعة رؤوس والعشرة قرون . وسيتعجب الساكنون على الارض الذين ليست اسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة منذ تأسيس العالم حينما يرون الوحش انه كان وليس الان مع انه كائن . هنا الذهن الذي له حكمة . السبعة رؤوس هي سبعة جبال عليها المرأة جالسة . وسبعة ملوك سقطوا وواحد موجود **والاخر لم يات بعد** . متى اتى ينبغي ان يبقى قليلا . والوحش الذي كان وليس الان **فهو ثامن وهو من السبعة** ويمضي الى الهلاك . والمرأة التي رأيته هي المدينة العظيمة التي لها ملك على ملوك الارض .

هذا المقطع يزودنا بإشارتين واضحتين : ١ ــ المرأة القرمزية هي روما، الحاضرة الكبرى التي تسيطر على ملوك العالم ؛ ٢ ــ في الفترة التي كتب فيها السفر كان يملك الامبراطور الروماني السادس ، وبعده سيأتي امبراطور آخر يملك لفترة قصيرة ، إثر ذلك سيعود احدهما ، الذي هو «احد السبعة» ، الذي جرح ، ولكنه شفي ، والذي ينطوي رقمه السري على اسمه ، والذي كان «ايرينيه» يعرف انه «نيرون» .

اذا بدأنا ب «اغسطس» ، يكون لدينا «تيبريوس» ، «كاليغولا» ، «كلوديوس» و«نيرون» ، الذي كان خامسهم . السادس ، الذي يحكم ، هو «غالبا» ، وكان ارتقاؤه سدة العرش ، في بلاد الغال بخاصة ، ايذانا بنشوب انتفاضة الفيالق العسكرية بقيادة «اوتون» ، خلف «غالبا» . اذن ، فمن المفروض ان يكون سفرنا هذا ، سفر «رؤيا يوحنا» قد كتب في عهد «غالبا» ، الذي حكم من ٩ حزيران ٦٨ الى ١٥ كانون الثاني ٦٩ . وقد تنبأ هذا السفر بعودة «نيرون» كأمر وشيك داهم .

والآن نتحدث عن البرهان النهائي ــ العدد . لقد اكتشفه ايضا «فرديناند بيناري» ، منذئذ لم يعترض أحد في دنيا العلم على صحة هذا الاكتشاف .

قبل حوالي ثلثماية عام من عصرنا ، اخذ اليهود يستعملون حروفهم بمثابة رموز للاعداد . احبارهم المنصرفون الى التأمل رأوا فيها منهجا للتفسير الصوفي ، La Kabbale . كانوا يعبرون عن كلمات ملغزة بواسطة الاعداد الناجمة عن جمع القيمة العددية للاحرف التي تتضمنها . اطلقوا على هذا العلم الجديد كلمة Ghematriah ، علم الهندسة . هذا العلم بالتحديد هو الذي استخدمه صاحبنا «يوحنا» . علينا ان نبرهن : ١ ــ ان العدد يتضمن اسم انسان وان هذا الاسم هو «نيرون» و٢ ــ ان الحل يصح على رواية العدد ٦٦٦ وعلى رواية العدد القديمة التي نعطي الرقم ٦١٦ . لنأخذ الاحرف العبرية وقيمها :

| | | |
|---|---|---|
| (نون) | ن = ٥٠ | |
| (ريش) | ر = ٢٠٠ | |
| (فو) مقابل | و = ٦ | |
| (نون) | ن = ٥٠ | |
| (كوف) | ك (ق) = ١٠٠ | |
| (سامېش) | س = ٦٠ | |
| (ريش) | ر = ٢٠٠ | |

Neron Kesar ، الامبراطور «نيرون» ، باليونانية **Nêron Kaisar** . اذن لو اننا بدلا من ان نستخدم الكتابة اليونانية استخدمنا الكلمة اللاتينية **Nero Caesar** بالابجدية العبرية ، فان الـ «نون» **(nun)** في آخـــر «نيرون» **(Neron)** تختفي وتختفي معها القيمة ٥٠ . وهكذا ننتهي الى الدرس القديم الآخر ، ٦١٦ ، فيكتمل البرهان حتى القدر المرجو (١) .

ولهذا فان مضمون هذا السفر الملغّز واضح تماما بالنسبة الينا . يتنبأ «يوحنا» بعودة نيرون حوالي العام ٧٠ ، ويتنبأ بأنه سينشر الرعب طوال اثنين واربعين شهرا، اي ألف ومئتين وستين يوما . بعد هذه المدة سيظهر الله ، سيقهر المسيح الدجال ، سيدمر بالنار العاصمة الكبرى ويقيد إبليس بالاغلال لمدة ألف عام . الامبراطورية الالفية ستبدأ الخ . كل هذا فقد اليوم كل مغزى ، الا بالنسبة للعقول الساذجة التي تريد ان تجرب ايضا حساب ميعاد يوم الحساب . بيد ان هذا السفر ، بصفته لوحة صحيحة عن مسيحية شبه أولية رسمها احد اعضائها ، له قيمة تنوف على سائر الإسفار الاخرى للعهد الجديد بجماعه .

---

١ ــ ان نظمة الكلمة المذكورة اعلاه ، نيرون او نيرو ، اي مع النون الثانية او بدونها ، تطابق نظمة التلمود ، وبالتالي فهي صحيحة . (ف.ا.)

٢٠ ٠

**فريديريك انجلس**

# لودفيغ فويرباخ
# ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية (*)

## مقدمة المؤلف

في مقدمة كتابه **«مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»** ، برلين ١٨٥٩ ، روى ماركس كيف شرعنا نحن الاثنين ، في بروكسل عام ١٨٤٥ ، «في العمل بصورة مشتركة لجلاء وابراز التضاد القائم بين وجهة نظرنا [المقصود هو المفهوم المادي للتاريخ المصاغ من قبل ماركس بخاصة] والمفهوم الايديولوجي للفلسفة الالمانية : في الواقع تصفية حساباتنا مع وعينا الفلسفي السابق . وقد حققنا هذا العزم بصيغة نقد للفلسفة البعد هيغلية . المخطوطة (١) ، وتتألف من مجلدين ضخمين بقطع الثمن ، كانت منذ زمن طويل بين يدي الناشر ، في «وستفاليا» ، عندما علمنا ان الظروف الجديدة لم تعد تسمح بطبعها . تركنا المخطوطة بطيبة خاطر لنقد الفئران القارض ، لاسيما واننا كنا قد بلغنا هدفنا الرئيسي ، نرى بوضوح ما في أنفسنا .

منذ هذه الفترة ، مضى اكثر من اربعين عاما ، ومات ماركس دون أن تتوفر لاي منا فرصة العودة الى هذا الموضوع . علاقتنا ب «هيغل» أوضحناها في مناسبات عديدة ، ولكن ليس على نحو كامل مستنفِد في اي مناسبة . لم نعد البتة الى

---

★ كتب عام ١٨٨٦ ، نشر للمرة الاولى في مجلة «العصور الحديثة» (نيوزايت) ، السنة الرابعة (١٨٨٦) ، العدد ٤ و٥ وفي طبعة منفصلة ، مع مقدمة ، في «شتوتغارت» عام ١٨٨٨ .

١ ــ هي «الايديولوجية الالمانية» ، عثر عليها في بداية هذا القرن فقط ونشرت لاول مرة بنصها الكامل عام ١٩٣٣ بعناية «معهد ماركس ــ انجلس ــ لينين» ، في موسكو .

«فويرباخ» ، مع انه يشكل من عدة نواحي حلقة وسيطة بين الفلسفة الهيغلية ومفهومنا .

خلال ذلك ، لقي مفهوم ماركس عن العالم أنصاراً في ما وراء حدود المانيا وأوروبا وفي جميع لغات العالم المتحضرة . ومن جهة اخرى ، فان الفلسفة الكلاسية الالمانية تشهد الان ضربا من الانبعاث ، بخاصة في انكلترا وسكاندينافيا ، بل حتى في المانيا يبدو انهم بدأوا يتعبون من الحساء الانتقائي الشعبي الذي يقدم هناك في الجامعات تحت اسم فلسفة .

نظراً لهذه الحال ، فان عرضا مكثفا ومنهجيا لعلاقاتنا بالفلسفة الهيغلية ، كيف نشأنا في اطارها وكيف انفصلنا عنها ، بدا لي امرا يفرض نفسه اكثر فأكثر . كذلك بدا لي أن علينا دين شرف ينبغي ان نفيه بالاعتراف بلا تحفظ بالتأثير الذي مارسه ، خلال فترة جيشاننا ، وعلى نحو اعمق من اي فيلسوف آخر بعد هيغلي ، «فويرباخ» علينا . لذا سارعت الى اهتبال الفرصة التي عرضتها لي هيئة تحرير مجلة «العصور الحديثة» ، عندما سألتني ان اكتب نقدا لكتاب «شتاركه» حول «فويرباخ» . ان عملي هذا قد نشر في العددين ٤ و٥ لعام ١٨٨٦ من هذه المجلة ، ويظهر الان ، بعد مراجعة، في طبعة منفصلة .

قبل ارسال هذه الاسطر الى المطبعة، أخرجت ثانية المخطوط القديم لـ ١٨٤٥ ــ ١٨٤٦ وألقيت عليه نظرة اخرى . الفصل المتعلق بـ «فويرباخ» ليس منجزا . القسم المنجز هو عرض للمفهوم المادي للتاريخ ، وهذا العرض يظهر فحسب كم كانت معارفنا آنئذ في التاريخ الاقتصادي غير مكتملة . ان نقد المذهب الفويرباخي بالذات لم يرد في المخطوطة ، فلم استطع ان استعملها لهدفي الحالي . وبالمقابل ، لقد وجدت في دفتر قديم لماركس الاطروحات الاحدى عشرة حول «فويرباخ» ، فنشرتها هنا كملحق . انها مجرد ملاحظات رُشقت بسرعة على الورق لكي يتم اعدادها وانضاجها فيما بعد ، وهي ليست معدّة للنشر البتة ، لكنها ذات قيمة لا تثمن ، بوصفها اول وثيقة حوت البذرة العبقرية للمفهوم الجديد للعالم .

لندن ، ٢١ شباط ١٨٨٨

## ١ . من هيغل الى فويرباخ

هذا المؤلَّف (١) يعود بنا الى فترة منفصلة عنا ، من حيث الزمان ، مسافة

---

١ ــ «لودفيغ فويرباخ» ، تأليف ك.ن. شتاركه ، دكتور في الفلسفة ، شتوتغارت . الناشر ف. انكه ، ١٨٨٥ .

جيل ، ولكنها اصبحت غريبة عن الجيل الحالي في المانيا كما لو انها بعيدة عنه مدى قرن كامل . ومع ذلك كانت تلك المرحلة مرحلة تحضير المانيا لثورة ١٨٤٨ : كل ما حدث منذئذ عندنا ليس سوى استمرار لعام ١٨٤٨ ، مجرد تنفيذ وصية الثورة .

تماما كما في فرنسا في القرن الثامن عشر ، في القرن التاسع عشر في المانيا، تهيىء الثورة الفلسفية كذلك للانقلاب السياسي . ولكن يا له من فرق بين تلك وهذا . انخرط الفرنسيون في نضال مكشوف ضد العلم الرسمي كله، ضد الكنيسة، بل ضد الدولة في احيان كثيرة ، مؤلفاتهم تطبع في الجانب الآخر من الحدود ، في هولندا او انكلترا، وفي أحيان كثيرة كانوا على وشك الدخول الى سجن «الباستيل». اما الالمان فهم ، بالعكس ، اساتذة في الجامعة ، مربو شبيبة معينون من قبل الدولة ، مؤلفاتهم معترف بها ككتب للتدريس وللتعليم ، والمنظومة التي تتوج التطور بأسره ، منظومة هيغل ، مرفوعة تقريبا الى مرتبة فلسفة للدولة الملكية البروسية ! والثورة ، هل يمكن ان تكمن خلف هؤلاء الاساتذة ، خلف عباراتهم المتحذلقة المبهمة ، في جملهم الثقيلة المضجرة ؟ الرجال الذين اعتبروا في تلك الفترة ممثلي الثورة ، اي الليبراليون ، الم يكونوا بالتحديد الد أعداء هذه الفلسفة التي اشاعت البلبلة في العقول ؟ لكن ما لم تره لا الحكومات ولا الليبراليون ، رآه على الاقل شخص **واحد** منذ ١٨٣٣ ، يدعى «هنريخ هاينه» (١) .

لنأخذ مثلا . ليس من أطروحة فلسفية سببت او استدعت اعتراف الحكومات قصيرة النظر وغضب الليبراليين الذين ليسوا اقل قصر نظر كما استدعت أطروحة «هيغل» الشهيرة : «كل ما هو واقعي هو عقلاني وكل ما هو عقلاني هو واقعي» (٢) — الم تكن هذه الاطروحة ، وضوحا ، تسويغا لكل ما هو موجود ، تكريسا فلسفيا للاستبداد ، للدولة البوليسية ، للقضاء الكيفي ، للرقابة ؟ على هذا النحو فسرها «فريدريك غليوم الثالث» واتباعه معه . والحال ، عند «هيغل» ، كل ما هو موجود ليس البتة واقعيا من الاساس . ان صفة الواقع لا تنطبق عنده الا على ما هو ضروري في نفس الوقت» ، «الحقيقة الواقعية في انبساطها تتكشف عن كونها ضرورة» ؛ ولهذا لا يعتبر كواقعي فعلي بالاساس كل تدبير حكومي ايا كان — وهيغل بالذات يورد على سبيل المثال «نظاما ضرائبيا معينا» . لكن ما هو ضروري يتكشف في الحيز الاخير انه عقلاني ايضا ، وان أطروحة هيغل عندما تطبق على الدولة البروسية لتلك الفترة لا تعني شيئا آخر سوى : هذه الدولة هي عقلانية ، مطابقة للعقل في حدود ما هي ضرورية ؛ مع ذلك اذا بدا لنا انها رديئة وتستمر رغم ذلك في الوجود رغم

---

١ — يلمح انجلس هنا الى مؤلف «هاينه» : «مساهمة في تاريخ الفلسفة والدين في المانيا» . في هذا الكتاب الموجه الى الجمهور الفرنسي جلى ما يميز الفلسفة الالمانية والدور الذي لعبته في عصره.

٢ — في مقدمة كتابه «مبادىء فلسفة الحق» (١٨٢٠) بسط هيغل للمرة الاولى هذه الاطروحة التي هي اساس كل فلسفة التاريخ لديه .

انها رديئة ، فذلك لان الصفة الرديئة للحكومة تجد تبريرها وتفسيرها في الصفة الرديئة المقابلة او المطابقة لرعاياها . بروسيو فترتئذ كانت لهم الحكومة التي يستحقونها .

والحال ان الحقيقة الواقعية ليست ابدأ ، في رأي هيغل ، صفة تلازم في جميع الظروف وفي كل الازمان حال اشياء اجتماعية وسياسية مُعطاة . بل على العكس تماما . الجمهورية الرومانية كانت واقعية ، لكن الامبراطورية الرومانية التي ازاحتها وحلت محلها كانت كذلك ايضا . الملكية الفرنسية لعام ١٧٨٩ كانت قد اصبحت غير واقعية ، اي مجردة من كل ضرورة ، لاعقلانية ، بحيث كان مفروضا ان تزيلها الثورة الكبرى التي تحدث عنها هيغل دوما بحماسة كبيرة . هنا كانت الملكية بالتالي لا واقعية والثورة واقعية . وعلى هذا ، ففي مجرى التطور ، كل ما كان في السابق واقعيا فعليا يصبح غير واقعي ، يفقد ضرورته ، حقه في الوجود ، سمته العقلانية ؛ تحل محل الحقيقة الواقعية الميتة حقيقة واقعية جديدة وقابلة للحياة ، سلميا اذا كانت الحالة القديمة للاشياء على ما يكفي من التعقل بحيث تتقبل الموت دون مقاومة ، عنفيا اذا عاندت هذه الضرورة . وهكذا تنقلب اطروحة هيغل ، بلعبة الديالكتيك الهيغلي نفسه ، الى نقيضها : كل ما هو واقعي في ميدان التاريخ البشري يصبح ، مع الزمن ، لاعقلانيا ، وبالتالي فمصيره المكتوب أن يصير لاعقلانيا، ملطخا سلفا باللاعقلانية ؛ وان كل ما هو عقلاني في رأس البشر مقدر له ان يصير واقعيا فعليا ، مهما بلغ من تناقض مع الحقيقة الواقعية القائمة حسب الظاهر . ان اطروحة عقلانية كل الواقعي انما تنحل ، حسب كافة قواعد الديالكتيك الهيغلي ، الى هذه الاطروحة الاخرى : كل ما هو موجود قمين بالزوال .

لكن المغزى الحقيقي والسمة الثورية للفلسفة الهيغلية (التي ينبغي لنا ان نقصر الحديث عليها ، بوصفها نتيجة كل الحركة منذ «كانط» ) -مثلا بالتحديد في أنها وضعت بصورة نهائية حدا للصفة النهائية القاطعة لكل نتائج الفكر والنشاط البشريين . فالحقيقة التي ينبغي الاعتراف بها في الفلسفة لم تعد ، عند هيغل ، مجموعة من المبادىء المعتقدية الجاهزة ، بحيث لم يعد يبقى ، بعد ان اكتشفت ، سوى حفظها غيبا ؛ مذ ذاك اصبحت الحقيقة تكمن بالذات في سيرورة المعرفة ، في التطور التاريخي الطويل للعلم الذي يصعد من درجات متدنية الى درجات أعلى فأعلى في المعرفة ، دون الوصول ابدا ، باكتشاف ما يزعم انه حقيقة مطلقة ، الى نقطة لا يعود من الممكن التقدم بعدها ، وبحيث لا يبقى للعلم ما يعمله سوى ان يبقى مكتوف الايدي وأن يتأمل فاغرا فاه الحقيقة المطلقة التي وصلوا اليها . وهذا يصدق على ميدان المعرفة الفلسفية كما يصدق على سائر ميادين المعارف الاخرى والنشاط العملي.

ان التاريخ ، شأن المعرفة ، لا يمكن ان يجد اكتمالا نهائيا في حالة مثالية كاملة للبشرية ؛ ان مجتمعا كاملا ، «دولة» كاملة ، هما شيئان لا يمكن ان يتوجدا الا في المخيلة ؛ بل الامر على عكس ذلك ، فكل الاوضاع التي تعاقبت في التاريخ ليست سوى مراحل عابرة في تطور بلا نهاية للمجتمع البشري الذاهب من الادنى الى

الاعلى . كل مرحلة هي ضرورية ، ومسوّغة بالتالي بالعصر والظروف التي نشأت منها ؛ ولكنها تصبح هرمة آيلة الى الزوال وغير مسوّغة في حضور ظروف جديدة اعلى تتطور رويدا رويدا في احشائها هي ذاتها ؛ يتعين عليها ان تخلي الساح لمرحلة اعلى تدخل بدورها في دور التقهقر والموت . وكما ان البورجوازية تفسّخ عمليا ، بواسطة الصناعة الكبيرة ، المنافسة والسوق العالمية ، المؤسسات القديمة المستقرة والهشة الثلوم (١) ، كذلك الامر فان هذه الفلسفة الديالكتية تفسّخ كل فكرات الحقيقة المطلقة النهائية والاوضاع المطلقة للبشرية المناظرة لها . لا يبقى البتة من نهائي ، من مطلق ، من مقدس أمامها ؛ انها تبرهن على تهرّمية كل الاشياء والتهرمية في كل الاشياء ، ولا شيء البتة يمكن ان يدوم أمامها الا السيرورة غير المنقطعة للصيرورة والزوال ، الا الصعود الذي لا ينتهي من الادنى الى الاعلى ، وهي نفسها لا تعدو كونها انعكاسا في الدماغ المفكر . نعم ، ان لهذه الفلسفة جانبها المحافظ ايضا ؛ انها تعترف بمشروعية بعض مراحل تطور المعرفة والمجتمع بالنسبة لعصرها وظروفها ؛ ولكن لا تذهب الى أبعد من ذلك . ان النزعة المحافظة لوجهة النظر هذه هي نسبية ، سمتها الثورية هي مطلقة ــ وهي ، فضلا عن ذلك ، المطلق الوحيد الذي تفضله .

ليس من الضروري أن نناقش هنا ما اذا كانت وجهة النظر هذه متفقة تمام الاتفاق مع الحالة الراهنة لعلم الطبيعة ، الذي يتوقع نهاية محتملة لوجود الارض نفسها ، الا انه يتنبأ بالمقابل بنهاية اكيدة لقابلية العيش فيها ، وبالتالي فانه يعزو ايضا الى تاريخ الانسانية لا حركة صاعدة فحسب ، بل حركة نازلة ايضا . لكننا في كل الاحوال ما زلنا على ما يكفي من البعد عن المنعطف الذي ينحدر بدءاً منه تاريخ البشرية الى الزوال ، ولا نستطيع ان نتطلب من فلسفة هيغل ان تعنى بموضوع لم يكن بعد علم الطبيعة في عصره قد وضعه في أمر اليوم .

والواقع انه يمكن القول ان العرض الذي بسطناه قبلا لا نجده بهذه الدقة عند هيغل . انه نتيجة ضرورية لمنهجه ، ولكنه لم يستجره البتة بنفسه بما يكفي من الجلاء ، لسبب بسيط يتمثل في انه كان مضطرا الى بناء منظومة ، وينبغي لمنظومة فلسفية ، تبعا للمتطلبات التقليدية ، ان تكمل نفسها وتتوجها بضرب من حقيقة مطلقة أيا كانت . اذن ، فمهما بلغ من قوة تأكيد هيغل ، في كتاب **«المنطق»** بصورة رئيسية، على ان هذه الحقيقة الخالدة ليست، شيئا آخر سوى السيرورة المنطقية ، اي السيرورة التاريخية بالذات ، الا انه يرى نفسه مضطرا الى أن يعطي هذه السيرورة نهاية ، بالتحديد لانه ينبغي له ان يصل في شكل من الاشكال الى نهاية منظومته . في كتاب «المنطق» استطاع ان يصنع بدوره من هذه النهاية بداية ، بمعنى أن النقطة النهائية هنا ، الـ فكرة المطلقة ــ وهي ليست مطلقة الا لانه لا يعرف البتة ما الذي

---

١ ــ راجع في «البيان الشيوعي» المقطع الذي يشرح هذا الفعل الثوري للبورجوازية .

يقوله لنا عنها ــ «تستلب» في الطبيعة ، اي تتحول اليها (الى الطبيعة) ، وتعود من جديد فيما بعد الى نفسها في الروح ، اي في الفكر وفي التاريخ . ولكن في نهاية كل فلسفة، لا يمكن لعودة كهذهالى نقطة الانطلاق ان تتم الا عبر وسيلة **واحدة**، الا وهي : افتراض ان نهاية التاريخ هي ان تتوصل البشرية تماما الى معرفة هذه الـ فكرة المطلقة ، وان تعلن ان هذه المعرفة لل فكرة المطلقة قد بلغت في فلسفة هيغل . ومن هنا يعلن بمثابة حقيقة مطلقة كل المحتوى المعتقدي لمنظومة هيغل ، الامر الذي يناقض منهجه الديالكتي ، الذي يذيب كل ما هو معتقدي ؛ ومن هنا فان الجانب الثوري من مذهب هيغل مخنوق تحت ضغط تضخم جانبه المحافظ . وما هو صحيح بالنسبة للمعرفة الفلسفية يبقى صحيحا ايضا بالنسبة للممارسة التاريخية . ان البشرية التي نجحت ، بشخص هيغل ، في صياغة الـ فكرة المطدقة، ينبغي ان تكون قادرة ايضا ، في الممارسة ، على نقل هذه الـ فكرة المطلقة الىالواقع. ان المتطلبات السياسية العملية التي تطرحها الـ فكرة المطلقة على المعاصرين ينبغي ، بالنتيجة ، الا تكون طموحة جدا . ولهذا نجد ، في نهاية كتاب «فلسفة الحق» ، ان الـ فكرة المطلقة ينبغي ان تتحقق في هذه الملكية التمثيلية التي كان «فريدريك غليوم الثالث» يعد بها رعاياه بكثير من الاصرار ولكن بلا طائل (١) ، اي في ظل هيمنة غير مباشرة ، محدودة ومعتدلة للطبقات المالكة ، مكيفة مع الشروط او الظروف البورجوازية الصغيرة لالمانيا عهدئذ ؛ أضف الى ذلك ان هذه مناسبة لكي يبرهن لنا بطريق تأملي عن ضرورة النبالة .

فالضرورات الداخلية للمنظومة تكفي في حد ذاتها اذن لتفسر ولادة نتيجة سياسية معتدلة جدا بمساعدة منهج في التفكير عميق الثورية . والشكل الخاص المميز لهذه النتيجة ينجم فضلا عن ذلك من واقع ان هيغل كان المانياً ، وانه كان يملك ، شأن معاصره «غوته» ، في مؤخرة رأسه ضفيرة جهول . ان غوته وكذلك هيغل كانا ، كل في ميدانه ، «جوبيتير» الاولومب ، ولكن لا هذا ولا ذاك قد تخلّص تماما من الجهولية الالمانية .

ولكن كل هذا لم يمنع منظومة هيغل من أن تعانق ميدانا أوسع بما لا يقارن من اية منظومة سابقة ، ومن ان تنمي في هذا الميدان ثروة في الفكر ما زالت تدهشنا حتى اليوم . في مؤلفاته : **«علم الظاهريات»** (ويمكن تسميته موازيا لـ «علم أجنة» الروح و«علم إحاثة» الروح : تطور الوعي الفردي في مختلف مراحله التي مر فيها تاريخيا الوعي الانساني)، **«المنطق»** ، **«فلسفة الطبيعة»** ، **«فلسفة الروح»**، والاخيرة مصاغة بدورها في مختلف فروعها التاريخية : **«فلسفة التاريخ»**، **«فلسفة الحق»**، **«فلسفة الدين»** ، **«تاريخ الفلسفة»** ، **«علم الجمال»** ، الخ ، ــ في كافة هذه الميادين

---

١ ــ خلال الحروب المسماة حروب التحرر ضد نابوليون ، وعد ملك بروسيا رعاياه بتبني نظام دستوري . هذا الوعد لم ينفذ البتة .

التاريخية ، عمل هيغل لاكتشاف وتبيان وجود خط موجه للتطور ، وبما انه لم يكن عبقرية خلاّقة فحسب ، بل عالما موسوعيا منقبا ايضا ، فان أعماله في سائر هذه الميادين تشكل عصرا . من الواضح جيدا انه كان ، بسبب من ضرورات «المنظومة»، مجبرا في كثير من الاحيان هنا على اللجوء الى هذه الانشاءات (او البناءات) الذهنية الاعتباطية ، التي ما يزال الصغار جدا يثيرون حولها كثيرا من الضجيج . بيد ان هذه الانشاءات ليست سوى اطار وصقالة عمله الفكري ؛ اذا لم نتوقف سدى حولهما ، اذا تغلغلنا بعمق اكثر في الصرح الجبار ، نكتشف فيه كنوزا لا تحصى ما تزال تحتفظ حتى اليوم بكل قيمتها . لدى كل الفلاسفة ، الـ «منظومة» هي بالتحديد المعرّضة للفناء ، بالضبط لانها ناشئة عن حاجة دائمة للفكر الانساني : الحاجة الى تذليل جميع التناقضات . ولكن لو ان جميع هذه التناقضات أزيلت دفعة واحدة نهائيا ، لوصلنا الى ما يزعم انه الحقيقة المطلقة ؛ التاريخ العالمي ينتهي ، ولكن يتعين عليه ان يتواصل ولو انه لا يبقى له شيء يعمله : اذن ثمة تناقض جديد مستحيل الحل . ما ان نفهم ـ ولم يساعدنا احد، في الحاصل، افضل من مساعدة هيغل على فهم ذلك ـ ان مهمة الفلسفة ، المطروحة على هذا النحو ، لا تعني شيئا آخر سوى الطلب الى فيلسوف فرد ان يحقق ما يمكن ان تفعله البشرية جمعاء وحدها في تطورها التدريجي (١) ـ ما ان نفهم هذا ، حتى تنتهي ايضا كل فلسفة ، بالمعنى المعطى حتى الآن لهذه الكلمة . ويتخلون او يعدلون منذئذ عن كل «حقيقة مطلقة» ، التي يستحيل الحصول عليها عبر هذا الطريق وكل بمفرده ، والسعي بدلا من ذلك لالتقاط حقائق نسبية ممكنة المنال بواسطة العلوم الوضعية وبواسطة التركيبة المستجرة من نتائجها بمساعدة الفكر الديالكتي . مع هيغل هذا تنتهي ، بصورة عامة، الفلسفة ؛ والواقع انه من جهة يلخص هذه الفلسفة ، في منظومته ، على اعظم ما يكون في كل تطورها، ومن جهة اخرى ، يبين لنا ، وان بصورة غير واعية ، الطريق التي تؤدي ، خارج متاهة المنظومات هذه ، الى المعرفة الوضعية الحقة للعالم .

ان المرء ليدرك اي تأثير هائل كان لا بد لمنظومة هيغل هذه من ان تمارسها في مناخ المانيا المشبع بالفلسفة . كان ذلك سيرا ظافرا استمر عدة عقود ولم ينته البتة بموت هيغل . بل على العكس ، فمن ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ بالضبط هيمن «التوثن الهيغلي» الى أقصى حد ملوّثا الى هذا الحد او ذاك حتى خصومه . وفي هذه الفترة بالتحديد تغلغلت مفاهيم هيغل بغزارة أشد ، بصورة واعية او لاواعية ، في مختلف العلوم ، ملقحة ايضا بخميرتها الادب الشعبي والصحافة اليومية ، حيث يستمد الوعي «المثقف» المتوسط غذاءه الفكري . بيد ان هذا الانتصار على طول الخط لم يكن سوى مقدمة لصراع داخلي .

ان جماع مذهب هيغل قد ترك ، كما رأينا ، مكانا بما يكفي من السعة لكي

---

١ ـ راجع : انجلس : «ضد دوهرينغ» ، ص ١١٩ـ١٢٠ .

تسكنه مفاهيم عملية لاحزاب مختلفة شديد الاختلاف ؛ لدى منظّري المانيا آنئذ ، كان ثمة شيئان يرتديان قبل كل شيء سمة سياسية : الدين والسياسة . كان يمكن لمن يؤكد على منظومة هيغل ان يكون محافظا مقبولا في هذين الميدانين ؛ وبالمقابل فمن كان يعتبر **المنهج** الديالكتي بمثابة الجوهري ، كان يستطيع في الدين والسياسة على السواء ان ينتمي الى المعارضة الاشد تطرفا . ان هيغل نفسه ، رغم ومضات الغضب الثوري الكثيرة في مؤلفاته ، كان يبدو في الحاصل اكثر ميلا الى الجانب المحافظ . الم تكلفه منظومته من «عمل فكري قاس» اكثر مما كلفه منهجه ؟ حوالي نهاية سنوات ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ ، تجلى الانشقاق في المدرسة الهيغلية بوضوح متزايد . الجناح اليساري ، اي هؤلاء الذين سموا ب «الشباب الهيغلي» ، تخلى رويدا ، في الصراع ضد التقويين الاورثوذكس (مستقيمي الـرأي) والرجعيين الاقطاعيين ، عن هذا التحفظ الفلسفي والمترفع ازاء المسائل الراهنة الملحة ، الذي امن حتى ذلك الحين لمذهبهم التسامح بل الحماية من قبل الدولة ؛ وحين صعد في العام ١٨٤٠ ، التزمتُ الاورثوذكسي والرجعية الاقطاعية العرش مع «فريدريك غليوم الرابع» ، لم يعد ممكنا الا يتحزبوا بشكل مكشوف . استمروا ايضا بخوض النضال بأسلحة فلسفية ، ولكن لم يعد ، هذه المرة ، لاجل اهداف فلسفية مجردة؛ بل ذهبوا بها مباشرة لتحطيم الدين التقليدي وال «دولة» القائمة . واذا كانت ، في **«الحوليات الالمانية»** (١) ، الاهداف النهائية العملية ما تزال تبدو في الغالب متنكرة في لبوس فلسفي ، فان مدرسة «الشاب الهيغلي» قد ظهرت بوضوح ، في **«الجريدة الرينانية»** لعام ١٨٤٢ ، بوصفها فلسفة البورجوازية الراديكالية الصاعدة، ولم تعد تستعمل القناع الفلسفي الا لتخدع الرقابة .

ولكن بما ان السياسة كانت ، في هذه الفترة ، ميدانا جد شائك ، وُجّه النضال الرئيسي ضد الدين . وفضلا عن ذلك ، الم يكن هذا النضال بصورة غير مباشرة ايضا ، منذ العام ١٨٤٠ بخاصة ، نضالا سياسيا ؟ الدفع الاوّلي في هذا الاتجاه أعطاه «شتراوس» في كتابه «حياة يسوع» (١٨٣٥) (٢) . فيما بعد ، عارض «برونو بوير» النظرية المبسوطة في هذا الكتاب حول تكوّن الاساطير الانجيلية مبرهنا ان سلسلة كاملة من الحكايات الانجيلية قد فبركها مؤلفو الاناجيل انفسهم . ان الصراع بين هذين التيارين قد شبّ تحت ستار فلسفي لنزاع بين «وعي الذات» و«الماهية» . ان مسالة معرفة ما اذا كانت قصص المعجزات في الانجيل قد نشأت من واقع تكوّن اساطير بشكل غير واعٍ وتقليدي في حضن الجماعة ، او ما اذا كان

---

١ ـ جريدة الهيغليين اليساريين ، نشرها «روجه» و«ايشترماير» في سنوات ١٨٣٨ـ١٨٤٨ .

٢ ـ في هذا الكتاب قدم «شتراوس» المسيح لا كاله ، بل كشخصية تاريخية سامية . اعتبر حكايا الانجيل كأساطير انبثقت بصورة شبه لاواعية في الجماعات المسيحية . في نقده لـ «شتراوس»، اخذ «برونو بوير» عليه انه تجاهل دور الوعي في خلق الاساطير .

الانجيليون هم الذين فبركوها ــ هذه المسألة قد نفخت حتى اصبحت مسألة معرفة ما اذا كانت «الماهية» ام «وعي الذات» تشكل القوة المحركة الحاسمة للتاريخ العالمي. واخيرا جاء «شتيرنر» ، نبي الفوضوية الحالية ــ ويدين له باكونين بالكثير ــ ، الذي تجاوز «وعي الذات» السَني بمساعدة «الأحد» السني (١) .

لن نلح هنا على هذا الجانب من سيرورة تفسخ المدرسة الهيغلية . ما يهمنا اكثر هو التالي : ان معظم الشباب الهيغلي الاكثر تصميما قد عادوا بسبب من الضرورات العملية لنضالهم ضد الدين الوضعي الى المادوية الانكلو ــ فرنسية . وهنا دخلوا في نزاع مع منظومة مدرستهم . في حين ان المادوية تعتبر الطبيعة بمثابة الحقيقة الواقعية الوحيدة ، لكنها ليست في منظومة هيغل سوى «استلاب» الـ فكرة المطلقة ، ليست سوى تقهقر او انحطاط الفكرة ؛ وعلى كل حال ، فالفكر ونتاجه ، الـ فكرة ، هو هنا العنصر الأولي ، الطبيعة هي العنصر المشتق الذي لا يوجد ، في الحاصل ، الا بتنازل من الـ فكرة . ولقد تخبطوا وانتهوا الى نتائج متباينة في هذا التناقض .

في ذلك الحين ظهر مؤلف «فويرباخ» : «جوهر المسيحية» . وبضربة واحدة سحق هذا التناقض واضعا بصراحة المادية على العرش . الطبيعة توجد بمعزل عن كل فلسفة ؛ هي القاعدة التي نمونا عليها نحن البشر ، ونحن انفسنا نتاجات الطبيعة، وكبرنا ؛ خارج الطبيعة والبشر لا يوجد شيء ، والكائنات العليا التي خلقتها مخيلتنا الدينية ليست سوى الانعكاس الوهمي لكائننا نحن الخاص . هكذا تحطم الافتتان؛ تكسّرت «المنظومة» [الهيغلية] ووضعت جانبا ، انحل التناقض ، لانه لم يكن موجودا الا في المخيلة . ينبغي للمرء ان يبلو او يكابد بنفسه هذا الفعل المحرر لكتاب «فويرباخ» لكي يكوّن فكرة عنه . الحماسة كانت عامة : كنا جميعا ، في فترة ، «فويرباخيين» . ويمكن للمرء ان يرى ، عند قراءة «العائلة المقدسة» ، بأية حماسة حيا ماركس وجهة النظر الجديدة والى أية درجة ــ رغم كل تحفظاته النقدية ــ تأثر بها .

حتى نواقص الكتاب ، كتاب «فويرباخ»، أسهمت في نجاحه آنئذ. ان الاسلوب الادبي ، بل المتصنع في بعض المواضع ، الذي كتب به أمّن له جمهورا واسعا من القراء ، وعلى اية حال فقد كان عزاءً بعد هذه السنوات الطويلة من التوله الهيغلي المجرد العويص . ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن التمجيد المفرط للحب الذي يمكن ان يعذر عليه ان لم نقل يسوغ له ازاء سلطان ، أصبح لا يطاق ، لـ «الفكر الخالص». ولكن ينبغي ألا ننسى : بهذين الضَعفين بالضبط ارتبطت «الاشتراكية الصحيحة»، التي انتشرت منذ ١٨٤٤ كالوباء في المانيا «المثقفة» ، أحلت الجملة الادبية محل

---

١ ــ اشارة الى كتاب «الوحيد وملكيته» الذي ظهر عام ١٨٤٥ ونقده ماركس وانجلس في «الايديولوجية الالمانية» .

المعرفة العلمية ، تحرير البشر بواسطة «الحب» محل تحرير البروليتاريا بواسطة التحويل الاقتصادي للانتاج ، والخلاصة انها تاهت في هذا الادب وهذه الفخفخة العاطفية المقززة ، التي كان السيد «كارل غرون» ممثلها النموذجي .

ينبغي الا ننسى ايضا ان المدرسة الهيغلية اذا كانت في تفسخ ، الا ان النقد لم يكن قد انتصر على الفلسفة الهيغلية . ان «شتراوس» و «بوير» كان كل واحد منهما قد انتزع احد جانبيها واستدار به على نحو جدالي ضد الآخر . «فويرباخ» حطم المنظومة كلها وألقى بها ببساطة جانبا . لكن لا تغلب فلسفة ما بمجرد اعلانها خاطئة. وان عملا جبارا كفلسفة هيغل ، عملا مارس تأثيرا هائلا على تطور الامة الفكري ، لا يمكن التخلص منه بمجرد تجاهله . كان ينبغي «تجاوز»ها بالمعنى الذي تقصده هي، اي بتدمير الشكل بواسطة النقد ، ولكن انقاذ المضمون الجديد الذي تم الحصول عليه بواسطتها . سنرى فيما بعد كيف يكون هذا .

ولكن ، في الانتظار ، وضعت ثورة ١٨٤٨ كل الفلسفة جانبا بنفس الاستخفاف الذي كان فويرباخ قد مارسه مع هيغل . ومن هنا ، فان «فويرباخ» نفسه قد أبعد الى الخلف .

## ٢ • الفكرانية والمادية

ان المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ، وبخاصة في الفلسفة الحديثة ، هي مسألة العلاقة بين الفكر والكينونة . منذ ازمان سحيقة ، حيث كان البشر ما يزالون على جهل تام بتكونهم الجسدي ومدفوعين برؤية الاحلام (١) ، توصلوا الى فكرة تقول ان فكرهم ومشاعرهم ليست نشاطات جسدهم الخاص ، بل نشاطات نفس خاصة ، تقطن في هذا الجسد وتفارقها عند الموت ـ منذ هذه اللحظة ، تعين عليهم اختلاق فكرات حول علاقات هذه النفس بالعالم الخارجي . فاذا كانت ، في لحظة الموت ، تنفصل عن الجسد وتستمر في العيش ، فلا يبقى هناك اي سبب لان يُعزى اليها موت خاص بها ؛ وعلى هذا النحو ولدت فكرة خلودها التي لم تظهر البتة ، في هذه المرحلة من التطور ، بمثابة تعزية ، بل ، على العكس ، بمثابة قدر لا

---

١ ـ ما يزال يسود حتى اليوم لدى المتوحشين والبربر السفليين هذا المفهوم القائل بأن الاشكال الانسانية التي تظهر لهم في احلامهم هي ارواح تركت جسدها لمدة من الزمن . ولهذا يعتبر الشخص الواقعي مسؤولا عن جميع الافعال التي رآها النائم في الحلم . هذا ما لاحظه ، مثلا ، «إيم تورن» ، عام ١٨٨٤ ، لدى هنود «غويانا» ★ . (ف.إ.)

★ من المحتمل ان يكون انجلس قد استند الى كتاب «ايفيرارد فرديناند» : «إيم تورن» ، الذي نشر في لندن عام ١٨٨٣ : «عند هنود غويانا . نظرة اجمالية الى داخل غويانا البريطانية ، تتعلق بالانتروبولوجيا بصورة رئيسية» .

مرد له ، وفي كثير من الاحيان ، وبخاصة لدى اليونان ، بمثابة مصيبة حقيقية . ليست الحاجة الى التعزية الدينية ، بل الارتباك الناجم عن الجهل الشامل الذي كان يخيم عليها بما ينبغي ان تفعله النفس بعد موت الجسد ، هو الذي قاد الى الوهم المضجر بالخلود الشخصي . على نحو مشابه تماما ، وبواسطة تشخيص القوى الطبيعية ، ولدت الآلهة الاولى التي ، خلال التطور اللاحق للدين ، اتخذت على نحو متزايد صورة غير دنيوية الى أن انجب ، في آخر الامر ، بفعل سيرورة التجريد ، واكاد اقول ، سيرورة التقطير التي حدثت بصورة طبيعية في مجرى التطور الفكري، الآلهة المتعددون ذوو السلطان الذي هو الى هذا الحد او ذاك مقيّد ومقيّد بالنسبة للواحد منهم ازاء الآخر ، في عقول البشر ، فكرة إله واحد لا شريك له للاديان التوحيدية .

ان مسألة علاقة الفكر بالكينونة ، الروح بالطبيعة ، وهي مسألة عليا في الفلسفة كلها ، تملك بالنتيجة ، كما في الدين تماما ، جذورا في المفاهيم المحدودة والجاهلة لحالة التوحش . ولكن ما كان لهذه المسألة ان تنطرح بكل صرامتها وما كان لها ان تكتسب كل معناها الا عندما استيقظ المجتمع الاوروبي من سباته الطويل، سبات العصر الوسيط المسيحي . ان مسألة موقع الفكر بالنسبة الى الكينونة التي لعبت ، مع ذلك ، دورا كبيرا في الفلسفة السكولاستية للعصر الوسيط ، مسألة معرفة ايهما العنصر الأولي ، الروح ام الطبيعة ــ هذه المسألة قد اخذت ، ازاء الكنيسة ، شكلا حادا : العالم هل خلق من قبل الله ام انه موجود منذ الازل ؟

تبعا للاجابة التي يقدمونها على هذا النحو او ذاك عن هذه المسألة ، انقسم الفلاسفة الى معسكرين . أولئك الذين اكدوا على أولية الروح بالنسبة للطبيعة ، والذين قبلوا بالتالي ، في آخر الامر ، خلق العالم ايا كانت صورة هذا الخلق ، ــ وهذا الخلق كثيرا ما يكون لدى الفلاسفة ، مثلا هيغل ، اكثر تعقيدا وأكثر استحالة ايضا مما لدى المسيحية ، ــ يشكلون معسكر الفكرانية (المثالية) . اما هؤلاء الذين يعتبرون الطبيعة بمثابة العنصر الأولي فينتمون الى مختلف مدارس المادية او المادوية .

في الاصل ، لم يكن هذان المصطلحان ، الفكرانية والمادية ، يعنيان شيئا آخر ، كما اننا لا نستعملهما هنا بمعنى آخر . سنرى فيما بعد اي تشويش ينشأ اذا أدخل فيهما شيء ما آخر .

لكن لمسألة العلاقة بين الفكر والكينونة جانبا آخر . ما العلاقة القائمة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا وهذا العالم نفسه ؟ فكرنا ، هل هو قادر على معرفة العالم الواقعي ؟ هل نستطيع في تمثيلاتنا ومفاهيمنا عن العالم ان نعطي انعكاسا صادقا عن الواقع ؟ هذه المسألة تسمى في اللغة الفلسفية مسألة هوية الفكر والكينونة ، وان الاغلبية الكبرى من الفلاسفة أجابت عنها بصيغة ايجابية . عند هيغل ، مثلا ، هذا الجواب الايجابي امر مسلّم به ؛ وذلك لان ما نعرفه في هذا العالم الواقعي هو بالضبط محتواه المطابق للفكرة ، الامر الذي يجعل من العالم

تحقيقا تدريجيا للـ فكرة المطلقة ، الـ فكرة المطلقة التي وجدت لا نعرف اين منذ الأزل ، بمعزل عن العالم وقبله ؛ والحال ان الفكر يستطيع بداهة ان يعرف محتوىً ما هو ، سلفا ، محتوى للفكرات . ولكن هذا لم يمنع البتة هيغل من ان يستجر من برهانه عن هوية الفكر والكينونة هذه النتيجة الاخرى ، وهي ان فلسفته ، لانها صائبة بالنسبة لتفكيره ، هي ايضا وحدها الصحيحة ، وان هُوية الفكر والكينونة لا بد ان تثبت لان البشرية ستنقل مباشرة فلسفته من النظرية الى التطبيق وتغير العالم كله حسب المبادىء الهيغلية . ان هذا الوهم يتشاطره الى هذا الحد او ذاك جميع الفلاسفة .

ولكن يوجد ايضا عدد آخر من الفلاسفة الذين ينكرون امكانية معرفة العالم او على الاقل معرفته معرفة كاملة . ومن بين الحديثين ، يعتبر هوم وكانط من هؤلاء ، ولقد لعبا دورا كبيرا في تطور الفلسفة . في تفنيد وجهة النظر هذه ، ما هو اساسي قد قاله هيغل (١) من قبل ، في الحدود التي كان فيها ذلك ممكنا من وجهة النظر الفكرانية ؛ وما اضافه «فويرباخ» الى ذلك من وجهة النظر المادية حذِق اكثر مما هو عميق .

ان الدحض الأدعى المدهشة لهذه النزغة الفلسفية ، شأن النزغات الاخرى كلها، هو الممارسة وعلى الاخص الاختبار والصناعة (٢) . اذا استطعنا ان نبرهن على صواب مفهومنا لظاهرة طبيعية بأن نخلقها بأنفسنا ، بأن ننتجها بمساعدة شروطها ، بأن نجعلها ، بالاضافة الى ذلك، تخدم أغراضنا، ففي ذلك نهاية لـ «الشيء في ذاته»، مقولة كانط غير القابلة للفهم . ان المواد الكيماوية المتكونة في العضويات النباتية والحيوانية بقيت كـ «اشياء في ذاتها» الى ان شرعت الكيمياء العضوية في تحضيرها الواحدة بعد الاخرى ؛ وبذلك أصبح «الشيء في ذاته» شيئا لاجلنا، كالمادة الصباغية من الفوّة (اليزارين) ، مثلا ، التي لم نعد نستخرجها من جذور الفوّة المزروعة في الحقول ، بل نسحبها بثمن أرخص وبصورة أبسط بكثير من قطران الفحم الحجري. ان منظومة كوبرنيك الشمسية قد كانت ، خلال ثلثماية سنة ، فرضية يمكن ان نراهن على صحتها بمئة ، بألف ، بعشرة آلاف مقابل واحد ، ولكنها كانت فرضية رغم كل شيء ؛ والحال انه عندما حسب لوفيرييه ، بمساعدة معطيات مستجرة من هذه المنظومة ، ليس فقط حتمية وجود كوكب غير معروف ، ولكن ايضا المكان الذي يفترض ان يوجد فيه هذا الكوكب في السماء ، وعندما اكتشفه غالِه فيما بعد فعليا (٣) ، قام البرهان على صحة منظومة كوبرنيك .

ولكن اذا كان الكانطيون الجدد يجهدون أنفسهم في المانيا لاعطاء حياة جديدة

---

١ ــ ان جُماع مؤلف هيغل هو نقد لفلسفة هوم وكانط . كما الح بخاصة على ذلك في كتابه « المنطق » .

٢ ــ انظر لينين : «المادية والنقدية التجريبية» (المطبوعات الاجتماعية ، باريس) ص ٨٠ــ٨٩ .

٣ ــ هو الكوكب «نبتون» الذي اكتشفه المراقب «غاله» من مرصد برلين عام ١٨٤٦ .

لافكار كانط ، واللاادرويون في انكلترا لافكار هوم (حيث لم تختف)، فان هذا يشكل، من زاوية علمية ، نكوصا الى وراء بالنسبة الى التفنيد النظري والعملي الذي نزل بها منذ زمن بعيد ، ويشكل عمليا أسلوبا مخجلا لقبول المادوية سرا ، مع انكارها علانية (١) .

لكن الفلاسفة ، طوال هذه الحقبة التي تبدأ بديكارت ، مرورا بـ هيغل وهوبس ووصولا الى فويرباخ ، لم يكونوا ابدا ، كما كانوا يظنون ، مدفوعين الى الامام بقوة الفكرة المحضة . بل على العكس . فالواقع ان ما دفعهم الى الامام انما كان بصورة رئيسية التقدمات المذهلة والمتسارعة اكثر فأكثر لعلم الطبيعة والصناعة . عند المادويين ، كان هذا باديا للعيان ، لكن المنظومات الفكرانية ايضا امتلأت اكثر فأكثر بمضمون مادوي وجهدت لحل ، من خلال وجهة نظر حلولية ، تضاد الروح والمادة، على نحو اصبحت فيه منظومة هيغل لا تمثل سوى مادوية مقلوبة على رأسها بطريقة فكرانية من حيث منهجها ومحتواها .

من هذا نفهم ان شتاركه ، في وسمه لفويرباخ ، درس بادىء بدء الموقف المتخذ من قبل فويرباخ من هذه المسألة الاساسية ، مسألة العلاقة بين الفكر والكينونة . بعد مقدمة قصيرة ، حيث عرض مفاهيم الفلاسفة السابقين ، منذ كانط بخاصة ، بلغة مليئة بلا فائدة بثقل فلسفي ، وحيث انتقص كثيرا مكانة هيغل لأن المؤلف علِق على نحو شكلي جدا بمقاطع معزولة من مؤلفاته ، يلي عرض مفصل لتطور «الميتافيزياء» الفويرباخية كما تستخلص من تعاقب المؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع لهذا الفيلسوف . كتب هذا العرض بصورة نابهة وواضحة ؛ وللأسف فهو يكتظ ، شأن سائر مواضع الكتاب ، بجراب من المصطلحات الفلسفية كان بامكانه ان يتجنبها في كثير من الاحيان ، جراب مزعج لاسيما وان المؤلف يتقيد بنسبة أقل بشكل مصطلحات مدرسة واحدة او المدرسة نفسها ، او مصطلحات فويرباخ نفسه ، وانه يُدخل فيها مزيدا من مصطلحات تيارات مختلفة زُعمت فلسفية ، وبخاصة التي تنتشر حاليا .

ان تطور فويرباخ هو تطور هيغلي — والحق يقال انه لم يكن البتة هيغليا اورثوذكسيا تماما — نحو المادوية ، تطور قاد ، في مرحلة محددة ، الى قطيعة كلية مع المنظومة الفكرانية لسلفه . وأخيرا فرض عليه ، بقوة لا تقاوم ، ان وجود «الفكرة المطلقة» لهيغل قبل وجود الكون، ان «الوجود المسبق للمقولات المنطقية» السابق للكون، ليسا شيئا آخر سوى راسب وهمي من ايمان بخالق فوقارضي؛ ان العالم المادي الممكن ادراكه او التقاطه بواسطة الحواس، الذي ننتمي اليه نحن انفسنا، هو الحقيقة الواقعية الوحيدة ، وان وعينا وفكرنا ، مهما يبدوا لنا متعاليين ، ليسا سوى النتاج الارفع لعضو مادي ، جسماني ، الدماغ . ان المادة ليست نتاجا للروح ، بل ان

---

١ — راجع المصدر السابق ، ص ١٧٦—١٧٧ .

الروح هي نفسها ليست سوى النتاج الارفع للمادة (١) . هذه بالطبع مادوية خالصة. عندما وصل فويرباخ الى هذه النقطة توقف فجأة . لم يستطع ان يتغلب على الرأي المسبق الفلسفي الشائع ، الرأي المسبق المتعلق لا بالشيء ، لكن بكلمة المادوية، يقول:

> المادوية هي بالنسبة الي اساس صرح الكينونة الانسانية والمعرفة الانسانية؛ ولكنها ليست بالنسبة الي ما هي بالنسبة لعالم وظائف الاعضاء ، عالم الطبيعيات ، بالمعنى الضيق للكلمة ، مثلا «موليشوت» ، وما هي بالضرورة من وجهة نظرهم الخاصة ، المهنية ، اي الصرح نفسه . انني على اتفاق تام مع المادوية في الوراء ، لكن لا في الامام (٢) .

فويرباخ يخلط هنا بين المادوية ، وهي مفهوم عام عن العالم يرتكز على أسلوب معين في فهم العلاقات بين المادة والروح ، والشكل الخاص الذي يعبر فيه هذا المفهوم للعالم عن نفسه في مرحلة تاريخية معينة ، هي القرن الثامن عشر . بل اكثر من ذلك ، فانه يخلطها بالشكل المسطح ، العامي ، المبتذل ، الذي ما تزال مادوية القرن الثامن عشر موجودة فيه حتى اليوم في رأس علماء الطبيعة والاطباء ، والذي بشربه ونشره خلال سنوات ١٨٥٠ ــ ١٨٦٠ بوخنر ، فوغت وموليشوت . ولكن كما ان الفكرانية قد مرت في سلسلة من مراحل التطور ، كذلك الامر بالنسبة للمادوية. مع كل اكتشاف يفتح عهدا جديدا في ميدان علم الطبيعة ، من المفروض حتما ان تعدل شكلها ؛ ومنذ ان أخضع التاريخ لمعالجة مادوية ، انفتح كذلك هنا طريق جديد لتطور المادوية .

ان مادوية القرن السابق كانت إوالية (ميكانية) بصورة رئيسية وذلك لان ، في هذه الحقبة ، من سائر علوم الطبيعة ، كانت الإوالة (الميكانيك) وحدها ، بل فقط إوالة الاجسام الصلبة ، ــ السماوية والارضية ، ــ وبكلمة اوالة الجاذبية ، هي التي وصلت الى اكتمال ما . الكيمياء لم تكن قد وجدت الا في شكلها الطفلي ، نظرية سائل اللهب (٣) . علم الاحياء (البيولوجيا) كان ما يزال في القماط : العضوية النباتية والحيوانية لم تكن قد درست الا على نحو بدائي وتقريبي ولم تفسر الا

---

١ ــ حول هذه النقطة ، راجع : «ضد دوهرينغ» ، ص ٦٨ .

٢ ــ راجع : «لودفيغ فويرباخ من خلال مراسلاته ــ مؤلفاته المنشورة بعد وفاته وتطور فلسفته» بقلم «كارل غرون» ، المجلد ٢ ، لايبزيغ وهيدلبرغ ، ١٨٧٤ . [يقصد من المادوية في الوراء المنطلقات الاساسية للمادوية . اما المادوية في الامام فيقصد بها الاستنتاجات التي استخلصتها المادوية في القرن الثامن عشر ــ المترجم ] .

٣ ــ تقول نظرية سائل اللهب la théorie phlogistique، التي دحضها لومونوسوف عام١٧٤٥ ، ان من طبيعة الاحتراق ان يهرب من الجسم الذي يحترق جسم آخر مفترض ، سائل اللهب . استنادا الى أبحاث الكيميائي الانكليزي «بريستلي» ، صاغ «لافوازييه» ، في نهاية القرن الثامن عشر ، النظرية الصحيحة . الاحتراق ليس حل او انحلال جسمين، بل هو اتحاد الجسم المحترق بالاوكسيجين.

بأسباب إوالية خالصة ؛ وفي راي مادويي القرن الثامن عشر ان الانسان ماكينة كما الحيوان في راي ديكارت . هذا التطبيق الحصري للنموذج الإوالي على ظاهرات ذات طبيعة كيماوية وعضوية التي تفعل فيها بالتأكيد قوانين إوالية ، ولكن اصبحت ثانوية وتابعة لقوانين من نوع اعلى ، يشكل احدى صور ضيق الافق المميزة ، ولكن المحتومة في هذه الحقبة ، للمادوية الفرنسية الكلاسية .

الصورة الثانية لضيق افق هذه المادوية هي عدم قدرتها على تصور العالم كسيرورة ، كمادة في طريق التطور او النمو التاريخي. وهذا يتفق مع المستوى الذي كانت قد بلغته في تلك الحقبة علوم الطبيعة ومع الاسلوب الميتافيزيائي ، اي اللاديالكتي ، في التفلسف المرتبط بها . من المعروف ان الارض منخرطة في حركة ابدية. ولكن حسب افكار تلك الحقبة، فان هذه الحركة ترسم دائرة ابدية ايضا ، وهي لا تغير مكانها بالتالي ؛ وهي تنتج نفس النتائج على الدوام . ان هذا الاسلوب في النظر كان امرا لا مفر منه في تلك الفترة . أن النظرية الكانطية في تكوّن المنظومة الشمسية كانت قد صيغت للتو ولم تكن قد قبلت الا كمجرد طرفة . ان تاريخ تطور الارض ، الإراضة (الجيولوجيا) ، كانت ما تزال غير معروفة كليا ، وفكرة ان الكائنات الحية الحالية هي نتيجة سلسلة تطورية طويلة تذهب من البسيط الى المعقد لم يكن ممكنا البتة ان تثبّت آنئذ علميا . وبالتالي فان المفهوم اللاتاريخي للطبيعة لا مفر منه . من الممكن ان نأخذ على فلاسفة القرن الثامن عشر هذا المفهوم ، فالاحرى ان لا نلومهم ما دام موجودا عند هيغل . عند هيغل ، ان الطبيعة ، بوصفها مجرد «استلاب» لل «فكرة» ، ليست قابلة لاي تطور في الزمان ، بل فقط لانبساط تنوعها في المكان ، على نحو تعرض فيه في آن معا والواحدة الى جانب الاخرى سائر درجات التطور التي تتضمنها وتجد نفسها محكومة بتكرار ابدي لسيرورة هي نفسها على الدوام . وهذه هي اللامعقولية في تطور في المكان ، ولكن خارج الزمان ــ الشرط الاساسي لكل تطور ــ التي فرضها هيغل على الطبيعة ، في اللحظة التي كانت فيها الإراضة ، علم الاجنة ، علم وظائف الاعضاء النباتي والحيواني والكيمياء العضوية تتطور ، وحيث كانت تظهر ، على اساس هذه العلوم الجديدة ، الاستشعارات المليئة بالعبقرية بنظرية لاحقة في التطور (مثلا ، لدى غوته و لامارك) . لكن منظومته كانت تتطلب ذلك ، وخان المنهج نفسه حبا بالمنظومة .

هذا المفهوم اللاتاريخي ساد ايضا في ميدان التاريخ . هنا ، النضال ضد رواسب القرون الوسطى حدّ الرؤية كثيرا . اعتبرت القرون الوسطى مجرد قطع للتاريخ بألف عام من البربرية الشاملة ؛ التقدمات الكبرى للقرون الوسطى ــ توسيع ميدان الحضارة في اوروبا ، الامم الكبرى القابلة للحياة التي تكونت فيها جنبا الى جنب ، اخيرا التقدمات التقنية الضخمة للقرن الرابع عشر وللقرن الخامس عشر ــ لم يروا منها شيئا البتة . والحال ان هذا هو الذي حال دون فهم عقلاني للتسلسل التاريخي ، وصار التاريخ مجموعة من الامثلة والصور والايضاحات يستخدمها الفلاسفة .

ان المبسطين الجوّالين ، الذين كانوا يروجون في المانيا في العقد السادس المادوية ، لم يتجاوزوا بشكل من الاشكال وجهة نظر اساتذتهم هذه . ان جميع التقدمات التي تمت منذ ذلك الحين في علم الطبيعة لم تفدهم سوى كحجج جديدة ضد وجود الخالق ؛ والواقع ان مشروعهم لم يكن البتة تطوير النظرية اكثر الى الامام. واذا كانت الفكرانية قد نضبت وأصيبت بضربة مميتة من قبل ثورة ١٨٤٨ ، الا انها كانت مرتاحة لرؤية المادوية تسقط في نفس الوقت الى درك أدنى ايضا . كان لفويرباخ ملء الحق في ان ينفي عن نفسه مسؤولية هذه المادوية ؛ لكنه لم يكن على حق عندما خلط بين مذهب المبشرين الجوالين في المادوية وبين المادوية عموما.

ولكن ثمة ملاحظات ينبغي تسجيلها . اولا ، أن علوم الطبيعة ، حتى في زمن فويرباخ ، كانت ما تزال في ملء سيرورة تخمّر شديد لم تتصفّ وتتضح وتصل الى نجاز نسبي الا خلال السنوات الخمسة عشرة الاخيرة ؛ كان ثمة مواد جديدة للمعرفة تتراكم بكميات هائلة ، ولكن اقامة تنسيق و ، بالتالي ، نظام لهذا الخليط من الاكتشافات التي تترى الواحد بعد الآخر ، لم يكن ممكنا الا في الازمنة الاخيرة فقط . نعم ، ان فويرباخ قد عرف الاكتشافات الثلاثة الحاسمة ، ــ الخلية ، تحول الطاقة ونظرية التطور المعروفة باسم «الداروينية» . ولكن كيف يمكن للفيلسوف المنزوي في الريف ان يتتبع على نحو كاف تقدمات العلم بشكل يمكنه من تثمين قيمة الاكتشافات التي كان العلماء انفسهم ما يزالون ينكرونها عهدئذ ، او انهم كانوا لا يعرفون كيف يستثمرونها على نحو كاف ؟ ان خطأ ذلك انما يعود فقط الى الظروف المؤسفة لالمانيا التي تجعل كراسي تدريس الفلسفة وقفا على مُفلّي القمل الانتقائيين والمحونين ، في حين ان فويرباخ ، الذي يتخطاهم بكثير ، كان مجبرا ان يعيش حياة الفلاحين ويقبع في قرية صغيرة . اذن ليس الخطأ خطأ فويرباخ اذا كان مفهوم تاريخ الطبيعة غدا ممكنا منذ الان فصاعدا ، مفهوم يلغي كل ما هو ذو جانب واحد في المادوية الفرنسية ، وبقي بعيدا عن متناوله .

ولكن ، من ناحية اخرى ، كان فويرباخ على حق تماما حين قال ان مادوية علوم الطبيعة وحدها فقط تشكل «قاعدة صرح المعرفة الانسانية ، ولكنها ليست الصرح نفسه» . وذلك لاننا لا نعيش في الطبيعة وحدها ، بل في المجتمع الانساني ايضا ، ولهذا الاخير تاريخ تطوره وعلمه ، كما للطبيعة . والمقصود بالتالي هو جعل علم المجتمع ، اي مجموع العلوم المسماة تاريخية وفلسفية ، في وضع متوافق مع القاعدة المادية واعادة بنائها استنادا الى هذه القاعدة . ولكن لم يكتب لفويرباخ القيام بهذه المهمة . هنا ، بقي ، رغم «القاعدة» ، حبيس الروابط الفكرانية التقليدية ، وقد اعترف بذلك حين قال : «انا متفق مع المادويين في الوراء ، لكن لا في الامام» . والحال ، في الميدان الاجتماعي ، ان من لم يخطُ خطوة «الى الامام» ولم يتجاوز وجهة نظره للعام ١٨٤٠ او ١٨٤٤ هو فويرباخ نفسه ، وهذا ناجم بصورة رئيسية ، هذه المرة ايضا ، عن انعزاله الذي فرض عليه ان يخرج أفكاره من دماغه المتوحد ــ وهو الذي يحتاج ، اكثر من اي فيلسوف آخر ، الى التعامل مع

المجتمع ـ بدلا من ان يخلقه بالتعاون او بالتنازع مع رجال لهم مثل قيمته . اما الى اي مدى بقي في هذا الميدان الفكراني ، فسنراه بالتفصيل فيما بعد .

يكفي ان نلاحظ ايضا في هذا المجال ان شتاركه يفتش عن فكرانية فويرباخ هنا حيث لا وجود لها . «فويرباخ فكراني، أنه يؤمن بتقدم البشرية» (ص ١٩). «القاعدة، البنيان التحتي لكل شيء ، تبقى الفكرانية مع ذلك . بالنسبة الينا ، الواقعية ليست شيئا آخر سوى حماية من الضلالات ، عندما نتبع نزعاتنا الفكرانيـــة . أليست الشفقة ، الحب ، التعصب للحقيقة والحق قوى فكرانية ؟» (ص ٨) .

اولا ، الفكرانية هنا لا تعني شيئا آخر سوى متابعة اهداف مثلى . والحال ان هذه الاهداف ترتبط ايضا بفكرانية كانط و ب «الامر القاطع» الذي يقول به ؛ الا ان كانط نفسه يسمي فلسفته ب «الفكرانية المتعالية» ؛ وهذا ليس البتة لانها تتناول ايضا مثلا أخلاقية ، ولكن لاسباب اخرى ، يستطيع شتاركـــه ان يتذكرها . ان الخرافة التي تقول ان الفكرانية الفلسفية تدور حول الايمان بمثل أخلاقية ، اي اجتماعية ، قد تكونت خارج الفلسفة ، عند الجهولين الالمان ، الذين حفظوا غيبا من اشعار شيلر بعض فتات الثقافة الفلسفية الضرورية بالنسبة اليهم . ان احدا لم ينتقد انتقادا الذع «الامر القاطع» العاجز الذي جاء به كانط ــ عاجـــز لانه يطلب المستحيل و ، بالتالي ، لا يصل البتة الى شيء ما واقعي ــ وان احدا لم يهزأ هزءاً اشد بالافتتان الجهول بالمثل غير القابلة للتحقيق، الذي نشره شيلر (راجع، مثلا، كتاب «علم الظاهرات» ) ، الذي قام به ، بالضبط ، هيغل الفكراني .

ثانيا، لا يمكن تجنب واقع ان كل ما يحرك البشر يمر بالضرورة بدماغهم، ــ حتى الأكل والشرب ، اللذان يبدآن بشعور بالجوع والعطش، يأتيان عبر الدماغ، وينتهيان بالاحساس بالشبع والارتواء ، يحس بهما كذلك بواسطة الدمـــاغ . ان انعكاسات العالم الخارجي لدى الانسان تتجلى في دماغه ، تنعكس فيه على شكل أحاسيس ، أفكار ، غرائز ، إرادات ، وبكلمة على شكل «نزوعات فكرانية» ، وتصبح ، تحت هذا الشكل ، «قوى فكرانية» . واذا كان هذا الانسان يخضع عموما ل «النزوعـــات الفكرانية» ويترك «القوى الفكرانية» تمارس تأثيرا عليه ، ــ اذا كان هذا يكفي لان يجعل منه فكرانيا ، فان كل انسان متطور تطورا عاديا اذا صح القول هو فكراني فطريا ، وكيف يمكن في هذه الحالة ان يكون ثمة في الحاصل مادويون ايضا ؟

ثالثا ، ان الاعتقاد بأن البشرية ، في الوقت الحالي على الاقل ، تسير بوجه عام في اتجاه التقدم لا يمت بصلة للتضاد بين المادوية والفكرانية. ان المادويين الفرنسيين كانوا يعتقدون بذلك اعتقادا بلغ درجة تعصبية تقريبا ، شأن التأليهويين روســـو وفولتير ، تماما ، بل قدموا في سبيله في كثير من الاحيـــان اكبر التضحيات الشخصية . واذا كان هناك من كرس كل حياته ل «حب الحقيقة والحق» ــ والجملة مستعملة هنا بمعناها الحسن ــ فهو ديدرو مثلا . واذا كان «شتاركه» يصرح ، بالنتيجة ، بأن كل هذا هو الفكرانية ، فان هذا يؤكد فقط ان كلمة المادوية ، وكذلك التضاد بين الاتجاهين ، قد فقدا هنا كل معنى لديه .

والواقع ان «شتاركه» يقدم هنا ، ربما بدون وعي ، تنازلا لا يغتفر لراي مسبق جَهول ضد المادوية ، راي مسبق تعود أصوله الى فرية الكهنة القديمة . من كلمة مادوية يفهم الجهول الشراهة : السكر ، الشهوة ، الملذات الجنسية وحياة الترف، الجشع ، البخل ، الضراوة ، الركض وراء الربح والمضاربة في البورصة ، وبكلمة كل الاسواء الخسيسة التي تستعبده هو بالذات سرا ؛ ومن كلمة فكرانية يفهم الايمان بالفضيلة ، بالبشرية وبصورة عامة ب «عالم أفضل» ينادي به امام الآخرين ، ولكنه لا يؤمن به هو نفسه الا عندما يكون ازاء عملية اجتياز مرحلة التوعك او الضيق التي تلي بالضرورة انحرافاته «المادية» المعتادة وعندما يشرع في ترديد لازمته المفضلة : «ما هو الانسان ؟ نصف حيوان ، نصف ملاك !» .

وفضلا عن ذلك فان شتاركه يبذل وسعه للدفاع عن فويرباخ ضد هجمات وتعاليم الاساتذة الذين يختالون الان في المانيا تحت أسم فلاسفة . وهذا بالطبع امر هام بالنسبة لأولئك الذين يهتمون لهذه الجهيضات اللاحقة للفلسفة الالمانية الكلاسيكية؛ وقد كان هذا يبدو ضروريا لشتاركه نفسه . ولكننا سنعفو القارىء منها .

## ٣ . فلسفة الدين وعلم الاخلاق عند فويرباخ

تظهر فكرانية فويرباخ حالما نتناول فلسفة الدين وعلم الاخلاق عنده . انه لا يريد البتة الغاء الدين ، انه يريد ان يحسّنه . الفلسفة ذاتها ينبغي ان تتحول الى دين .

> ان المراحل الانسانية لا تتمايز عن بعضها الا بتغيرات من نوع ديني . ليس من حركات تاريخية عميقة الا الحركات التي تذهب حتى القلب الانساني . ان القلب ليس شكلا للدين ، بحيث يكون للدين مكانة في القلب ، انه جوهر الدين [استشهد بها شتاركه ، ص ١٦٨] .

في راي فويرباخ ، ان الدين علاقة عاطفية ، علاقة قلوب البشر فيما بينها ، التي ما تزال تبحث حتى اليوم عن حقيقتها في انعكاس وهمي للواقع ــ بواسطة إله واحد او آلهة متعددة ، هي انعكاسات وهمية للصفات الانسانية ــ وتجدها الان مباشرة ودون وسيط في الحب بينك انت وبيني انا . وعلى هذا يصبح الحب الجنسي ، في النهاية ، لدى فويرباخ ، احد ارفع أشكال ، ان لم نقل الارفع ، ممارسة دينه الجديد .

والحال ان العلاقات العاطفية بين البشر ، وبخاصة بين الجنسين ، قد وجدت مذ وجد البشر . ان الحب الجنسي بوجه خاص قد تطوّر خلال القرون الثمانية الاخيرة واحتل مكانا أصبح فيه خلال هذه الفترة المحور الالزامي للشعر كافة . ان الاديان الوضعية القائمة قد اقتصرت على اعطاء أسمى **تقديس** لتنظيم الدولة للحب

الجنسي ، اي تشريعات الزواج ، ومن الممكن ان تزول غدا دون ان يتغير ابسط شيء في ممارسة الحب والصداقة . ولهذا فان الدين المسيحي قد زال فعلا في فرنسا من ١٧٩٣ الى ١٧٩٨ بحيث ان نابوليون نفسه لم يستطع ان يعيده دون مقاومة ودون صعوبات ، وطوال هذه المدة لم تستشعر حاجة لعوض له بالمعنى الذي اراده فويرباخ .

ان فكرانية فويرباخ تتمثل هنا في انه يعتبر العلاقات بين البشر مبنية على قاعدة تجاذب او حنو متبادل مثل الحب ، الصداقة ، الشفقة ، الغيرية ، الخ ، ليس فقط كما هي بذاتها ، دون الذكريات المرتبطة بدين خاص يعود ، حسب رايه ، الى الماضي ايضا ؛ بل ، بالعكس ، على الزعم بأن هذه العلاقات لا تبلغ كل قيمتها الا عندما يعطونها التقديس الاسمى باسم الدين . الجوهري بالنسبة اليه لا ان تكون هذه العلاقات البشرية موجودة ، بل ان تفهم بوصفها الدين الجديد ، الحقيقي . وهي لا تستحق كامل قيمتها الا عندما يسمونها بالخاتم الديني. ان كلمة religion [دين] متحدرة من الكلمة اللاتينية religare وصل ، ربط lier وتعني في الاصل Union [اتحاد] . وبالتالي فان كل اتحاد بين شخصين هو دين . أمثال هذه الألاعيب في علم اشتقاق الكلمات هي التي تشكل المخرج الاخير للفلسفة الفكرانية . فما ينبغي ترجيحه او الاخذ به ليس ما تعنيه الكلمة حسب سير تطورها التاريخي واستعمالها الواقعي ، ولكن ما يفترض ان تعنيه حسب أصلها الاشتقاقي اللغوي . وعلى هذا النحو يرفع الحب الجنسي والاتحاد الجنسي الى مصاف «دين» لكي لا تزول كلمة دين ، العزيزة على ذاكرة الفكراني ، من اللغة . وهذا بالضبط ما بيَّنه ، بين ١٨٤٠ و١٨٥٠ ، الاصلاحيون الباريسيون من اتجاه لوي بلان : لم يكونوا يستطيعون تصور انسان بلا دين الا كوحش ، وكانوا يقولون لنا: «اذن ، فالالحاد دينكم !» وما اراده فويرباخ من اقامة الدين الحقيقي على قاعدة مفهوم مادي اساسا للطبيعة انما يعود في الواقع الى فهم الكيمياء المعاصرة بوصفها السيمياء الحقيقية . اذا كان الدين يستطيع الاستغناء عن إلهه ، فان السيمياء تستطيع ايضا ان تستغني عن حجرها الفلسفي . وتوجد من جهة أخرى رابطة وثيقة جدا بين السيمياء والدين . ان للحجر الفلسفي عددا كبيرا من الخواص شبه الإلهية ، وان للسيميائيين اليونان ــ المصريين في القرنين الأولين لعصرنا (بعد الميلاد) دورا ما في عملية إعداد المذهب المسيحي ، كما تبرهن على ذلك المعطيات التي قدمها كوب و بيرتيلو .

خاطىء تماما تأكيد فويرباخ ان «المراحل الانسانية لا تتمايز عن بعضها الا بتغيرات من نوع ديني» . ان انعطافات تاريخية كبيرة لم تكن **مترافقة** مع تغيرات من نوع ديني الا بقدر ما تدخل في الحساب الاديان العالمية الثلاثة الموجودة حتى الان : البوذية ، المسيحية والاسلام . ان الاديان القديمة للقبائل والامم التي تكونت بصورة طبيعية لم تكن تنطوي على اي نزوع تبشيري وكانت تفقد كل قدرة على المقاومة حالما يتحطم استقلال القبائل والامم ؛ لدى الجرمان كان كافيا لحدوث ذلك مجرد احتكاك

مع الامبراطورية الرومانية التي كانت تتفسخ ومع الدين المسيحي الكوني الـــذي اعتنقته للتو والذي كان يستجيب لوضعها الاقتصادي ، السياسي والايديولوجي . وفيما يخص هذه الاديان الكونية الكبيرة فقط ، التي ولدت بشكل صنعي الى هذا الحد او ذاك ، وفيما يخص المسيحية والاسلام بوجه خاص ، نلاحظ ان الحركات التاريخية الواسعة تأخذ طابعا دينيا وان هذا الطابع الديني ، حتـــى في الميدان المسيحي ، يقتصر ، بالنسبة للثورات ذات المدى الكوني حقا ، على الفترات الاولى للنضال التحرري للبورجوازية ، بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولا يفسر ، كما يظن فويرباخ ، بقلب الانسان وحاجته الى الدين ، ولكن بكل التاريخ السابق ، تاريخ العصر الوسيط الذي لم يعرف البتة شكلا آخر من الايديولوجية سوى شكل الدين واللاهوت . ولكن ، في القرن الثامن عشر ، عندما اصبحت على ما يكفي من القوة لتملك ، هي ايضا ، ايديولوجيتها الخاصة ، المطابقة لوجهة نظرها الطبقية ، صنعت ثورتها الكبيرة الحاسمة ، الثورة الفرنسية ، باللجوء فقط الى الافكـــار الحقوقية والسياسية، غير مهتمةبالدين الا بالقدر الذيكانفيه عقبة بالنسبة اليها. بيد انها تجنبت وضع دين جديد بدلا من القديم ؛ ومعروف كيف مني روبسبيير بالاخفاق في هذا المجال (١) .

ان امكانية معاناة المشاعر الانسانية الخالصة في علاقاتنا مع أمثالنا هي اليوم منفسدة بصورة كافية من قبل المجتمع المبني على التناحر وعلى الهيمنة الطبقية ، حيث نحن مجبرون على التحرك والعيش ؛ وبالتالي ، فليس ثمة من سبب في ان نفسده اكثر من ذلك برفع هذه المشاعر الى مصاف الدين . وكذلك الامر فان فهم الصراعات الطبقية الكبرى التاريخية ما يزال على ما يكفي من التعتيم بسبب مـــن الطريقة الدارجة في كتابة التاريخ ، ولاسيما في المانيا ، كما اننا لسنا في حاجة الى جعل هذا الفهم مستحيلا تماما بتحويل تاريخ هذه الصراعات الى مجرد ملحق لتاريخ الدين . هنا ، يظهر الى اي درجة ابتعدنا اليوم عن فويرباخ . ان «أجمل مقاطع» مؤلفاته المكرسة لتمجيد دين الحب الجديد هذا اصبحت اليوم لا تقرأ كلية.

ان الدين الوحيد الذي درسه فويرباخ دراسة جدية هو المسيحية ، دين الغرب، المبني على التوحيد . لقد بيّن ان الإله المسيحي ليس سوى الصورة الوهمية للانسان، سوى انعكاس له . ولكن هذا الإله هو نفسه نتاج سيرورة طويلـــة من التجريد ، خلاصة عدد غفير من آلهة القبائل والامم السابقة .. وبالتالي فان الانسان ، وليس هذا الإله سوى صورة عنه ، ليس انسانا واقعيا ، ولكنه ، هو ايضا ، خلاصة عدد كبير من البشر الواقعيين ، الانسان المجرد ، وبالتالي فهو بدوره صورة ذهنية . ان فويرباخ نفسه ، الذي يبشر في كل صفحة بالحسوية [التعلق بالملذات الجسدية] ، الذي يدعو الى الغوص في العياني ، في الحقيقة الواقعية ، يصبح تجريديا كليـــة

---

١ ــ المقصود هي المحاولة التي قام بها روبسبيير لارساء عبادة «الكائن الاسمى» .

عندما يصل الى الحديث عن علاقات اخرى غير العلاقات الجنسية بين البشر .

هذه العلاقات لا تقدم له سوى جانب واحد : الاخلاق . وهنا يذهلنا من جديد فقر فويرباخ المدهش قياسا بهيغل . ان علم الاخلاق لدى هيغل او مذهب الاخلاقية، هو فلسفة الحق ويتضمن : ١ ــ الحق المجرد ؛ ٢ــ الاخلاقية الذاتية ، ٣ــ الاخلاقية الموضوعية ، التي تتضمن ، بدورها ، العائلة ، المجتمع المدني ، الدولة . بقدر ما يكون الشكل فكرانيا ، بقدر ما يكون المحتوى هنا واقعيا . ان كل ميادين الحق ، الاقتصاد ، السياسة مجتمعة فيها ، الى جانب الاخلاق . عند فويرباخ ، الامر على عكس ذلك تماما . من زاوية الشكل نجده واقعيا ، يتخذ الانسان نقطة انطلاق ولكنه ليس معنيا ألبتة بالعالم الذي يحيا فيه هذا الانسان ، لهذا يظل على الدوام نفس الكائن المجرد الذي يثرثر في فلسفة الدين . وذلك لان هذا الانسان لم يولد في احشاء أمه ، بل هو فرخ إله الاديان التوحيدية ، لذا لا يعيش في عالم واقعي ، صيغ وتحدد تاريخيا ؛ انه على علاقة مع البشر الآخرين ، ولكن كل واحد منهم هو مجرد مثله هو . في فلسفة الدين ، لدينا على الاقل رجال ونساء ، ولكن في علم الاخلاق يزول هذا الفرق ايضا . حقا اننا نصادف لدى فويرباخ جملا كهذه : «في قصر ، يفكرون على نحو مغاير لما يفكرون في كوخ.» ــ «اذا لم يكن لديك ، بسبب من جوع او بؤس ، قوتا في الجسم ، لن يكون لديك في الراس ، في الفكر وفي القلب قوتا للاخلاق .» ــ «ينبغي ان تصبح السياسة ديننا» (١) . ولكن فويرباخ لا يعرف مطلقا ماذا يفعل بهذه الجمل ، وتبقى عنده مجرد أشكال كلامية ، وان شتاركه نفسه مضطر الى الاعتراف بأن السياسة كانت بالنسبة لفويرباخ جبهة غير قابلة للاختراق وان «السوسيولوجيا كانت بالنسبة اليه ارضا مجهولة» .

ولا يبدو لنا فويرباخ أقل سطحية بالمقارنة مع هيغل في طريقة تناوله التعارض بين الخير والشر . كتب هيغل : «يعتقدون انهم يقولون حقيقة كبرى عندما يقولون: الانسان خيِّر بطبيعته ، ولكنهم ينسون انهم يقولون حقيقة اكبر بهذه الكلمات : الانسان سيء بطبيعته» (٢) . عند هيغل ، الشر هو الشكل الذي تتجلى فيه القوة المحركة للتطور التاريخي . ان لهذه الجملة ، والحق يقال ، معنى مزدوجا : من ناحية فان كل تقدم جديد يبدو بالضرورة بمثابة جريمة ضد شيء ما مقدس ، بمثابة

---

١ ــ راجع لودفيغ فويرباخ : «ضد ثنائية الجسد والنفس ، اللحم والروح» ، في المؤلفات الكاملة ، جزء ٢ ، لايبزغ ١٨٤٦ ، ص ٣٦٣ . راجع ايضا : لودفيغ فويرباخ : «الضرورة تحكم كل القوانين وتلغيها» ، في كتاب : «لودفيغ فويرباخ من خلال مراسلاته ، مؤلفاته المنشورة بعد وفاته...» مصدر مذكور آنفا ، ص ٢٨٥ــ٢٨٦ . وكذلك لودفيغ فويرباخ : «مبادىء الفلسفة ، ضرورة تغيير . ١٨٤٢ــ١٨٤٣» ، نفس المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ٤٠٩ .

٢ ــ هذه الفكرات التي استعادها انجلس ببضع كلمات قد صاغها هيغل في مقاطع مختلفة من مؤلفاته .

تمرد ضد الحالة القديمة للاشياء التي في طريق التلف ولكن المقدسة بفعل العادة ، ومن ناحية ثانية فانه منذ ظهور التناحرات الطبقية اصبحت الاهواء الشريرة للبشر، الطمع والرغبة في الهيمنة روافع التطور التاريخي ، وتاريخ الاقطاعية والبورجوازية، مثلا ، ليس سوى برهان متواصل على ذلك . والحال انه لم يرد في خاطر فويرباخ ان يدرس الدور التاريخي للشر الاخلاقي . وبصورة عامة ، فان التاريخ هو ، في رايه ، ميدان غير لائق وغير مريح . حتى تصريحه الشهير : «الانسان الطبيعي المتحدر من الطبيعة ليس سوى مجرد كائن طبيعي ، انه لم يكن انسانا . الانسان هو نتاج الانسان ، الثقافة والتاريخ» (١) ، حتى هذا التصريح يبقى عنده عقيما كلية .

ولهذا فان ما قاله لنا فويرباخ عن الاخلاق لا يمكن ان يكون الا بالغ الفقر . ان الميل الى السعادة فطري لدى الانسان وينبغي ان يشكل في النتيجة قاعدة كل اخلاق . ولكن الميل الى السعادة خاضع الى ملطّف مزدوج . اولا ، بفعل النتائج الطبيعية لافعالنا : الصداع يتبع النشوة ، المرض يتبع الافراط الاعتيادي . ثانيا ، بفعل نتائجها الاجتماعية : اذا لم نحترم نفس الميل الى السعادة لدى الآخرين ، فانهم يقاومون ويكدرون ميلنا نحن الى السعادة . ينجم عن ذلك اننا اذا اردنا ان نشبع او نرضي ميلنا الى السعادة بتعين علينا ان نقدر بصورة صحيحة نتائج افعالنا ، ومن جهة اخرى ان نعترف بنفس الحق في الميل الى السعادة لدى الآخرين . ان التقييد الارادي العقلاني فيما يتعلق بنا نحن ، والحب ــ الحب دوما ! ــ في علاقتنا مع الآخرين يشكلان بالتالي القاعدتين الاساسيتين للاخلاق لدى فويرباخ ، التي تنبع منهما كل القواعد الاخرى . ولا يستطيع ما بسطه فويرباخ من عروض حاذقة وما اغدقه شتاركه من مدائح كبيرة ان يخفي فقر وسطحية بضع الجمل هذه .

ان الميل الى السعادة لدى الفرد لا يلبى الا بصورة استثنائية جدا ، ولا يلبى اطلاقا لصالح هذا الفرد او لصالح غيره اذا كان يهتم بنفسه حصراً . على العكس ، فهذا الميل يتطلب علاقات مع العالم الخارجي ، وسائل تلبية حاجاته من الغذاء بالتالي ، فردا من الجنس الآخر ، كتباً ، محادثات ، مناقشات ، نشاطا ، اشياء استهلاكية وعملا . ان الاخلاق عند فويرباخ ، اما ان تفترض ان هذه الوسائل واشياء تلبية الحاجات قد أعطيت دفعة واحدة لكل انسان ، واما انها لا تعطيه نصائح طيبة غير قابلة للتطبيق ، لا تعدل بالتالي فلسا احمر عند أولئك المحرومين من هذه الوسائل . وهذا ما صرح به فويرباخ بالذات بخشونة «في قصر يفكرون على نحو مغاير لما يفكرون في كوخ . اذا لم يكن لديك ، بسبب جوع او بؤس ، قوتا في الجسم ، لن يكون لديك فيالرأس ، في الفكر وفي القلب قوتا للاخلاق» .

هل تبدو الاشياء افضل عندما نكون بصدد المساواة في حق الميل الى السعادة لدى الآخرين ؟ فويرباخ يطرح هذا المطلب على نحو مطلق بوصفه صحيحا ومناسبا

---

١ ــ راجع لودفيغ فويرباخ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، لايبزيغ ١٨٤٦ ، ص ٤١١ .

لكل الازمان ولكل الظروف . ولكن منذ متى اعترف بهذا المطلب ؟ في العصور القديمة ، هل كان ثمة مساواة في حق الميل الى السعادة لدى العبيد والسادة ، وفي القرون الوسطى لدى الاقنان والبارونات ؟ الميل الى السعادة لدى الطبقة المضطهَدة الم يضحى به على الدوام وبلا شفقة وبصورة شرعية لحساب هذا الميل لدى الطبقة المهيمنة ؟ يقال : نعم ، ولكن هذا كان غير اخلاقي ، اما الان فالمساواة في الحقوق معترف بها . معترف بها قولاً ، منذ ان رات البورجوازية نفسها مضطرة ، في نضالها ضد الاقطاعية وفي مجرى تطوير الانتاج الراسمالي ، الى الغاء كل امتيازات المراتب ، اي كل الامتيازات الشخصية ، والى ان تدخل اولا مساواة الافراد في نطاق الحقوق الخاصة ، ثم ، رويدا رويدا ، في نطاق الحقوق المدنية من الزاوية القضائية . ولكن الميل الى السعادة يحتاج أقل ما يحتاج الى الحقوق الروحية ، ويحتاج اكثر ما يحتاج الى الوسائل المادية . والحال ان الانتاج الراسمالي يحرص على الا يكون للاغلبية الكبرى من الناس المتمتعة بالمساواة في الحقوق الا النزر الضروري ، وانه بالتالي لا يحترم ابدا ـ عندما يحترم ـ المساواة في حق الاغلبية في السعادة بأكثر مما يفعل المجتمع الرقي او المجتمع الاقطاعي . هل الوضع أفضل فيما يتعلق بالوسائل الروحية للسعادة ، الوسائل الثقافية ؟ ان معلم مدرسة «سادوفا» نفسه الم يكن أسطورة ؟.(١)

ولكن هذا ليس كل شيء . فبموجب النظرية الفويرباخية في الاخلاق ، ان البورصة هي المعبد الاسمى للاخلاق ... شرط ان يضاربوا فيها دوما بشكل صحيح . اذا كان ميلي الى السعادة يقودني الى البورصة واذا كنت أزن فيها جيدا نتائج أفعالي التي لا تأتي لي الا بالفوائد وبدون اي غم ، اي اذا كنت اربح دوما ، عندئذ تكون وصفة فويرباخ قد نفذت . عندما يجري ذلك ، فانني لا اكون قد نلت من نفس هذا الميل الى السعادة الذي لشخص آخر ، وذلك لان هذا الشخص الآخر قد ذهب مثلي طوعا الى البورصة ، وهو عندما يعقد معي صفقة انما يتبع ، مثلي ، ميله الى السعادة . وهو اذا خسر نقوده ، فان فعله هذا يتكشف قطعا بمثابة فعل غير اخلاقي لانه حسبها حسابا خاطئا ، وعندما أجعله يحمل الجزاء الذي يستحقه، فانني استطيع ان أفخر بنفسي لكوني اصبحت «رادامانت» (٢) العصري . ان الحب يسود ايضا في البورصة بالقدر الذي لا يكون فيه جملة عاطفية فقط ، وذلك لان كل فرد فيها يجد في الآخر تلبية ميله الى السعادة . والحال ، أليس هذا ما ينبغي ان يفعله الحب والشكل الذي يتجلى فيه في الممارسة ؟ واذا حسبت بتوقع صحيح

---

١ ـ ان انتصار البروسيين في «سادوفا» ـ ٣ تموز ١٨٦٦ ـ قد اعتبر من قبل المؤرخين البورجوازيين الالمان «انتصارا للثقافة والمعرفة» . وصاغوا الكلمة الشهيرة : «انتصار سادوفا هو انتصار معلم المدرسة البروسي» .

٢ ـ ان روح العدل لديه جعلته بمثابة قاض في جهنم في الخرافات اليونانية .

نتائج عملياتي ، وبالنتيجة بنجاح ، اكون قد قمت بدقة بجميع متطلبات الاخلاق الفويرباخية وإغتني فضلا عن ذلك . وبتعبير آخر ، فان أخلاق فويرباخ قد فصلت على قد المجتمع الراسمالي الراهن وان لم يع هو ذلك او يشك به .

ولكن الحب ! ـ نعم ، الحب هو في كل مكان وزمان الإله الساحر الذي يتعين عليه ، في راي فويرباخ ، ان يساعد على تذليل كل صعوبات الحياة العملية ـ وهذا في مجتمع مقسم الى طبقات لها مصالح متناقضة تماما . من هذه الزاوية يزول من فلسفته آخر رواسب طابعها الثوري ، ولا تبقى الا اللازمة القديمة : احبوا بعضكم بعضا ! ـ تعانقوا دون تمييز في الجنس والوضع ! ـ حلم المصالحة الكونية !

والخلاصة ، ان الامر بالنسبة لنظرية الاخلاق لدى فويرباخ يشبه كل النظريات التي سبقتها . انها ملائمة لكل الازمان ، لكل الشعوب ، لكل الظروف ، ولهذا بالضبط فانها ليست صالحة البتة للتطبيق في اي زمان ولا في اي مكان ، ولهذا تبقى عاجزة ازاء العالم الواقعي شأن «الامر القاطع» الذي يقول به كانط . الواقع ان لكل طبقة ، بل لكل مهنة أخلاقها الخاصة ، وهي تخرقها حيثما تستطيع أن تفعل ذلك بلا عقاب ، والحب الذي يفترض فيه ان يوحد كل العالم يتجلى في الحروب، النزاعات ، الخصومات ، الخلافات المنزلية ، الطلاق واستغلال البعض للبعض الآخر الى أقصى حد .

ولكن كيف كان ممكنا ان يبقى الدفع المدهش الذي اعطاه فويرباخ على هذا العقم بالنسبة اليه هو نفسه ؟ لمجرد ان فويرباخ لم يستطع الخروج من ملكوت التجريد الذي كان يكرهه حتى الموت ولم يجد الطريق الى الحقيقة ألواقعية الحية. انه يتمسك بكل قواه بالطبيعة وبالانسان ، ولكن الطبيعة والانسان يظلان بالنسبة اليه مجرد كلمتين . انه لا يستطيع ان يقول شيئا واضحا لا عن الطبيعة الواقعية ولا عن الانسان الواقعي . والحال انه لا يمكن الانتقال من انسان فويرباخ المجرد الى البشر الواقعيين الاحياء الا اذا تأملناهم وهم يفعلون في التاريخ. ان فويرباخ يرفض ذلك ، ولهذا فان العام ١٨٤٨ (١) ، الذي لم يفهمه ، لم يعنِ بالنسبة له سوى القطيعة النهائية مع العالم الواقعي والانسحاب الى العزلة . ان مسؤولية ذلك انما تقع اساسا ، ونكرر ذلك ، على الظروف والشروط الالمانية التي تركته ينهار على نحو يرثى له .

لكن الخطوة التي لم يخطها فويرباخ لم يكن ممكنا الا ان تخطى ؛ ان تقديس الانسان المجرد الذي كان يشكل مركز الدين الجديد الفويرباخي تعيّن بالضرورة ان يعوض بعلم البشر الواقعيين وتطورهم التاريخي . هذا التطوير اللاحق لوجهة نظر فويرباخ الى ما يتجاوز فويرباخ نفسه دشنه ماركس عام ١٨٤٥ في كتابه **«العائلة المقدسة»** .

---

١ ـ المقصود هنا ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ البورجوازية الديمقراطية في المانيا .

## ٤. المادية الديالكتية

لقد كان شتراوس ، بوير ، شتيرنر ، فويرباخ ، استطالات (او امتدادات) للفلسفة الهيغلية بالقدر الذي لم يبارحوا فيه ارض الفلسفة . بعد كتابيه «حياة يسوع» و«المعتقدي»، لم يكتب شتراوس سوى أدب فلسفي وتاريخ ديني على طريقة رينان ؛ بوير لم ينجح في ان يصنع شيئا ما الا في ميدان تاريخ المسيحية ونشوئها، ولكنه شيء بارز في الحقيقة ؛ شتيرنر بقي طرفة حتى بعد ان خلطه باكونين مع برودون وعمد هذا الخليط باسم «الفوضوية»؛ فويرباخ وحده كان بارزا كفيلسوف. ولكن الفلسفة ، المزعومة علم العلوم المحلق فوق كل العلوم الخاصة والذي يستخلص منها تركيبة ، بقيت بالنسبة اليه حاجزا لا يخترق ، خيمة منيعة ؛ بل وقف في منتصف الطريق كفيلسوف فكان ماديا من تحت وفكرانيا من فوق ؛ وهو لم يعرف كيف يتخلص من هيغل بواسطة النقد ، بل نبذه ببساطة كشيء غير قابل للاستعمال، في حين انه هو نفسه ، قياسا بالثروة الموسوعية لمنظومة هيغل ، لم يحقق البتة من شيء ايجابي سوى دين منتفخ للحب واخلاق فقيرة عاجزة .

لكن، من تحلل المدرسة الهيغلية خرج ايضا اتجاه آخر، وهو الوحيد الذي اعطى ثمارا حقا ، وهذا الاتجاه مرتبط اساسا باسم ماركس (١) .

القطيعة مع الفلسفة الهيغلية حدثت هنا ايضا عن طريق العودة الى وجهة النظر المادوية . هذا يعني اننا صممنا ان نفهم العالم الواقعي ـ الطبيعة والتاريخ ـ كما يبدو لكل من ينظر اليه بدون نزوات فكرانية مسبقة ؛ قررنا ان نضحي بلا رحمة بكل نزوة فكرانية يستحيل التوفيق بينها وبين الوقائع منظورا اليها في علاقاتها الخاصة لا في علاقاتها الوهمية . والمادوية لا تعني حقا اكثر من ذلك . فقط ، كانت هذه هي المرة الاولى التي حمل فيها على محمل الجد المفهوم المادي للعالم ، وطبق فيها ذلك المفهوم على نحو حصيف على سائر ميادين المعرفة ـ في خطوطها الكبرى على الاقل .

---

١ ـ ارجو ان يسمح لي هنا بايضاح شخصي . لقد اشاروا حديثا غير مرة الى نصيبي في اعداد هذه النظرية ، ولهذا اراني مضطرا هنا الى قول بعض الكلمات التي توضح هذه النقطة . انني لا استطيع ان انكر انني اسهمت ، قبل واثناء تعاوني مع ماركس خلال اربعين سنة ، بنصيب ما سواء في اعداد النظرية او تطويرها بخاصة . ولكن القسم الاكبر من الافكار الموجهة الاساسية ، وبخاصة في الميدان الاقتصادي والتاريخي ، وبشكل أخص صياغتها النهائية المدققة ، هو من صنع ماركس. وما أسهمت به ـ باستثناء بعض الفروع الخاصة ـ كان ممكنا لماركس ان يحققه بدوني . ولكن ما فعله ماركس لم يكن بمقدوري ان أصنعه . ان ماركس تجاوزنا جميعا ، كان يرى ابعد واوسع واسرع منا جميعا . كان ماركس عبقريا ، اما نحن فكنا موهوبين على اكثر تقدير . لولاه لكانت النظرية بعيدة جدا عما هي اليوم . ولهذا فهي تحمل اسمه بحق . ـف.ا.ـ

لم نرض بوضع هيغل جانبا ببساطة : بالعكس ، أنطلقنا من الجانب الثوري في فلسفته ، الذي بسطناه قبلا ، من المنهج الديالكتي . ولكن هذا المنهج كان غير صالح للاستعمال في صيغته الهيغلية . عند هيغل ، الديالكتيك هـو الـ فكرة المطوّرة لذاتها . الـ فكرة المطلقة لا توجد منذ الأزل فحسب ــ لا نعرف اين ــ ولكنها ايضا الروح الحقيقية للعالم القائم كله . وهي تتطور وتنبسط لكي تعود الى ذاتها عبر كل المراحل التمهيدية ، وقد عولجت باسهاب في كتابه «المنطق» ، التي هي مندرجة فيها . ثم «تستلب» متحولة الى طبيعة ، او ، دون ان تعي نفسها، تتنكر في شكل ضرورة طبيعية ، وتمر في تطور جديد ، وتعود في النهاية الى وعي نفسها في الانسان ؛ هذا الوعي للنفس ينعد وينضج بدوره في التاريخ حتى تتم في النهاية عودة كاملة للـ فكرة المطلقة الى نفسها في فلسفة هيغل . في راي هيغل ، ان التطور الديالكتي الذي يتجلى في الطبيعة وفي التاريخ ، اي التسلسل السببي للتقدم من الادنى الى الاعلى الذي يفرض نفسه عبر كل الحركات المتعرجة وكل القهقرات الموقتة، ليس سوى نسخة عن الحركة الذاتية للـ فكرة ، حركة تتلاحق منذ الأزل ، لا ندري اين ، ولكن ، في كل الاحوال ، بصورة مستقلة عن كل دماغ انساني مفكر . هذا هو القلب (او العكس) الايديولوجي الذي كنا بصدد تصفيته . فهمنا على نحو جديد افكار دماغنا من خلال وجهة نظر مادوية ، بوصفها انعكاسات للاشياء ، بدلا من اعتبار الاشياء الواقعية بمثابة انعكاسات لهذه الدرجة او تلك للـ فكرة المطلقة . لهذا السبب يُرد الديالكتيك الى علم القوانين العامة للحركة ، سواء في العالم الخارجي او في الفكر الانساني ــ مجموعتان من القوانين المتشابهة من حيث الاساس ، ولكنها مختلفة في تعبيرها بمعنى ان الدماغ الانساني يمكن ان يطبقها بوعي ، في حين انها في الطبيعة ، وحتى اليوم بالنسبة للقسم الاعظم من التاريخ الانساني ، لا تشق طريقها الا بصورة لا واعية ، في شكل ضرورة خارجية ، وسط سلسلة لامتناهية من الصدف الظاهرة . من هنا ، فان ديالكتيك الـ فكرة نفسه لم يصبح سوى مجرد انعكاس واع للحركة الديالكتية للعالم الواقعي ، وبذلك يوضع رأس ديالكتيك هيغل فوق ، او على الاصح يوقف على رجليه من جديد . وان هذا الديالكتيك المادي ، الذي كان منذ سنوات أفضل أدوات عملنا وسلاحنا الاكثر مضاء ، كان ، وهذا امر بارز ، قد اكتشف من جديد لا من قبلنا نحن فقط ، بل ايضا وبصورة مستقلة عنا بل وعن هيغل ، من قبل عامل الماني يدعى «جوزيف ديتسغن» (١) .

بذلك استعيد الجانب الثوري من فلسفة هيغل ، وحُرر في نفس الوقت من غلافه الفكراني الذي كان يحول ، عند هيغل ، دون تطبيقه تطبيقا حصيفا . ان الفكرة الاساسية الكبرى القائلة بأن العالم لا ينبغي ان يعتبر كمركّب من **أشياء** مكتملة ناجزة

---

١ ــ راجع : «جوهر العمل الذهني الانساني كما يعرضه عامل يدوي ــ نقد جديد للعقل الخالص والعملي» ، هامبورغ ، ميسنر ، ١٨٦٩ . ــف.١٠ــ

بل كمركب من **سيرورات** حيث الاشياء ، التي تبدو ثابتة في الظاهر ، وكذلك انعكاساتها الذهنية في دماغنا ، اي المفاهيم ، تمر في تغير متواصل من الصيرورة والزوال وحيث ، في النهاية ، ورغم كل الصدف الظاهرة والرجعات الموقتة ، يشق الطريق تطور تدريجي ــ هذه الفكرة الاساسية الكبرى قد تغلغلت ، منذ هيغل ، بعمق في الوعي الدارج بحيث انها لم تعد تجد تقريبا معارضة وهي في اطار هذه الصيغة العامة . ولكن الاعتراف الكلامي بها وتطبيقها ، في الواقع ، تفصيلا ، على كل ميدان خاضع للبحث ، هما شيئان مختلفان . والحال اننا اذا انطلقنا دوما من وجهة النظر هذه فاننا نتخلى نهائيا عن طلب حلول نهائية وحقائق خالدة ؛ ونحن نعي دوما السمة المحدودة بالضرورة لكل معرفة مكتسبة ، تبعيتها ازاء الظروف او الشروط التي **اكتسبت** فيها ؛ ولا نعود نسمح بأن تفرض علينا ايضا تلك المتعارضات المستعصية بالنسبة للميتافيزياء القديمة الرائجة على الدوام ، متعارضات الحقيقة والخطأ ، الخير والشر ، التماثل والاختلاف ، الضروري والعرَضي ؛ ونحن نعلم ان ليس لهذه المتعارضات الا قيمة نسبية ، ما هو معترف به الان كصحيح له جانبه الخاطىء الخبيء الذي سيظهر فيما بعد ، شأن ما يُعترف به الان بوصفه خطأ له جانبه الصحيح الذي بفضله امكن في السابق اعتباره صحيحا ؛ وان ما يؤكد انه ضروري مؤلف من صدف خالصة وان ما يزعم انه صدفة هو الشكل الذي تختبىء تحته الضرورة ــ وهكذا دواليك .

ان المنهج القديم في البحث والتفكير ، الذي سماه هيغل المنهج «الميتافيزيائي» الذي يُعنى بالافضلية بدراسة **الاشياء** المعتبرة مواضيع ثابتة معطاة والتي ما تزال بقاياها متسلطة على العقول ، كان ، في زمنه ، مبررا جدا من الناحية التاريخية . كان ينبغي باديء بدء دراسة الاشياء قبل ان يصبح من الممكن دراسة السيرورات . كان ينبغي اولا معرفة ما كانه هذا الشيء او ذاك قبل ان يصبح بالامكان ملاحظة التعديلات التي تحدث فيه . هذا هو ما حدث في علم الطبيعة . ان الميتافيزياء القديمة ، التي كانت تعتبر الاشياء قد صُنعت مرة واحدة ونهائيا ، كانت نتاج علم طبيعة كان يدرس الاشياء الميتة والحية بوصفها اشياء قد صنعت مرة واحدة ونهائيا. ولكن عندما تقدمت هذه الدراسة الى النقطة التي اصبح فيها التقدم الحاسم ممكنا، اي الانتقال من الدراسة المنهجية للتعديلات الحاصلة في هذه الاشياء في حضن الطبيعة نفسها ، في هذه اللحظة دق ايضا في الميدان الفلسفي ناقوس نعي الميتافيزياء القديمة . وبالفعل ، حتى نهاية القرن الاخير ، فان علم الطبيعة اذا كان بصورة رئيسية علم تجميع الوقائع ، علم الاشياء الناجزة ، الا انه أصبح من حيث الاساس ، في عصرنا ، علم **تصنيف** ، علم سيرورات ، اصل وتطور هذه الاشياء والصلة التي تربط وتنظم هذه السيرورات الطبيعية في كل واحد كبير . ان علم وظائف الاعضاء (الفيزيولوجيا) الذي يدرس ظاهرات العضوية النباتية والحيوانية ، علم الاجنة (امبريولوجيا) الذي يدرس تطور كل عضوية منذ الجنين حتى النضج ، الإراضة (الجيولوجيا) التي تدرس التكوّن التدريجي للقشرة الارضية ، كل هذه

العلوم هي بنات قرننا هذا .

ولكن هناك ثلاثة اكتشافات كبيرة على الاخص هي التي قدمت بخطى عملاقة معرفتنا حول ترابط السيرورات الطبيعية : اولا ، اكتشاف الخلية بوصفها الوحدة التي تنمو انطلاقا منها عن طريق التكاثر والتمايز كل العضوية النباتية والحيوانية ؛ وبالتالي فان هذا الاكتشاف قد جعلنا نعترف ان تطور ونمو سائر العضويات العليا انما يتمان حسب قانون شمولي واحد ، بل ايضا جعلنا نعترف ان قدرة التغيير لدى الخلية تظهر السبيل الذي يمكن للعضويات ان تعدل بواسطته نوعها ، و ، عبر هذا ، ان تتطور تطورا أبعد من ان يبقى مجرد تطور فردي. ـ ثانيا ، اكتشاف تحول الطاقة، الذي أرانا كل ما يزعم انه قوى تفعل بالدرجة الاولى في الطبيعة غير العضوية ، القوة الإوالية (الميكانية) ومتممتها الطاقة المسماة كامنة ، الحرارة ، الاشعاع (الضوء او الحرارة المشعة) ، الكهرباء ، المغناطيس ، الطاقة الكيماوية بصفتها تظاهرات مختلفة لحركة كلية تنتقل من واحدة الى أخرى وفق نسب كمية معينة ، بحيث انه حين تختفي كمية معينة من واحدة تظهر كمية معينة من أخرى ، وعلى هذا النحو فان كل حركة الطبيعة انما ترد الى هذه السيرورة غير المنقطعة لتحول شكل الى آخر . ـ ثالثا ، البرهان الجماع الذي صاغه للمرة الاولى داروين ، القائل بأن جميع نتاجات الطبيعة التي تحيط بنا الان ، بما في ذلك البشر ، هي نتاج سيرورة طويلة من التطور انطلاقا من عدد صغير من الاجنة وحيدة الخلية في الاصل ، وان الاخيرة هذه متحدرة بدورها من الجبلة (بروتوبلاسم) أو من جسم آحيني تكوّن بطريقة كيماوية .

بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى وبفضل التقدمات المدهشة لعلم الطبيعة، نستطيع اليوم ان نبين الخطوط الكبرى ليس فقط للترابط بين ظاهرات الطبيعة في ميادينها المختلفة كل واحد على حدة ، ولكن ايضا صلة مختلف الميادين فيما بينها ، وبالتالي ان نقدم لوحة جماعا لترابط الطبيعة ضمن شكل منهجي تقريبا ، بواسطة الوقائع التي زوّدنا بها العلم الاختباري للطبيعة نفسها . في السابق ، كان تقديم هذه اللوحة الجماع ملقى على عاتق ما كان يسمى بفلسفة الطبيعة. وهي لم تستطع ان تقوم بهذه المهمة الا عندما عوضت الصلات الواقعية التي كانت ما تـزال غير معروفة بصلات وهمية ، خيالية ، باكمال الوقائع الناقصة بفكرات ، وبسد خيالي للثغرات الموجودة في الواقع . وعندما تصرفت على هذا النحو ، توصلت الى عدد من الفكرات العبقرية ، وحدست عدداً من الاكتشافات اللاحقة ، ولكنها ارتكبت ايضا ، ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك ، عددا لا بأس به من الحماقات . واليوم ، حيث يكفي تفسير نتائج دراسة الطبيعة ديالكتيا ، اي من زاوية الترابط الذي هو خاص بها ، للوصول الى «منظومة للطبيعة» مرضية بالنسبة لعصرنا ، حيث تفرض نفسها الخاصة الديالكتية لهذا الترابط ، شاءوا ام أبوا ، على أدمغة العلماء الذين تكوّنوا في المدرسة الميتافيزيائية ، ـ اليوم طرحت فلسفة الطبيعة بصورة نهائية جانبا . ان كل محاولة لبعثها ليست نافلة فقط ، **بل تقهقرا الى وراء ايضا** .

ولكن ما هو صحيح بالنسبة للطبيعة ، المعترف بها كذلك بسبب هذا الواقع

كسيرورة تطور تاريخي ، صحيح ايضا بالنسبة لتاريخ المجتمع في سائر فروعه وبالنسبة لجمّاع كل العلوم التي تبحث في الاشياء البشرية (او الإلهية) . هنا ايضا، كانت فلسفة التاريخ ، الحق ، الدين ، الخ ، تقوم على تعويض التسلسل الترابطي الفعلي الذي ينبغي اثباته بين الحوادث بالتسلسل الترابطي الذي يخترعه دماغ الفيلسوف ، حول تصور التاريخ ، في جمّاعه كما في مختلف أجزائه ، بوصفه التحقيق التدريجي للافكار ، ودوما بالطبع الافكار المفضلة لدى الفيلسوف نفسه وحدها . على هذا النحو ، يعمل التاريخ بدون وعي ، ولكن بالضرورة في اتجاه هدف معين فكراني محدد **قبليا** ، وهذا الهدف كان لدى هيغل مثلا تحقيق **فكرة** المطلقة ، وان السير الدائم نحو هذه الـ **فكرة** المطلقة يشكل التسلسل الترابطي الداخلي للاحداث التاريخية . وهكذا يُحلون مكان التسلسل الفعلي ، وما يزال غير معروف ، عناية إلهية ملغّزة ، ـ لا واعية او تعي نفسها شيئا فشيئا . فالمقصود هنا بالتالي ، كما في ميدان الطبيعة تماما ، الغاء هذا التسلسل الترابطي المخترع ، الصنعي ، باستخلاص وابراز التسلسل الترابطي الفعلي ؛ وهذه مهمة تنحصر ، آخر الامر ، في اكتشاف القوانين العامة للحركة التي تفرض نفسها ، في تاريخ المجتمع البشري ، كقوانين مهيمنة .

والحال ان تاريخ تطور المجتمع يتكشّف ، في نقطة واحدة ، عن انه مختلف اختلافا اساسيا عن تاريخ تطور الطبيعة . في الطبيعة ، ـ بالقدر الذي نترك جانبا رد الفعل الذي يمارسه الانسان عليها ، ـ وحدها العوامل غير الواعية والعمياء هي التي يؤثر بعضها على البعض الآخر وان في لعبتها المتغيرة يتجلى القانون العام . من بين كل ما يحدث ، ـ اعداد لا تحصى من الصدف الظاهرة ، المرئية على السطح ، بوصفها النتائج النهائية التي تؤكد وجود ضابط في داخل هذه الصدف ، ـ لا شيء يحدث بصفته هدفا واعيا ، منشودا . بالمقابل ، في تاريخ المجتمع ، فان هؤلاء الذين يفعلون هم حصرا البشر المنعمون بوعي ، المتحركون بتفكير او بهوى ، المتابعون اهدافا محددة ؛ لا شيء يحدث دون نية واعية ، دون هدف مطلوب . ولكن هذا الفرق ، مهما بلغت أهميته بالنسبة للبحث التاريخي ، وبخاصة بحث العصور والحوادث مأخوذة على حدة ، لا يمكن ان يغير البتة في واقع ان مجرى التاريخ خاضع لقوانين عامة داخلية . ذلك لانه ، هنا ايضا ، رغم الاهداف الواعية التي يلاحقها كل الافراد ، نرى ان الصدفة هي التي ، بصورة عامة ، تسود في الظاهر على السطح . ولا تتحقق النية المنشودة الا نادرا ؛ في معظم الحالات ، الكثير من الاهداف الموضوعة نصب الأعين تتقاطع وتتناقض ، او انها هي نفسها تكون مسبقا غير قابلة للتحقيق ، او ان وسائل تحقيقها تكون غير كافية . وعلى هذا النحو فان نزاعات عدد لا يحصى من الارادات والافعال الفردية تخلق في الميدان التاريخي حالة مماثلة تماما للحالة السائدة في الطبيعة غير الواعية . ان اهداف الافعال هي منشودة ، ولكن النتائج التي تلي فعليا هذه الافعال ليست كذلك ، واذا ظهر في البداية انها تناسب او تطابق الهدف المتابَع ، فان النتائج التي تأتي في النهاية تكون

شيئا آخر مختلفا تماما عما كانوا ينشدون . وعلى هذا فان الحوادث التاريخية تبدو اجمالا ايضا خاضعة للصدفة . ولكن حيثما بدا ان الصدفة تلعب على السطح ، فانها تبقى دوما تحت سلطان قوانين داخلية خفية ، والمطلوب فقط هو اكتشافها .

البشر يصنعون تاريخهم ، ايا كان المجرى الذي يأخذه ، بمتابعة كل واحد منهم اهدافه الخاصة ، المنشودة بوعي ، وبالضبط من حصيلة هذه الارادات الكثيرة الفاعلة باتجاهات مختلفة ومضاعفاتها المتنوعة على العالم الخارجي يتألف التاريخ . اذن فالمهم هنا هو ما يريده كثرة من الافراد . ان ما يحدد الارادة هو الهوى والتفكير. ولكن الروافع التي تحدد مباشرة بدورها الهوى او التفكير ذات طبيعة مختلفة جدا. وهذه الروافع يمكن ان تكون أما اشياء خارجية او دوافع من نوع فكراني : طموح، «حمية للحقيقة والعدالة» ، حقد شخصي او شتى انواع النزوات الشخصية الخالصة ايضا . غير اننا ، من جهة ، رأينا ان الارادات الفردية الكثيرة التي تفعل في التاريخ تفرز ، في معظم الاحيان ، نتائج مختلفة تماما عن تلك التي أرادوها هدفا لهم ، ــ وفي كثير من الاحيان معاكسة مباشرة ، ــ وان بواعثهم ليس لها بالنتيجة سوى اهمية ثانوية بالنسبة للنتيجة النهائية . ومن جهة اخرى ، من الممكن ان نتساءل ما هي ، بدورها ، القوى المحركة الخبيئة خلف هذه البواعث ، وما هي العلل التاريخية التي تتحول الى هذه البواعث في أدمغة البشر الذين يفعلون .

هذه المسألة ، لم تطرحها على نفسها البتة المادوية السابقة . ولهذا فان مفهومها للتاريخ ، في حدود ما تملك في النهاية من مفاهيم ، هو مفهوم ذرائعي اساسا ؛ انه يحكم على كل شيء تبعا لبواعث الفعل ، تقسم البشر المارسين فعلا تاريخيا الى نفوس شريفة ونفوس غير شريفة ، وتلاحظ بعدئذ بانتظام ان الشرفاء هم الاغرار المغفلون وان غير الشرفاء هم الظافرون ، وينتج من هذا انه لا يوجد البتة ، في رأي المادوية القديمة ، من عبرة مفيدة في دراسة التاريخ ، اما في رأينا فان المادوية القديمة ، في ميدان التاريخ ، غير امينة لنفسها وذلك لانها تعتبر سببا اخيرا القوى المحركة الفكرانية الفاعلة في هذا الميدان ، بدلا من ان تفحص ما هو موجود وراءها، وما هي القوى المحركة لهذه القوى المحركة . ان التهافت لا يتمثل في الاعتراف بقوى محركة فكرانية ، لكن في عدم الصعود الى أعلى نحو اسبابها المحدّدة . وبالمقابل، فان فلسفة التاريخ ، كما قدمها هيغل بخاصة ، تعترف ان البواعث الظاهرية والبواعث التي تحدد فعلا أفعال البشر في التاريخ ليست البتة الاسباب الاخيرة للحوادث التاريخية ، وان وراء هذه البواعث تكمن قوى اخرى محدّدة ينبغي البحث عنها بدقة ؛ ولكنها لا تفتش عنها في التاريخ نفسه ، بل بالاحرى تستوردها من الخارج ، من الايديولوجيا الفلسفية ، الى التاريخ . بدلا من أن يفسر تاريخ اليونان القديمة بتسلسله الترابطي الداخلي ، يؤكد هيغل ببساطة ، مثلا ، ان هذا التاريخ ليس شيئا آخر سوى اعداد «أشكال للفردية الجميلة»، تحقيق لـ «روائع الفن» كما هي. وهو يقول ، في هذه المناسبة ، كثيرا من الاشياء الجميلة والعميقة عن اليونان القدماء ، ولكن هذا لا يمنع اننا لم نعد نستطيع اليوم الاكتفاء بتفسير كهذا ، الذي

هو مجرد جُمل لا اكثر .

واذا كان المقصود ، بالنتيجة ، التفتيش عن القوى المحركة التي ــ بوعي او بلا وعي و ، ينبغي القول ، بلا وعي في الغالب ــ توجد وراء دوافع الافعال التاريخية للبشر والتي تشكل في الواقع القوى المحركة الاخيرة للتاريخ ، ولكن لا يمكن ان يكون المقصود بواعث الافراد ، مهما كانت عظمتهم ، بقدر البواعث التي تحرك جماهير كبيرة ، شعوبا بأسرها ، و ، في كل شعب ، بدوره ، طبقات بأسرها ، وكذلك البواعث التي تدفعهم لا الى جيَشان عابر والى نار هشيم سرعان ما تنطفيء ، بل الى فعل معمّر طويل يؤول الى تغيير تاريخي كبير . ان القاء الضوء على الاسباب المحركة التي ، على نحو واضح او ملتبس ، مباشر او بشكل ايديولوجي بل مؤلّه ، تنعكس هنا في عقول الجماهير الفاعلة وزعمائها (هؤلاء الذين يدعونهم الرجال العظماء) كحوافز واعية ، ــ هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكن ان يضعنا في أثر القوانين التي تهيمن على التاريخ في جُماعه ، وكذلك في مختلف العصور وفي مختلف البلدان . كل ما يحرك البشر ينبغي ان يمر بالضرورة بدماغهم ، ولكن الشكل الذي يأخذه في هذه الادمغة يتعلق الى درجة كبيرة بالظروف . ان العمال ليسوا البتة متصالحين مع الرأسمالية عندما كفوا عن تحطيم الماكينات ، كما كانوا يفعلون حتى العام ١٨٤٨ في (اقليم) رينانيا .

واذا كان ، في العصور السابقة كلها ، البحث عن هذه الاسباب المحركة للتاريخ غير ممكن تقريبا ــ بسبب التشابك في روابطها ومفاعيلها وطابعها المقنع ، ــ الا ان عصرنا قد بسَّط هذا التسلسل الترابطي بحيث أصبح من الممكن حل اللغز . منذ انتصار الصناعة الكبيرة ، اي على الاقل منذ معاهدة الصلح لعام ١٨١٥ ، لم يعد سرا على احد في انكلترا ان كل الصراع السياسي فيها يدور حول مطلب الهيمنة الذي تريده لنفسها كل من طبقتي الارستقراطية العقارية Landed Aristocracy والبورجوازية Middle Class . في فرنسا ، مع عودة أسرة «بوربون» أخذوا يعون نفس الواقع ؛ ان مؤرخي فترة عودة الملكية Restauration ، من تييري الى غيزو ، مينيه وتيير يشيرون الى ذلك بوصفه المفتاح الذي يتيح فهم كل تاريخ فرنسا منذ العصور الوسطى . ومنذ العام ١٨٣٠ ، اعترف بالطبقة العاملة ، البروليتاريا ، بوصفها الطبقة المناضلة الثالثة في سبيل السلطة في هذين البلدين. لقد بلغ الوضع درجة من البساطة بحيث غدا من الضروري اغماض الأعين لكي لا يرى المرء في صراع هذه الطبقات الكبرى الثلاث وفي تصادم مصالحها القوة المحركة للتاريخ الحديث ــ على الاقل في البلدين الاكثر تقدما .

ولكن كيف تكوّنت تلك الطبقات ؟ اذا كان من الممكن ان تعزى لاول وهلة الملكية الكبيرة للارض التي كانت في السابق اقطاعية الى منشأ متحدر ــ في البداية على الاقل ــ من اسباب سياسية ، من تملك بالعنف ، فان هذا لم يكن ممكنا بالنسبة للبورجوازية والبروليتاريا . هنا ، كان منشأُ وتطور هاتين الطبقتين الكبيرتين يبدو بصورة واضحة وملموسة كشيء نابع من اسباب اقتصادية خالصة . كان جليا

كذلك ، في الصراع بين الملكية العقارية والبورجوازية ، كما في الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا ، اننا ، في الدرجة الاولى ، ازاء مصالح اقتصادية لم تكن السلطة السياسية سوى مجرد وسيلة لتأمينها . ان البورجوازية والبروليتاريا قد تكوّنتا اثر تغير الشروط الاقتصادية ، والاصح تغير أسلوب الانتاج . ان الانتقال اولا من الحرفة الاصنافية الى المانيفاتورة الى الصناعة الكبيرة التي تستخدم الماكينات والتي تعمل بالبخار هو الذي نما وطوّر هاتين الطبقتين . في درجة معينة من هذا التطور ، القوى المنتجة الجديدة التي حرّكتها البورجوازية ـ بالدرجة الاولى ، تقسيم العمل وجمع عدد كبير من العمال المبعثرين في مانيفاتورة واحدة ـ وكذلك الشروط والحاجات التي خلقتها ، اصبحت متعارضة مع النظام الانتاجي القائم ، الموروث من التاريخ والمكرس بالقانون ، اي مع امتيازات الاصناف وامتيازات لا تحصى شخصية ومحلية (التي كانت تشكل عقبات كثيرة بالنسبة للفئات غير المتمتعة بامتيازات) يتمتع بها النظام الاجتماعي الاقطاعي . ان القوى المنتجة ، ممثلة بالبورجوازية ، قد تمردت ضد نظام الانتاج الممثل بالملاكين العقاريين الاقطاعيين وبمعلمي الاصناف الحرفية . اننا نعرف النتيجة . القيود الاقطاعية كسرت ، في انكلترا تدريجيا ، في فرنسا دفعة واحدة ، في المانيا لم تصل بعد الى نهايتها . وكما انه في مرحلة معينة من التطور دخلت المانيفاتورة في نزاع مع نمط الانتاج الاقطاعي، كذلك الامر الان فان الصناعة الكبيرة قد دخلت في نزاع مع نظام الانتاج البورجوازي الذي حل محله . ان هذه الصناعة ، المقيدة بهذا النظام ، بالاطارات الضيقة لنمط الانتاج الرأسمالي ، تخلق ، من جهة ، برتلة متزايدة على الدوام للكتلة الكبيرة من الشعب بأسره و ، من جهة اخرى ، كمية متزايدة باستمرار من منتوجات يستحيل تصريفها . انتاج فائض وبؤس للجماهير ، وكل منهما سبب للآخر ، هذا هو التناقض غير المعقول التي تنتهي اليه الصناعة الكبيرة والذي يتطلب حتما تحرير القوى المنتجة بتغيير نمط الانتاج .

من الثابت اذن ، في التاريخ الحديث على الاقل ، ان كل الصراعات السياسية هي صراعات طبقية وان كل الصراعات الطبقية الانعتاقية ، رغم شكلها الذي هو سياسي بالضرورة ـ لأن كل صراع طبقي هو صراع سياسي ـ تدور ، في آخر تحليل ، حول الانعتاق **الاقتصادي** . بالتالي ، فان الدولة ، النظام السياسي يشكلان ، هنا على الاقل ، عنصرا ثانويا ، والمجتمع المدني ، ميدان العلاقات الاقتصادية ، يشكل العنصر الحاسم . ان المفهوم التقليدي القديم ، الذي كان يؤمن به هيغل هو ايضا ، يرى في الدولة العنصر المحدّد ، وفي المجتمع المدني العنصر المحدّد من قبل الاول . أن الامر لكذلك ظاهريا . وكما ان ، لدى الشخص المنعزل ، كل القوى المحركة لافعاله لا بد ان تمر بالضرورة بدماغه ، تتحول الى محركات لارادته لكي تحمله على الفعل ، كذلك الامر فان كل حاجات المجتمع المدني ـ أيا كانت الطبقة المتربعة في السلطة ـ ينبغي ان تمر بارادة الدولة لكي تفرض نفسها شموليا على شكل قوانين . ذلك هو الجانب الشكلي للشيء الذي يفهم من تلقاء نفسه ؛

والمسألة هي فقط معرفة ما مضمون هذه الارادة الشكلية الخالصة ـ ارادة الفرد وإرادة الدولة سواء بسواء ـ ومن اين اتى هذا المضمون ، لماذا يُراد هذا الشيء ولا يُراد آخر . واذا فتشنا عن سبب ذلك ، نجد ان ، في التاريخ الحديث ، ارادة الدولة محددة في جماعها بالحاجات المتغيرة للمجتمع المدني ، بسيادة هذه الطبقة او تلك ، في آخر تحليل بتطور القوى المنتجة وعلاقات التبادل .

غير انه اذا كانت الدولة ، في عصرنا الحديث بوسائله الانتاجية ومواصلاته الهائلة ، لا تشكل ميدانا مستقلا ، ذا تطور مستقل ، وبالعكس ، اذا كان وجودها وتطورها يفسران في آخر تحليل بالشروط الاقتصادية للمجتمع ، فمن المفروض ان يكون هذا أصح بكثير بالنسبة للدولة في جميع العصور السابقة حيث لم يكن انتاج الحياة المادية للبشر يملك هذه الموارد الغنية ، وبالتالي حيث يفترض ان تمارس ضرورة هذا الانتاج هيمنة اكبر على البشر . واليوم ايضا ، في عصر الصناعة الكبيرة والطرق الحديدية ، اذا لم تكن الدولة من حيث الاساس سوى انعكاس ، تحت شكل مكثف ، للحاجات الاقتصادية للطبقة المهيمنة على الانتاج ، فمن المفروض ان تكون اكثر بكثير من ذلك في عصر يكون فيه جيل من البشر مجبرا على ان يكرس جزءا اكبر بكثير من حياته كلها لتلبية حاجاته المادية وبالتالي ان يكون اكثر تبعية لها بكثير من تبعيتنا لها نحن اليوم . ان دراسة تاريخ العصور الماضية ، عندما تعنى بذلك المظهر جديا ، ستؤكد هذا بأكثر مما يكفي . ولكن هذا لا يمكن بالطبع أن نتناوله هنا .

واذا كانت الدولة والحق العام محددين بالشروط الاقتصادية ، فمن البديهي ان يكون الامر كذلك بالنسبة للحق المدني ، الذي لا يقوم سوى بالمصادقة على العلاقات الاقتصادية الاعتيادية في الظروف المعطاة القائمة بين الافراد . ولكن الاشكال التي يمكن ان ترتديها هذه المصادقة يمكن ان تكون مختلفة جدا . من الممكن، كما حدث في انكلترا ، بتوافق مع التطور القومي كله ، الاحتفاظ بالقسم الاكبر من الاشكال القديمة للحق الاقطاعي ، باعطائه محتوى بورجوازيا ، اي بادخال مباشر لمعنى بورجوازي تحت اسم اقطاعي ؛ لكن من الممكن ايضا ، كما كانت الحال على قارة اوروبا الغربية ، أن يتخذ اساسا اول حق عالمي لمجتمع منتج للسلع ، الحق الروماني ، باعداده وصياغته التي لا تضاهى وضوحا ودقة لجميع العلاقات الحقوقية الرئيسية القائمة بين مالكي السلع البسيطين (شار وبائع ، دائن ومدين ، عقد ، التزام ، الخ) . عندما يجري ذلك ، يغدو من الممكن ، لصالح مجتمع ما يزال بورجوازيا صغيرا ونصف اقطاعي ، اما اعادته ببساطة بواسطة التطبيق القضائي الى مستوى هذا المجتمع (القانون الالماني المشترك) ، او بمساعدة فقهاء مزعومين متنورين وأخلاقيين ، تعديله وتقنينه في مدوّنة قانونية مستقلة تنطبق على هذه الحالة الاجتماعية ، مدونة ستكون في هذه الظروف سيئة حتى من زاوية حقوقية (القانون البروسي) . لكن من الممكن ايضا ، بعد ثورة بورجوازية كبيرة ، ان تصاغ ، على اساس هذا الحق الروماني بالتحديد ، مدونة للمجتمع البورجوازي كلاسية على مثل كلاسية المدونة المدنية الفرنسية . وبالتالي ، فما دامت أحكام الحق البورجوازي

مجرد تعبير في صيغة حقوقية عن شروط الحياة الاقتصادية للمجتمع ، لذا يمكن ان تصاغ بشكل حسن او رديء ، تبعا للظروف .

تبدو لنا الدولة بوصفها القوة الايديولوجية الاولى فوق الانسان . يخلق المجتمع من نفسه جهازا عضويا لغرض الدفاع عن مصالحه المشتركة ضد الهجمات الداخلية والخارجية . وهذا الجهاز العضوي هو سلطة الدولة . ما ان يولد حتى يجعل نفسه مستقلا عن المجتمع ، ولاسيما عندما يصبح اكثر فأكثر جهازا عضويا لطبقة ما، عندما يغلّب مباشرة هيمنة هذه الطبقة . ان صراع الطبقة المضطهَدة ضد الطبقة المهيمنة يصبح بالضرورة صراعا سياسيا ، صراعا تقوده قبل كل شيء ضد الهيمنة السياسية لهذه الطبقة ؛ ان وعي علاقة هذا الصراع السياسي بقاعدته الاقتصادية يلتبس ويغيم ، بل يمكن ان يتلاشى تماما . لكن حتى عندما لا تكون الحال كذلك تماما لدى هؤلاء الذين يشاركون في هذا الصراع ، فان هذا قد يحدث على الدوام تقريبا في عقول المؤرخين . من بين كافة المصادر المتعلقة بالصراعات في قلب الجمهورية الرومانية ، أبيان هو الوحيد الذي قال لنا بوضوح وجلاء ما الذي كانت تعنيه تلك الصراعات في الواقع ، اي الصراعات حول الملكية العقارية .

والحال ان الدولة ، حالما تصبح قوة مستقلة ازاء المجتمع ، تخلق ، بدورها ، ايديولوجية جديدة . ان محترفي السياسة ، منظري الحق العام وفقهاء الحق الخاص يخفون في الواقع العلاقة مع الوقائع الاقتصادية . وكما انه ، في كل حالة خاصة ، ينبغي للوقائع الاقتصادية ان تأخذ شكل اسباب حقوقية لكي يصادق عليها تحت شكل قوانين ، وكما انه ينبغي ايضا، بالطبع، ان يؤخذ بالاعتبار كل المنظومة الحقوقية المطبقة ، كذلك فان الشكل الحقوقي ينبغي ان يكون كل شيء والمحتوى الاقتصادي لا شيء. الحق العام والحق الخاص يُبحثان بوصفهما ميدانين مستقلين، لهما تطورهما التاريخي المستقل ، يخضعان لعرض منهجي ولا يمكنهما ان يستغنيا عنه بسبب من الالغاء اللاحق لسائر التناقضات الداخلية .

ان ايديولوجيات اكثر علواً ، اي اكثر بعدا عن قاعدتها المادية ، الاقتصادية ، تأخذ شكل فلسفة ودين . هنا ، رابطة التمثيلات مع شروط وجودها المادية تصبح معقدة اكثر فأكثر ، معتمة اكثر فأكثر بالحلقات الوسيطة. ولكن هذه الرابطة موجودة مع ذلك . وكما ان كل عصر النهضة [الاوروبية] ، منذ أواسط القرن الخامس عشر، كان نتاجا اساسيا للمدن ، وبالتالي البورجوازية ، كذلك الامر فان الفلسفة خرجت منذ ذلك من سباتها . محتواها لم يكن ، من حيث الاساس ، سوى تعبير فلسفي للافكار المناظرة لتطور البورجوازية الصغيرة والوسطى الصائرة بورجوازية كبيرة . تجلّى هذا بوضوح لدى انكليز وفرنسيي القرن الاخير الذي كانوا في كثير من الحالات اقتصاديين وفلاسفة على السواء ، ولقد بينا ذلك قبلا فيما يخص مدرسة هيغل .

مع ذلك لنتوقف قليلا حول الدين ، لانه الابعد عن الحياة المادية ويبدو انه الاكثر غربة عنها . لقد ولد الدين ، في عصر جد سحيق من الحياة الشجارية ، من

تمثيلات مليئة بأخطاء بدائية جدا ، تمثيلات للبشر تتعلق بطبيعتهم الخاصة وبالطبيعة الخارجية المحيطة بهم . ولكن كل ايديولوجية ، ما ان تتكوّن ، حتى تتطور على اساس عناصر تمثيل معطى وتستمر في اعداد وانضاج هذه العناصر ؛ وإلا فانها ليست ايديولوجية ، أي انها تعنى بالافكار بوصفها كيانات مستقلة ، تتطور على نحو مستقل وتخضع فقط لقوانينها الخاصة . ان شروط الوجود المادية للبشر ، الذين تتّابع في دماغهم هذه السيرورة الذهنية، تحدد فيآخر الامر مجرى هذه السيرورة ، وهذا التحديد يتم بالضرورة بصورةغير واعية، وإلا لما كان ثمةاي ايديولوجية. وبالتالي، فان هذه التمثيلات البدائية، وهي في معظم الاوقات مشتركة بين كل مجموعة من الشعوب النسيبة، تتطور، بعد انشعاب هذه المجموعة، على نحو خاص ومميز بكل شعب، تبعا لشروط الوجود التي آلت اليها ، وان هذه السيرورة قد أقام عليها الدليل تفصيليا علم الاساطير المقارن بالنسبة لمجموعة الشعوب الآرية (المجموعة الهندية ــ الاوروبية) . ان الآلهة التي تكوّنت على هذا النحو لدى كل شعب كانت آلهة قومية لا يتجاوز سلطانها حدود الارض القومية التي كان يتعين عليها ان تحافظ عليها، وما وراء هذه الحدود تمارس آلهة اخرى هيمنة لا تنازع. ولم يكن ممكنا لهذه الآلهة ان تبقى في التمثيل الا ما دامت الامة باقية ؛ وبادت في نفس الوقت الذي بادت فيه الامة . هذا الزوال للقوميات القديمة قد سبَّبه ظهور الامبراطورية الرومانية ، التي لم نجد ضرورة لان نفحص هنا الشروط الاقتصادية لتكوينها . الآلهة القومية القديمة انتهت الى العفاء ، حتى الآلهة الرومانية ، التي كانت مفصلة بالضبط على قد الحدود الضيقة لمدينة روما ؛ والحاجة الى اكمال الامبراطورية العالمية بدين كوني تبدو واضحة في المحاولات التي بذلت لكي ينسب الى روما ، الى جانب الآلهة المحلية ، كل الآلهة الاجنبية الجديرة ببعض الاحترام ولتزويدها بهياكل . ولكن دينا كونيا جديدا لا يمكن ان يُخلق على هذا النحو ، بمراسيم امبراطورية . الدين الكوني الجديد ، المسيحية ، كان قد تكوّن بصورة سرية بمزج اللاهوت الشرقي المكونن ، اللاهوت اليهودي بصورة رئيسية ، بالفلسفة اليونانية المبتذلة العامية ، الرواقية بصورة رئيسية . لكي نعرف الصورة التي كانت ترتديها في البداية ، ينبغي أن تجري بادىء بدء ابحاث مستفصِلة ، ذلك لان الشكل الرسمي الذي نقلت به الينا ليس الشكل الذي صارت فيه دينا للدولة [الرومانية] وجرى تبنيه لهذا الهدف من قبل مجمع نيقية (١) . ان واقع انها اصبحت دين الدولة [الرومانية] بعد مئتي وخمسين سنة فقط من ولادتها يكفي لان يبرهن انها كانت الدين الملائم لشروط او لظروف العصر . في العصر الوسيط تحولت ، أولا بأول مع تطور الاقطاعية ، الى دين ملائم او مناظر للاخيرة ، مع هرم

---

١ ــ ان اول مجمع مسكوني ، عُقد في نيقية عام ٣٢٥ ، رفض المذهب الهرطوقي لـ «آريوس» (توفي عام ٣٣٦) ، أرسى معتقد الايمان المسيحي وقواعد تنظيم وتكتيك الكنيسة في نضالها للسيطرة على الدولة [الرومانية] .

مراتبي اقطاعي مطابق . وعندما ظهرت البورجوازية ، نمت وتوسعت الهرطقة البروتستانتية ، بالتعارض مع الكاثوليكية الاقطاعية ، بادىء بدء في جنوب فرنسا، عند الألبيجيين ، في عصر اكبر ازدهار للمدن في هذا الاقليم . لقد الحق العصر الوسيط كل الاشكال الاخرى للايديولوجية : الفلسفة ، السياسة ، الفقه الحقوقي باللاهوت وجعل منها فروعا له . ولهذا اجبرت كل حركة اجتماعية وسياسية على ان تأخذ شكلا لاهوتيا ؛ لاثارة عاصفة كبيرة ، كان ينبغي ان تقدم الى عقول الجماهير المشبعة حصرا بالدين مصالحها الخاصة متنكرة في لبوس ديني . وكما ان ، منذ البداية ، البورجوازية قد افرزت في المدن حشدا من العامة ، من المياومين ، من الخدم بمختلف أنواعهم ، غير المالكين وغير المنتمين الى اية مرتبة معترف بها، أسلاف بروليتاريا المستقبل ، كذلك فان الهرطقة قد انقسمت، باكرا جدا الى هرطقة معتدلة وهرطقة عوام ثورية تبغضها حتى الهرطقات البورجوازية .

ان صمود الهرطقة البروتستانتية كان يناظر او يطابق منعة البورجوازية الصاعدة ؛ وعندما اصبحت الاخيرة على درجة كافية من القوة ، بدأ نضالها ضد النبالة الاقطاعية ، الذي كان حتى ذلك الحين نضالا محليا فقط ، يأخذ أبعادا قومية . أول فعل كبير هو الذي حدث في المانيا ؛ وسمّوه الاصلاح . لم تكن البورجوازية على ما يكفي من القوة والنمو بحيث يمكنها ان توحد تحت رايتها جميع المراتب الاخرى المتمردة : عامة المدن ، نبالة الريف الصغيرة والفلاحون . النبالة هي الاولى التي قُهرت ؛ الفلاحون قاموا بانتفاضة تؤلف ذروة هذه الحركة الثورية . المدن تخلت عنهم ، فاستسلمت الثورة أمام جيوش الامراء ، الذين استحوذوا على كل فوائدها . منذ ذاك ، ستغيب المانيا طوال قرون ثلاثة من صف البلدان التي تتدخل بصورة مستقلة في التاريخ . ولكن ، الى جانب المانيا لوثر ، كان يوجد فرنسا كالفن . بحدة فرنسية تماما ، وضع كالفن الخاصية البورجوازية للاصلاح في المكان الاول ، جَمهر républicaniser ودقرط الكنيسة. اما في المانيا، فان الاصلاح اللوثري قد ركّد البلد وقاده الى الخراب ، الاصلاح الكالفني أصبح راية للجمهوريين في جنيف ، في هولندا ، في ايكوسيا ، حرر هولندا من نير اسبانيا والامبراطورية الالمانية وزوّد الفصل الثاني من الثورة البورجوازية ، التي كانت تدور في انكلترا ، بردائها الايديولوجي . هنا تكشفت الكالفنية عن كونها القناع الديني الحقيقي لمصالح البورجوازية عصرئذ ، ولهذا لم تلق الاعتراف التام الا عندما اكتملت ثورة العام ١٦٨٩ بتسوية بين قسم من النبالة والبورجوازية . الكنيسة القومية الانكليزية أعيدت من جديد ، لا في صورتها السابقة ، بوصفها كنيسة كاثوليكية ، مع الملك بوصفه بابا ، بل في صورة جد كالفنية . الكنيسة القومية القديمة كانت تحتفل بالأحد الكاثوليكي المرح وتطارد الاحد الكالفني الكئيب ، الكنيسة الجديدة المتبرجزة ادخلت هذا الاخير الذي ما يزال حتى اليوم يجمل انكلترا .

في فرنسا ، عام ١٦٨٥ ، اضطُهدت الاقلية الكالفنية ، فارتدت الى الكاثوليكية

او طُردت من البلد (١) . ولكن إلامَ ادى ذلك ؟ في هذه الحقبة ، كان المفكر الحر بيير بايل ناشطا ، وفي العام ١٦٩٤ ولد فولتير . أن العمل الاستبدادي الذي قام به لويس الرابع عشر لم يؤد سوى الى ان يسهل على البورجوازية الفرنسية تحقيق ثورتها في صيغة لادينية ، سياسية حصرا ، صيغة هي وحدها المناسبة للبورجوازية المتقدمة . بدلا عن البروتستانت ، كان المفكرون الاحرار هم الذين يجلسون في الجمعيات التمثيلية القومية . وعلى هذا النحو كانت المسيحية تدخل مرحلتها الاخيرة . كانت قد اصبحت عاجزة عن ان تقدم للمستقبل رداء ايديولوجيا لتطلعات طبقة تقدمية ايا كانت ؛ اصبحت اكثر فأكثر ملكية حصرية للطبقات المهيمنة تستخدمها كمجرد وسيلة للحكم لكي تمارس وصايتها على الطبقات الدنيا . وجدير بالتنويه ان كل طبقة من الطبقات تستخدم الدين الموافق لها: الارستقراطية العقارية ـ الجزويتية الكاثوليكية او الاورثوذكسية البروتستانتية ، البورجوازية الليبرالية والراديكالية ـ العقلانية ؛ ولا فرق البتة سواء كان هؤلاء السادة مؤمنين بدينهم ام لا .

نرى بالنتيجة ان الدين ، ما ان يتأسس ، حتى يتضمن على الدوام مادة تقليدية، كذلك الامر ، في سائر الاصعدة الايديولوجية ، فان التقليد قوة محافظة كبيرة . وان التغيرات التي تحدث في هذه المادة تنبع من العلاقات الطبقية ، وبالتالي من العلاقات الاقتصادية بين البشر الذين يقومون بهذه التغيرات . وهذا يكفي هنا .

من الواضح اننا لم نقدم ، في ما عرضناه قبلا ، سوى لمحة عامة عن المفهوم الماركسي للتاريخ ، فضلا عن بعض الامثلة . فمن التاريخ نفسه ينبغي ان يقام البرهان عليها ، وأستطيع القول ، حول هذا الموضوع ، ان كتابات اخرى أقامت البرهان الكافي . ولكن هذا المفهوم ينهي الفلسفة في ميدان التاريخ شأن المفهوم الديالكتي للطبيعة الذي يجعل كل فلسفة للطبيعة غير مفيدة وغير ممكنة . وفي كل مجال ، لم تعد المسألة ان تتخيل في رأسها الترابطات المتسلسلة بل اكتشافها في الوقائع . منذئذ لا يبقى للفلسفة ، المطرودة من الطبيعة والتاريخ ، الا ميدان الفكر الخالص ، بقدر ما يستمر هذا الميدان قائما : مذهب قوانين سيرورة الفكر ذاتها ، اي المنطق والديالكتيك .

مع ثورة ١٨٤٨ ، صرفت المانيا «المثقفة» النظرية وانتقلت الى الممارسة . ان الصناعة الصغيرة المرتكزة على عمل اليد والمانيفاتورة قد عوّضت بصناعة كبيرة حقيقية : ظهرت المانيا من جديد في السوق العالمية . ان الامبراطورية الالمانية الصغرى الجديدة (٢) قد أزالت على الاقل الشذوذات التي لا تحتمل ، حيث كانت

---

١ ـ عام ١٦٨٥ ، ألغى لويس الرابع عشر «أمر نانت» اللذي كان هنري الرابع في العام ١٥٩٨ قد منح بموجبه حرية العبادة والمساواة في الحقوق للبروتستانت الفرنسيين .

٢ ـ هي الامبراطورية الالمانية التي قامت عام ١٨٧١ تحت هيمنة بروسيا والتي لم تكن تضم كل البلدان الناطقة بالالمانية .

منظومة الدويلات الصغيرة ، بقايا الاقطاعية والاقتصاد البيروقراطي تعيق حتى ذلك الحين هذا التطور . ولكن بقدر ما كانت المضاربة تغادر مكتب عمل الفيلسوف لتبني معبدها في البورصة ، بقدر ما كانت المانيا المثقفة تفقد هذا الحس النظري العظيم الذي كان مجد المانيا في فترة اعمق تدهور سياسي شهدته ـ حس البحث العلمي الخالص ، سواء كانت حصيلته المجنية صالحة للاستعمال عمليا ام لا ، معارضة لاوامر الشرطة ام لا . يقينا ان علم الطبيعة الالماني الرسمي ، وبخاصة في ميدان الابحاث المستفصلة ، قد بقي في مستوى عصره ، لكن المجلة الامريكية «علم» لاحظت بحق ان في انكلترا بصورة رئيسية لا في المانيا ، كما في السابق ، تتحقق التقدمات الحاسمة في ميدان الترابطات المتسلسلة للوقائع المنعزلة ، تعميمها في قوانين . وان، في ميدان العلوم التاريخية ، بما في ذلك الفلسفة ، العقل النظري القديم العنيد قد زال حقا كلية مع الفلسفة الكلاسية وحلت مكانه التلفيقية (او الانتقائية) الخاوية ، هموم اعتبارات المنصب والدخل ، وانحطت الى درك الوصولية الاكثر ابتذالا . ان الممثلين الرسميين لهذا العلم قد اصبحوا الايديولوجيين السافرين للبورجوازية وللدولة الحالية ـ ولكن في حقبة تتخذ فيها كلتاهما موقف معارضة مكشوفة للطبقة العاملة .

وفي صفوف الطبقة العاملة فحسب بقي الحس النظري الالماني على حاله سليما لم يُصب . هنا ، من غير الممكن اقتلاعه ؛ هنا ليس من اعتبار للمنصب ، لاصطياد الارباح ، لحماية عطوفة من عل ؛ بالعكس ، كلما تقدم العلم بعناد وبدون أحكام مسبقة، كلما وجد نفسه على اتفاق مع مصالح وتطلعات الطبقة العاملة . ان النزوع الجديد الذي وجد في تاريخ تطور العمل المفتاح الذي يتيح فهم تاريخ المجتمع كله قد توجه دفعة واحدة بالافضلية الى الطبقة العاملة ووجدت فيه الفهم الذي لم تفتش عنه لدى العلم الرسمي ولم تنتظره منه. انالحركة العمالية الالمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسية الالمانيــة .

٢١ ·

فريديريك انجلس

# اشتراكية رجال القانون (*)

في العصر الوسيط كان التصور المفهومي للعالم لاهوتيا من حيث الجوهر . ان وحدة العالم الاوروبي التي لم توجد فعليا في الداخل ، تحققت في الخارج ، ضد العدو المشترك ، المسلمين ، بواسطة المسيحية . كانت الكاثوليكية هي بوتقة وحدة العالم الأوروبي ، المؤلف من مجموعة شعوب ذات علاقة متبادلة دائمة طوال سير تطورها . هذا التجمع اللاهوتي لم يقتصر على ميدان الافكار . لقد كان لـــه وجوده الواقعي ، لا في شخص البابا فقط الذي كان مركز السلطان فيه ، بل قبل كل شيء في الكنيسة المنظمة على نحو أقطاعي وهرمي تراتبي ، والتي ، بصفتهـــا مالكة حوالي ثلث الارض، تملك في كل بلد قوة سياسية هائلة في التنظيم او البنيان الاقطاعي . كانت الكنيسة ، بملكيتها العقارية من النمط الاقطاعي ، الصلة الفعلية بين مختلف البلدان ؛ وأعطى تنظيم الكنيسة الاقطاعي تكريسا دينيا للاقطاعية الزمنية في التنظيم السياسي . وفضلا عن ذلك ، فقد كان الاكليروس الطبقـــة المثقفة الوحيدة . لذا فمن البديهي ان يكون معتقد الكنيسة نقطة انطلاق وأساس كل الفكر. سواء في الحقوق ، علم الطبيعة ، الفلسفة ، فان المعيار المطبق على كل معرفة كان التالي : هل يتفق مضمونه مع تعاليم الكنيسة ام لا ؟

ولكن في قلب الاقطاعية كانت تنمو قوة البورجوازية . ان طبقة جديدة كانت تدخل المسرح ضد الملاكين العقاريين الكبار . كان بورجوازيو المدن قبل كل شيء وعلى سبيل الحصر منتجي سلع ويعيشون على المتاجرة بالسلع ، في حين ان نمط الانتاج الاقطاعي كان يرتكز اساسا على الاستهلاك الذاتي لمنتجات مصنوعة داخـــل

★ مقالة ظهرت في مجلة «العصور الحديثة» (نيوزايت) «السنة الخامسة ، ١٨٨٧ ، العـــدد الثاني ، ص ٤٩-٥١ .

دائرة محدودة ـ هؤلاء المستهلكون هم جزئيا المنتجون ، وجزئيا الاقطاعيون الذين يقتطعون اتاوة . ان المفهوم الكاثوليكي للعالم ، المفصَّل على قد الاقطاعية ، لم يعد بوسعه ان يكفي هذه الطبقة الجديدة ولا شروطها للانتاج والمبادلة . بيد انه بقي هو ايضا زمنا طويلا حبيس اللاهوت كلي القدرة . ان سائر الاصلاحات [الدينية] والصراعات المرتبطة بها والتي نشبت منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن السابع‌عشر لسبب اجتماعي ديني ليست ، في جانبها النظري ، سوى محاولات كررتها البورجوازية ، عامة المدن وحلفاؤهم الفلاحون المتمردون ، لكي يُحكِموا المفهوم اللاهوتي القديم للعالم مع الشروط الاقتصادية الجديدة ومع وضع الطبقة الجديدة. ولكنه لم‌يفلح. لقد رفرفت الراية الدينية للمرةالاخيرة فيانكلترا فيالقرن السابع‌عشر، وبعد اقل من خمسين سنة دخل المفهوم الجديد الكلاسي للبورجوازية ، **المفهوم الحقوقي** ، المسرح في فرنسا سافرا بدون قناع .

كان هذا بمثابة دنيوة للمفهوم اللاهوتي .، بدلا من المعتقد ، الحقوق الإلهية حلَّت الحقوق‌البشرية، بدلا من‌الكنيسة‌حلَّت الدولة. العلاقات الاقتصادية والاجتماعية،التي كانوا يمثلونها في السابق باعتبارها خليقة الكنيسة والمعتقد ، لان الكنيسة كرستها، اصبحوا يمثلونها الان باعتبارها مبنية على الحقوق ومخلوقة من قبل الدولة . لان مبادلة السلع على مستوى المجتمع هي في ملء ازدهارها، التي شجعها بخاصة منح السلف والقروض ، كانت تولد علاقات تعاقدية معقدة متبادلة وتتطلب بسبب هذا الواقع قواعد ذات مدى عام شامل لا يمكن ان يأمر بها او يسنها الا المجتمع ـ وهذه ضوابط حقوقية محددة من قبل الدولة ـ ، فانهم كانوا يتصورون ان مصدر هذه الضوابط الحقوقية ليس الوقائع الاقتصادية بل ان تقنينها الشكلي من قبل الدولة هو الذي ولَّدها . ولأن المنافسة ، وهي الشكل الاساسي للعلاقات بين المنتجين الاحرار للسلع ، هي اكبر مسوٍ او ممهد ممكن ، فان المساواة امام القانون تصبح صرخة الحرب الكبيرة للبورجوازية . ان صراع هذه الطبقة الصاعدة ضد السادة الاقطاعيين والحكم المطلق الذي كان يحميهم آنئذ كان مفروضا بالضرورة ، شأن كل صراع طبقي ، ان يكون صراعا سياسيا ، صراعا للاستيلاء على الدولة ، وكان هذا بالضرورة صراعا من اجل تلبية المطالب الحقوقية : هذا الواقع قد أسهم في تعزيز المفهوم الحقوقي للعالم .

بيد ان البورجوازية افرزت صنوها السلبي ، البروليتاريا ، ومعها صراع طبقي جديد ، انفجر حتى قبل ان تظفر البورجوازية بالسلطة السياسية كليا . وكما ان البورجوازية ، في الماضي ، في نضالها ضد النبالة بقيت ، بالتقليد ، تجر معها المفهوم اللاهوتي للعالم بعض الوقت ، كذلك فان البروليتاريا في البداية اخذت من خصمها المفهوم الحقوقي وحاولت ان تستمد منه اسلحة ضد البورجوازية . ان اولى التشكيلات السياسية البروليتارية وكذلك منظِّريها قد بقيت كلية على « الارضية الحقوقية» ، مع فارق واحد هو ان ارضيتها الحقوقية لم تكن نفس الارضية البورجوازية . من جهة ، المطالبة بالمساواة كانت واسعة : المساواة الحقوقية ينبغي ان تكمل بالمساواة الاجتماعية ؛ من جهة اخرى ، فمن مقترحات وأفكار آدم سميث

ـ القائلة بأن العمل هو مصدر كل ثروة ، غير ان ناتج العمل ينبغي ان يتقاسمه الشغيل مع الملاك العقاري والراسمالي ـ ، استجروا نتيجة تقول بأن هذا التقسيم غير عادل وينبغي ان يلغى ، او ان يعدل على الاقل لصالح الشغيلة . لكن الشعور بأن ترك هذه المسالة على ارضية «الحقوق» وحدها لا يمكن البتة من الغاء الاسواء التي ولّدها نمط الانتاج الراسمالي البورجوازي، وبخاصة الصناعة الكبرى الحديثة، قد قاد من قبلُ اكبر العقول ، لدى اوائل الاشتراكيين ـ سان سيمون ، فورييه و اوين ـ الى التخلي تماما عن الارضية الحقوقية ـ السياسية والى المناداة بأن كل صراع سياسي امر عقيم .

لكن لا هذا المفهوم ولا ذاك كانا كافيين للتعبير بشكل مرضٍ ولا لان يلخصا بصورة كلية طموحات الطبقة العاملة الى الانعتاق، الطموحات التي ولّدها الوضع الاقتصادي. ان المطالبة بالمساواة ، شأن المطالبة بكامل ناتج العمل ، كانت تضيع في تناقضات عصية منذ ان نحاول صياغتها تفصيلا على الارضية الحقوقية فلا تصيب او لا تصيب الا قليلا عقدة المشكلة ، الا وهي تغيير نمط الانتاج . ان الطوباويين الكبار ، برفضهم النضال السياسي ، انما كانوا يرفضون في نفس الوقت صراع الطبقات ، ومن ثم يرفضون الفعل الوحيد الممكن بالنسبة للطبقة التي كانوا يدافعون عن مصالحها . هذان المفهومان كانا يصرفان النظر عن الخلفية التاريخية التي تدينان بوجودهما اليها؛ كلاهما كان يخاطب الشعور ؛ احدهما يخاطب شعور الحقوق ، والآخر الشعور الانساني . كلاهما كان يصوغ مطالبه على شكل امنيات ورعة ، من غير الممكن القول لماذا تحققت في هذه اللحظة بالضبط وليس قبل ذلك او بعده بألف عام .

بالنسبة للطبقة العاملة المجردة ، بفعل تحوّل نمط الانتاج الاقطاعي الى نمط انتاج راسمالي ، من اية ملكية لوسائل الانتاج ، والتي يتكرر انتاجها على الدوام بآوالية (ميكانية) منظومة الانتاج الراسمالي في هذه الحالة الوراثية للبرتلة ، لا يمكن للوهم الحقوقي للبورجوازية ان يكفي للتعبير كليا عن الحالة التي توجد فيها . انها ـ اي الطبقة العاملة ـ لا تستطيع هي نفسها ـ ان تتملك معرفة كاملة بهذا الوضع الا اذا نظرت الى الاشياء في حقيقتها الواقعية ، بدون نظارات ملونة بألوان حقوقية . هذا ما ساعد عليه ماركس بمفهومه المادي للتاريخ ، مبرهنا ان سائر التمثيلات الحقوقية ، السياسية ، الفلسفية ، الدينية ، الخ ، للبشر تشتق في آخر تحليل من شروط حياتهم الاقتصادية ، من طريقتهم في انتاج ومبادلة المنتوجات . وبذلك قدم للبروليتاريا مفهوما عن العالم مطابقا لشروط حياتها ونضالها؛ انّ فقدان الشغيلة للملكية لا يمكن الا ان يقابله فقدان الاوهام في رؤوسهم . وان هذا المفهوم البروليتاري للعالم يلف العالم الان ...

## ٢٢ .

فريديريك انجلس

# رسالة الى جوزيف بلوخ(*)

لندن ، ٢١ – ٢٢ ايلول ١٨٩٠

السيد العزيز ،

رسالتك المؤرخة في ٣ الجاري تبعتني الى «فولكستون» ، ولكن لانني لم اكن املك الكتاب المطلوب ، فانني لم استطع ان اجيبك عنها . عدت الى بيتي في ١٢ الجاري ، فوجدت فيه كومة من العمل المستعجل بحيث لم يتح لي سوى اليوم لكي اكتب لك بضعة أسطر . اقول هذا لكي أشرح لك تأخري راجيا معذرتي .

فيما يتعلق بالنقطة ١ . سترى قبل كل شيء في الصفحة ١٩ من **«اصل»** (١) ان سيرورة تطور العائلة البينالية تبدو فيه على درجة من البطء بحيث ان في «هاواي» ، في ذات القرن ، كان يوجد في العائلة الملكية زواجات بين الاخوة والاخوات (مولودون من نفس الأم) . وفي كل العصر القديم ، نجد أمثلة عن زواجات بين الاخوة والاخوات ، مثلا لدى «البتوليميين» . ولكن ينبغي بعد ذلك ان يميز بين الاخوة والاخوات بواسطة **أمهم** او فقط بواسطة **أبيهم** ؛ ان الكلمتين اليونانيتين «adelphos» او «adelphé» مشتقتين من كلمة «delphos» ، رَحِم ، وتعني اذن في الاصل الاخوة والاخوات الاوموميين . و ، في حقبة نظام الامومة ، استمر زمنا طويلا الشعور بأن الاولاد من نفس الأم ، وان من آباء مختلفين ، كانوا أقرب نسبا من اولاد من نفس الاب ، ولكن من أمهات مختلفات . ان شكل العائلة البينالية يستبعد

---

★ نشرت لاول مرة في مجلة «دراسات اشتراكية» ، السنة الاولى ، ١٨٩٥ ، برلين ، ص ٣٥١ – ٣٥٣ .

١ – المقصود مؤلف انجلس : «اصل العائلة ، الملكية الخاصة والدولة» .

٢ – اخ ، اخت .

فقط الزواجات بين الاولين ، ولكن ليس بين هؤلاء الاخيرين ، الذين لا تعتبرهم تمثيلات عصرئذ اقرباء البتة (لان الحقوق الامومية هي التي تسود) . صحيح ، قدر ما اعرف ، ان حالة الزواج بين الاخوة والاخوات التي ظهرت في العصر اليوناني القديم قاصرة ، اما على حالات يكون فيها الاشخاص ذوي أمهات مختلفات ، واما ايضا على حالات لا يكون فيها هذا الواقع معروفا وغير مستبعد ايضا ، والذي لا يناقض البتة بالتالي الممارسة البينالية . ان ما غفلت بالضبط عن ملاحظته هو ان بين الحقبة البينالية والزواج الاحادي توجد قفزة من النظام الامومي الى النظام الابوي غيرت الشيء تغييرا هاما .

جاء في «العصور القديمة الهيلينية» لـ واشسميث(١) انه لا يوجد في الحقبة البطولية لليونان «من اثر لشك يتعلق بقرابة حميمة جدا للازواج ، عدا العلاقات بين الوالدين وأولادهم» (الجزء الثاني ، ص ١٥٧) . «ان الزواج بالأخت لم يكن امرا صادما في كريت» (نفس المصدر ، ص ١٧٠) . هذا الامر المؤكد في راي «سترابون» ، المجلد ١٠ ، لم استطع ان اجد المقطع الذي ورد فيه بسبب التقسيم الرديء للفصول . من كلمة اخت ، افهم حتى يأتي برهان معاكس الأخت من الاب .

وفقا للمفهوم المادي للتاريخ ، العامل المحدّد في التاريخ هو ، في التحليل الاخير ، انتاج وتكرار انتاج الحياة الواقعية . لم نؤكد ابدا ، لا انا ولا ماركس ، اكثر من ذلك . اما اذا شوه احدهم، فيما بعد ، هذا الافتراض لكي يجعله يقول ان العامل الاقتصادي هو المحدّد **الوحيد** ، فانه يحوله الى جملة فارغة ، مجردة ، غير معقولة. ان الوضع الاقتصادي هو القاعدة أو الاساس ، لكن مختلف عناصر البناء الفوقي ــ الاشكال السياسية لصراع الطبقات ونتائجه ، ــ البنيان السياسي الذي ترسيه معركة ربحتها الطبقة الظافرة ، الخ ، ــ الاشكال الحقوقية ، بل حتى انعكاسات كل هذه الصراعات الفعلية في ادمغة المشاركين فيها ، نظريات سياسية ، حقوقية ، فلسفية ، مفاهيم دينية وتطورها اللاحق الى منظومات معتقدية ، تمارس كذلك مفعولها على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد ، في كثير من الحالات ، على نحو راجح، **شكلها** . ثمة فعل ورد فعل لكل هذه العوامل ، وفي قلب هذه العوامل تشق الحركة الاقتصادية طريقا في آخر الامر بوصفها ضرورة عبر حشد لا ينتهي من الصدف (اي اشياء وحوادث ، الرابطة الداخلية فيما بينها بعيدة او يصعب اثباتها بحيث يمكن ان نعتبرها غير موجودة وأن نهملها) . وإلا فان تطبيق النظرية على اية حقبة تاريخية هو ، في اعتقادي ، اكثر سهولة من حل معادلة بسيطة من الدرجة الاولى .

اننا نصنع تاريخنا بأنفسنا ، ولكن ، قبل كل شيء ، مع مقدمات وشروط

---

١ ــ المقصود كتاب «ولهلم واشسميث» : «علم الآثار الهيليني» ، المجلد الثاني ، في اربعة اقسام ، هاله ، ١٨٢٦ــ١٨٣٠ .

محددة جدا . من بين سائر الشروط ، تبقى الشروط الاقتصادية هي المحددة في النهاية . لكن الشروط السياسية ، الخ ، بل حتى التقليد الذي يعشش في أدمغة البشر ، يلعب كذلك دورا ، وان غير حاسم . ان اسبابا تاريخية و ، في آخر المطاف، اقتصادية ، هي التي كوّنت كذلك الدولة البروسية وهي التي استمرت في تطويرها . لكن مع الصعوبة بمكان الزعم بدون حذلقة ان ، من سائر الدويلات الكثيرة في المانيا الشمالية ، «براندنبورغ» هي بالتحديد التي كانت مهيـأة بالضرورة الاقتصادية وليس بعوامل اخرى (قبل كل شيء بهذا الحال ، حال ان «براندنبورغ» كانت ، بفضل امتلاك بروسيا ، منغمرة في الشؤون البولونية ، ومتورطة بسبب من ذلك في علاقات سياسية دولية تعتبر حاسمة كذلك في تكوين قوة السلالة النمساوية) الى ان تصبح الدولة الكبيرة التي يتجسد فيها الفرق في الاقتصاد ، في اللغة ، وفي ، منذ الاصلاح الديني ، الدين بين الشمال والجنوب . ومن الصعوبة بمكان ان نتوصل الى تفسير اقتصادي ، دون ان نتعرض للسخرية ، لوجود كل دويلة من دويلات الماضي والحاضر الالمانية او منشأ التبدل في الحروف والصوامت في المانيا العليا الذي وسّع خط التقسيم الجغرافي ، الذي اقامته سلسلة جبال السوديت حتى تاونوس ، حتى جعل من ذلك صدعا يخترق المانيا كلها .

ولكن ، ثانيا ، يُصنع التاريخ على نحو تستخلص فيه النتيجة النهائية على الدوام من تصادمات عدد كبير من الارادات الفردية ، كل واحدة منها صنعت بدورها بالشكل الذي هي عليه بفضل حشد من شروط الوجود الخاصة ؛ يوجد بالتالي عدد لا يُحصى من القوى التي تتعارض فيما بينها ، مجموعة لا نهاية لها من متوازيات أضلاع للقوى ، تنبثق منها المحصلة ـ الحدث التاريخي ـ التي قد ينظر اليها هي نفسها ، بدورها ، بمثابة نتاج قوة تفعل فعلها ككل واحد ، بصورة **لاواعية** وعمياء. ذلك لان ما يريده كل فرد يلقى معارضة من اي فرد آخر ، وما يستخلص من ذلك هو شيء ما لم يرده احد . وعلى هذا النحو فان التاريخ في أيامنا هذه انما ينبسط على شكل سيرورة للطبيعة . وهو خاضع مثلها ، من حيث الجوهر ، لنفس قوانين الحركة . ولكن من واقع ان مختلف هذه الارادات ـ وكل واحدة منها تريد ما تدفعه اليه بنيته الجسمانية والظروف الخارجية ، الاقتصادية في آخر المطاف (او ظروفه الشخصية او الظروف الاجتماعية العامة) ـ لا تصل الى ما تريد ، بل تتمازج في موقع متوسط عام ، في محصلة مشتركة ، من هذا لا يجوز الاستخلاص انها تساوي صفرا . على العكس ، فكل ارادة تسهم في المحصلة وهي ، بهذه الصفة، مندرجة فيها .

أريد ، فضلا عن ذلك ، ان أرجوك دراسة هذه النظرية من مصادرها الاصلية ، وليس من مصادر وسيطة ، مع انها أسهل بكثير حقا . ان ماركس نادرا ما كتب شيئا ما لم يكن لهذه النظرية دورا فيه . ولكن كتابه **«الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت»** ، بخاصة، يعتبر مثلا ممتازا على تطبيقها . في **«رأس المال»** ، كثيرا ما يعود اليها . ثم ، انني أسمح لنفسي بأن اطلب اليك ان تعود الى مؤلفاتي ايضا : «السيد دوهرنغ يشقلب العلم» و«لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيـة

الالمانية» ، حيث قدمت عرضا للمادوية التاريخية هو ، على حد علمي ، العرض الاكثر تفصيلا .

ماركس وأنا بالذات مسؤولان ، جزئيا ، عن واقع ان الشباب يعطون وزنا اكثر مما يجب للجانب الاقتصادي . ففي مواجهة خصومنا ، كان لزاما علينا ان نبرز المبدأ الاساسي الذي أنكروه ، ولم نكن على الدوام لنجد الوقت ولا الفرصة لكي نقدر مكانة العوامل الاخرى التي تسهم في الفعل المتبادل . ولكن ما ان نصبح ازاء تقديم قطعة من التاريخ ، اي الانتقال الى التطبيق العملي ، حتى يتغير الشيء ولا يبقى من خطأ ممكن . ولكن ، مع الاسف ، كثيرا جدا ما يحدث ان يظنوا انهم فهموا تماما نظرية جديدة وأنهم قادرون على استعمالها بدون صعوبة ، وهذا ليس صحيحا على الدوام . لا أستطيع ان أبريء من هذه الملامة احدا من «ماركسيينا» المحدثين ، وينبغي ان اقول ايضا انهم عملوا اشياء غريبة .

فيما يتعلق بالنقطة ١ ، وجدت البارحة (واكتب هذا في ٢٢ ايلول) المقطع التالي ، الحاسم ، والذي يطابق اللوحة التي رسمتها قبل قليل، في «شومان» : «العصور القديمة اليونانية» ، برلين ١٨٢٥ ، المجلد ١ ، ص ٥٢ : «بيد انه من المعروف ان الزواجات بين انصاف الاخوة ,الاخوات المولودات من أمهات مختلفات لم تعتبر من قبيل ارتكاب المحرمات فيما بعد في اليونان» . . .

٢٣ .

فريديريك انجلس

# رسالة الى كونراد شميدت(*)

**لندن ، ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠**

اخص اول ساعة حرة لدي لكتابة جواب لك . اعتقد انك قد أحسنت صنعا عندما قبلت اقتراح جريدة «بريد زوريخ» . يمكنك دوما ان تتعلم فيها اشياء كثيرة من الناحية الاقتصادية ، وبخاصة اذا بقي ماثلا في ذهنك ان زوريخ ليست سوى سوق للنقد والمضاربة من الدرجة الثالثة وبالتالي تضعف الانطباعات التي يملكونها فيها او ، عند الاقتضاء ، تشوه عمدا بعد انعكاسها مرتين او ثلاث مرات . ولكنك ستتعلم عمليا من إوالية (ميكانية) الحركة وستكون مضطرا الى متابعة دروس البورصة من مصدرها الاول ، من لندن ، نيويورك ، باريس ، برلين ، فيينا ومن جراء ذلك ستتضح لك ما هي السوق العالمية ، تحت مظهر سوق النقد والاوراق المالية ، الذي هو انعكاسها . ان شأن الانعكاسات الاقتصادية ، السياسية وغيرها شأن الانعكاسات في العين الانسانية ، فهي تخترق عدسة محدبة فتأخذ بالنتيجة شكلا مقلوبا ، على الراس . الفرق الوحيد يتمثل في انها تفتقر الى منظومة عصبية تضعها على قدميها في التمثيل المكوّن عنها . ان رجل السوق العالمية لا يرى تموجات الصناعة والسوق العالمية الا في صورة انعكاس مقلوب لسوق النقد والاوراق المالية ، لذا تغدو النتيجة سببا في عقله . هذا ما رأيته قبلا في «مانشستر» في الاربعينات : بالنسبة لسير الصناعة ، مع النقاط القصوى والدنيا الدورية التي تبلغها ، كانت اسعار بورصة لندن غير صالحة للاستعمال البتة ، وذلك لان هؤلاء السادة كانوا يريدون أن يفسروا كل شيء بأزمات سوق النقد ، التي لم تكن هي

---

★ نشرت لاول مرة في «جريدة الشعب اللايبزيغية» ، ٢٦ تشرين الاول ١٨٩٥ .

نفسها سوى اعراض . كان المقصود آنئذ البرهان على ان ولادة الازمات الصناعية لا تمت بصلة للانتاج الفائض الموقت ، وكان للشيء اذن ، علاوة على ذلك ، خاصة نزوعية او ميلية ، تدفع الى التشويه . اليوم غاب هذا العنصر ـ بالنسبة الينا ، على الاقل مرة واحدة ونهائيا ـ وفضلا عن ذلك انه لواقع ان سوق النقد يمكن ان تصاب بأزمات خاصة وانها في هذه المناسبة ، مناسبة البلبلة المباشرة في الصناعة ، لا تلعب سوى دور تابع بل حتى انها لا تلعب اي دور ؛ وفي هذا المجال يبقى ايضا الكثير من الاشياء ، وبخاصة بالنسبة للعشرين سنة الاخيرة ، التي ينبغي معاينتها وفحصها .

حيثما يوجد تقسيم للعمل على الصعيد الاجتماعي، يوجد أيضا استقلال للاعمال الجزئية ، استقلال بعضها عن البعض الآخر . ان الانتاج هو العامل الحاسم في آخر المطاف . لكن في نفس الوقت الذي فيه تصبح تجارة المنتوجات مستقلة عن الانتاج بالمعنى الحصري للكلمة ، تخضع لحركتها الخاصة ، التي تهيمن عليها بالطبع اجمالا سيرورة الانتاج ولكن التي ، في التفاصيل ، وفي اطار هذه التبعية العامة ، لا تخضع مع ذلك لقوانينها الخاصة التي يغوص أصلها في طبيعة هذا العامل الجديد . ان لها مراحلها الخاصة وهي تؤثر من جهتها على سيرورة الانتاج . ان اكتشاف امريكا قد نجم عن التعطش الى الذهب الذي كان قد دفع البرتغاليين نحو افريقيا (راجع سوتبر : «انتاج المعادن الثمينة» ) ، وذلك لان الصناعة الاوروبية التي نمت بقوة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر والتجارة الموازية او المقابلة لها كانت تتطلب وسائل جديدة للمبادلة لم يكن باستطاعة المانيا ـ بلد الفضة الكبير منذ العام ١٤٥٠ الى العام ١٥٥٠ ـ ان تؤمنه . ان غزو الهند من قبل البرتغاليين ، الهولنديين ، الانكليز ، من العام ١٥٠٠ الى العام ١٨٠٠ كان يستهدف **المستوردات ذات المنشا الهندي** ، ولم يكن احد يفكر بالصادرات الى هذا البلد . ومع ذلك ، اي تأثير هائل بالمقابل مارسته على الصناعة هذه الاكتشافات والفتوحات التي ولدت من المصالح التجارية وحدها ـ فالحاجات بغرض **التصدير باتجاه** هذه البلدان هي التي خلقت وطوّرت الصناعة الكبيرة .

الحال هي نفسها بالنسبة لسوق النقد. في نفس الوقت الذي فيه تنفصل تجارة النقد عن تجارة السلع ، تأخذ الاولى ـ في بعض الشروط التي يضعها انتاج وتجارة السلع وفي داخل هذه الحدود ـ سير تطور خاص ، تخضع لقوانين خاصة تحددها طبيعتها الخاصة ، تشهد أطوارا خاصة . اذا انضاف الى ذلك ايضا ان تجارة النقد في مجرى هذا التطور الجديد تتسع لتضم تجارة الاوراق المالية ، وان هذه الاوراق المالية ليست فحسب اوراقا مالية مسحوبة على الدولة بل هي ايضا أسهم شركات صناعية ونقلية ، بحيث تكتسب تجارة النقد في النتيجة سلطانا مباشرا على الانتاج (التي تهيمن عليه اجمالا) ، نفهم ان التأثير المقابل لتجارة النقد على الانتاج أقوى واعقد . ان هؤلاء الذين يتعاطون تجارة النقد هم مالكو السكك الحديدية ، المناجم، مصانع التعدين ، الخ . ان وسائل الانتاج تكتسب وجها مزدوجا : لا بد لاستثمارها من أن يخضع تارة لمصالح الانتاج المباشر ، وتارة اخرى لحاجات حملة الاسهم بالقدر

الذي يتعاطون فيه تجارة النقد . هوذا أسطع مثال : ان استثمار السكك الحديدية في امريكا الشمالية يتوقف كليا على العمليات البورصية التي يقوم بها في لحظة ما جاي غولد ، فاندر بيلدت ، الخ ، وهي عمليات غريبة تماما عن السكك الحديدية بصورة خاصة وعمًا هو مفيد بالنسبة اليها بوصفها وسيلة مواصلات . حتى هنا ، في انكلترا ، رأينا طوال عشرات السنين شركات للسكك الحديدية مختلفة تتصارع فيما بينها لامتلاك مناطق تجاور احداها الاخرى ؛ خلال هذه الصراعات صُرفت مبالغ ضخمة ، لا لصالح الانتاج والنقل ، بل فقط بغرض منافسة لم يكن لها ، في غالب الاحيان ، من هدف سوى تسهيل العمليات البورصية على هؤلاء الذين يملكون الاسهم ويتعاطون تجارة النقد .

في هذه الاشارات القليلة حول مفهومي لعلاقات الانتاج مع تجارة السلع ولعلاقات تجارة السلع مع تجارة النقد ، أجبت من حيث الاساس في آن معا عن اسئلتك المتعلقة بالمادوية التاريخية عموما .

من زاوية تقسيم العمل يفهم الشيء بصورة أسهل . ان المجتمع يخلق بعض الوظائف المشتركة التي لا يمكنه الاستغناء عنها . الناس الذين تسند اليهم هذه الوَظائف يشكلون فرعا جديدا لتقسيم العمل **في قلب المجتمع** . على هذا النحو يكتسبون مصالح خاصة ايضا حيال نادبيهم ، يصبحون مستقلين ازاءهم و... هي ذي الدولة تظهر . منذئذ ، يحدث الامر نفسه في تجارة السلع و ، فيما بعد ، في تجارة النقد : ينبغي للقوة المستقلة الجديدة ان تتبع على العموم حركة الانتاج ، ولكنها ، بحكم الاستقلال النسبي الملازم لها ، اي الاستقلال الذي اصابته والذي يستمر في النمو تدريجيا ، تؤثر ايضا بدورها على شروط وسير الانتاج . ثمة تأثير متبادل بين قوتين مختلفتين ، الحركة الاقتصادية من جهة ، ومن جهة اخرى القوة السياسية الجديدة والتي ، حالما تتكوّن ، تنعم ، هي ايضا ، بحركة خاصة ؛ الحركة الاقتصادية تشق على العموم طريقا لنفسها ، غير انها مضطرة ، هي ايضا ، الى ان تعاني الصدمة المعاكسة التي تقوم بها الحركة السياسية التي كوّنتها هي نفسها والتي تنعم باستقلال نسبي عن حركة سلطة الدولة من جهة ، ومن جهة اخرى عن حركة معارضة تكوّنت في نفس الوقت معها. وكما أن في سوق النقد، حركة السوق الصناعية تنعكس اجمالا وفي حدود التحفظات التي أشرنا اليها قبلا ، **وبالمقلوب** طبعا ، كذلك ففي الصراع بين الحكومة والمعارضة تنعكس الصراعات الطبقية التي كانت موجودة وناشبة من قبل ، وبالمقلوب ايضا ، لا بشكل مباشر بل غير مباشر ، لا كصراع طبقي بل كصراع في سبيل المبادىء السياسية ، بحيث أن هذا القلب للاشياء قد اقتضانا آلاف السنين قبل ان نكتشف سره .

ان تأثير سلطة الدولة على التطور الاقتصادي قد يكون على انواع ثلاثة . قد يفعل هذا التأثير في نفس الاتجاه ، فيمشي كل شيء عندئذ بسرعة أشد ، وقد يفعل في اتجاه معاكس للتطور الاقتصادي ، وفي ايامنا هذه يمنى بالاخفاق لدى كل شعب كبير بعد مرور فترة معينة من الزمن ، او ايضا يمكن ان يغلق امام التطور الاقتصادي

بعض الطرق ويقضي له بأخرى ــ وهذه الحالة تؤول في النهاية الى احدى الحالتين السابقتين . لكن من الواضح ان في الحالتين الثانية والثالثة ، يمكن للسلطة السياسية ان تسبب ضررا كبيرا للتطور الاقتصادي وأن تحدث تبذيرا شديدا في القوة والمادة .

ينضاف الى ذلك حالة الغزو والتدمير العنيف للموارد الاقتصادية حيث يمكن، في ظروف معينة ، ان يتبدد كليا تطور او نمو ما اقتصادي على نطاق محلي او قومي. اليوم ، لهذه الحالة في معظم الاحيان مفاعيل معاكسة ، لدى الشعوب الكبيرة على الاقل : من زاوية اقتصادية ، سياسية وأخلاقية ، يكسب المغلوب على المدى الطويل احيانا اكثر من الغالب .

كذلك الامر بالنسبة للحقوق : ما ان يصبح التقسيم الجديد للعمل ضروريا ويخلق رجال القانون المحترفين ، حتى ينفتح بدوره ميدان جديد ، مستقل يملك هو ايضا ، رغم تبعيته بصورة عامة للانتاج والتجارة ، قدرة خاصة على احداث رد فعل ضد هذه الميادين . في دولة حديثة ، لا ينبغي فقط ان تكون الحقوق مناظرة للوضع الاقتصادي العام وان تكون تعبيرا عنه ، بل ان تكون ايضا تعبيرا **منهجيا** لا يصفع نفسه على الوجه بفعل تناقضاته الداخلية . وان ثمن النجاح يتمثل في ان دقة انعكاس العلاقات الاقتصادية تتلاشى اكثر فأكثر. لاسيما وان هذا يحدث بشكل اندر عندما تكون مدونة حقوقية ما تعبيرا فظا ، متصلبا ، صادقا عن هيمنة طبقة : الشيء نفسه أليس ضد «فكرة الحقوق» ؟ ان فكرة الحقوق الخالصة ، الحصيفة ، لدى البورجوازية الثورية من العام ١٧٩٢ حتى العام ١٧٩٦ هي فكرة باطلة ، كما نعلم ، من نواحي عديدة في مدونة نابوليون ، وبقدر ما تتجسد في هذه المدونة بقدر ما يصبح امرا لا بد منه ان تتعرض يوميا لشتى انواع التلطيفات بفضل القوة المتنامية للبروليتاريا . لكن هذا لا يحول دون ان تصبح مدونة نابوليون اساسا لجميع اعمال التدوين او التقنين الحقوقية الجديدة في سائر انحاء العالم . وعلى هذا فان مجرى «تطور الحقوق» ليس ، الى حد كبير ، سوى محاولتهم بادىء بدء ازالة التناقضات الناجمة عن الترجمة المباشرة للعلاقات الاقتصادية الى مبادىء حقوقية وإرساء منظومة حقوقية متناسقة ، لكن يلاحظ فيما بعد أن تأثير وضغط التطور الاقتصادي اللاحق لا يكفان عن تفجير هذه المنظومة ويورطانها في تناقضات جديدة (لا اتكلم هنا وقبل كل شيء الا عن الحقوق المدنية) .

ان انعكاس العلاقات الاقتصادية في صورة مبادىء حقوقية يفرز بالضرورة ايضا نتيجة تتمثل في قلب راس الاشياء الى سافل : يحدث هذا دون ان يعي هؤلاء الذين يفعلون ذلك ؛ يتصور الحقوقي انه يعمل وفق افتراضات قبلية ، بيد انها مع ذلك مجرد انعكاسات اقتصادية ــ ولهذا فالكل مقلوب الراس الى سافل . وواقع ان القلب يشكل ، ما دام لم يعرف ، ما نسميه **وجهة نظر ايديولوجية** ، تؤثر بدورها على القاعدة الاقتصادية ويمكن ان تغيرها في حدود معينة ــ هذا الواقع يبدو لي البداهة عينها . ان اساس الحقوق الوراثية ، اذا افترضنا تساوي درجة تطور

العائلة ، هو أساس اقتصادي . مع ذلك ، سيكون من الصعب البرهان ، مثلا ، على ان حرية الايصاء المطلقة في انكلترا والتضييق الشديد عليها في فرنسا لا تعود في جميع خاصياتها الا الى اسباب اقتصادية. لكن كلتيهما تؤثر، بنسبة هامة جدا، على الاقتصاد من خلال تأثيرهما على توزيع الثروة .

اما فيما يتعلق بالميادين الايديولوجية التي تحلق في اجواء اعلى ، الدين ، الفلسفة ، الخ ، فهي مؤلفة من بقية ـ ترقى الى القبتاريخ وان الطور التاريخي قد وجدها قائمة قبله وورثها ـ لـ . . . ما نطلق عليه اليوم اسم سخافة. في اساس مختلف هذه التمثيلات الباطلة عن الطبيعة ، عن تكوّن الانسان نفسه ، عن الارواح ، عن القوى السحرية ، الخ ، لا يوجد في معظم الاحيان سوى عنصر اقتصادي سلبي ؛ ان التطور الاقتصادي الهزيل في الطور القبتاريخي يملك بمثابة تكملة ، لكن هنا وهناك بمثابة شرط بل بمثابة سبب ايضا ، التمثيلات الباطلة عن الطبيعة . ورغم ان الحاجة الاقتصادية كانت النابض الرئيسي للتقدم في معرفة الطبيعة وانها اصبحت كذلك اكثر فأكثر ، لكن من الحذلقة ان نحاول التفتيش عن اسباب اقتصادية لكل هذه السخافات البدائية . ان تاريخ العلوم هو تاريخ القضاء التدريجي على هذه السخافة ، او ايضا تاريخ تعويضها بسخافة جديدة ، ولكن لا معقوليتها في تناقص مطرد . أن الناس الذين يتكلفون بذلك يشكلون بدورهم جزءا من الدوائر الخاصة في تقسيم العمل ويتخيلون انهم يشتغلون في أرضية مستقلة . وبقدر ما يشكلون مجموعة مستقلة في قلب التقسيم الاجتماعي للعمل ، تؤثر منتوجاتهم ، بما في ذلك اخطاؤهم ، على كل التطور الاجتماعي ، بل على التطور الاقتصادي . بيد انهم يبقون مع ذلك تحت التأثير المهيمن للتطور الاقتصادي . في ميدان الفلسفة ، مثلا ، يمكن على أسهل وجه البرهان على ذلك بالنسبة للحقبة البورجوازية . كان هوبس اول مادوي حديث (بالمعنى المستخدم في القرن الثامن عشر) ، لكنه كان نصيرا للحكم المطلق في عصر كانت تزدهر فيه الملكية المطلقة في كل اوروبا وكانت تخوض في انكلترا صراعا ضد الشعب . كان لوك ، في الدين كما في السياسة ، ابن المساومة الطبقية لعام ١٦٨٨ . ان التأليهويين الانكليز واخلاقهم الاكثر حصافة ، المادويين الفرنسيين ، كانوا فلاسفة البورجوازية الاصليين ؛ بل كان الفرنسيون فلاسفة الثورة البورجوازية . في الفلسفة الالمانية بدءاً من كانط ووصولا الى هيغل رأينا الجهول الالماني يمر تارة بشكل ايجابي وتارة اخرى بشكل سلبي . وبصفتها ميدانا محددا من ميادين تقسيم العمل ، فان فلسفة كل عصر تفترض استعمال اسانيد فكرية محددة انتقلت اليها من الفلسفات التي سبقتها ثم تنطلق منها . ولهذا يحدث ان بلدانا متأخرة اقتصاديا تستطيع مع ذلك ان تكون العازفة الاولى في الفلسفة : فرنسا في القرن الثامن عشر بالنسبة لانكلترا التي اعتمد الفرنسيون على فلسفتها، وفيما بعد المانيا بالنسبة لهذه وتلك . ولكن ، في فرنسا كما في المانيا ، كانت الفلسفة ، شأنها شأن الازدهار العام للأدب في هذا العصر ، هي ايضا ، حصيلة انطلاق اقتصادي . ان النيافة الاخيرة للتطور الاقتصادي في هذه الميادين ايضا هي

في رأيي شيء مؤكد ، ولكنها تقوم في قلب شروط يمليها الميدان المعني ذاته ؛ في الفلسفة ، مثلا ، يمليها فعل المؤثرات الاقتصادية (التي لا تفعل في معظم الاحيان بدورها الا تحت قناع سياسي ، الخ ،) في المادة الفلسفية المتوفرة والمنقولة الينا بواسطة الاسلاف . الاقتصاد هنا لا يخلق البتة شيئا بصورة مباشرة من نفسه ، لكنه يحدد مصير تغير وتطور المادة الفكرية الموجودة ، كذلك فانه يفعل هذا في الغالب بصورة غير مباشرة ، ذلك لان الانعكاسات السياسية ، الحقوقية والاخلاقية هي التي تمارس اكبر تأثير مباشر على الفلسفة .

اما عن الدين ، فقد قلت ما هو ضروري في الفصل الاخير من كتابي حول فويرباخ .

وعلى هذا ، فعندما يزعم بارت اننا انكرنا كل رد فعل للانعكاسات السياسية ، الخ ، للحركة الاقتصادية على هذه الحركة بالذات ، فانه لا يفعل سوى محاربة طواحين الهواء . ليس عليه سوى ان ينظر الى «الثامن عشر بروميير لويس بونابرت» لماركس ، حيث يدور الكلام كليا تقريبا حول الدور **الخاص** الذي لعبته الصراعات والاحداث السياسية طبعا في حدود تبعيتها **العامة** للشروط الاقتصادية . او ليرجع الى «رأس المال» ، مثلا الفصل الخاص بيوم العمل ، حيث يؤثر التشريع ، وهو عمل سياسي ، تأثيرا جذريا . او ليرجع ايضا الى الفصل الخاص بتاريخ البورجوازية (الفصل ٢٤) . لماذا نناضل اذن في سبيل الدكتاتورية السياسية للبروليتاريا لو ان السلطة السياسية عاجزة اقتصاديا ؟ ان العنف (اي سلطة الدولة) هو ايضا قوة اقتصادية !

ولكن لا أملك وقتا الان لاكتب نقدا لهذا الكتاب . ينبغي اولا ان يصدر الكتاب الثالث (١) ، ومن جهة اخرى فانني اعتقد ان «برنشتاين» ، مثلا ، يمكن ان يقوم بذلك جيدا .

ما يفتقر اليه كل هؤلاء السادة هو الديالكتيك . انهم لا يرون دوما هنا الا السبب ، وهناك الا النتيجة . ان يكون هذا تجريدا فارغا ، ان لا يوجد في العالم الواقعي مثل هذه التضادات القطبية الميتافيزية الا في أوقات الازمات ، ان يحدث السير الكبير للاشياء في صورة فعل ورد فعل لقوى ، على الارجح ، على درجة كبيرة من التفاوت ، ـ التي حركتها الاقتصادية هي القوة الاكثر اقتدارا ، الاكثر أولية ، الاكثر حسما ، الا يكون من مطلق البتة وان كل شيء هو نسبي ، كل هذا ، اذا اردتم ، لا يرونه ؛ في نظرهم ، هيغل لم يوجد ...

---

١ ـ من «رأس المال» .

فريدريك انجلس

# الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية

## مقدمة للطبعة الانكليزية ★

هذه الدراسة جزء من كل اكبر . حوالي العام ١٨٧٥ ، أعلن الدكتور اوجين دوهرينغ ، الاستاذ المحاضر في جامعة برلين ، فجأة وبضجيج كاف ، هدايته الى الاشتراكية وقدم نفسه الى الجمهور الالماني مع نظرية اشتراكية كاملة ، تتضمن خطة لاعادة تنظيم المجتمع عمليا : كما هو مفروض ، انهال بعنف على أسلافه ، وأمسك بتلابيب ماركس بخاصة وصب عليه جام غضبه .

حدث هذا بُعيد اندماج كَسري (١) (او كتلتي) الحزب الاشتراكي الالماني ــ المجموعة الايزناخية واللاساليين ــ واكتسابهما بسبب هذا الواقع لا التزايد الهائل في القوى فحسب ، بل ما هو اكثر اهمية من ذلك ايضا ، ونعني اكتساب وسيلة توجيه هذه القوة ضد العدو المشترك . كان الحزب الاشتراكي في طريقه لان يصير بسرعة قوة في المانيا . لكن لكي يصير قوة ، كان ينبغي الا تُهدد الوحدة المكتسبة مجددا . والحال ان الدكتور دوهرينغ شرع بشكل مكشوف يجمع حول شخصه عصبة ، نواة لحزب انفصالي للمستقبل (٢) . كان من الضروري اذن رد

---

★ نشرت لاول مرة في الترجمة الانكليزية لكتاب «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» ، لندن ، ١٨٩٢ . في نفس الوقت ظهرت (بعد ان حذفت منها المقاطع السبعة الاولى) بالالمانية بعنوان «حول المادوية التاريخية» في مجلة «المصر الجديد» ، السنة ١١ (١٨٩٢ ــ ٩٣) ، المجلد ١ ، الاعداد ١ و٢ .

١ ــ في مؤتمر «غوتا» (ايار ١٨٧٥) .

٢ ــ كان برنشتاين ينتمي الى هذه العصبة ، ولكنه تخلى عنها في حياة ماركس وانجلس ، مدفوعا بضرورات النضال الذي كان الحزب يخوضه ضد بسمارك . عندما كتب انجلس هذه الاسطر ، في العام ١٨٩٢ ، كان بعيدا عن ان يشك ان برنشتاين ، الذي اختاره ليكون واحدا من منفذي وصيته ، سيغير مبادئه بعد موته ، يعود الى أحبائه الأول ويحاول تشكيل حزب انفصالي كان انجلس قد قتله في المهد . (ملاحظة لبول لافارغ) .

القفاز الذي رُمي في وجهنا والانخراط في الصراع ، شئنا ام أبينا .

القضية لم تكن على صعوبة استثنائية ، ولكنها طويلة النفَس . نحن الالمان ، كما يعرف الجميع ، ذوو عمق ثقيل بشكل رهيب ، جذري بعمق او عميق بجذرية، كما يطيب لكم تسميته . في كل مرة يلد فيها أحدنا ما يعتبره بمثابة نظرية جديدة، يرى لزاما عليه ان يبدأ باعدادها في منظومة تعانق العالم كله . يرى لزاما عليه ان يبرهن ان مبادىء المنطق الاولى والقوانين الاساسية للكون لم توجد منذ الأزل الا لتقود العقل البشري الى هذه النظرية المكتشفة حديثا والتي تتوج كل شيء : من هذه الزاوية كان الدكتور دوهرينغ في مستوى النبوغ القومي . لا اقل من **منظومة كاملة للفلسفة** ، للفكر ، للاخلاق ، للطبيعة ، للتاريخ ، لا أقل من **منظومة كاملة للاقتصاد السياسي وللاشتراكية** واخيرا لا أقل من **نقد تاريخي للاقتصاد السياسي** — اي ثلاثة مجلدات ضخمة من القطع العادي ، ثقيلة في شكلها كما في محتواها ، ثلاثة جيوش من الحجج المعبأة ضد كل الفلاسفة والاقتصاديين السابقين بوجه عام وضد ماركس بوجه خاص ، وفي الواقع محاولة لـ «شقلبة العلم» شقلبة كاملة — لا اقل من ذلك كله تعين عليّ الانكباب عليه . كان عليّ ان اتناول كل تلك المواضيع ومواضيع اخرى ايضا ؛ من مفاهيم الزمان والمكان حتى نظام المعدَنين ، من خلود المادة والحركة حتى الطبيعة الزائلة لافكارنا الاخلاقية ، من الاصطفاء الطبيعي لداروين حتى تربية الشبيبة في مجتمع المستقبل . بيد ان الشمولية المنهجية لخصمنا قد اتاحت لي الفرصة لكي أبسط بالتعارض معه، وللمرة الاولى في ترابطها، الآراء التي نحملها ، ماركس وانا ، حول هذه التنويعة الكبيرة من المواضيع . كان هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني الى الشروع بهذه المهمة ، المزعجة علاوة على ذلك .

ان جوابي قد صدر اولا في سلسلة مقالات نُشرت في جريدة «الى الامام» (فورفارتس) في لايبزيغ ، اللسان المركزي للحزب الاشتراكي ، ثم طُبع في مجلد بعنوان : أوجين دوهرينغ يشقلب العلم . في العام ١٨٨٦ ظهرت طبعة ثانية في زوريخ .

بناء على طلب صديقي بول لافارغ ، نقحت ثلاثة فصول (١) من هذا المجلد جُمعت في كراس ترجم ونشر (٢) عام ١٨٨٠ تحت عنوان **«الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية»** . ان طبعات بولونية واسبانية قد صدرت استنادا الى النص الفرنسي ؛ لكن في العام ١٨٨٣ أصدر اصدقاؤنا الالمان الكراس في لغته الاصلية ؛ مذ ذاك ، صدرت ترجمات مستندة الى النص الالماني باللغة الايطالية ، الروسية ، الدانيماركية ، الهولندية ، الرومانية ، بحيث ان هذا الكراس ، مع هذه الطبعة

---

١ — هي : الفصل ١ من المقدمة . الفصل ١ و٢ من القسم الثالث . الفصل ١ من المقدمة قسم الى قسمين ادخل بينهما الفصل ١ من القسم الثالث .

٢ — في «المجلة الاشتراكية» الاولى ، مجلة العام ١٨٨٠ .

الانكليزية الحالية ، اصبح متداولا الان في عشر لغات . انا لا اعرف اي مؤلف اشتراكي آخر ، حتى «البيان الشيوعي» لعام ١٨٤٨ و«رأس المال» لماركس ، ترجم الى هذا العدد من اللغات : في المانيا صدرت منه اربع طبعات تشكل بمجموعها ٢٠٠٠٠ نسخة .

ان الملحق الذي بعنوان «المشاعة الالمانية القديمة» (La marche) قد كتب بقصد ان نبث في الحزب الاشتراكي الالماني بعض المعلومات الاساسية عن تاريخ وتطور الملكية العقارية في المانيا . هذا الامر كان يبدو بالغ الضرورة في فترة كان فيها السكان من عمال المدن قد انحازوا في حدود مقبولة الى جانب الحزب الاشتراكي وحيث المهمة هي الاهتمام بالعمال الزراعيين والفلاحين . هذا الملحق قد ادرج في الطبعة المترجمة ، باعتبار ان الاشكال البدائية لملكية الارض ، وهي اشكال مشتركة بين كل القبائل الجرمانية ، وكذلك تاريخ تفسخها ، معروفة في انكلترا اقل بكثير مما في المانيا . تركت النص الاصلي كما هو دون تغيير ، وبالتالي فانني لم ارجع الى الفرضية التي صاغها حديثا «مكسيم كوفاليفسكي» . تقول هذه النظرية ان اراضي الزرع واراضي الرعي ، قبل ان تقسم بين اعضاء المشاعة الالمانية القديمة، كانت في البداية تزرع ويعنى بها بصورة مشتركة من قبل جماعة اسرية من نمط بطريركي تمتد الى عدة اجيال ( «زادروغا» سلاف الجنوب ، التي ما تزال قائمة حتى اليوم ، تقدم مثالا عنها) ، حدث التقسيم فيما بعد عندما اصبحت الجماعة واسعة بما يكفي لكي تجعل الاستثمار الاقتصادي صعبا . يبدو ان «كوفاليفسكي» على حق كلية ، لكن المسألة ما تزال قيد البحث .

ان المصطلحات الاقتصادية المستعملة في هذا الكتاب تنطبق ، بقدر ما هي جديدة ، على المصطلحات الواردة في الطبعة الانكليزية من «رأس المال» لماركس . نعني ب «انتاج السلع» هذه المرحلة من الاقتصاد التي لا تنتج فيها البضائع لاستعمال المنتج فقط ، بل بقصد المبادلة ، اي **بوصفها سلعا**، وليس بوصفها قيما استعمالية. هذه المرحلة تمتد منذ البدايات الاولى للانتاج لاجل المبادلة حتى ايامنا هذه؛ لم تبلغ أوج تطورها الا مع الانتاج الرأسمالي ، اي مع الشروط التي يشغّل فيها الرأسمالي ، مالك وسائل الانتاج ، عمالا لقاء اجر ، اي اناسا محرومين من كل وسيلة للانتاج عدا قوة عملهم ، ويضع في جيبه زيادة سعر مبيع المنتوجات عن نفقاتها . لقد قسمنا تاريخ الانتاج الصناعي منذ العصر الوسيط ، الى ثلاث حقب :

١ ــ الحرفية ، تضم معلمي حرف صغار يساعدهم بضع من الصناع والمتدربين حيث يصنع كل عامل السلعة بكاملها .

٢ ــ المانيفاتورة ، تضم عددا كبيرا كافيا من العمال مجمعين في مشغل كبير ، تصنع السلعة كلها وفقا لمبدأ تقسيم العمل ، اي ان كل عامل لا يقوم الا بعملية جزئية، بحيث لا ينتهي صنع المنتوج الا بعد ان يمر بالتتابع بين ايدي الجميع .

٣ ـ الصناعة الحديثة ، حيث يصنع المنتوج بماكينة تحركها قوة ، وحيث يقتصر عمل العامل على مراقبة وضبط العمليات التي تتم إواليا (ميكانيا) .

## انكلترا ، مهد المادوية

انني أعرف ان هذا الكتاب لن يستقبل بالترحاب من قبل قسم كبير من القراء الانكليز . ولكن اذا لم نول ، نحن القاريين ، أدنى اهتمام الى الاحكام المسبقة للـ «محترمية» الانكليزية ، فسنجد انفسنا في وضع أسوأ من الوضع الذي نحن فيه. هذا الكتاب يدافع عما نسميه «المادوية التاريخية» وان كلمة مادوية تخدش آذان الاغلبية العظمى من القراء الانكليز . التسامح ممكن مع اللاأدروية ، غير ان المادوية غير مقبولة البتة (١) .

مع ذلك فان مهد المادوية الحديثة ليس ، منذ القرن السابع عشر ، في بلد آخر سوى في انكلترا .

المادوية هي الابن الحقيقي لبريطانيا . من قبل ، تساءل فيلسوفها السكولاستي الكبير ، دونيس سكوت «ما اذا كان بوسع المادة ان تفكر» .

ولكي يحقق هذه المعجزة لجأ الى الله كلي القدرة ؛ وبتعبير آخر ، اجبر اللاهوت نفسه على التبشير بالمادوية . وكان فضلا من ذلك اسمويا (٢) . الاسموية موجودة كعنصر رئيسي لدى المادويين الانكليز ، وهي تشكل بصورة عامة اول تعبير عن المادوية .

---

١ ـ «هربرت سبنسر» ، «هيكسلي» ، فلاسفة وعلماء الداروينية اطلقوا على انفسهم ، لكي لا يصدموا محترمية مواطنيهم ، اسم «لا أدرويين» ، وهم يريدون ان يقولوا ، بواسطة هذه الكلمة اليونانية ، انهم كانوا محرومين من كل معرفة بالله ، بالمادة ، بالاسباب النهائية ، بالشيء في ذاته، الخ . المزّاحون ترجموها الى الانكليزية بكلمة Know - Nothing يعرف ـ لاشيء! «اوغست كونت» كان ايضا قد ملص وضعويته من هذه الاسئلة المربكة » لكي لا يكدر البورجوازية الفرنسية ، التي جحدت فلسفة القرن الثامن عشر والتي عادت ، شأن كلب التوراة ، الى قيئها . (ملاحظة من بول لافارغ ) .

٢ ـ الاسموية هي اتجاه فلسفي وسطوي يعتبر المفاهيم العامة للنوع (الكليات) فقط كأسماء =

ان الاب الحقيقي **للمادوية الانكليزية** ولكل العلم **الاختباري الحديث** هو بيكون . علم الطبيعة هو العلم الحقيقي في نظره ؛ والفيزياء ، المبنية على التجربة المحسوسة ، تشكل جزءها الاساسي والاثمن . فهو يرجع في كثير من الاحيان الى «**انكساغوروس**» وأصوله المتماثلة ، وكذلك الى «ديمقريطس» وذراته. ان الحواس ، في مذهبه ، معصومة ؛ هي منبع كل معرفة . العلم هو **علم التجربة** ويقوم في كثير من الاحيان على تطبيق **منهج عقلاني** على معطى محسوس. استقراء ، تحليل ، مقارنة ، ملاحظة ، اختبار ، تلك هي الشروط الرئيسية لمنهج عقلاني . من بين الخواص الفطرية **للمادة** ، **الحركة** هي الاولى والاسمى، لا بوصفها حركة **إوالية (ميكانية) ورياضية** فحسب ، بل ايضا بوصفها **غريزة** ، **روحا حيوية** ، **قوة قادرة على الانبساط** ، عذابا Qual (١) للمادة ، ( على حد تعبير « جاكوب بوهم » ) . ان الاشكال الاولية للمادة هي **قوى اساسية** حية ، مفرّدة Individualisants ملازمة لنفسها ، وهي التي تنتج الفروق المميزة .

عند بيكون ، خالقها الاول ، تنطوي المادة ايضا ، بصورة ساذجة ، على بذور تطور كلي . تبتسم المادة للانسان كله في روعة حسيتها الشاعرية ؛ لكن المذهب الحِكموي نفسه يزخر بتهافتات لاهوتية .

في تطورها اللاحق ، المادية صارت حصرية exclusif . **نظّم (وضع في منظومة)** هوبس مادية بيكون . العالم المحسوس فقد زهرته وصار المحسوس المجرد **لمهندس** . عُوضت الحركة **المادية** بالحركة **الاوالية** او **الرياضية** ؛ أُعلنت **الهندسة** علما رئيسيا . اصبحت المادوية **مُبغِضة للبشر** ، واذا ارادت ان تقهر على ارضها هي الروح **المبغضة للبشر والمفصولة عن الجسد** ، ترتب عليها ان تميت جسدها وأن تصبح **ناسكة** . وهي تتبدى **كائن عقل** ، ولكنها تطوّر كذلك المنطق الصارم لملكة الفهم .

انطلاقا من بيكون ، يُجري هوبس المحاجّة التالية : اذا كانت الحساسية تزود البشر بكل معارفهم ، ينتج عن ذلك ان الحدس ، الفكرة ، التمثيل ،

---

= كنتاجات لفكر ولغة البشر وليس لها من قيمة الا لتعيين الاشياء الخاصة الموجودة فعليا. وعلى عكس واقعيي العصر الوسيط ، كان الاسمويون ينكرون وجود المفاهيم بوصفها بعيمات (نماذج بدئية) ومصادر خلاقة للاشياء . بهذا المعنى تكون الاسموية اول تعبير عن المادوية في العصر الوسيط .

١ ـ (Qual) هي تورية فلسفية . Qual تعني حرفيا العذاب ، الالم الذي يدفع الى فعلٍ ما . الصوفي بوهم يعطي ايضا الى هذه الكلمة الالمانية شيئا ما من معنى الكلمة اللاتينية Qualitas (الصفة) ؛ ان Qual بوهم كان المبدأ الفاعل الآتي من الموضوع ، من العلاقة او من الشخص والمحدّد بدوره لتطوره التلقائي ، خلافا للالم الذي ينزل به من الخارج . (ف.ا.)

ليست سوى اشباح العالم الجسدي المحروم الى هذا الحد او ذاك من شكله المحسوس . كل ما يستطيع العلم ان يفعله ، هو اعطاء اسم لهذه الاشباح . ان **نفس** الاسم يمكن ان يُطلق على عدة اشباح . بل يمكن ان يكون ثمة اسماء للاسماء . لكن من التناقض «التأكيد» من جهة ، ان لكل الافكار اصلا فـي العالم المحسوس ، والاقرار ، من جهة اخرى ، ان كلمة هي اكثر من كلمة وانه توجد ايضا ، فضلا عن الكيانات الممثّلة (او المتصورة) والفريدة دائما ، كيانات كلية . بالعكس ، فان **ماهية غير جسدية** هي امر متناقض شأن جسد غير جسدي سواء بسواء . جسد ، كائن ، ماهية ، كل هـــذا هو نفس الفكرة **الواقعية** الواحدة . لا يمكن فصل الفكر عن مادة تفكر . انها موضوع كل التغييرات . ان كلمة **اللانهاية خاوية** من **المعنى** الا اذا كانت تعني قدرة روحنا على ان تضيف بلا نهاية . ولان **المادتية** [صفة ما هو مادي la matérialité ] وحدها يمكن ان تكون موضوعا يُدرَك حسيا ويعرف ، فاننا لا نعرف شيئا **البتة** عن وجود الله . ان وجودي وحده هو **الاكيد** . ان كل هوى انساني هو حركة إوالية ، تنتهي او تبدأ . ان مواضيع الغريزة هي الخير . الانسان خاضع لنفس القوانين التـي تخضع لها الطبيعة . القوة والحرية متماثلتان .

كان هوبس قد نظّم (وضع في منظومة) بيكون ، ولكن دون ان يبني علـى اسباب واضحة مبداه الاساسي القائل بأن اصل المعارف والافكار يضرب فـي العالم المحسوس .

ان لوك هو الذي قدم ، في كتابه «**محاولة حول الفهم الانساني**» ، البراهين لمبدأ بيكون وهوبس .

وكما ان هوبس قد حطم الآراء المسبقة (او الاوهام) **التاليهوية** لمادية بيكون، فان لوكنز ، دودويل ، هارتلي ، بريستلي ، الخ ، قد هدموا آخر حاجز لاهوتي لحسوية لوك . بالنسبة للمادوية على الاقل ، ليست «التأليهوية سوى وسيلـــة ملائمة وسهلة للتخلص من الدين (١) .

هذا ما كتبه ماركس بصدد الاصل الانكليزي للمادوية الحديثة : اذا كان انكليز اليوم ليسوا مسرورين بخاصة من هذا الاعتراف بمآثر أجدادهم ، فيا ويحهم ! مع ذلك ، فالامر الذي لا يمكن انكاره هو ان بيكون ، هوبس ولوك هم آباء هذه الكوكبة الرائعة من المادويين الفرنسيين الذين ، رغم الانتصارات في البر والبحر التـــي أحرزها الالمان والانكليز على الفرنسيين ، جعلوا من القرن الثامن عشر قرنا فرنسيا الى أبعد الحدود ، حتى قبل تتويجه بالثورة الفرنسية ، التي ما نزال نحاول فـي المانيا وانكلترا أقلمة نتائجها .

---

١ ــ ماركس وانجلس : «العائلة المقدسة» ، فرانكفورت ، ١٨٤٥ ، ٢٠١-٢٠٤ .

ليس لنا ان ننكر هذا : المثقف الاجنبي الذي كان ، حوالي أواسط القرن ، يختار الاقامة في انكلترا ، كان يندهش من شيء ، الا وهو ، كما كان مرغما على ان يفهم ذلك، الحماقة والتزمت الدينيين لدى الطبقة الوسطى الانكليزية «المحترمة». في تلك الحقبة ، كنا جميعا مادويين او على الاقل كنا مفكرين أحرارا جد متقدمين وكان من غير المعقول في نظرنا ان جميع الناس المثقفين تقريبا يمكن ان يصدقوا كل انواع المعجزات المستحيلة وان يقدم إراضيون (جيولوجيون) مثل باكلاند ومانتل على تشويه معطيات علمهم لكي لا تذهب بعيدا في مناقضة أساطير «سفر التكوين» : في حين انه كان ينبغي ، لايجاد أناس يجرؤون على استعمال ملكاتهم الذهنية في مادة الدين ، الذهاب الى الناس الأميين، الى الكبار غير المغتسلين (les great Unwashed) كما يكنونهم ، الى الشغيلة ، وبخاصة الى الاشتراكيين الأوينيين (أنصار أوين) (١) .

## اللا أدروية الانكليزية ، مادوية خجولة

لكن ، مذ ذاك ، «تمدنت» انكلترا . ان معرض العام ١٨٥١ انهى انعزالويتها Exclusivisme الجزيرية : لقد صارت تدريجيا دولية بالنسبة لغذائها ، لعاداتها ولافكارها ، الى حد أنني اخذت أتمنى ان تشق بعض العادات والتقاليد الانكليزية طريقها الى القارة الاوروبية ، كما تفعل نفس الشيء عادات اوروبية اخرى هنا ، في انكلترا . مهما يكن ، فان انتشار استعمال زيت السلطة ، ولم تكن تعرفه سوى الارستقراطية قبل العام ١٨٥١ ، قد رافقه انتشار مسخِط للريبوية القارية (الاوروبية) في مادة الدين ، ووصلت الى القول بأن اللاأدروية ، رغم انها لا تعتبر بعد **«شيئا ممتازا»** شأن الكنيسة الانكليزية ، تحتل ، من زاوية المحترمية ، نفس المكانة التي تحتلها المعمودوية (٢) ، وبلا جدال مكانة أعلى من مكانة جيش الخلاص(٣) .

---

١ ــ Great unwashed ، تعني حرفيا الكبار غير المغتسلين : لودرو ــ رولان، مازيني ، بيات وجمهوريو ماء الورد لعام ١٨٤٨ كانوا يكنون نفس الازدراء للاشتراكيين ؛ كانوا يقولون ان الاشتراكيين الديمقراطيين في حرب مع الصابون . النظافة ترف مكلف ، وان الطبقة العاملة ، المجزوزة من قبل البورجوازية ، لا تستطيع ان تشتريها الا بصعوبة : هذه الارواح الجميلة تنزل بالعمال جريمة البؤس الذي يفرضه عليهم عرابو البورجوازية . (ملاحظة من «بول لافارغ») .

٢ ــ **المعمودوية** هي شيعة كبيرة في انكلترا والولايات المتحدة : معتقدها المميز هو ان تعمّد في سن البلوغ بواسطة التغطيس الكامل لجسد المؤمن (ملاحظة من «بول لافارغ») .

٣ ــ منظمة بورجوازية دينية واحسانية أسسها عام ١٨٧٨ في لندن المبشر الميتودوي ويليم بوث (١٨٢٩ ــ ١٩١٢) لتقديم مساعدة مادية و«روحية» للفقراء . ان احدى مهامها الرئيسية هي تعمية وعي الشعب بواسطة مواعظ دينية واخلاقية ودعاية رجعية. لها منظمات في الولايات المتحدة وجملة من =

اني لا استطيع ان امنع نفسي من الظن انه ستكون ، في هذه الظروف ، تعزية للكثيرين ، الذين ينوحون ويلعنون بصدق التقدمات التي احرزها عدم التدين ، ان يعرفوا ان هذه «الافكار حديثة التاريخ» ليست اجنبية الاصل ومصنوعة في المانيا ، شأن الكثير من اشياء الاستعمال اليومي ، بل هي ، بدون تناقض ممكن ، انكليزية الاصل الى ابعد الحدود وان انكليز ما قبل مئتي سنة الذين وضعوها للعالم قد ذهبوا الى ابعد بكثير مما يجرؤ عليه احفادهم اليوم .

وبالفعل ، ما هي اللاادروية ، ان لم تكن مادوية خجولة ؟ ان مفهوم الطبيعة الذي يحمله اللاادروي هو مفهوم مادي كليا . ان العالم الطبيعي برمته محكوم بقوانين وهو لا يقر بتدخل فعل خارجي ؛ ولكنه يضيف متحفظا : «نحن لا نملك وسيلة تأكيد او نفي وجود كائن اسمى مهما يكن في ماوراء الكون المعروف» . كان ممكنا ان يكون ثمة مبرر لهذا القول في الحقبة التي اجاب فيها بفخر لابلاس نابوليون عندما سأله لماذا لم يرد ، في كتابه **«الميكانيك السماوي»** ، ذكر اسم الخالق : «لم اكن بحاجة الى هذه الفرضية» . اما اليوم ، مع مفهومنا التطوري للكون ، فلم يعد ثمة مكان البتة لخالق او لمنظّم ؛ وان الحديث عن كائن اسمى ، واقف على باب الكون الموجود كله ، ينطوي على تناقض في العبارات نفسها ويبدو لي فضلا عن ذلك بمثابة إهانة لمشاعر المؤمنين .

ان صاحبنا اللاادروي يقبل ايضا ان كل معرفتنا مبنية على معطيات تزودنا بها الحواس : ولكنه يسارع الى القول : «كيف نعرف فيما اذا كانت حواسنا تزودنا بصور صحيحة عن المواضيع التي نتلقاها بواسطتها ؟» ، ويتابع قوله فيعلمنا انه حين يتحدث عن المواضيع او صفاتها فانه لا يعني في الواقع هذه المواضيع او صفاتها التي لا يمكن ان نعرف شيئا اكيدا عنها ، بل مجرد انطباعات حدثت في هذه الحواس . يقينا ان هذا ضرب من مفهوم يبدو من الصعب دحضه بالحجج وحدها . ولكن قبل المحاجّة كان الفعل ، في البدء كان الفعل (١) . وان الفعل الانساني قد حل الصعوبة قبل ان تكتشفها الحذاقة البشرية بزمن طويل . البرهان على وجود الكعكة يكمن في اكلها . ففي اللحظة التي نضع فيها هذه المواضيع قيد الاستعمال تبعا للصفات التي نلتقطها فيها ، نكون قد اخضعنا لامتحان معصوم صحة او عدم صحة ادراكاتنا الحسية . عندما تكون هذه الادراكات خاطئة ، يكون استعمال الموضوع الذي اوحت به خاطئا ؛ ومن المفروض بالتالي ان تخفق محاولتنا . لكن اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ، اذا لاحظنا ان الموضوع يطابق التمثيل الذي لدينا عنه ، انه يعطي ما انتظرناه من استعماله ، ففي هذا برهان ايجابي على ان ادراكاتنا للموضوع وصفاته

---

= البلدان الرأسمالية الاخرى وبخاصة في المستعمرات حيث تدعم ممارسة سياسة استعمارية. انها اداة بيد البورجوازية الرجعية ، موجهة ضد الحركة العمالية والديمقراطية .

١ ــ عن مسرحية «فاوست» لـ «غوته» .

تنطبق ، في اطار هذه الحدود ، على الحقيقة الواقعية الخارجة عنا . وبالمقابل ، اذا اخفقنا ، فلن نلبث بصورة عامة طويلا لنكتشف سبب عدم نجاحاتنا ؛ نجد ان الادراك الذي خدم كأساس لمحاولتنا ، اما انه كان غير كامل او سطحي ، او انه كان مرتبطا على نحو لا يبرره الواقع بمعطيات ادراكات اخرى . وبقدر ما تكثر عنايتنا بتهذيب حواسنا واستخدامها استخداما صحيحا ونحصر فعلنا في الحدود التي تأمر بها ادراكاتنا الملتقطة التقاطا صحيحا والمستخدمة استخداما صحيحا ، بقدر ما يكثر ان نرى نتيجة فعلنا تبرهن على تطابق ادراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للمواضيع الملتقطة . حتى الان لا يوجد مثل واحد على ان ادراكات حواسنا ، المراقبة علميا ، قد ولدت في دماغنا تمثيلات العالم الخارجي متخالفة ، بحكم طبيعتها نفسها ، مع الواقع او انه يوجد تعارض متأصل بين العالم الخارجي والادراكات الحسية التي لدينا عنه .

وها هو اللاأدروي الكانطي الجديد يطل ويقول : «حقا اننا نستطيع ان نلتقط ربما بشكل صحيح صفات موضوع ما ، ولكننا لا نستطيع بأية سيرورة للحواس او للفكر ان نلتقط الشيء نفسه . **الشيء في ذاته** يقع ما وراء معرفتنا» . ومنذ زمن طويل ، أجاب هيغل : «اذا كنت تعرف جميع صفات الشيء ، فأنت تعرف الشيء ذاته ؛ ولا يبقى الا واقع ان الشيء المذكور موجود في خارجك انت ومنذ ان تخبرك حواسك بهذا الواقع تلتقط البقية الاخيرة من الشيء في ذاته الذي يقول به كانط»(١). ومن الصواب ان نضيف ان معرفتنا ، في زمن كانط ، للمواضيع الطبيعية كانت مشرذمة الى حد يحق لنا فيه الافتراض ان ما وراء القليل الذي نعرفه عن كل واحد منها يوجد «شيء في ذاته» خفي ملغز . لكن هذه الاشياء غير القابلة للالتقاط كانت الواحدة بعد الاخرى تلتقط ، تحلل و ، بالاضافة الى ذلك ، **يكرر صنعها** بواسطة التقدمات الهائلة للعلم : ما نستطيع صنعه ، لا نستطيع الادعاء انه غير قابل **للمعرفة.** وعلى هذا كانت المواد العضوية ، بالنسبة لكيمياء النصف الاول من هذا القرن ، مواضيع خفية ملغزة ؛ اليوم ، تعلمنا صنعها الواحدة بعد الاخرى من عناصرها الكيميائية ، دون مساعدة اية سيرورة عضوية . ان الكيماويين الحديثين يصرحون انه مذ عرف التركيب الكيماوي لاي جسم من الاجسام اصبح ممكنا صنعه من عناصره . ما زلنا بعيدين عن معرفة تركيب المواد العضوية الاكثر ارتفاعا ، الاجسام الآحينية ؛ لكن ليس ثمة من سبب لليأس من التوصل الى هذه المعرفة ، بعد قرون من البحث اذا تطلب ذلك ، ومتسلحين بهذه المعرفة سنصل الى أنتاج الآحين الاصطناعي . حين نبلغ ذلك ، نكون قد صنعنا الحياة العضوية ، ذلك لان الحياة ،

---

١ ــ الشيء في ذاته ، في فلسفة كانط ، هو غير قابل للمعرفة وهو ضد الظاهرة التي هي موضوع للمعرفة . يبرهن انجلس هنا بطلان مثل هذا الموقف الفلسفي .

من ابسط اشكالها الى ارفعها ، ليست سوى نمط الوجـــود الاعتيادي للاجسام الآحينيــة .

لكن ما ان يبدي صاحبنا اللاادروي هذه التحفظات الشكلية الخالصة ، حتى يتكلم ويفعل كأعرق المادويين ، كما هو بالفعل . انه يقول : «بقدر ما نعرف ، فان المادة والحركة ــ او الطاقة ، كما يقال الان ــ لا يمكن ان تخلقا او تبادا ، ولكن ليس لدينا اي برهان على انهما لم تخلقا في لحظة ما» . لكن اذا حاولت ان تدير هــذا الاعتراف ضده في حالة ما خاصة ، يبادر الى صرفك وإسكاتك . اذا قبل امكانية وجود الروحانوية بصورة مجردة ، فانه لا يرضى بالحديث عنها بصورة مشخصة . سيقول لك : «بقدر ما نعرف وما يمكننا ان نعرف ، لا يوجد من خالق ومنظم للكون؛ حسبما نرى ، لا يمكن لا للمادة ولا للطاقة ان تخلق او تباد ؛ بالنسبة الينا ، الفكر هو شكل من اشكال الطاقة ، وظيفة من وظائف الدماغ ؛ كل ما نعرفه ، هو ان العالم المادي محكوم بقوانين ثابتة ، وهكذا دواليك» . اذن ، فهو مادوي في حدود كونه رجل **علم** ، في حدود كونه **يعرف** شيئا ما ؛ اما خارج علمه ، في الميادين التي لا يعرف فيها شيئا ، فيترجم جهله الى اليونانية ويطلق عليه **لاأدروية** .

على اي حال ، ثمة شيء يبدو لي واضحا : حتى لو كنت لاادرويا ، من الواضح انني لا استطيع ان اسمي مفهوم التاريخ الذي عرضنا خطوطه الرئيسية في هــذا الكتاب الصغير «لاادروية تاريخية» . الناس الديّنون قــد يسخرون منــي ، واللاادرويون قد يسخطون ويسألونني فيما اذا كنت اريد السخرية بهم . ومن هنا فانني آمل الا تحنق المحترمية الانكليزية كثيرا اذا استخدمت بالانكليزية ، كما افعل بلغات اخرى عديدة ، كلمة **مادوية تاريخية** لكي اعين مفهوما للتاريخ يبحث عن السبب الاول والمحرك الكبير لكل الاحداث التاريخية الهامة في التطور الاقتصادي للمجتمع، في تغير انماط الانتاج والمبادلة ، في تقسيم المجتمع الى طبقات الناجم عنه وفي صراع هذه الطبقات فيما بينها .

سيمنحوني بالاحرى بسهولة هذا الاذن ، اذا بينت ان للمادوية التاريخية بعض الفوائد حتى بالنسبة للمحترمية الانكليزية . لقد اشرت قبلا الى ان المثقف الاجنبي الذي كان ، منذ اربعين او خمسين عاما خلت ، يقيم في انكلترا كان يصدم بما كان يسميه التزمت الديني وحماقة الطبقة الوسطى المحترمة . سأبرهن الان علــى ان الطبقة الوسطى الانكليزية المحترمة في تلك الفترة لم تكن على ذلك القدر الذي تبدو فيه لعين المثقف الاجنبي . من الممكن تفسير ميولاتها الدينية .

## النمو الاجتماعي للبورجوازية

عندما خرجت اوروبا من العصر الوسيط كانت البورجوازية المتنامية في المدن

تشكل العنصر الثوري فيها . كانت تحتل في التنظيم الاقطاعي مكانا كان قد أصبح ضيقا جدا بالنسبة لقوة توسعها . ان التطور الحر للطبقة الوسطى ، للبورجوازية ، صار متعارضا مع الحفاظ على المنظومة الاقطاعية : اذن ينبغي للمنظومة الاقطاعية ان تدمر .

كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المركز الدولي الكبير للاقطاعية . لقد وحدت كل اوروبا الغربية الاقطاعية ، رغم حروبها الداخلية ، في منظومة سياسية كبيرة ، معارضةً للروم الاورثوذكس المنشقين وللبلدان الاسلامية على السواء . لقد توجت المؤسسات الاقطاعية بهالة من التقديس الإلهي . صاغت هرمها الكهنوتي على غرار الهرم الاقطاعي وصارت في النهاية السيد الاقطاعي الاكبر سلطانا ، مالكةً ما لا يقل عن ثلث اراضي العالم الكاثوليكي . قبل ان يصبح بالامكان مهاجمة الاقطاعية في مختلف مجالاتها في كل بلد ، كان لا بد من تحطيم منظمتها المركزية المقدسة .

والحال انه قد حدث ، بموازاة صعود البورجوازية ، انطلاق عظيم للعلم ؛ من جديد دُرس علم الفلك ، الميكانيك ، الفيزياء ، التشريح وعلم وظائف الاعضاء . كانت البورجوازية بحاجة ، بغية تنمية انتاجها الصناعي ، الى علم يدرس الخواص المادية (او الفيزيائية) للاشياء الطبيعية وانماط فعل قوى الطبيعة . حتى ذلك الحين ، لم يكن العلم سوى الخادم الوضيع للكنيسة ، التي لم تسمح له البتة بتخطي الحدود التي وضعها الايمان ؛ فكان كل شيء سوى ان يكون علما . وتمرد على الكنيسة ؛ والبورجوازية ، العاجزة عن فعل اي شيء دون العلم ، انضمت الى حركة التمرد .

هذه الملاحظات ، رغم انها تعنى فقط بالنقطتين التي كان لا بد للبورجوازية الصاعدة ان تصطدم عندها بعنف مع الدين القائم ، ستكون كافية للبرهان اولا على ان الطبقة الاكثر انتفاعا بصورة مباشرة من النضال ضد موقع القوة الذي تحتله الكنيسة الكاثوليكية كانت البورجوازية ، وثانيا على ان كل نضال ضد الاقطاعية يتعين عليه عصرئذ ان يرتدي قناعا دينيا وان يوجه في المقام الاول ضد الكنيسة . لكن اذا كانت الجامعات وتجار المدن هم الذين أطلقوا صيحة الحرب ، فقد كان اكيدا انها ربما تجد ـ ووجدت بالفعل ـ صدى قويا عند الكتل الشعبية في الريف ، عند الفلاحين ، الذين كانوا يخوضون في كل مكان صراعا قاسيا في سبيل بقائهم بالذات ضد سادتهم الاقطاعيين ، سواء كانوا روحيين او زمنيين .

ان نضال البورجوازية الطويل ضد الاقطاعية قد دُمغ بثلاثة معارك كبيرة وحاسمة .

# انعتاق البورجوازية

## الاصلاح البروتستانتي

المعركة الاولى هي الاصلاح البروتستانتي في المانيا . على صرخة الحرب التي اطلقها لوثر ضد الكنيسة ، اجابت انتفاضتان سياسيتان : انتفاضة النبالة الصغيرة بقيادة فرانتس فون زيكينغن (١٥٢٣) وحرب الفلاحين الكبيرة (١٥٢٥) . سحقت الانتفاضتان كلتاهما ، بصورة رئيسية بسبب تردد بورجوازيات المدن ، التي كانت مع ذلك الاكثر انتفاعا بهما ؛ وليس بوسعنا هنا ان نبحث اسباب هذا التردد . منذئذ تحول الصراع الى نزاع بين الامراء المحليين وسلطة الامبراطور المركزية ، أدى خلال قرنين الى شطب المانيا من عداد الامم الاوروبية التي تلعب دورا سياسيا . بيد ان الاصلاح اللوثري قد ولد دينا جديدا ، الدين الذي كانت الملكية المطلقة بالتحديد بحاجة اليه . الفلاحون الالمان في شمال شرق البلاد لم يتحولوا بالاحرى الى اللوثرية حتى تحولوا من بشر احرار الى أقنان .

لكن حيث اخفق لوثر انتصر كالفن . المعتقد الكالفني كان يستجيب لحاجات بورجوازية عهدئذ الاكثر تقدما . ان مذهبه في القدر المسبق (١) كان التعبير الديني عن واقع ان ، في العالم التجاري للمنافسة ، النجاح والفشل لا يتوقفان لا على النشاط ولا على مهارة الانسان ، بل على ظروف مستقلة عنهم . هذه الظروف لا ترتبط لا بمن يريد ولا بمن يشتغل ؛ انها تحت رحمة قوى اقتصادية عليا وغير معروفة ؛ وكان هذا صحيحا بخاصة في حقبة ثورة اقتصادية ، حين كانت جميع المراكز التجارية القديمة وجميع الطرق التجارية قد أبدلت بأخرى ، حين فتحت الهند وامريكا للعالم ، وحين اخذت المعتقدات الاقتصادية الاكثر احتراما من قبل ابناء العصور القديمة ــ القيمة الخاصة بكل من الذهب والفضة ــ تتزعزع وتهوي. أضف الى ذلك ان بنية كنيسة كالفن كانت ديمقراطية وجمهورية قطعا ، وحين جُمهرت مملكة الله ، لم تعد ممالك هذا العالم تبقى تحت هيمنة الملوك ، الاساقفة والسادة الاقطاعيين . وحين قبلت اللوثرية الالمانية ان تصير اداة طيعة في أيدي الامراء الصغار الالمان ، اسست الكالفنية جمهورية في هولندا واحزابا جمهورية

---

١ ــ مذهب يقول ان الافراد هم مسبقا ، ومهما استطاعوا ان يفعلوا ، مختارون وملعونون .

نشيطة في انكلترا وبخاصة في ايكوسيا .

## الثورة الانكليزية ، ولادة المادوية

الانتفاضة الكبرى الثانية التي قامت بها البورجوازية وجدت في الكالفنية مذهبا مفصلا ومخاطا على قدها . حدث الانفجار في انكلترا (١) . الطبقات الوسطى كانت اول من اندفع الى المعركة ، وكان «يوامنة» (٢) la yeomanry الريف هم الذين جعلوها تنتصر . من الطريف ان ، في الثورات الكبرى الثلاث للبورجوازية، الفلاحين قدموا الجيوش لدعم المعركة وانهم هم بالضبط الطبقة التي ينزل بها اكبر الخراب بلا ريب من جراء النتائج الاقتصادية للانتصار . عاش اليوامنة مدة قرن فقط بعد كرومويل . بيد انه لولا هؤلاء اليوامنة ولولا عنصر عوام المدن ، ما كان في وسع البورجوازية ان تستمر بقواها الخاصة في الصراع حتى النصر وما كان باستطاعتها ان ترفع شارل الاول الى المقصلة . لكي يكون ممكنا لهذه الفتوح التي أصابتها البورجوازية ، التي كانت ناضجة وجاهزة للحصاد ، ان تتثبت ، كان ينبغي للثورة ان تتجاوز بعيدا الهدف ـ تماما كما في فرنسا عام١٧٩٣ وكما في المانيا عام١٨٤٨ . يبدو ان هذا هو احد قوانين تطور المجتمع البورجوازي .

هذا الغلو في النشاط الثوري تلته في انكلترا الردة المحتومة التي تجاوزت ، بدورها ، النقطة التي كان بامكانها ان تبقى عندها . بعد سلسلة من التذبذبات ، استقر مركز الثقل الجديد وصار نقطة جديدة للانطلاق . ان الحقبة العظيمة في التاريخ الانكليزي ، التي تسميها المحترمية «العصيان الكبير» ، والصراعات التي تلتها وصلت الى تمامها مع الحدث الحقير نسبيا لعام ١٦٨٩ ، الذي يجمّله مع ذلك المؤرخون الليبراليون بلقب «الثورة المجيدة» .

نقطة الانطلاق الجديدة كانت تسوية بين البورجوازية الصاعدة وبين الملاكين الاقطاعيين السابقين . هؤلاء الاخيرون ، رغم انهم سموا آنئذ كما اليوم بالارستقراطية ، كانوا منذ زمن طويل في الطريق الى ان يصيروا ما لم يصره «لوي فيليب» الا بعد ذلك بزمن غير قصير : «بورجوازي المملكة الاول» . لحسن حظ

---

١ ـ عام ١٦٤٨ والسنوات التي تلتها .

٢ ـ «اليوامنة» كانوا ملاكين صغارا احرارا يزرعون اراضيهم بأنفسهم ؛ كان عددهم كبيرا جدا في هذه الحقبة في انكلترا . (ملاحظة لـ «بول لافارغ») .

انكلترا ، ان البارونات الاقطاعيين القدماء قد تذابحوا طوال حرب الوردتين (١) . ان اخلافهم ، وان تحدروا من نفس العائلات ، قد جاؤوا مع ذلك من فروع نسيبة ولكن بعيدة الى حد انها شكلت معشرا جديدا تماما ؛ عاداتهم واذواقهم كانت بورجوازية اكثر منها اقطاعية ؛ كانوا يعرفون تماما قيمة المال فبدأوا مباشرة في زيادة ريعهم العقاري ، بطرد مئات من صغار المستأجرين وإحلال خراف في اراضيهم . ان هنري الثالث ، اذ شتت بالأعطيات وبالسفه اراضي الكنيسة ، قد خلق جحفلا من الملاكين العقاريين البورجوازيين : المصادرات التي لا تحصى للاملاك الكبيرة ، التي كانوا يردونها الى حديثي نعمة تامين او نصف حديثي نعمة ، والتي استمرت بعده طوال القرن السابع عشر كله ، ادت الى نفس النتيجة . لهذا بدءاً من عهد هنري السابع ، فان الارستقراطية الانكليزية لم تعارض تطور الانتاج الصناعي، على العكس حاولت الاستفادة منه بصورة غير مباشرة ؛ بل وجد على الدوام عدد كبير من الملاكين العقاريين الكبار مستعدين ، لاسباب اقتصادية وسياسية ، للتعاون مع زعماء البورجوازية الصناعية والمالية . اذن فتسوية العام ١٦٨٩ قد جرت بسهولة. تركت الاسلاب السياسية ــ مناصب ، مناصب عاطلة (اي براتب وبدون عمل) ، رواتب ضخمة ــ للأسر الكبيرة النبيلة ، شرط عدم اهمال المصالح الاقتصادية للبورجوازية التجارية ، الصناعية والمالية . وان هذه المصالح الاقتصادية كانت عهدئذ على ما يكفي من القوة لكي تحدد السياسة العامة للأمة . كان يوجد غير قليل من النزاعات حول المسائل التفصيلية ، بيد أن الطغمة الارستقراطية كانت تعرف جيدا ان ازدهارها الاقتصادي مرتبط ارتباطا لا ينفصم بازدهار البورجوازية الصناعية والتجارية .

بدءاً من هذه اللحظة ، صارت البورجوازية عنصرا متواضعا ، ولكن معترفا به رسميا ، في الطبقات المهيمنة في انكلترا ، لها مع الاجزاء الاخرى من هذه الطبقات مصلحة مشتركة في المحافظة على اخضاع الكتلة العمالية الكبيرة من الامة . شغل التاجر او المانيفاتوري (صاحب المانيفاتورة) نفسه مركز المعلم او ، كما كان يقال حتى هذه الايام الاخيرة ، «الرئيس الطبيعي» ازاء عماله ، مستخدميه وخدمه . مصلحته كانت تأمره بأن يبتز منهم اكبر واحسن قدر ممكن من العمل ؛ لذا كان يتعين عليه ان يعودهم على الخضوع المناسب . هو نفسه ، كان متدينا ، والدين كان الراية التي حارب في ظلها الملك والاسياد ؛ لم يمض زمن طويل حتى اكتشف الفوائد التي يمكن

---

١ ــ استمرت من ١٤٥٥ الى ١٤٨٥ . ــ هنري الثالث ، الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد ، صار ملكا على انكلترا من ١٥٠٩ الى ١٥٤٧ وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية .

ان يستجرها من هذا الدين نفسه لكي يؤثر في عقول رعاياه الطبيعيين ولكي يجعلهم طيعين لاوامر المعلمين الذين وضعتهم عناية الله العصية على الفهم فوقهم . الخلاصة، ان البورجوازي الانكليزي قد شارك في اضطهاد «الطبقات الدنيا» ، في اضطهاد الكتلة الكبرى المنتجة في الامة ، وان احدى ادوات الاضطهاد كانت تأثير الدين .

ثمة واقع آخر ساهم في تقوية الميولات الدينية للبورجوازية : ولادة المادوية في انكلترا . هذا المذهب الجديد الملحد قد صدم ليس فقط المشاعر المتزمتة للطبقة الوسطى ، بل أعلن نفسه بمثابة فلسفة لا تتفق او لا تناسب الا العلماء المنقبين والناس المثقفين ، بالتعارض مع الدين المناسب تماما للكتلة الكبيرة الجاهلة ، بما فيها البورجوازية . مع هوبس ، ظهرت المادوية على المسرح ، بصفتها المدافعة عن امتيازات الملكية وسلطانها المطلق ؛ دعت الملكية المطلقة الى ان تبقي تحت النير هذا «الولد القوي ، ولكن الخبيث» (١) ، الذي هو الشعب . كان الامر كذلك مع أخلاف هوبس ، مع بولينغبروك ، شافتسبيري ، الخ ؛ الشكل الجديد التأليهوي او المادوي بقي ، كما في الماضي ، مذهبا ارستقراطيا ، باطنيا ، وبالتالي مكروها من البورجوازية ، وهو ، بهرطقته الدينية وارتباطاته السياسية ، معادٍ للبورجوازية . بالتالي ، في وجه هذه المادوية وهذه التأليهوية الارستقراطيتين ، فان الشيع البرتستانتية ، التي كانت قد خاضت براياتها ومحاربيها الحرب ضد آل ستيوارت، استمرت تشكل القوة الرئيسية للطبقة الوسطى المتقدمة وما تزال تشكل حتى اليوم صلب «الحزب الليبرالي» الكبير .

## مادوية القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية

بيد ان المادوية انتقلت من انكلترا الى فرنسا حيث التقت مع مدرسة فلسفية مادوية ، تحدرت من الديكارتوية التي امتزجت بها . في بادىء الامر ، ظلت المادوية مذهبا ارستقراطيا على وجه الحصر ؛ لكن طابعها الثوري لم يلبث ان تأكد واتضح. ان المادويين الفرنسيين لم يقصروا نقدهم على المسائل الدينية وحدها ، بل تصدوا لجميع التقاليد العلمية والمؤسسات السياسية في زمنهم ؛ واخيرا لكي يبرهنوا ان مذهبهم يمكن ان يطبق تطبيقا شاملا ، اختاروا طريقا مختصرا وطبقوه بجراة على كل مواضيع المعرفة في مؤلف عبقري استحق اسمه : **الموسوعة** L'Encyclopédie . وعلى هذا النحو ، في هذا الشكل او ذاك من شكليها ، ــ مادوية معلنة او تأليهوية ــ اصبحت هذه المادوية مفهوما للعالم تبنته كل الشبيبة المثقفة في فرنسا ، الى حد انه عندما انفجرت الثورة الكبرى قدم هذا المذهب الفلسفي ، الذي ولده في انكلترا

---

١ ــ من مقدمة كتاب هوبس : «عن المواطن» .

الملكيون ، الراية النظرية للجمهوريين وللارهابيين الفرنسيين ، وقدم نص «اعلان حقوق الانسان» .

الثورة الفرنسية الكبرى كانت الانتفاضة الثالثة التي قامت بها البورجوازية ؛ لكنها كانت الاولى التي رفضت كليا الزي الديني وخاضت كل معاركها على ارضية سياسية مكشوفة ؛ كانت ايضا الاولى التي دفعت الصراع حتى ابادة احد الاطراف المتصارعة ، الارستقراطية، وحتى الانتصار الكامل على الطرف الآخر، البورجوازية. في انكلترا ، استمرارية المؤسسات القبثورية (ما قبل الثورية) والبعدثورية والتسوية بين الملاكين العقاريين الكبار والرأسماليين وجدت تسبيرا عنها في استمرارية السوابق الحقوقية وفي الحفاظ باحترام على الاشكال الاقطاعية للقانون . لقد حققت الثورة الفرنسية قطيعة كاملة مع تقاليد الماضي ، كنست آخر بقايا الاقطاعية وخلقت ، مع «المدونة المدنية» (le Code civile) تكييفا متقنا ومحكما للحقوق الرومانية مع شروط الراسمالية الحديثة ؛ انها تعبير كامل تقريبا عن العلاقات الحقوقية المطابقة او المقابلة لمرحلة التطور الاقتصادي التي سماها ماركس بالانتاج السلعي ؛ وبلغت من الاحكام والاتقان حدا بحيث انها ، وهي مدونة فرنسا الثورية ، تخدم اليوم كمثال لاصلاح حقوق الملكية في جميع البلدان ، دون ان نستثني منها انكلترا . بيد اننا ينبغي الا ننسى انه اذا كان القانون الانكليزي ما يزال يعبر عن العلاقات الاقتصادية للمجتمع الراسمالي بلغة الاقطاع البربرية هذه ، التي تطابق الشيء الذي ترمي الى التعبير عنه بالضبط كما يطابق الاملاء الانكليزي اللفظ الانكليزي ، ــ تكتب لندن وتلفظ القسطنطينية ، كما قال فرنسي ، ــ هذا القانون الانكليزي نفسه هو ايضا القانون الوحيد الذي بقي كما هو لم يمس ونقل الى امريكا والى المستعمرات خير قسم من هذه الحرية الشخصية، من هذا الحكم الذاتي (self - governement) (١) المحلي ومن هذا الاستقلال ازاء كل تدخل اجنبي ، عدا تدخل المحاكم القضائية ، وبكلمة من هذه الحريات الجرمانية القديمة التي زالت في القارة الاوروبية اثناء عصر الملكية المطلقة ولم تستعد تماما في أي مكان .

## البورجوازية الانكليزية ضد المادوية والثورة

لكن ، لنعد الى بورجوازينا الانكليزي . ان الثورة الفرنسية قد زودته بفرصة رائعة لكي يحطم بمساعدة الملكيات القارية التجارة البحرية الفرنسية ، لكي يستولي على المستعمرات الفرنسية ولكي يسحق آخر مطامح فرنسا في المنافسة البحرية . وهذا هو احد الاسباب التي حارب من اجلها هذه الثورة . السبب الثاني يتمثل في

---

١ ــ الاسم الذي اطلق في انكلترا على الاستقلال الذاتي المحلي .

ان اساليب هذه الثورة كانت كريهة جدا بالنسبة اليه. لم يكن كريها ارهابها «المقيت» فحسب ، بل حتى محاولتها ان تدفع الى اقصى مدى هيمنة البورجوازية . ما حياة البورجوازي الانكليزي بدون ارستقراطيته ، التي تعلمه ادب المعاشرة (مهما بلغت من حقارة) ، التي تخترع لاجله موضاتها ، التي تزوده بضباط للجيش للحفاظ على النظام في الداخل ، وللبحرية ، لاجل فتح مستعمرات جديدة واسواق جديدة؟ صحيح انه كانت توجد اقلية متقدمة من البورجوازية لم تكن هذه التسوية تخدم مصالحها كثيرا ؛ هذه الشرذمة ، المعباة بصورة رئيسية من الطبقة الوسطى الاقل غنى ، تعاطفت مع الثورة ، بيد انها كانت عاجزة في البرلمان .

وهكذا ، بينما اصبحت المادوية عقيدة للثورة الفرنسية ، فان البورجوازي الانكليزي ، العائش في خوف من الله ، تشبث اكثر بدينه . الم يبين عهد سيطرة الارهاب في باريس الى اين تؤول الامور عندما تفقد الجماهير مشاعرها الدينية ؟ كلما ازدادت المادوية انتشارا من فرنسا الى البلدان المجاورة وتعززت بتيارات نظرية مشابهة ، الفلسفة الالمانية بخاصة ، كلما غدت المادوية والفكر الحر ، في القارة ، الصفتين المطلوبتين في كل ذهن مثقف ، ازدادت الطبقة الوسطى الانكليزية تشبثا بعقائدها الدينية المتعددة . هذه العقائد او النِحل مختلفة فيما بينها ، ولكنها جميعا كانت دينية ومسيحية بتصميم .

في حين ان الثورة الكبرى حققت في فرنسا الانتصار السياسي للبورجوازية، في انكلترا اشعل وات ، اركرايت ، كارترايت (١) وآخرون فتيل ثورة صناعية نقلت كليا مركز ثقل القوة الاقتصادية . ان ثروة البورجوازية قد نمت بسرعة اشد بما لا يقاس من نمو ثروة الارستقراطية العقارية . في صفوف البورجوازية نفسها ، نحى المانيفاتوريون (اصحاب المانيفاتورة) الارستقراطية المالية ، المصرفيين ، الخ ، الى المرتبة الثانية . ان تسوية العام ١٦٨٩ ، حتى بعد التغيرات التدريجية التي اصابتها لصالح البورجوازية، لم تعد متفقة او متوازية مع المواقع الخاصة بالاحزاب المتعاقدة. ان طابع هذه الاحزاب كان قد تعدل ايضا ؛ بورجوازية العام ١٨٣٠ اختلفت اختلافا كبيرا عن بورجوازية القرن السابق . ان السلطة السياسية ، التي بقيت في ايدي الارستقراطية ، التي كانت تستخدمها للوقوف بوجه مطامح البورجوازية الصناعية الجديدة ، صارت غير متلائمة مع المصالح الاقتصادية الجديـــدة . ففرض صراع جديد ضد الارستقراطية نفسه ، صراع لم يكن ممكنا ان ينتهي الا بانتصار القوة الاقتصادية الجديدة . باديء بدء ، بدافع مطبوع بطابع الثورة الفرنسية لعام ١٨٣٠ ، اجيز الاصلاح البرلماني (Reform act) رغم جميع المعارضات . اعطى للبورجوازية موقعا قويا ومعترفا به في البرلمان. ثم ان الغاء القوانين الخاصة بالحبوب

---

١ ــ هؤلاء هم الانكليز الثلاثة الذين اخترعوا : الاول ، الماكينة البخارية ؛ الثاني ، ماكينة الغزل ؛ الثالث ، نول النسيج ، ثلاثتها اخترعت بين ١٧٦٤ و ١٧٩٠ .

(Corn Law) (١) قد اكد نهائيا تفوق البورجوازية على الارستقراطية العقارية ، بصورة رئيسية شرذمتها الاكثر نشاطا ، اصحاب الفبارك . كان هذا اكبر انتصار للبورجوازية ؛ وآخر انتصار احرزته لصالحها حصرا . في كل انتصاراتها الاخرى ، فيما بعد ، اضطرت الى ان تتشاطر فوائده مع قوة اجتماعية جديدة ، كانت حليفة لها في بداية الامر ، ولكن صارت منافستها بُعيد ذلك .

## ظهور البروليتاريا الانكليزية

كانت الثورة الصناعية قد ولدت طبقة قوية من الصناعيين الراسماليين ، ولكنها ولدت ايضا طبقة من عمال الصناعة اكبر عددا بكثير . نمت هذه الطبقة اولا بأول مع استحواذ الثورة الصناعية على الفرع تلو الآخر من الانتاج كله ، ونمت قوتها بصورة متناسبة مع ذلك . برزت هذه القوة منذ العام ١٨٢٤ ، عندما اجبرت برلمانا عنيدا على الغاء القوانين التي تمنع الجمعيات العمالية . خلال التحرّك من اجل الاصلاح البرلماني ، شكل العمال الجناح الراديكالي من حزب الاصلاح : الاصلاح البرلماني لعام ١٨٣٢ استبعدهم من حق التصويت ، صاغوا مطاليبهم في ميثاق الشعب وانتظموا ، معارضين حزب البورجوازية الكبير المطالب بالغاء القوانين الخاصة بالحبوب، في حزب مستقل ، الحزب الميثاقي (le parti chartiste) اول حزب عمالي في العصر الحديث .

آنئذ انفجرت الثورات القارية لشهري شباط وآذار ١٨٤٨ ، التي لعب فيها الشعب العامل دورا راجحا وصاغ ، في باريس على الاقل ، مطالب كانت بكل تأكيد غير مقبولة من وجهة نظر المجتمع الراسمالي. وحدثت آنئذ ردة عامة. في بادىء الامر هزيمة الميثاقيين ، في ١٠ نيسان ١٨٤٨ (٢) ؛ ثم سحق انتفاضة العمال الباريسيين، في حزيران ؛ ثم هزائم العام ١٨٤٩ في ايطاليا ، في هنغاريا ، في المانيا الجنوبية ، واخيرا انتصار لوي بونابرت على باريس ، في ٢ كانون الاول ١٨٥١ . اخيرا ، ولفترة من الزمن ، اسقطت فزّاعة المطالب العمالية ، لكن بأي ثمن ! اذا كان البورجوازي

---

١ ــ «القوانين الخاصة بالحبوب» التي كانت ترمي الى تحديد ، بل الى منع مستوردات الحبوب من الخارج ، كانت قد فرضت لصالح كبار الملاكين العقاريين . الصراع بين البورجوازية الصناعية والارستقراطية العقارية حول هذه القضية قد انتهى عام ١٨٤٦ عندما صدر قانون يلغي القوانين الخاصة بالحنطة .

٢ ــ في ١٠ نيسان ١٨٤٨ نظم الميثاقيون مظاهرة باتجاه البرلمان حيث ارادوا ايداع عريضة تحمل خمسة ملايين ونصف توقيعا ، الا انها مُنعت ؛ واستدعي الجيش . الائتلاف الميثاقي الغى المظاهرة عندئذ ، لكن البرلمان رفض العريضة . ثم أصيبت الحركة الميثاقية بهزيمة حاسمة .

الانكليزي قد اقتنع فيما مضى بأنه ينبغي الحفاظ على الروح الدينية لدى الطبقة العاملة ، فبالاحرى ان يستشعر ضرورة ذلك الاشد الحاحا بعد كل هذه التجارب!. ان البورجّوازيين الانكليز ، دون ان يتنازلوا ويولوا اهتماما بسخريات زملائهم القاريين ، قد استمروا في انفاق الملايين بعد الملايين ، كل سنة ، في سبيل التبشير بالانجيل في صفوف الطبقات الدنيا ؛ لم يكتف جون بل بماكينته الدينية الخاصة ، فاستدعى لنجدته «الاخ جوناثان» (١) ، أشطر منظم عهدئذ في الواقع للمشروع الديني ، وجلب من امريكا الاحيائوية (revivalism) (٢) ، مودي وسانكي (٣) وامثالهما ، واخيراً قبل المساعدة الخطرة من جيش الخلاص ، الذي أحيا الدعاية المسيحية الاولى الاولية ، صرح بأن الفقراء هم المصطفون من قِبل الله ، كافح الراسمالية بطريقته الدينية فاحتفظ بالتالي بعنصر بدائي للتناقض الطبقي المسيحي ، القابل لان يصبح ذات يوم خطرا بالنسبة للمالكين الذين يقدمون اليوم المال لهذا الفرض .

يبدو انه قانون للتطور التاريخي ، الا تتمكن البورجوازية ، في اي بلد اوروبي ، من الاستيلاء على السلطة السياسية ــ على الاقل لزمن كاف من الطول ــ على نفس الطريقة الاقتصارية او الحكرية التي حافظت عليها الارستقراطية العقارية في العصر الوسيط . حتى في فرنسا ، حيث استؤصلت الاقطاعية نهائيا ، لم تستحوذ البورجوازية بما هي طبقة على السلطة الا خلال فترات قصيرة جداً . خلال عهد لوي فيليب (١٨٣٠ ــ ١٨٤٨) ، حكم قسم صغير فقط من البورجوازية ، القسم الاكبر حرم من حق الاقتراع بواسطة ضريبة انتخابية Cens مرتفعة جدا (٤) . في عهد الجمهورية الثانية (١٨٤٨ ــ ١٨٥١) ، البورجوازية بأسرها هي التي حكمت ، لكن لمدة ثلاث سنوات فقط ؛ شق عجزها الطريق للامبراطورية . في ظل الجمهورية الثالثة فحسب ، احتفظت البورجوازية بأسرها بالسلطة خلال اكثر من عشرين عاما ؛ وهي تبدي علائم انحطاط مشجعة (٥) . ان حكما مستديما للبورجوازية لم يكن ممكنا الا في بلد كأمريكا ، حيث لم تكن هناك اقطاعية وحيث تشكل المجتمع دفعة واحدة على قاعدة بورجوازية . لكن في امريكا ، كما في فرنسا ، يقرع خلفاء البورجوازية ، العمال ، الباب .

---

١ ــ اي الولايات المتحدة الامريكية . هذه التسمية لم تلبث ان أُبدلت بتسمية «العم سام» .

٢ ــ حركة جماعية للهداية ، للعودة الى الايمان . ولقد قدمت البلدان الانكلوسكسونية نماذج مختلفة منها في القرن التاسع عشر .

٣ ــ مبشران امريكيان ، يُعدّان من بين مؤسسي الاحيائوية .

٤ ــ كان يتعين ، لكي يتمتع المواطن بحق الانتخاب ، ان يدفع مئتي فرنك فرنسي ضرائب مباشرة (قبل ثورة العام ١٨٣٠ ، ٣٠٠ فرنك) . هذا ما كان يسمى بالضريبة الانتخابية .

٥ ــ كتب انجلس هذا غداة الازمة «البولنجية» ، التي عرّضت للخطر المؤسسات البرلمانية .

البورجوازية لم تملك قط في انكلترا السلطة بلا شريك . حتى انتصار العام ١٨٣٢ ترك للارستقراطية العقارية كل الوظائف الحكومية العالية تقريبا . ان الضعة التي قبلت بها الطبقة الوسطى الغنية هذا الوضع بقيت عصيّة على فهمي ، الى ان استمعت الى خطاب علني القاه المانيفاتوري الكبير الليبرالي ، م.و. ا. فورستر ، توسل فيه الى شباب برادفورد ان يتعلموا الفرنسية لكي يشقوا طريقهم في العالم؛ استشهد بتجربته الخاصة وروى كم بدى أحمق في نظر نفسه عندما وجد نفسه فجأة ، بصفته وزيرا ، في مجتمع كانت اللغة الفرنسية فيه ضرورية بقدر اللغة الانكليزية على الاقل . الواقع ان البورجوازيين لانكليز كانوا بصورة وسطية في هذه الفترة محدثي نعمة معدومي الثقافة كليا ، ولم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا آخر سوى ان يتركوا ، رضوا أم كرهوا ، للارستقراطية المراكز العليا في الحكومة ، حيث كان من الضروري توفر صفات أخرى غير ضيق الأفق الجزيري والادعاء الجزيري ، متبلين بالشطارة التجارية (١) . حتى في ايامنا هذه ، نرى ان المجادلات التي لا تنتهي في الصحافة حول التربية البورجوازية تبرهن بأكثر مما يكفي ان الطبقة الوسطى الانكليزية لا تعتبر نفسها صالحة بما يكفي لتوفير تربية عالية وهي تطمح الى شيء ما أكثر تواضعا . وعلى هذا ، حتى بعد الغاء القوانين الخاصة بالحبوب (٢) ،

---

١ ـ وحتى في ميدان الاعمال ، الادعاء الشوفيني القومي هو ناصح رديء جدا . حتى زمن قريب ، كان الصناعي الانكليزي العامي يعتبر امرا مهينا لكرامة انكليزي ان يتكلم لغة اخرى غير لغته وكان فخورا باقامة «الشياطين الاجانب التعساء» في انكلترا الذين يخلونه من عبء تصريف منتجاته في الخارج . لم يخطر له البتة ان هؤلاء الاجانب ، معظمهم من الالمان ، قد وضعوا يدهم ، بفضل ذلك ، على قسم كبير من التجارة الخارجية لانكلترا ، في الاستيراد والتصدير ، وان التجارة الخارجية الانكليزية المباشرة اخذت تقتصر تقريبا على المستعمرات ، على الصين ، على الولايات المتحدة وعلى امريكا الجنوبية . اكثر من ذلك ، انه لم يلاحظ ان هؤلاء الالمان كانوا يتاجرون مع المان آخرين في الخارج ، الذين نظموا تدريجيا شبكة كاملة من المستعمرات التجارية على سطح البسيطة كله . لكن عندما شرعت المانيا جديا ، منذ اربعين سنة ، تنتج لاجل التصدير ، خدمتها هذه الشبكة خدمة ممتازة لكي تكمل تحويلها ، في زمن قصير ، من بلد مصدر للحبوب الى بلد صناعي من الدرجة الاولى. اخيرا ، منذ عشر سنوات ، تملك الصناعي الانكليزي الخوف وسأل سفراءه وقناصله كيف حدث ان عجز عن الاحتفاظ بزبنه . الاجوبة كانت مجمعة على : ١ ـ انت لم تتعلم لغة زبنك . ٢ ـ لم تحاول تلبية حاجات ، عادات وأذواق من يشترى منك ، مع انك تتطلب ان يلبوا حاجاتك ، عاداتك وأذواقك . (ف.ا.)

٢ ـ عام ١٨٤٦ . يسجل هذا الالغاء انتصار المبادلة الحرة على الحمائوية والبورجوازية الانكليزية على أسياد الارض الانكليز ،

فقد اعتبروا بمثابة شيء منتظر ان يبقى الرجال الذين احرزوا النصر ، أمثال غويدن، برايت ، فورستر ، الخ ، مستبعدين عن كل مشاركة في الحكومة الرسمية للبلد ؛ تعين عليهم انتظار عشرين سنة أخرى لكي يفتح لهم «اصلاح برلماني جديد» (١) أبواب الوزارة . ان البورجوازية الانكليزية ما تزال مشبعة حتى اليوم بشعور بدونيتها الاجتماعية الى حد انها تعيل على حسابها وعلى حساب الشعب طبقة زخرفية من التنابل لكي تمثل بشكل لائق ألامة في جميع المناسبات الأبهية وهي تعتبر نفسها قد حصلت على شرف رفيع عندما يعتبر احد اعضائها جديرا بأن يقبل في هذه الهيئة المغلقة ، رغم انها هي التي صنعتها .

اذن ، لم تكن الطبقة الوسطى الصناعية والتجارية قد توصلت بعد الى طرد الارستقراطية العقارية من السلطة السياسية ، عندما ظهر منافس جديد ، الطبقة العمالية . ان رد الفعل الذي تلا الحركة الميثاقية (الشارتية) والثورات القارية ، فضلا عن نمو لا سابق له أصاب التجارة الانكليزية من ١٨٤٨ الى ١٨٦٦ (وعزي عموما الى المبادلة الحرة وحدها، ولكنه نجم بدرجة اكبر بكثير عن النمو المذهل للطرق الحديدية ، الملاحة البخارية ووسائل المواصلات بصورة عامة) ، قد أخضعا الطبقة العاملة مرة اخرى لتبعية الحزب الليبرالي ، التي شكلت في داخله في الايام القبشارتية (ما قبل الشارتية) جناحا راديكاليا . رويدا رويدا صار مطلب حق التصويت للعمال مطلبا لا يقاوم ؛ في حين أن زعماء «الهويغ» (٢) للحزب الليبرالي قد جبنوا ، أبدى دزرائيلي تفوقه عندما أجبر التوري (٣) على اهتبال الفرصة وادخال توسيع في حق الاقتراع حسب مكان السكن (كل من يقطن بيتا منفردا يستطيع الاقتراع) في المناطق الانتخابية في المدن وتعديل الدوائر الانتخابية . ثم جاء التصويت السري و ، في ١٨٨٤ ، توسيع الاقتراع تبعا للسكن في جميع الدوائر ، حتى الدوائر الريفية (كونتية Comté ) وتعديل جديد لها جعلها متساوية نوعا ما . ان كل هذه التدابير قد زادت زيادة هائلة القوة الانتخابية للطبقة العاملة ، الى حد ان العمال يشكلون الان اغلبية المقترعين في ١٥٠ الى ٢٠٠ دائرة انتخابية . لكن البرلمانوية مدرسة ممتازة لتعليم احترام التقليد ؛ اذا كانت البورجوازية تنظر باجلال وخوف ديني الى ما يسميه اللورد مانرز بمرح «طبقتنا النبيلة القديمة» ، فان الكتلة العمالية تنظر باحترام وتقدير الى ما كانوا يسمونه آنئذ «الطبقة العليا» ، البورجوازية ، التي اعتادت على اعتبارها «عليا»ها . كان العامل الانكليزي ، منذ حوالي خمسة عشر عاما ، العامل القدوة ، الذي كان تقديره الاحترامي ازاء معلمه

---

١ ـ الاصلاح الانتخابي لعام ١٨٦٧ .

٢ ـ الاسم القديم لحزب الاحرار .

٣ ـ الاسم القديم لحزب المحافظين .

وخجله من المطالبة بحقوقه يعزي اصحابنا «اشتراكيي الكرسي» (١) عن الاتجاهات الشيوعية والثورية العضال لدى بروليتاريا أمتهم ، البروليتاريا الالمانية .

## يلزمنا دين للشعب

بيد ان البورجوازيين الانكليز ، وهم رجال اعمال ، راوا أبعد من الاساتذة الالمان . لقد شاطروا الطبقة العاملة سلطتهم مرغمين . تعلموا في عصر الميثاقية (الشارتية) ما امكانات الشعب ، «هذا الولد القوي ، لكن الخبيث» ؛ فيما بعد اضطروا الى قبول القسم الاكبر من ميثاق الشعب وإدماجه في دستور بريطانيا العظمى . الان ، اكثر من اي وقت مضى ، ينبغي للشعب ان يسيَّر بوسائل معنوية، والوسيلة الاولى والرئيسية للتأثير في الجماهير كانت وما تزال الدين . ومن هنا هذه الاكثرية من القسس في «اللجان المدرسية» (School boards) (٢) ، من هنا هذه النفقات المتزايدة التي تفرضها البورجوازية على نفسها لتشجيع كل انواع الديماغوجية المتنسكة ، بدءاً من الطقوسوية حتى جيش الخلاص .

آنئذ انتصرت المحترمية البريطانية على الفكر الحر وعلى الاسترخاء الديني لدى البورجوازي القاري . كان عمال فرنسا والمانيا قد اصبحوا متمردين . اكتسحتهم عدوى الاشتراكية ؛ ولاسباب عديدة لم تكن تخالجهم أوهام مسبقة حول شرعية الوسائل التي تتيح الظفر بالسلطة . «الولد القوي» كان يزداد «خبثا» يوما بعد يوم. لم يبق للبورجوازية الفرنسية والالمانية ، كحيلة اخيرة ، الا ان ترمي خلسة فكرها الحر الى جانب ، كما يرمي الشاب ، عندما يصاب بدوار البحر ، سيكارا يتبختر فيه على ظهر سفينة : العقول القوية ، الواحد تلو الآخر ، تبنت مظاهر التقوى ، تحدثت باحترام عن الكنيسة ، عن معتقداتها ، عن طقوسها وراعوا ذلك بأنفسهم في الحدود الدنيا التي يستحيل التملص منها . البورجوازية الفرنسية كانت تصوم ايام الجمع والبورجوازية الالمانية كانت تستمع بورع ايام الآحاد الى مواعظ بروتستانتية لا نهاية لها . لقد ضلوا مع مادويتهم . **ينبغي الحفاظ على الدين من اجل الشعب :**

---

١ ــ أطلق هذا الاسم على عدد من اساتذة الاقتصاد السياسي الذين ، في المانيا ، بعد العام ١٨٧٠ ، عارضوا ، مبادىء ، مناهج واتجاهات الاقتصاد الكلاسي الانكليزي والذين كانوا يبشرون بسياسة اجتماعية . نذكر من بينهم شمولر ، ادولف واغنر ، برينتانو . كانوا معادين للثورة ، طبعا . لقد الهموا سياسة «الاصلاحات الاجتماعية» التي دشنها «بسمارك» بعد ١٨٨٠ .

٢ ــ لجان مدرسية اقيمت عام ١٨٧٠ . كان دورها «أن تفرض رسما لاجل بناء وصيانة مدارس حكومية ، ان تجبر الاهل على ارسال اولادهم الى المدرسة وان تعفي الفقراء من الاجور المدرسية» . (سيغنوبوس : «التاريخ السياسي لاوروبا المعاصرة» ، ص ٦٥) .

هذا هو وحده الذي يمكن ان ينقذ المجتمع من الدمار الكامل . لسوء حظهم ، لم يكتشفوا ذلك الا بعد ان بذلوا وسعهم لتحطيم الدين الى الابد . والآن ، جاءت اللحظة التي ثار فيها بورجوازي بريطاني منهم ، وصرخ : «ايها الحمقى ! كان بوسعي ان اقول لكم ذلك منذ قرنين !»

بيد انني اخشى ان لا تستطيع لا الغباوة الدينية للبورجوازي الانكليزي ولا الهداية بعد فوات الأوان للبورجوازي القاري اقامة سد في وجه المد الصاعد للبروليتاريا . ان التقليد قوة كبيرة معوّقة او مؤخّرة ، انه المقاومة السلبية للتاريخ، ولكن بما انه سلبي فحسب ، فمن المؤكد تحطيمه ؛ كذلك لن يكون الدين حماية او ملاذا ابديا للمجتمع الراسمالي . نظرا لان افكارنا الحقوقية ، الفلسفية والدينية هي نتاجات مباشرة الى هذا الحد او ذاك للشروط الاقتصادية المهيمنة في مجتمع معطى، لذا لا يمكن لهذه الافكار ان تبقى على حالها طويلا عندما تتغير هذه الشروط تغيرا تاما . واذا لم نؤمن بوحي فوق طبيعي على الاقل ، يتعين ان نقبل ان اي وعظ ديني ليس كافيا لانقاذ مجتمع في حالة انهيار .

## رغم كل شيء ستتحرر البروليتاريا الانكليزية

لقد شرعت الطبقة العاملة الانكليزية تتحرك من جديد . انها معوّقة على الارجح بتقاليد من انواع شتى . تقاليد بورجوازية : مثل الاعتقاد واسع الانتشار بأنه لا يمكن ان يوجد سوى حزبين ، حزب المحافظين وحزب الليبراليين وان على الطبقة العاملة ان تنتزع تحررها بواسطة الحزب الليبرالي الكبير (١) . تقاليد عمالية ، موروثة من أولى محاولات العمل المستقل : مثل استبعاد كل عامل لم يقض المدة المعتادة في التدريب من كثير من النقابات القديمة ، الامر الذي أدى الى ان تخلق كل نقابة من هذه النقابات كاسري اضراب خاصين بها . رغم كل شيء ، تتحرك الطبقة العاملة ؛ حتى الاستاذ برينتانو اضطر مكدرا ان يعلم بذلك زملاءه في «اشتراكية الكرسي» . انها تتحرك ، ككل شيء في انكلترا ، بخطى بطيئة ومحسوبة ، هنا بتردد ، هناك بنتائج موفقة الى هذا الحد او ذاك ؛ تتحرك هنا وهناك بريبة مغالية من **«كلمة»** اشتراكية ، في حين انها تتشرب **«ماهية»**ها ، وتتوسع الحركة وتكتسح الشرائح العمالية ، الواحدة تلو الاخرى . انها تهز الان خَدَر فعلَة الـ «ايستإند» في لندن، ولقد رأينا جميعا اي دفع عَزوم نشيط اشاعته بدورها هذه القوى الجديدة في الطبقة العاملة . اذا كان سير الحركة بطيئا جدا في نظر بعض نافدي الصبر ، فلا ينبغي ان ننسى ان الطبقة العاملة هي التي تصون وتبقي حيا اجمل صفات الطبع

---

١ ـ كتب قبل خمسة اعوام من تأسيس لجنة التمثيل العمالي ، مهد حزب العمال (١٩٠٠) .

الانكليزي القومي ، وانه حين تفتح ارض في انكلترا ليس من المألوف البتة ان تضيع. اذا لم يكن ، لاسباب تحدثنا عنها قبلا ، ابناء قدامى «الميثاقيين» على مستوى الوضع ، فان احفادهم يعدون بأن يكونوا جديرين بأجدادهم .

غير ان انتصار الطبقة العاملة الاوروبية لا يتوقف فقط على انكلترا : لا يمكن احرازه الا بتعاون انكلترا ، فرنسا والمانيا . في البلدين الاخيرين ، الطبقة العاملة تسبق بمسافة الطبقة العاملة الانكليزية . في المانيا ، يمكن منذ الان ان نقيس المسافة التي تفصلها عن النجاح : تقدماتها ، منذ خمس وعشرين سنة ، لا سابق لها ؛ انها تتقدم بسرعة متزايدة على الدوام . اذا كانت البورجوازية الالمانية قد تبدت محرومة على نحو يثير الرثاء من المقدرات السياسية ، من الانضباط ، من الشجاعة ، من الحيوية ومن المثابرة ، فان الطبقة العاملة الالمانية قد قدمت براهين كثيرة عن كل هذه الصفات . منذ اربعة قرون ، كانت المانيا نقطة انطلاق اول انتفاضة للبورجوازية الاوروبية ؛ في النقطة التي بلغتها الاشياء ، امن المستحيل ان تكون المانيا مرة اخرى مسرح اول انتصار كبير **للبروليتاريا الاوروبية** ؟

لندن ، ٢٠ نيسان ١٨٩٢

٢٥ ●

فريدريك انجلس

# إسهام في تاريخ المسيحية الاولى الأولية(*)

## ١

يعرض تاريخ المسيحية الاولى الاولية نقاط تماس طريفة مع الحركة العمالية الحديثة . مثل هذه ، كانت المسيحية في الاصل حركة المضطهَدين : ظهرت في البدء كدين العبيد والمعتوقين ، الفقراء والناس المحرومين من الحقوق ، الشعوب التي أخضعتها وشتتت شملها روما . كلتاهما ، المسيحية والاشتراكية العمالية على حد سواء ، تبشر بخلاص مقبل من العبودية والبؤس ؛ المسيحية تنقل هذا الخلاص وتضعه في الماوراء ، في حياة بعد الموت ، في السماء ؛ الاشتراكية تضعه في هذا العالم ، في تغيير المجتمع . كلتاهما مطاردتان ومضيَّق عليهما، مشايعوهما معزورون وخاضعون لقوانين استثنائية ، الأولون كأعداء للجنس البشري ، الآخرون كأعداء للحكومة ، للدين ، للعائلة ، للنظام الاجتماعي . ورغم كل الاضطهادات ، بل وبخدمة مباشرة لهما ، تشق هذه وتلك طريقها على نحو ظافر ، لا يقاوم . بعد ثلاثة قرون من ولادتها ، اعترف للمسيحية بوصفها دين دولة للامبراطورية الرومانية : خلال أقل من ستين سنة احتلت الاشتراكية موقعا بحيث أضحى انتصارها النهائي مؤكدا بالقطع .

بالتالي، اذا كان الاستاذ ا. مينجر ، في كتابه **«الحق في النتاج الكامل للعمل»**، مندهشا من ان ، في ظل الاباطرة الرومان ، نظرا للتمركز الهائل للثروات العقارية والآلام اللامتناهية لطبقة الشغيلة المؤلفة بأكثريتها من الرقيق ، «الاشتراكية لم

---

★ نشرت في مجلة «العصور الحديثة» ، السنة ١٣ (١٨٩٤ ـ ٩٥) ، المجلد ١ ، العدد ١ ، ٢ .

تنفرز بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية» ، فذلك لانه لم ير ان هـــذه «الاشتراكية» بالضبط ، في حدود ما كانت ممكنة عصرئذ ، كانت موجودة فعلا وانها وصلت الى السلطة ... مع المسيحية . بيد ان المسيحية ، كما هو مفروض حتما ، نظرا للشروط التاريخية ، لم تكن تريد تحقيق التحول الاجتماعي في هذا العالم ، بل في الماوراء ، في السماء ، في الحياة الابدية بعد الموت، في الألفية millenium الوشيكة .

في السابق ، في العصر الوسيط ، هذا التماثل في الاتجاه فرض نفسه منذ الانتفاضات الاولى للفلاحين ، ولعامة المدن بخاصة . هذه الانتفاضات ، شأن كل حركات الجماهير في العصر الوسيط ، حملت بالضرورة قناعا دينيا ؛ ظهرت كترميم المسيحية الاولى الاولية اثر انحطاط متفاقم (١) ، لكن خلف التحميس الديني كانت تختبىء بانتظام مصالح وضعية جدا لهذا العالم . لقد ظهر ذلك على نحو عظيم في تنظيم «الطابوريين» في «بوهيميا» بقيادة جان زيسكا خالد الذكر : الا ان هذه السمة بقيت موجودة طوال العصر الوسيط ، حتى اضمحلت شيئا فشيئا بعد حـــرب الفلاحين في المانيا ، ثم عاودت ظهورها عند العمال الشيوعيين بعد العام ١٨٣٠ . ان الشيوعيين الثوريين الفرنسيين ، وكذلك فايتلنغ وانصاره ، قد انتسبوا الـى

---

١ ــ ان انتفاضات العالم المحمدي ، بخاصة في افريقيا ، تشكل حالة مناقضة فريدة . مع هذا فالاسلام هو دين صيغ على قد الشرقيين ، وعلى العرب بشكل اخص ، اي ، من جهة ، سكان مدن يمارسون التجارة والصناعة ؛ ومن جهة اخرى ، بدو رحل . وهنا توجد بذرة تصادم دوري . سكان المدن ، الذين اصبحوا موسرين وباذخين ، اهملوا مراعاة الشريعة . البدو الفقراء و ، بسبب فقرهم، ذوو العادات الصارمة ، نظروا بحسد وطمع الى هذه الثروات وهذه المتع . اتحدوا تحت قيادة نبي، مهدي ، لمعاقبة الكفار وإقامة حكم الشريعة والايمان الصحيح ، وللاستيلاء كثواب على كنوز الكفار . بعد مضي مئة عام وجدوا انفسهم ، بالطبع ، في نفس الوضع الذي كان فيه هؤلاء ؛ حركة تطهير جديد تصبح امرا ضروريا ؛ مهدي جديد يظهر ، وهكذا دواليك . جرت الامور على هذا النحو منذ حروب الفتح التي خاضها المرابطون والموحدون ★ الافريقيون في اسبانيا حتى المهدي الاخير في الخرطوم الذي جابه الانكليز ظافرا . كان الامر كذلك ، او كذلك تقريبا ، بالنسبة للثورات في فارس وغيرها مـــن المقاطعات الاسلامية . هذه حركات ولدت من اسباب اقتصادية ، رغم انها ارتدت قناعا دينيا. لكنها حتى عند نجاحها تترك الشروط الاقتصادية كما هي . لا تغيير البتة اذن ، والصدام يغدو دوريا . بالمقابل ، في الانتفاضات الشعبية في الغرب المسيحي ، القناع الديني لا يخدم الا كراية وقناع ضد نظام اقتصادي اصبح فائتا : في النهاية يُطاح بهذا النظام ؛ ينهض نظام جديد ، ثمة تقدم ، العالم يسير . (ف.١٠.)

★ **المرابطون** : عائلة مالكة مغربية في افريقيا الشمالية وجنوب اسبانيا (١٠٥٦ ــ ١١٤٦) .
**الموحدون** : عائلة مالكة مغربية اخرى أطاحت بالمرابطين عام ١١٤٦ ومارست السلطة حتـى العام ١٢٦٩ .

المسيحية الاولى الاولية قبل زمن طويل من قول رينان :

اذا اردتم أن تكونوا فكرة عن الجماعات المسيحية الاولى ، انظروا الى أحد الفروع المحلية للرابطة الاممية للشغيلة .

هذا الاديب الفرنسي الذي ، بفضل استثمار النقد الالماني للكتاب المقدس ، أعد روايته حول تاريخ الكنيسة ، رواية «**أصول المسيحية**» ، لم يكن يعرف ما في جملته هذه من حقيقة . انني أتمنى ان ارى الاممي القديم قادرا على ان يقرأ ، مثلا ، ثاني «رسالة الى الكورنتسيين» ، المنسوبة الى «بطرس الرسول» ، دون ان تُنكأ ، في نقطة على الاقل ، بعض جراحاته القديمة . ان الـ «رسالة الى الكورنتسيين» ، بدءاً من الاصحاح الثالث ، تدوي بشكوى معروفة جدا ويا للاسف : «الاشتراكات لا تسدد» . ما اكثر الدعاة المتحمسين ، حوالي ١٨٦٥ ، الذين كانوا سيشدون على يد كاتب هذه الـ «رسالة ...» ، ايا يكن ، بذكاء ودي ، هامسين في أذنه : «لقد حدث لك هذا اذن ، ايها الاخ !» ونحن ايضا يمكننا ان نقول الكثير ـ رابطتنا ايضا تعج بالكورنتسيين ـ عن هذه الاشتراكات التي لم تسدد، التي تحوم ، وهيغير قابلة للالتقاط ، أمام أعيننا المتزايدة الظمأ ، وتلك كانت بالضبط الملايين ذائعة الصيت التي تمتلكها الاممية .

ان واحدا من أفضل مصادرنا عن أوائل المسيحيين هو لوقيانوس السرياني ، فولتير العصر الكلاسي القديم ، الذي كان أيضا يتخذ موقفا متشككا ازاء كل انواع الخرافات الدينية ، والذي ، بالتالي ، لم تكن لديه دوافع ـ لا بسبب ايمان وثني ولا بسبب سياسي ـ لمعاملة المسيحيين على نحو مغاير لمعاملة اية جماعة دينية اخرى . على العكس ، انه يسخر بها جميعا بسبب خرافاتها ، سواء عبَدة جوبيتير أم عبَدة المسيح : بموجب وجهة نظره العقلانية المسطحة ، ان نوعا من الخرافة هو تماما في مثل خرق نوع آخر . هذا الشاهد ، المنصف على كل حال ، يروي في جملة ما يروي سيرة مغامر ، «بيريغرينوس» ، كان يدعى في الواقع بروتيوس ، من باريوم على الهيليسبونت (١) . بيريغرينوس المذكور ، بدأ في شبابه في ارمينيا بعملية زنى ، ضُبطت بالجرم المشهود ولُنّش (٢) حسب عادة البلاد . لحسن الحظ تمكن من الفرار ، خنق في باريوم أباه العجوز واضطر للفرار .

حوالي تلك الفترة تعلم دين المسيحيين ، عندما انضم في فلسطين الى بعض كهنتهم وكتبتهم . ماذا أقول لكم ؟ ان هذا الرجل ما لبث ان بيَّن لهم انهم ليسوا

---

١ ـ الاسم القديم لمضيق الدردنيل . (م) . يلمح انجلس هنا الى كتيب لوقيانوس : «حول موت بيريغرينوس» .

٢ ـ اللنش : اعدام بلا اساس قانوني .

سوى اطفال ؛ بالتناوب ، كان نبيا ، ساحرا موصولا بأسرار السماء ، رئيس جمعية ، كان يفعل كل شيء بمفرده ، يفسر كتبهم ، يشرحها ، ملفقا ذلك من عندياته . لهذا ، فان عددا من الناس نظروا اليه بوصفه إلها ، مشرعا ، حبرا، يساوي ذاك الذي شرّف في فلسطين ، حيث صُلب لانه ادخل هذه العبادة الجديدة بين الناس . بروتيوس اوقف لهذا السبب ، القي به في السجن ... في اللحظة التي قيد بالاغلال ، هب المسيحيون ، وقد تراءى لهم انهم ضربوا من خلاله ، يبذلون وسعهم لخطفه ؛ وإذ عجزوا عن ذلك ، قدموا له على الاقل كل انواع الفروض بحمية وهمة لا تكلان . منذ الصباح ، شوهد حول السجن جمع من العجائز ، الارامل واليتامى . زعماء العصبة الرئيسيون امضوا الليل قربه، بعد ان رشوا السجانين : حملوا اليه طعامهم ، قرأوا كتبه المقدسة؛ وبيريغرينوس الصالح ، وهكذا كان يدعى حتى ذلك الحين ، سُمي من قبلهم سقراط الجديد. ليس هذا كل شيء ؛ أرسلت اليه عدة مدن آسيوية مبعوثين باسم المسيحيين ، ليقدموا له العون ، ليمدوه بالدعم ، بالمحامين وبالمواسين . يكاد المرء لا يتصور همتهم هذه في حوادث كهذه ، وبكلمة انهم يسترخصون كل شيء في سبيله . لهذا تدفقت على بيريغرينوس ، بحجة سجنه ، مبالغ كبيرة من المال وتكوّن لديه دخل ضخم . هؤلاء التعساء تصوروا انفسهم خالدين وانهم سيعيشون الى الابد، فاستخفوا بالنتيجة بالعذابات وقدموا أنفسهم طوعا الى الموت . ان مشروعهم الاول قد أقنعهم ايضا بأنهم جميعا اخوة . ما ان غيروا عبادتهم ، حتى تخلوا عن آلهة اليونان ، وعبدوا السفسطائي المصلوب الذي اتبعوا شرائعه . كما انهم احتقروا المال وجعلوه مشتركا ، بسبب ايمانهم الكامل بأقواله . بحيث لو ان دجالا ، مخادعا ماهرا ظهر بينهم ، لما وجد صعوبة في الاغتناء بسرعة كبيرة ، مستهزئا خفية ببساطتهم . بيد ان بيريغرينوس قد حُرر فيما بعد من أغلاله من قبل حاكم سوريا .

وبعد الحديث عن مغامرات أخرى ، قال :

اذن ، عاد بيريغرينوس الى حياة التشرد ، مصحوبا في رحلاته التشردية بفوج من المسيحيين الذين يستخدمهم كأتباع ويلبون حاجاته بسخاء . على هذا النحو استطاع ان يقتات خلال فترة ما . لكن ، لانه انتهك فيما بعد بعضا من تعاليمهم (اعتقدوا انهم رأوه يأكل لحما محرما) ، تخلت عنه حاشيته وعاد الى حياة الفقر (ترجمة «تالبوت») .

اي ذكريات شباب استيقظت في نفسي عند قراءة هذا المقطع لـ لوقيانوس . هوذا ، باديء بدء ، النبي ألبرشت الذي ، بدءاً من حوالي ١٨٤٠ وطوال بضع سنوات ، جعل جماعات «فايتلنغ» الشيوعية قليلة الأمان . كان رجلا ضخما وقويا،

ذا لحية طويلة ، يجول سويسرا سيرا على الاقدام ، للبحث عن مستمع لانجيله الجديد لتحرير العالم . غير انه كان يبدو مشوشا مسالما ، ومات مبكرا. هوذا خلفه، الاقل مسالمة ، الدكتور جورج كوهلمان من مقاطعة هولشتاين ، الذي استفاد من الوقت الذي كان فايتلنغ فيه في السجن لكي يهدي شيوعيي سويسرا الفرنسية الى انجيله **هو** ، والذي ، لفترة من الزمن ، نجح في ذلك الى حد انه كسب الى جانبه اذكاهم واكثرهم بوهيمية في آن ، اوغست بيكر . المرحوم كوهلمان كان يلقي محاضرات نشرت في جنيف عام ١٨٤٥ تحت عنوان **«العالم الجديد او ملكوت الروح على الارض . بشارة»** . وفي المقدمة ، التي حررها على الارجح بيكر ، نقرأ :

> كان ينقصنا رجل نجد في فمه معبرا عن جميع آلامنا، جميع آمالنا وتطلعاتنا وبكلمة كل ما يحرك على أعمق نحو زمننا . هذا الرجل ، الذي كان ينتظره عصرنا ، قد ظهر . انه الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين . لقد ظهر ، حاملا معه عقيدة العالم الجديدة او عقيدة مملكة الروح في الواقع .

هل من حاجة للقول ان عقيدة العالم الجديد هذه ليست سوى عواطفية [تكلف العاطفة] مبتذلة جدا ، مترجمة الى جُمل طنانة نصف انجيلية على طريقة لامينيه ومرويَّة بغطرسة نبي . هذا لم يحل دون ان يحيط مريدو «فايتلنغ» هذا الدجال او الشرلطان بعنايتهم ، كما فعل مسيحيو آسيا مع بيريغرينوس. ان مريدي فايتلنغ، الذين كانوا عادة جد ديمقراطيين ومساواتيين ، الى حد تراودهم شكوك متأرثة ازاء كل معلم مدرسة ، كل صحافي ، كل هؤلاء الذين لم يكونوا عمالا يدويين ، كما لو انهم كانوا كذلك «علماء» يحاول استثمارهم ، قد انساقوا الى الاقتناع على يد كوهلمان بمسوحه الميلودرامية أن ، في «العالم الجديد» ، الرجل الاكثر حكمة ، الذي هو كوهلمان ، هو الذي ينظم توزيع المتع وبالتالي فان في العالم القديم قبلا كان يتعين على المريدين ان يقدموا المتع بالصاع الى الرجل الاكثر حكمة وأن يكتفوا ، هم ، بالفُتات . وعاش بيريغرينوس ـــ كوهلمان في الفرح والوفرة ... طوال ما استمرت هذه الحال . لكن هذه الحال لم تدم ، والحق يقال ؛ الاستياء المتنامي لدى المشككين والجاحدين ، تنذُر اضطهاد الحكومة «الفودية» انهت مملكة الروح في لوزان ؛ اختفى كوهلمان .

ان أمثلة مشابهة ستتدفق بالعشرات على ذاكرة كل من عرف بالتجربة بدء الحركة العمالية في اوروبا . في الوقت الحاضر ، اصبحت الحالات القصوى ( او المتطرفة) الى هذا الحد مستحيلة ، في المراكز الكبيرة على الاقل ؛ لكن في الاماكن النائية ، حيث فتحت الحركة ارضا عذراء ، ما زال بامكان بيريغرينوس صغير من هذا النوع ان يتكل على نجاح موقت ونسبي . وكما ان في جميع البلدان تتدفق الى الحزب العمالي كل العناصر التي لم يعد لديها ما تأمل من العالم الرسمي او التي اكتوت بناره (مثل خصوم التلقيح ، النباتيين ، مناهضي تشريح الحيوانات ، أنصار

التطبيب النباتي ، مبشري الاخويات المنشقة التي انفض عنها رعاياها ، مؤلفي النظريات الجديدة حول اصل العالم ، المخترعين المخفقين او منكودي الحظ ، الضحايا الفعليين او الوهميين لاجحاف ما الذين تسميهم البيرقراطية ب «المعارضين غير المفيدين» ، الحمقى الشرفاء او المغتصبين الاشرار) ، كذلك كان الامر لدى المسيحيين . ان جميع العناصر التي كان سير تفسخ العالم القديم قد حررها ، اي التي طردها ، قد اجتذبت الواحد اثر الآخر الى دائرة جذب المسيحية ، العنصر الوحيد الذي صمد امام هذا الانحلال ـ بالضبط لانه كان بالضرورة نتاجه الخاص تماما ـ والذي ، بالتالي ، كان يستمر ويكبر بينما العناصر الاخرى لم تكن سوى ذباب زائل. ما من اثارة، من هوس، من خبل او تدجيل الا وجرب حظه مع الجماعات المسيحية الناشئة والتي لم تلق ، موقتا وفي بعض الاماكن ، آذانا صاغية ومؤمنين طيعين . ومثل شيوعيي جماعاتنا الاولى ، كان اوائل المسيحيين على سذاجة غريبة ازاء كل ما كان يبدو ملائما لمذهبهم ، بحيث اننا لا نعرف بصورة موضوعية ما اذا كان من اصل العدد الكبير من الكتابات التي وضعها بيريغرينوس للمسيحيين لم يتسرب عدد من المقاطع الى هذا المكان او ذاك من العهد الجديد .

## ٢

ان النقد الالماني الخاص بالكتاب المقدس ، وهو حتى الان القاعدة العلمية الوحيدة لمعرفتنا بتاريخ المسيحية الاولى الاولية ، قد اتبع اتجاها مزدوجا .

ان احد هذين الاتجاهين يتمثل بمدرسة توبنغه ، التي ينتمي اليها بالمعنى الواسع د. ف. شتراوس ايضا. هذا الاتجاه يمضي بعيدا في الفحص النقدي بقدر ما تستطيع ان تمضي مدرسة لاهوتية . انها تقر ان الاناجيل الاربعة ليست روايات لشهود عيان ، بل هي كتابات محوّرة ومعدلة لاحقة عن كتابات مفقودة ، وان اربعة فقط من الرسائل المنسوبة الى القديس بطرس هي الصحيحة ، الخ . انها تلغي من السرد التاريخي ، كأمور غير مقبولة ، جميع المعجزات وجميع التناقضات ؛ وما تبقّى تسعى الى «انقاذ كل ما يمكن انقاذه» منه ، ومن هنا يتراءى جيدا طابعها كمدرسة لاهوتية . وبفضل هذه المدرسة ، فان رينان قد استطاع ، بالاستناد اليها ، الى حد كبير ، ان يقوم ، مطبقا نفس المنهج ، بعمليات انقاذ اخرى . فضلا عن عدد من الحكايات الاكثر من مشكوك بها من العهد الجديد ، يريد ان يفرض علينا كمية من سير القديسين الشهداء كأمور صحيحة ومسندة تاريخيا . على كل حال ، فان كل ما استبعدته مدرسة «توبنغه» من العهد الجديد باعتباره مزورا ، او باعتباره غير تاريخي ، يمكن اعتباره مستبعدا بصورة نهائية من قبل العلم .

يتمثل الاتجاه الثاني برجل واحد : برونو بوير . ان فضله الكبير هو انه قد نقد بلا رحمة الاناجيل والرسائل الرسولية ، انه اول من اهتم بفحص لا العناصر اليهودية

واليونانية ـ الاسكندرانية فقط ، بل ايضا العناصر اليونانية واليونانية ـ الرومانية التي أتاحت للمسيحية ان تصبح دينا كونيا . ان مجموعة أساطير المسيحية المولودة بكل أجزائها من اليهودية، منطلقة من فلسطين لفتح العالم بعلم للاخلاق وبشروح وبراهين معتقدية لاهوتية la dogmatique محددة في خطوطها الكبرى، اصبحت بعد برونو وير مجالا غير معقول؛ من الان فصاعدا سيمكنها على الاكثر ان تتابع العيش في كليات اللاهوت وفي أذهان الذين يريدون «الاحتفاظ بالدين لاجل الشعب» ، حتى على حساب العلم. في تكوّن المسيحية، بالشكل الذي رفعها فيه قسطنطين الى مرتبة دين للدولة ، كان لمدرسة فيلون الاسكندراني وللفلسفة العامية اليونانية ـ الرومانيه (الافلاطونية وبخاصة الرواقية) قسط كبير . هذا القسط لم يحدد بعد بالتفاصيل، لكن الواقع قد أثبت ، وهذا صنيع برونو بوير بصورة رئيسية ؛ اذ أرسى قواعد البرهان على ان المسيحية لم تستورد من الخارج ، من فلسطين ، وفرضت على العالم اليوناني ـ الروماني ، بل هي ، على الاقل في الشكل الذي ارتدته كدين كوني، النتاج الاصيل لهذا العالم . طبعا ان بوير ، في هذا العمل ، قد تجاوز الهدف كثيرا، كما يحدث بالنسبة لكل هؤلاء الذين يكافحون افكارا مسبقة متأصلة . لكي يحدد ، حتى من وجهة نظر ادبية ، تأثير فيلون وبخاصة سينيكا ، على المسيحية الوليدة ، ولكي يظهر بصورة قاطعة مؤلفي العهد الجديد كمنتحلين لافكار هذين الفيلسوفين، اضطر الى تأخير ظهور الدين الجديد مدة نصف قرن وردّ الحكايات المعارضة لذلك التي جاء بها المؤرخون الرومانيون وتصرف بالتاريخ الذي وصل الينا . في رأيه ، ان المسيحية كما هي لم تظهر الا في ظل الاباطرة الفلافيين ، أدب العهد الجديد في ظل هادريان ، انطونين ومارك أوريل . بالتالي ، شهدنا ايضا عند بوير زوال اي اساس تاريخي لحكايات العهد الجديد الخاصة بالمسيح ومريديه ؛ انها تنحل الى مجموعة أساطير حيث مراحل التطور الداخلي والنزاعات الاخلاقية بين الجماعات الاولى المسيحية تنقل وتنسب الى شخصيات وهمية الى هذا الحد او ذاك . لا الجليل ولا القدس ، بل الاسكندرية وروما هما ، في رأي بوير ، مكان ولادة الدين الجديد .

بالتالي ، اذا كانت مدرسة توبنغه قد قدمت لنا ، في البقية الباقية التي لا يماري فيها من تاريخ أدب العهد الجديد ، الحد الاقصى لما يستطيع العلم ، في أيامنا هذه ، ان يقبله بصفته عرضة للمجادلة ، فان برونو بوير قد قدم لنا الحد الاقصى لما يمكن للعلم ان يعارضه . الحقيقة موجودة بين هذين الطرفين . كون هذه الحقيقة ، بما نملكه الان من وسائل ، قابلة للتحديد ، يبدو امرا مشكوكا به . ان لقيات جديدة ، بخاصة في روما ، في الشرق وفي مصر قبل كل شيء ، سوف تسهم في ذلك اكثر بكثير من كل نقدنا .

والحال ، يوجد في «العهد الجديد» سفر واحد يمكن تحديد تاريخ كتابته بفارق لا يزيد عن بضعة أشهر ؛ من الممكن ان يكون قد كتب بين حزيران ٦٧ وكانون الثاني او نيسان ٦٨ ؛ وبالتالي فهو سفر يعود الى أولى اوائل الازمنة المسيحية ، يعكس

افكار تلك الحقبة بأكثر ما يمكن من الاخلاص الساذج وباللغة الاصطلاحية المطابقة لها ؛ لكنه في رأيي اكثر اهمية بكثير لتحديد ما كانته فعلا المسيحية الاولى الاولية من كل باقي أسفار «العهد الجديد» ، والمتأخرة كثيرا في التاريخ في صياغتها الحالية. هذا الكتاب هو ما يسمونه «رؤيا يوحنا» ؛ وبما ان ، بالاضافة الى ذلك ، هذا الكتاب، وهو في الظاهر الاكثر غموضا من كل أسفار الكتاب المقدس ، اصبح اليوم ، بفضل النقد الالماني ، اكثرها قابلية للفهم وأكثرها شفافية ، فانني أود ان أحدث القارىء عنه .

يكفي القاء نظرة على هذا السفر حتى نقتنع بحالة الحماسة الدينية التي تملأ لا المؤلف فقط ، بل «الوسط» الذي كان يعيش فيه ايضا . ان رؤيا يوحنا ليس الوحيد من نوعه ولا في زمنه . منذ العام ١٦٤ قبل عصرنا [قبل الميلاد] ، تاريخ الرؤيا الاولى التي حفظت لنا ــ سفر دانيال ــ حتى حوالي العام ٢٥٠ من عصرنا ، التاريخ التقريبي لـ كارمن لل «كومودي» (١)، أحصى رينان ما لا يقل عن خمس عشرة رؤيا كلاسية وصلت الينا، ناهيك عن النصوص اللاحقة (استشهد برينان لانه الاسهل منالا والاشهر خارج دوائر الإختصاصيين) . جاء وقت حيث في روما وفي اليونان، بل اكثر من ذلك في آسيا الصغرى ، في سوريا وفي مصر ، كان يُقبل مزيج اعتباطي تماما من أحط الخرافات التي لشعوب مختلفة جدا بدون روية ويكمل بخدع ورعة وشعوذة مباشرة ، حيث المعجزات ، حالات الوجد ، حالات الكشف ، التنجيم ، السيمياء ، القبلانية (٢) وغيرها من الشعوذات السحرية التي كانت تلعب الدور الاول . هذا هو الجو الذي ولدت فيه المسيحية الاولى الاولية ، وذلك داخل طبقة من الناس كانت مستعدة، اكثر من غيرها، لتقبل هذه الاوهام. لهذا فان الغنوصيين (٣) المسيحيين المصريين ، كما تثبت في جملة ما تثبت اوراق البردي ، قد تعاطوا باهتمام في القرن الثاني من العصر المسيحي السيمياء ، وادمجوا فكرات سيميائية في مذاهبهم . ان الحسّابين les mathématici الكلدانيين واليهود الذين ، حسب قول تاسيتوس ، طردوا مرتين ، في عهد كلوديوس وكذلك في عهد فيتيليوس ، من روما بسبب ممارستهم السحر ، لم يتعاطوا «حلا» هندسية اخرى الا تلك التي سنجدها في قلب رؤيا يوحنا .

---

١ ــ المقصود اغنية لل «كومودي» موجهة الى اليهود والى الوثنيين .

٢ ــ منظومة لاهوتية باطنية يهودية موجودة في سفرين : سفر التكوين (القرن السابع) وسفر البريق (نهاية القرن الثالث عشر) . يعرض هذا السفران المذهب الصوفي للوحي الالهي بذاته، لانبعاثه ولظهور الكل في اربعة عناصر .

٣ ــ اتباع اتجاه ديني صوفي في فترة المسيحية الاولى الاولية : اتجاه انتقائي مدمجي في الفلسفة يجمع الافلاطونية الجديدة مع فكرات فيثاغورية ومسيحية . وقد مهد الطريق لظلامية القرون الوسطى .

ينضاف الى هذا ان جميع les apocalypses تخول نفسها حق خدع قرائها. فهذه الاسفار ليست فقط ، كقاعدة عامة ، مكتوبة من قبل اشخاص آخريـــن ــ معظمهم أحدث عهدا ــ غير كتابها المزعومين ، مثلا كتاب دانيال ، كتاب إينوخ ، رؤيا ايسدراس ، باروخ ، جود ، الخ ، الكتب العرافية ، لكنها لا تتنبأ في الاساس الا بأشياء حصلت منذ زمن طويل ومعروفة تماما من قبل مؤلفها الحقيقي . وعلى هذا ففي العام ١٦٤ ، قبيل موت انطيوخوس ابيفانوس ، فان مؤلف سفر دانيال جعل دانيال، المعتبر انه عاش فيعهد نبوخذنصّر، يتنبأ بصعود وانهيار هيمنة فارس ومكدونية ، وبداية الامبراطورية العالمية لروما ، لكي يهيء قراءه ، بهذا البرهان عن مواهبه التنبؤية ، لقبول نبوءته النهائية : الشعب الاسرائيلي سيتجاوز كل آلامه وسيكون منتصرا في النهاية . اذن ، لو ان رؤيا يوحنا كان فعلا من تأليــف مؤلفه المزعوم ، فانه يشكل الاستثناء الوحيد في الادب الرؤيوي .

ان الـ يوحنا ، الذي يعطي نفسه صفة كاتب هذه الرؤيا، كان على كل حال رجلا عظيم الاعتبار بين مسيحيي آسيا الصغرى . ان لهجة رسائله الى الكنائس السبع ضمانة على ذلك . اذن من الممكن ان يكون ذلك هو الرسول يوحنا ، الذي يعتبر وجوده التاريخي ثابتا تماما ، أو محتملا جدا على الاقل . ولو ان هذا الرسول كان المؤلف فعلا ، فليس في ذلك الا ما يزيد دعم اطروحتنا . ان في هذا احسن برهان على ان مسيحية هذا السفر هي المسيحية الاولى الاولية الحقة والحقيقية . ولنقل مرورا ، انه قد تبرهن ان مؤلف الرؤيا [رؤيا يوحنا] ليس هو نفسه مؤلف الانجيل او الرسائل الثلاث المنسوبة الى يوحنا .

يتألف كتاب الرؤيا من سلسلة من الكشوف . في الكشف الاول ، يظهــر المسيح ، مرتديا مسوح كاهن كبير ، سائرا بين سبعة شمعدانات ذهبية ، التي تمثل الكنائس السبع في آسيا ، ويملي على يوحنا الرسائل الى الملائكة السبع لكنائس آسيا هذه . منذ البدء ، يتجلى الفرق بصورة صارخة بين هذه المسيحية والدين الكوني الذي تبناه قسطنطين وصاغة مجمع نيقية . الثالوث ليس غائبا فحسب ، بل هو شيء مستحيل هنا . بدلا من الروح القدس **الأوحد** اللاحق ، نجد امامنا «أرواح الله السبعة» ، التي قال بها حاخامات يوشع (٢/١١) ، المسيح هو ابن الله ، الاول والاخير ، الالف والياء ، لكنه ليس البتة الله بالذات او مكافئا لله : انه على العكس «بداية خلق الله» ، وبالتالي فهو فيض من الله الموجود منذ الازل ، لكنه خاضـــع ومماثل للارواح المذكورة قبلا . في الاصحاح الخامس عشر ، ٣ ، الشهداء فـــي السماء «يرتلون نشيد موسى ، خادم الله ، ونشيد حمَل الله» [المسيح] تمجيــدا للرب . وعلى هذا فان يسوع المسيح يظهر هنا لا كتابع لله فحسب، لكن ، بصورة ما، موضوعا على قدم المساواة مع موسى . يسوع المسيح يصلب في القدس (٨/١١) ، لكنه يُبعث حيا (١/٥ ، ٨) ، انه الـ «حمَل» الذي ضُحي به تكفيرا عن خطايا العالم وبدمه يسترد من الله المؤمنون من كل الشعوب ومن كل اللغات . هنا نجد المفهوم

الاساسي الذي اتاح للمسيحية ان تتفتح الى دين كوني . ان فكرة ان الآلهة ، المهانة بأفعال البشر ، يمكن ان تسكّن وتهدأ بالاضاحي كانت فكرة مشتركة بين كل الاديان السامية والاوروبية ؛ كانت الفكرة الثورية الاساسية الاولى في المسيحية (المستمدة من مدرسة فيلون) تقول انه بواسطة التضحية العظيمة الفريدة الطوعية لوسيط ما قد جرى التكفير عن خطايا كل الازمان وكل البشر مرة واحدة والى الابد ... بالنسبة للمؤمنين ، بحيث انه كانت تزول ضرورة كل تضحية لاحقة ، ويزول بالتالي اساس العديد من الطقوس الدينية . والحال أن التخلص من الطقوس التي تعرقل او تمنع التعامل بين البشر ذوي المعتقدات المختلفة ، كان الشرط الاول لدين كوني . بيد ان عادة تقديم الاضاحي كانت على درجة من الرسوخ في العادات الشعبية بحيث ان الكاثوليكية ــ التي استعادت كثيرا من العادات الوثنية ــ رات ان من المفيـــــد ان تكرسها بادخال القربان الرمزي على ألاقل في القداس . بالمقابل ، لا اثر في سفرنا، سفر الرؤيا ، لمعتقد الخطيئة الاصلية .

ان ما يسم بشكل رئيسي هذه الرسائل ، وكذلك السفر بأسره ، هو انه لم يخطر ببال الكاتب ابدا ولا في اي مكان ان يظهر نفسه ، هو واخوانه في الدين ، الا ... كيهود . والى معاصبي «إزمير» و«فيلادلفيا» ، الذين يحتج عليهم ، ينسب: «يدعون انهم يهود وهم ليسوا كذلك ، بل هم جماعة الشيطان» ؛ ولمعاصبي برغـام يقـول :

يتمسكون بتعليم بلعام الذي اشار الى بالاق ان ينصب الشرك لبني اسرائيل فيقعوا فيه ويأكلوا ذبائح الاصنام ويفسقوا .

اذن ، لسنا هنا ازاء مسيحيين واعين ، بل أناس يعتبرون انفسهم يهودا ؛ ان يهوديتهم ، على الارجح ، مرحلة جديدة في تطور اليهودية القديمة : لهذا بالتحديد فهي وحدها اليهودية الحقة . لذلك ، عند ظهور القديسين امام عرش الرب ، يأتي في المقام الاول ١٤٤٠٠٠ يهوديا ، ١٢٠٠٠ من كل قبيلة ، وبعد ذلك فقط يأتـــي جمهور لا يحصى من الوثنيين الذين اهتدوا الى هذه اليهودية المجددة . ان مؤلفنا، في العام ٦٩ من عصرنا ، كان بعيدا عن الشك في انه يمثل مرحلة جديدة تماما في التطور الديني ، مرحلة مدعوة لان تصبح احدى العناصر الاكثر ثورية في تاريخ الفكر الانسانـــي .

ولهذا ، كما نرى ، فان مسيحية ذلك الحين، التي لم تكن بعد على وعي بنفسها، كانت على بعد الف فرسخ من الدين الكوني الذي تحدد معتقديا في مجمع نيقية ؛ من المستحيل التعرف على تلك في هذا . لا الشروح والبراهين المعتقدية اللاهوتية ، لا علم الإخلاق المسيحي اللاحق نجدها فيها ؛ بالمقابل نجد فيها الشعور بأنها في صراع ضد عالم برمته وانها ستخرج منتصرة من هذا الصراع؛ فان فيها حمية مقاتلة ويقينا بالنصر تلاشيا كليا لدى مسيحيي ايامنا ولم نعد نجدها الا في القطب الآخر مـــن

المجتمع ، لدى الاشتراكيين .

الواقع ، أن النضال ضد عالم يملك ، في البداية ، في آن ميزة وكفاحية المجددين فيما بينهم هو سمة مشتركة يتشاطرها المسيحيون الاوائل والاشتراكيون. كلتا الحركتين لم يصنعهما زعماء وأنبياء ـ مع ان هذه وتلك لا تخلوان من انبياء ـ ، انهما حركتا جماهير . وكل حركة جماهير تكون في البداية مشوشة بالضرورة ؛ مشوشة لان كل فكر جماهيري يمور ، في البداية ، في تناقضات ، لانه يفتقر الى الوضوح والى التلاحم ؛ مشوشة ايضا بالضبط بسبب الدور الذي يلعبه فيها الانبياء في البدايات . هذا التشويش يتجلى في تكوّن العديد من العصب التي تتصارع فيما بينها على الاقل بنفس الضراوة التي تصارع بها العدو المشترك الخارجي . هذا ما حدث بالنسبة للمسيحية الاولى الاولية ؛ وهذا ما حدث كذلك في بدايات الحركة الاشتراكية ، وان كان هذا الامر قد أحزن الناس الشرفاء حسني النية الذين كانوا يدعون الى الاتحاد ، في حين ان الاتحاد لم يكن ممكنا .

هل كان تلاحم الاممية ، مثلا ، ناجما عن معتقد وحدوي ؟ لا ، بصورة من الصور . كان يوجد فيها شيوعيون حسب التقليد الفرنسي لما قبل العام ١٨٤٨ ، الذي ، بدوره ، كان يمثل تلاوين مختلفة ؛ شيوعيون من مدرسة فايتلنغ ، آخرون ينتمون الى رابطة مجدّدة للشيوعيين ؛ برودونيون كانوا العنصر المهيمن في فرنسا وفي بلجيكا ؛ اخيرا الفوضويون الباكونينيون الذين كانوا لفترة في الواجهة في اسبانيا وايطاليا ؛ وهؤلاء كلهم ليسوا سوى المجموعات الرئيسية فيها. ابتداء من تأسيس الاممية ، تعيّن انتظار ربع قرن مرحرح لكي يتحقق نهائيا وفي كل مكان الانفصال عن الفوضويين ويرسى اتفاق على الاقل حول وجهات نظر اقتصادية عمومية جدا . وتم ذلك بوسائل مواصلاتنا ، السكك الحديدية ، البرق، المدن الصناعية الهائلة ، الصحافة والاجتماعات الشعبية المنظمة .

نفس الانقسام الى عصب لا تحصى حدث لدى المسيحيين الاوائل ، انقسام كان بالضبط وسيلة اجراء نقاش والحصول على وحدة لاحقة . لاحظنا ذلك سابقا في هذا السفر ، الذي هو بلا ريب أقدم وثيقة مسيحية ، وان مؤلفنا يدين هذه الوحدة بنفس العنف الذي يدين به عالم الخطاة غير المسيحيين . ها هم اولا النيقولائيين ، في إفسِس وفي بيرغام ؛ هؤلاء الذين يدّعون انهم يهود لكنهم جماعة الشيطان ، في إزمير وفيلادلفيا ؛ أتباع مذهب النبي الدجال ، الملقب بلعام ، في بيرغام ، هؤلاء الذين يقولون انهم انبياء وليسوا كذلك ، من إفسس ؛ واخيرا انصار النبية الزائفة ، المسماة جيزابيل ، في تياتر . نحن لا نعرف البتة شيئا اكثر وضوحا حول هذه العصب ؛ فقط ما يقال عن خلفاء بلعام وجيزابيل من انهم يأكلون لحوم القرابين المقدمة الى الاصنام وانهم يتعاطون الفسق .

لقد حاولوا تمثيل هذه العصب (او الشيع) الخمسة بوصفهم المسيحيين البولسيين،وتمثيل كل هذه الرسائل باعتبارها موجهة ضد بولس الرسول المزيف ، المزعوم بلعام او نيقولاس . ان الحجج حول هذه النقطة ، وهي حجج متهافتة على

كل حال ، نجدها مجمعة عند رينان في كتابه «القديس بولس» (باريس ، ١٨٦٩ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ ، ٣٦٧ ـ ٣٧٠) . هذه الحجج تصب في تفسير هذه الرسائل ب «**اعمال الرسل والرسائل**» المنسوبة الى بولس الرسول، وهي كتابات قد دبجت ، على الاقل في صياغتها الحالية ، بعد ستين عاما من سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي ، ولذا فان المعطيات الخاصة بها اكثر من مشكوك بها وتتناقض ، بالاضافة الى ذلك ، تناقضا مطلقا فيما بينها . لكن ما يحسم المسألة هو انه لم يكن ممكنا ان يخطر في بال مؤلفنا ان يعطي الى عصبة واحدة بذاتها خمس تسميات مختلفة : اثنتين لـ افسس وحدها (الرسل الزائفون والنيقولائيون) واثنين كذلك لـ برغام (البلعاميون والنيقولائيون) ، وذلك بتحديدهما صراحة في كل حالة بصفتهما عصبتين مختلفتين. مع ذلك ، فاننا لا نريد انكار ان من بين هذه العصب أمكن ان تنوجد عناصر يمكن اعتبارها اليوم كعصب بولسية .

في المقطعين ، حيث يجري الدخول في التفاصيل ، يقتصر الاتهام على استهلاك لحوم القرابين المقدمة الى الاصنام وعلى الفسق ، وهما نقطتان كان اليهود ـ القدماء واليهود المسيحيون على حد سواء ـ على خصام مستمر حولهما مع الوثنيين المهتدين الى المسيحية. وان اللحم الآتي من الاضاحي الوثنية لم يكن يُستخدم في المآدب فحسب ، حيث يمكن ان يبدو رفض الطعام المقدم غير لائق ، بل يمكن ان يغدو امرا خطيرا ، لكنه كان يباع كذلك في الاسواق العامة حيث لم يكن من الممكن تمييزه بالنظر فيما اذا كان لحما محللا ( لليهود ) ام لا . وبالفسق ، لم يكن هؤلاء اليهود انفسهم يعنون تعاطي العلاقة الجنسية خارج الزواج ، بل ايضا الزواج بين الاقارب في درجات حرمها الشرع اليهودي ، وايضا الزواج بين اليهود والوثنيين ، وهذا هو المعنى المعطى ، عادة ، للكلمة ، كلمة الفسق ، في سفر «أعمال الرسل» (١٥/٢٠ و٢٩) . لكن لصاحبنا يوحنا نظرته الخاصة ، حتى فيما يتعلق بالممارسة الجنسية المسموح بها بين اليهود الاورثوذكسيين . يقول (٤/٨٩) عن الـ ١٤٤٠٠٠ يهوديا سماويا : «انهم هم الذين لم يتدنسوا مع النساء ، وذلك لانهم بكارى» . والحقيقة انه لا توجد في سماء صاحبنا يوحنا ولو امرأة واحدة . وعلى هذا فهو ينتمي الى هذا الاتجاه الذي يتجلى ايضا في كتابات اخرى للمسيحية الاولى الاولية وتعتبر بمثابة خطيئة الممارسة الجنسية بصورة عامة . وفضلا عن ذلك ، اذا اخذنا بالاعتبار واقع انه يطلق على روما اسم العاهرة الكبيرة التي مارس معها الفسق ملوك الارض وسكروا بخمرة فسقها ـ واغتنى تجارها بعظمة بذخها ـ يغدو مستحيلا بالنسبة الينا ان نفهم معنى الرسائل بالمعنى الضيق الذي يريد التقريظ اللاهوتي ان ينسبها اليه ، بغرض وحيد هو ان يستجر منها تأكيدا لمقاطع أخرى من العهد الجديد . بل الامر على العكس من ذلك تماما . هذه المقاطع من الرسائل تشير بوضوح الى الظاهرة المشتركة بين كل العصور القلقة بعمق ، وهي انه في نفس الوقت الذي تزعزع جميع الحواجز ، يحاولون ارخاء القيود التقليدية للممارسة الجنسية . كذلك ، ففي القرون المسيحية الاولى ، الى جانب الزهد الذي يميت الجسد ، يتجلى

في كثير من الاحيان اتجاه يرمي الى توسيع الحرية المسيحية بحيث تشمل العلاقات، الحرة الى هذا الحد او ذاك ، بين الرجال والنساء . ولقد حدث نفس الشيء في الحركة الاشتراكية الحديثة .

اي نقمة مقدسة أثارت بعد العام ١٨٣٠ ، في المانيا ذلك الحين ــ «دار الحضانة التقية» هذه ، كما كان يسميها هاينــه ــ **اعادة الاعتبار للجسد** السان سيمونية ! افظع السخط هو الذي تملك الانظمة الارستقراطية التي كانت تهيمن على العصر (في هذا التاريخ لم يكن بعد من طبقات عندنا) والتي لم تكن تعرف ، لا في برلين ولا في املاكها في الريف ، كيف تعيش بدون اعادة اعتبار متكررة لجسدها . ترى ماذا كان قول الاشخاص الطيبين لو انهم عرفوا فورييه ، الذي يعرض للجسد امكانية شقلبات اخرى غير قليلة !

ما ان تجووزت الطوبوية ، حتى حلت محل حالات الهوس هذه فكرات اكثر عقلانية و ، في الواقع ، اكثر جذرية بكثير ، ومنذ ان تحولت المانيا من دار الحضانة التقية (على حد قول هاينه) ، التي كانتها ، الى مركز الحركة الاشتراكية ، يُسخر من النقمة المنافقة للعالم الارستقراطي الورع .

ذلك هو كل المضمون المعتقدي للرسائل . اما الباقي من مضمونها فيحــرض الرفاق على الدعاية النشطة ، على المجاهرة المعتزة الشجاعة بايمانهم ازاء خصومهم، على النضال بلا انقطاع ضد اعداء الداخل والخارج ؛ وحول هذا الموضوع ، كــان ممكنا ان يكتب هذه الرسائل ، وبنفس السوية ايضا ، متحمس على حد أدنى من النبوءة للأممية .

## ٣

ان الرسائل ليست سوى مدخل الى الموضوع الحقيقي لبيان صاحبنا يوحنا الى الكنائس السبع في آسيا الصغرى و ، عبرها ، الى جميع اليهود الذين تأثروا بحركة الاصلاح لعام ٦٩ ، التي خرجت منها المسيحية فيما بعد . وهنا ندخل الحرم الداخلي للمسيحية الاولى الاولية .

من بين اي أناس جاء المسيحيون الاوائل ؟ بصورة رئيسية من بين «الكادحين والرازحين» ، المنتمين الى أدنى شرائح الشعب ؛ على نحو ما ينبغي لعنصر ثوري . وممن كانت تتألف هذه الشرائح؟ في المدن، من رجال أحرار هابطين ــ أناس من مختلف الانواع ، مماثلين للبؤساء البيض **mean whites** في الولايات الرقية الجنوبية (في الولايات المتحدة) ، للمغامرين والمتشردين الاوروبيين فــي المدن البحريــة الكولونيالية والصينية ، ثم من معتقين وبخاصة من ارقاء ؛ من لاتيفونديات أيطاليا، صقلية وافريقيا جاءها أرقاء ؛ من المناطق الريفية في الاقاليم جاءها فلاحون صغار استرقتهم الديون اكثر فأكثر . لم يكن هناك البتة من طريق مشتركة للانعتاق لكل

هذه الكثرة من العناصر المختلفة . بالنسبة لكل هؤلاء ، الفردوس المفقود كان وراءهم ؛ بالنسبة للرجل الحر الهابط ، كان ذلك الفردوس هو المدينة polis , جماع مدينة ودولة كان أسلافه في الماضي مواطنيها الاحرار ؛ بالنسبة للارقاء من اسرى الحرب ، كان ذلك الفردوس هو مناخ الحرية قبل الاستعباد والاسر ؛ بالنسبة للفلاح الصغير ، كان ذلك الفردوس هو المجتمع العشيري gentilice ومشاعية الارض المبادين . كل هذا كانت اليد الحديدية المساواتية للروماني الفاتح قد أطاحت به . ان التجمع الاجتماعي الاكثر اهمية الذي خلقه العصر القديم كان القبيلة وتحالف قبائل نسيبة ، تجمع مبني ، لدى البربر ، على روابط قرابة الاب، لدى الاغريق والطليان القدماء ، مؤسسي المدن ، على المدينة التي كانت تضم عشيرة واحدة او عدة عشائر نسيبة . لقد حقق فيليب والاسكندر لشبه الجزيرة الهيلينية وحدة سياسية ، لكن لم ينتج عن ذلك تكوّن أمة يونانية . الامم لم تصبح ممكنة الا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . وقد وضعت حدا مرة واحدة والى الابد للتجمعات الصغيرة ؛ القوة العسكرية ، القضاء الروماني، جهاز جباية الضرائب فككت تماما التنظيم الداخلي التقليدي . الى فقدان الاستقلال والتنظيم الاصلي ، انضاف النهب الذي تمارسه السلطات العسكرية والمدنية ، التي اخذت تجرد المخضَعين من مكتنزاتهم ، لكي تقرضهم اياها من جديد بعد ذلك بنسب ربوية ، لكي يمكنهم دفع اغتصابات جديدة . ان ثقل الضرائب والحاجة الى المال التي تنجم عنه في مناطق كان يسود فيها الاقتصاد الطبيعي بصورة حصرية او راجحة ، كانا يضعان الفلاحين اكثر فأكثر تحت رحمة المرابين ، يحدثان تفاوتا كبيرا في الثروات ، يغنيان الاغنياء ويفقران الفقراء كليا . وكل مقاومة تبديها القبائل المنعزلة الصغيرة او المدن ضد سلطان روما الجبار كانت بلا أمل . اي علاج لهذا ، اي ملجأ للمضطهَدين ، للمستعبدين ، للمفقرين ، اي مخرج مشترك لهذه الجماعات البشرية المختلفة ، لهذه المصالح المختلفة بل المتعارضة ؟ كان ينبغي على كل حال العثور على مخرج ، كان ينبغي قيام حركة ثورية كبيرة واحدة تحتضنهم كلهم .

هذا المخرج قد وُجد ؛ لكن ليس في هذا العالم . و ، في حالة الاشياء آنئذ ، كان الدين هو وحده الذي يمكنه ان يقدمه . لقد اكتُشف عالم جديد . ان وجود الروح بعد موت الجسد كان يصبح شيئا فشيئا قسما من المعتقد الديني معترفا به في كل العالم الروماني . أضف الى ذلك ، ان نمطا من العقاب والثواب لروح الميت، تبعا للافعال التي أتاها في حياته ، كان يتقبّل اكثر فأكثر في كل مكان . بالنسبة للثوابات ، في الحقيقة ، كان هذا كلاما نافلا بعض الشيء ؛ فالعصر القديم كان ماديا تلقائيا بحيث انه كان يولي للحياة الواقعية اهمية اكبر بما لا يقاس مما يوليه لمملكة الاشباح ؛ لدى اليونان ، كان الخلود يعرّف بأنه بالاحرى سوء الحظ . جاءت المسيحية التي قبضت جديا العقابات والثوابات في العالم الآخر وخلقت الجنة والجحيم ؛ وبهذا وجدت الطريق التي يقاد منها كادحو ومسحوقو وادي الدموع هذا الى الفردوس الابدي . والواقع انه كان لا بد من امل في ثواب في الماوراء للوصول

الى رفع الزهد وتقشف مدرسة فيلون الرواقية الى مصاف مبدأ اخلاقي اساسي لدين جديد كوني قادر على ان يجر الجماهير المضطهَدة .

بيد ان الموت لا يفتح دفعة واحدة هذا الفردوس السماوي للمؤمنين . سنرى ان مملكة الله ، التي عاصمتها اورشليم الجديدة ، لا تؤخذ غلابا ولا تنفتح الا اثر صراعات محتدمة مع القوى الشيطانية . والحال ان المسيحيين الاوائل كانوا يتصورون هذه الصراعات كصراعات وشيكة . منذ البداية يحدد صاحبنا يوحنا سفره بوصفه الكشف عن «اشياء يفترض ان **تحدث** عما قريب» ؛ بعد قليل ، في الآية ٣ ، يقول : «طوبى لمن يقرأ ولهؤلاء الذين يسمعون اقوال النبوة ، ذلك لان الساعة قريبة» ؛ الى جماعة فيلادلفيا استكتب يسوع المسيح : «سآتي عما قريب» . وفي الاصحاح الاخير ، يقول الملاك انه أوحى الى يوحنا «الاشياء التي يفترض ان **تحدث** عما قريب» وانه أمره : «الا يختم البتة كلمات نبوءة هذا السفر ، لان الساعة قريبة» ، وان يسوع المسيح ذاته قال ، في مناسبتين ، في الآيتين ١٢ و٣٠ : «سآتي عما قريب» . سنرى في ما بعد كم طال انتظار هذا المجيء الذي أعلن انه قريب .

ان الكشوف الرؤيوية [الواردة في سفر الرؤيا ، او رؤيا يوحنا] التي يعرضها المؤلف الان تحت انظارنا ، هي كلها ، وفي معظم الحالات ، مأخوذة حرفيا من نماذج سابقة . جزء منها من الانبياء الكلاسيين في العهد القديم ، من حزقيال بصورة رئيسية ، وجزء آخر من الرؤى اليهودية اللاحقة المؤلفة حسب نموذج سفر دانيال وبصورة رئيسية سفر إنوخ الذي دُبج من قبل ، في قسم منه على الاقل ، في ذلك العهد . لقد برهن النقاد حتى، في ابسط التفاصيل ، من اين استمد صاحبنا يوحنا كل صورة ، كل انذاراته المخبفة ، كل جرح رمى به البشرية الكافرة ، وبكلمة جماع مواد كتابه ؛ بحيث انه لا يظهر وحسب فقرا ذهنيا قلما نراه ، بل يزودنا ايضا هو نفسه بالبرهان على ان رؤاه وحالات وجده المزعومة لم يعشها ، حتى في الخيال ، كما وصفها .

هي ذي ، ببضع كلمات ، مسيرة هذه التجليات . بادىء بدء يرى يوحنا الله جالسا على عرشه ، وفي يده كتاب ممهور بسبعة اختام ؛ امامه الحمَل (يسوع) مذبوحا ، لكنه حي من جديد ، ارتؤي انه جدير بفض الاختام . ترافق فض الاختام بمختلف أنواع الاشارات والاعاجيب المهدّدة . عند الختم الخامس يرى يوحنا ، تحت مذبح الله ، ارواح شهداء المسيح الذين قتلوا في سبيل كلام الله :

> فصرخوا بأعلى صوتهم : حتّام ، يا ايها القدوس الحق ، ترجىء الاقتصاص والانتقام لدمائنا من اهل الدنيا ؟

عند ذاك أعطي لكل من هؤلاء ثوب ابيض وطلب اليهم ان يصبروا قليلا الى ان يكتمل عدد الشهداء الذين يجب ان يموتوا . هنا ، لم نكن بعد البتة ازاء «دين

المحبة» ، ازاء «احبوا مبغضيكم وباركوا لاعنيكم» ، الخ ، هنا يدعون جهارا الى الانتقام العادل الشريف الذي يجب ان يصيب مضطهدي المسيحيين . ويبقى الامر كذلك طوال السفر . كلما اقتربت الازمة ، كلما أمطرت السماء مدرارا الجراح والاحكام ، كلما احس يوحنا بفرحة أعلان ان معظم البشر لم يتوبوا على كل حال وانهم يرفضون إن يقدموا فعل الندامة عن خطاياهم ؛ ان كوارث إلهية جديدة يجب ان تحل بهم ؛ ان المسيح ينبغي ان يحكم بقضيب من حديد وان يعصر خمرته في معصرة غضب الله كلي القدرة ؛ لكن رغم ذلك يبقى الكفار قساة القلوب . انه الشعور الطبيعي ، البعيد عن كل رياء ، بأنهم في صراع ، **وان الحرب هي الحرب** . مع فض الختم السابع ، يظهر سبعة ملائكة يحملون ابواقا : كل مرة ينفخ ملاك في البوق ، تظهر علائم جديدة للرعب . بعد النفخة السابعة في البوق ، يدخل الساح سبعة ملائكة جدد ، حاملين الكؤوس السبعة لغضب الله التي تهرق على الارض ، و ، من جديد ، تمطر كوارث واحكاما ، هي بصورة اساسية ترداد متعب لما حدث من قبل مرارا . ثم تأتي المراة ، بابل ، العاهرة الكبيرة ، مرتدية ملابس من القرمز والارجوان، جالسة على المياه ، ثملة بدم القديسين ودم شهداء المسيح ، انها المدينة الكبرى القائمة على التلال السبعة التي لها الملك على جميع ملوك الارض . هي جالسة على وحش له سبعة رؤوس وعشرة قرون . الرؤوس السبعة هي جبال سبعة ، وهي ايضا تمثل سبعة «ملوك» . من هؤلاء الملوك ، مضى خمسة ؛ واحد موجود ، السابع يفترض ان يأتي ، وبعده واحد من الخمسة الأوائل سيعود ، الذي كان مصابا بجرح مميت ، لكنه شفي . وهذا سيسود على الارض اثنتين واربعين شهرا او ثلاثة أعوام ونصف العام (نصف اسبوع من عام يتألف من سبعة أعوام) ، سيضطهد المؤمنين حتى الموت وسيحقق انتصار الكفر . اثر ذلك ، تنشب المعركة الكبرى الحاسمة ، فيثأر للقديسين والشهداء بتدمير العاهرة الكبيرة بابل وسائر انصارها ، اي من الاكثرية العظمى من البشر ؛ يلقى بالشيطان في الهاوية ويقيد فيها لمده الف عام ، يسود خلالها المسيح مع الشهداء المبعوثين أحياء . عندما تمر الالف عام ، يخلى سبيل الشيطان : تتلو ذلك معركة اخيرة بين الارواح يقهر فيها نهائيا . يحدث بعث ثانٍ ، يبعث باقي الاموات ويحضرون أمام عرش الله (لا عرش المسيح ، لاحظوا جيدا) ، ويدخل المؤمنون سماء جديدة ، ارضا جديدة واورشليم جديدة لاجل حياة أبدية .

وكما أن كل هذا البناء قد أقيم بمواد يهودية وما قبل مسيحية ، كذلك فانه يعرض بصورة حصرية تقريبا مفاهيم يهودية خالصة . منذ ان أخذت الاشياء تسير على نحو سيء بالنسبة لشعب اسرائيل ، بدءاً من اللحظة التي أصبح خاضعا للآشوريين والبابليين ، منذ تدمير مملكتي اسرائيل ويهوذا حتى اخضاعه للسلوقيين، من اشعيا حتى دانيال ، كان ثمة على الدوام ، في ساعات المحنة ، نبوءة بمخلص إلهي . في الاصحاح ١٢/١ ، ٣ لدانيال توجد نبوءة نزول ميخائيل ، الملاك الحارس لليهود ، الذي يخلصهم من الشدة الكبيرة التي نزلت بهم : «كثير من الامــوات سيبعث» ؛ كان ثمة ضرب من يوم قيامة «وان هؤلاء الذين علموا العدالة للجمهور

سيلمعون كالنجوم على الدوام والى أبد الآبدين» . عن ما هو مسيحي ، لا نجد سوى التأكيد بإلحاح على وشاكة مملكة يسوع المسيح وعلى سعـــادة المؤمنين المبعوثين ، والشهداء منهم بخاصة .

للنقد الالماني ، وبصورة رئيسية لـ ايفالد ، لوكه وفرديناند بيناري ، نحـــن مدينون بتفسير هذه النبوءة ، بقدر ما تتعلق بأحداث تلك الفترة . بفضل رينان ، دخل هذا النقد في أوساط اخرى غير الوسط اللاهوتي . العاهرة الكبيرة ، بابل ، تعني ، كما رأينا ، المدينة ذات التلال السبع ، روما . عن الوحش الذي جلست عليه ، جاء في الاصحاح ١٧/٩ ، ١١ :

فالرؤوس السبعة هي التلال السبعة التي قامت عليها المرأة . وهي ايضا سبعة ملوك منهم خمسة مضوا ، ومنهم واحد لا يزال حيا والآخر لم يأت بعد . فاذا اتى ، فان بقاءه قليل . اما الوحش الذي وجد وأصبح غير موجود فسيكون الثامن ، مع انه من السبعة ، ويمضي الى الهلاك .

اذن فالوحش هو الهيمنة العالمية لروما ، ممثلة بالتتابع في سبعة أباطرة ، أحدهم أصيب بجرح مميت ولم يعد يملك ، لكنه شفي ، وسوف يعود ، لكي يكمل بوصفه ملكا ثامنا ملك التجديف والتمرد على الله .

وتأتى له ان يحارب القديسين ويغلبهم ، وأوليَ سلطانا على كل قبيلـــة وشعب ولسان وأمة . سيسجد له اهل الدنيا كلهم ، اولئك الذيـــن لم تكتب اسماؤهم منذ انشاء العالم في سفر الحياة ، سفر الحمَل الذبيح ...... وخوّل ان يحمل جميع الناس صغارا وكبارا ، اغنياء وفقراء ، عبيدا وأحرارا، على أن يسموا يدهم اليمنى وجبهتهم فلا يستطيع احد ان يشتري او يبيع الا اذا كانت عليه سمة باسم الوحش او بعدد اسمه . وهنا لا بد من الحذاقة ، فمن كان ذكيا فليحسب عدد اسم الوحش : انه عدد اسم انسان وعدده ستة وستـــون وستمائة (الاصحاح ١٣/٧–١٨) .

لنكتف بالملاحظة بأن المقاطعة قد وردت هنا كتدبير ينبغي استعماله من قبـــل الدولة الرومانية ضد المسيحيين — وإلا فانها، كما هو ظاهر، اختلاق من الشيطان — ولننتقل الى مسألة معرفة من هو هذا الامبراطور الروماني الذي ملك من قبل ، الذي جُرح جرحا مميتا والذي عاد بصفته الثامن في سلسلة الاباطرة لكـــي يلعب دور المسيح الدجال .

بعد «أغسطس» ، الاول ، لدينـــا : ٢ — تيبريوس ، ٣ — كاليغـــولا ، ٤ — كلوديوس ، ٥ — نيرون ، ٦ — غالبا . «سقط خمسة ، السادس موجود» . اذن ، سقط نيرون . غالبا موجود . ملك غالبا من ٩ حزيران ٦٨ حتى ١٥ كانون

الاول ٦٩ . لكن ما ان ارتقى العرش، حتى تمردت فرق الراين بقيادة فيتيليوس ، في حين ان قادة آخرين في أقاليم أخرى حضَّروا لانتفاضات عسكرية . في روما نفسها ، تمرد البريتوريون [الحرس الامبراطوري] ، ذبحوا غالبا ونادوا ب اوتـون امبراطورا .

يستخلص من ذلك ان سفر رؤيا يوحنا قد كتب في عهد غالبا ، من المحتمل حوالي نهاية ملكه ، او في ما بعد ، خلال الاشهر الثلاثة (حتى ١٥ نيسان ٦٩) من ملك أوتون ، السابع . لكن من هو الثامن ، الذي كان ولم يكن ؟ ان الرقم ٦٦٦ سيعلمنا بذلك .

بين سامي تلك الحقبة ، من كلدانيين ويهود ، كان شائعا فن السحر ، المبني على المعنى المزدوج للاحرف . منذ حوالي ثلثماية عام قبل عصرنا ، كانت الاحرف العبرية تستخدم كأرقام ايضا : أ=١ ، ب=٢ ، ج=٣ ، د=٤ وهلمجرا . والحال ان العرافين القبلانيين كانوا يجمعون القيم العددية لاحرف اسم ما ، بمساعـــدة مجموع الارقام المحرزة، مثلا بتكوين كلمات او تراكيب كلمات لها قيمة عددية مساوية تتيح استخلاص نتائج حول مستقبل من يحمل الاسم ، ويسعون للقيام بتنبؤات على هذا الاساس . كذلك كان يجري التعبير عن كلمات سرية بهذه اللغة المرقومة . كانوا يطلقون على هذا الفن اسما يونانيا ، **ghematriah** ، الهندسة ؛ الكلدانيون الذين كانوا يمارسونها كمهنة ، والـذي كان تاسيتوس يسميهـــا **mathematici** طردوا من روما في عهد كلوديوس ، وطردوا مرة اخرى في عهد فيتيليوس ، بسبب ما يحتمل انه «جرم خطير» .

بواسطة هذه الرياضيات بالضبط تم الحصول على الرقم ٦٦٦ . خلفه ، يختفي اسم واحد من الاباطرة الرومان الخمسة . والحال ان إيرينيه ، في نهاية القـــرن الثاني ، كان يعرف رقما مختلفا هو ٦١٦ يعود ، هو ايضا ، الى زمن كان الرمز فيه بالارقام ما يزال معروفا . اذا كان الحل ينطبق ايضا على العددين ، يكون البرهان قد تـم .

لقد وجد فرديناند بيناري في برلين هذا الحل . الاسم هو نيرون . الرقم مبني على «نيرون قيصر» **Néron Kesar** ، والنقل للكتابة جاء بالعبرية ــ كما يشهد بذلك التلمود ونقل الكتابة بالتدمرية ــ لعبارة **Néron Kaisar** اليونانية، الامبراطور نيرون ، المنقوشة على نقود عهد نيرون ، المسكوكة في الاقاليم الشرقية من الامبراطورية . وعلى هذا فان N (nun) = ٥٠ ؛ r(resch) = ٢٠٠ ؛ V (Vau) تلفظ Q = ٦ ؛ N (nun) = ٥٠ ؛ K (Koph) = ١٠٠ ؛ S(samech) = ٦٠ و r (resch) = ٢٠٠ ؛ المجموع = ٦٦٦ . والحال ، اذا اخذنا كأساس الصيغة اللاتينية نيرو كايزر **Nero Caeser** نجـــد ان الـ n (nun) الثانية = ٥٠ ملغاة ، فنحصل على ٦٦٦ ــ ٥٠ = ٦١٦ .

الواقع ، ان كل الامبراطورية الرومانية ، في عهد ، غالبا كانت في مــــلء اضطرابها . غالبا نفسه كان قد زحف على رأس جيش اسبانيا والغال للاطاحـــة

بنيرون ؛ ففر هذا الاخير وقتل بيد احد العبيد المعتقين . لكن قامت المؤامرات ضد غالبا لا من قبل الحرس البريتوري فقط في روما ، بل من قبل حكام الاقاليم ؛ وفي كل مكان كان يظهر مطالبون بالعرش ، يتأهبون للزحف على العاصمة بجيوشهم . كان يبدو أن الامبراطورية مشفية على حرب اهلية ؛ ان سقوطها اصبح وشيكا . زاد الطين بلة ان شائعة انتشرت في الشرق بخاصة تقول ان نيرون لم يمت ، بل جُرح فقط ، انه لجأ الى البارتيين [أسلاف الفرس] ، انه يعبر الفرات ويأتي بقوة مسلحة ليدشن عهداً من الارهاب اكثر دموية . وفي آشيا وآسيا بخاصة شاع قلق بسبب مثل هذه الروايات . في نفس الوقت الذي **صُنّف** فيه سفر الرؤيا ، ظهر نيرون مزيف تمكن بمساعدة حزب كبير العدد من جزيرة سيتنوس (ترميا ، في الوقت الحاضر) في بحر ايجه ، قرب باتموس وآسيا الصغرى الى ان قتل في عهد أوتون. لا عجب اذا كان قد انتشر بين المسيحيين ، الذين أنزل بهم نيرون أولى أفظع الاضطهادات ، ان نيرون سيعود بصفته المسيح الدجال ، وان عودته وكذلك محاولة إبادة دموية اكثر جدية للعصبة الناشئة هي البشير والممهد للمسيح ، للمعركة الظافرة ضد القوى الجهنمية ، لملك ألف عام للمسيح ينبغي ان يتحقق «عما قريب ، ملك جعل اليقين بمجيئه الشهداء يذهبون الى الموت بمرح» .

ان الادب المسيحي وذا الوحي المسيحي للقرنين الاولين يشير بما يكفي من العلائم الى ان سر الرقم ٦٦٦ كان آنئذ معروفا من قبل الكثيرين . نعم ، ان إيرينيه لم يكن يعرفه بعد ، لكنه كان يعرف بالمقابل ، شأن كثيرين غيره حتى نهاية القرن الثاني ، ان وحش سفر الرؤيا هو نيرون الذي يمكن ان يعود . ثم ، يضيع هذا الاثر الاخير ، ويغدو سفرنا هذا موضع تأويلات عجائبية من قبل عرّافين أورثوذكس ؛ وأنا نفسي قد عرفت ايضا شيوخا كانوا ، استنادا الى حسابات الشيخ جوهان البريشت بينجل ، ينتظرون نهاية العالم ويوم القيامة في العام ١٨٣٦ . تحققت النبوءة في الميعاد المعلن . بيد أن يوم القيامة لم يطل عالم الخطاة فحسب ، بل المفسرين التقاة لسفر يوحنا أنفسهم ايضا . ذلك لان في العام ١٨٣٦ نفسه قدم ف. بيناري مفتاح العدد ٦٦٦ فوضع بذلك حدا لكل هذا الحساب العرّافي ولهذه الـ ghematriah الجديدة .

عن الملكوت السماوي المحجوز للمؤمنين ، لا يقدم صاحبنا يوحنا الا وصفا سطحيا جدا . بالنسبة لذلك العهد ، القدس الجديدة مشيدة فعلا على سطح هائل: طول ضلعه ١٢٠٠٠ غلوة = ٢٢٢٧ كيلومترا ، اذن بمساحة تبلغ حوالي خمسة ملايين كيلومترا مربعا ، اي ما يزيد على نصف مساحة الولايات المتحدة الامريكية ، مبنية فقط بالذهب والحجارة الكريمة . هنا ، يقطن الله بين ذويه وينوّر عليهم بدلا من الشمس ؛ لم يعد ثمة من موت ، من قصاص ، من عذاب ، ان نهرا من المياه الجارية يجري خلال المدينة ، على ضفافه تنمو اشجار الحياة منتجة اثنتي عشر مرة ثمارها، تعطي ثمارها كل شهر ، وتخدم اوراق الشجرة «لشفاء غير المختارين» (على شاكلة شاي دوائي ، حسب رأي رينان ، في كتابه «المسيح الدجال» ، ص ٥٤٢) . هنا

يحيا القديسون الى الابد .

على هذا النحو تكونت المسيحية في آسيا الصغرى ، بؤرتها الرئيسية ، حوالي العام ٦٨ ، بالقدر الذي نعرفها فيه . لا اشارة البتة الى ثالوث ما ؛ بالمقابل فان يهوه الشيخ ، الواحد وغير القابل للانقسام ، يهوه اليهودية المنحطة ارتفع من مستوى الإله القومي لليهود الى مستوى الاله الواحد ؛ الإله الاسمى للسماء وللارض حيث يزعم الملك على كل الشعوب ، واعدا بالرحمة المهتدين ومبيدا المتمردين بدون شفقة ، الوفي للقول القديم : « التسامح مع الخاضعين والحرب ضد المتكبرين » . ولهذا ، فان الله نفسه هو الذي يقضي يوم القيامة لا يسوع المسيح ، كما ورد في الروايات اللاحقة للأناجيل ورسائل الرسل . طبقا للمذهب الفارسي في الفيض، الذي انبث في اليهودية المنحطة ، المسيح هو الحمَل ، فاض من الله منذ الأزل ؛ كذلك ، رغم انها تحتل مرتبة أدنى ، ارواح الله السبعة ، التي تدين بوجودها لمقطع شعري ، فانها عصية على الفهم (شعيا ، ٢/١١) . ما من روح من هذه الارواح هو الله ولا بمساوٍ لله ، بل خاضع له . يبدو الحمَل بملء ارادته بصفته ضحية تكفيرية عن خطايا العالم ، وبسبب هذه المأثرة السامية يرى نفسه بوضوح مرفَّع المقام في السماء ؛ في كل هذا السفر تحسب هذه التضحية الطوعية كفعل غير مألوف لا كفعل نابع بالضرورة من أعمق اعماق كينونته .

من البديهي ان كل البلاط السماوي للقدامى ، للملائكة ، للحملان وللقديسين لم يغب عنه . لكي تتكوّن في دين ، اضطر التوحيد [القول بإله واحد] على الدوام ان يقدم على الدوام تنازلات للشِرك [القول بآلهة متعددة] ، بدءاً من الـ زيندافيستا (١). لدى اليهود ، الانتكاس نحو الآلهة الوثنية والملموسة بقي حالة مزمنة الى ان ، بعد النفي ، كيَّف على نحو أفضل بعض الشيء البلاط السماوي على الطريقة الفارسية الدين مع المعتقد الوهمي الشعبي . ان المسيحية ، هي ايضا ، حتى بعد ان أبدلت الله اليهود الثابت ازليا بالله ملغَّز ذي أقانيم ثلاثة ، المميز في ذاته ، لم تستطع ان تزيح تقديس الآلهة القديمة لدى الجماهير الا بواسطة تقديس القديسين . وعلى هذا فان عبادة جوبيتير ، حسب فالميراير ، لم تنقرض في البيلوبونيز ، في ماينا ، في اركاديا ، الا حوالي القرن التاسع (٢) . العصر البورجوازي الحديث وبروتستانتيته

---

١ ـ جُماع «الكتب المقدسة» للدين الزرادشتي الذي كان منتشرا في فارس القديمة ، اذربيجان وآسيا الوسطى ؛ جُمعت منذ حوالي القرن التاسع قبل عصرنا [قبل المسيح] حتى القرن الثالث من عصرنا [بعد المسيح] .

٢ ـ ج.ف. فالميراير : «تاريخ شبه جزيرة موريا في العصر الوسيط» ، الجزء الاول ، شتوتغارت وتوبنغه ، ١٨٣٠ . الجزء ١ ، ص ٢٢٧ . قال فيه : «... منذ اواخر القرن السادس حتى النصف الثاني من القرن التاسع ، تلاشت المسيحية القديمة لا في «البيليبونيز» فقط ، بل ايضا في مجمل المثلث الايليري ، مع زوال سكانه القدماء في نفس الوقت . لكن في مقاطعة «ماينا» صمدت الوثنية الاقل تشددا ، رغم ان الاضاحي البشرية المقدمة لمرضاة الصنم «روديغاست» والجلال الصافي للاله المسيحي كانت ما تزال تنفث دخانها على مذابح «زيوس» المنسي .

هما اللذان استبعدا بدورهما القديسين وقبضا جديا التوحيد المشرك .

ان سفرنا ، سفر الرؤية لا يعرف كذلك معتقد الخطيئة الاصلية ولا النعمة الإلهية بالايمان . ان ايمان تلك الجماعات الاولى المقاتلة يختلف اختلافا تاما عن ايمان الكنيسة الظافرة اللاحقة ؛ الى جانب تضحية الحمَل التكفيرية ، فان عودة المسيح القريبة ووشاكة الملك الالفي تشكلان مضمونها الاساسي وما كانت تتجلى به هو الدعاية النشطة ، الصراع الذي لا يكل ضد عدو الخارج والداخل ، الاعتراف المعتز بقناعاتها الثورية امام القضاةالوثنيين، الاستشهاد المعانى بشجاعة فيالبقين بالنصر.

رأينا ، ان مؤلف السفر لم يشك بعد في انه شيء آخر سوى يهودي . وبالتالي لا نجد في كل السفر اي تلميح الى التعميد ؛ بل اكثر من ذلك فان ثمة علائم عديدة على ان التعميد هو مؤسسة تكونت في المرحلة المسيحية الثانية . ان الـ ٤٤٠٠٠ يهوديا مؤمنا هم«مختومون»، غير معمدين. عنالقديسين في السماء قال: غسلوا حللهم وبيضوها بدمالحمَل؛ لا كلمةعنماء التعميد. النبياناللذان سبقا ظهور المسيح الدجال (الاصحاحالحاديعشر)لا يعمّدانهما كذلكوفيالاصحاحالتاسععشر،١٠، شهادةيسوع ليست التعميد ، بل روح النبوءة . كان من الطبيعي في كل هذه المناسبات الحديث عن التعميد ، لو انه اعتمد بعض الشيء . اذن فمن حقنا ان نستخلص بشبه يقين ان المؤلف لم يكن يعرفه وان التعميد لم يدخل الا عندما انفصل المسيحيون نهائيا عن اليهود .

كذلك فان مؤلفنا على جهل بالسر الثاني اللاحق ــ سر القربان المقدس . اذا كان المسيح ، في نص «لوثر» ، وعد كل «تياتيري» Thyatirian ، صمد في ايمانه، ان يدخل الى بيته وأن يتناول القربان معه ، فان هذا يعطي توضيحا خاطئا للنص . في اليونانية يقرأون deipnêso ، سأتعشى (معه) ، وقد جُعلت الكلمة في صيغة صحيحة في التوراة الانكليزي : «I shall sup with him» . عن العشاء السري كمأدبة تذكارية ، لم يرد شيء البتة هنا .

ان سفرنا بتاريخه (٦٨ او ٦٩) المثبت على نحو يقيني كاف ، هو بلا جدال أقدم الادبالمسيحي كله. اناي سفر آخر لم يُكتب بلغةحوشية كهذه، حيث تعج العبراوية (طريقة التعبير العبرانية) ، التراكيب اللغوية العجيبة ، الاخطاء النحوية . اللاهوتيون المحترفون وحدهم ، او مدونو التاريخ الآخرون المعنيون ، ما يزالون ينكرون ان الاناجيل وأفعال الرسل هي تحويرات لاحقة لكتابات مفقودة اليوم والتي لم يعد من الممكن اكتشاف نواتها التاريخية الضعيفة في ظل الفزارة الاسطورية ؛ حتى الثلاث او الاربع رسائل رؤيوية المزعوم انها حقيقية ، كما يقول برونو بوير ، لا تمثل اكثر من كتابات حقبة لاحقة ، أو ، في احسن الاحوال ، تصانيف أقدم عهدا لمؤلفين مجهولين ، نقحت وجملت بإضافات وتحشيات مدسوسة . الاكثر اهمية بالنسبة الينا ان نمتلك مع مؤلفنا ، الذي نعرف فترة تدبيجه بالشهر تقريبا، سفرا يقدم لنا المسيحية في شكلها الاكثر أولية ، في الشكل الذي لا تجده فيه ،

بالنسبة لدين الدولة للقرن الرابع ، اكثر اكتمالا في شروحه وبراهينه المعتقدية اللاهوتية وميثولوجيته من ميثولوجية تاسيت الجرمانية قياسا بميثولوجية الـ ايدا، المصاغة تماما تحت تأثير عناصر مسيحية وعناصر من العصر القديم . ان جنين الدين الكوني هو هنا ، لكنه ما يزال يحتوي في حالة غير مميزة على الف امكانية للتطور التي تخققت في عدد لا يحصى من العُصب اللاحقة . اذا كان الشطر الاقدم من سير اعداد المسيحية يملك قيمة خاصة جدا بالنسبة الينا ، فذلك لانه يقدم الينا بصورة كاملة ما حملته اليهودية ـ المتأثرة بقوة بمدرسة الاسكندرية ـ الى المسيحية . كل ما هو لاحق هو اضافة غربية ، يونانية ـ رومانية . لقد لزمت وساطة الدين اليهودي التوحيدي لالباس التوحيدية المنقبة للفلسفة اليونانية العامية الشكل الديني الذي بواسطته وحده استطاعت التأثير في الجماهير . ما ان وجدت هذه الوساطة ، حتى لم يعد في وسع هذه التوحيدية ان تصير دينا كونيا الا في العالم اليوناني ـ الروماني ، مستمرة في التطور ، لكي تذوب فيه نهائيا ، في ذخر الافكار التي كان هذا العالم قد توصل اليها .

# دليل الاسماء الواردة

**أندرسون** جيمس (١٧٣٩ ــ ١٨٠٨) : اقتصادي انكليزي ، راهص ريكاردو بالنسبة لنظرية الريع .

**أنطيوخوس الرابع** ابيفانوس Antiochus ملك سوريا من الاسرة السلوقية (١٧٥ ــ ١٦٣ ق.م.) .

**انطونيوس الصالح** Antonin le Pieux (تيطس ، اوريلوس ، فيلفيوس) (٩٦ ــ ١٦١) ، امبراطور روماني من ١٣٨ ــ ١٦١ .

**انجلهارد** مادلين فيليبين Engelhard (١٧٥٦ ــ ١٨٣١) : شاعرة مغمورة .

**أوتون** (ماركوس سالفيوس اوتو) Othon (٣٢ ــ ٦٩) : امبراطور روماني عام ٦٩ .

**أويرباخ** برتولد Auerbach (١٨١٢ ــ ١٨٨٢) : اديب ذو اتجاه ليبرالي ، أصبح فيما بعد مداحا لبسمارك .

**اورتس** ، جيامارا Ortes (١٧١٣ ــ ١٧٩٠) : راهب بندقي ، راهص الاقتصاد السياسي .

**اورينغزيب** Aureng-Zeb (١٦١٨ ــ ١٧٠٧) : كبير المغول من ١٦٥٨ الى ١٧٠٧ .

**أوغسطس** Auguste (كايوس ، يوليوس ، قيصر ، اوكتافيوس) (٦٣ ق.م. ــ ١٤ م) : اول امبراطور روماني .

**أوغسطين** Augustin ( اوريليوس اوغسطينوس) (٣٥٤ــ٤٣٠) : أسقف «هيبو» ( مدينة قديمة في شمال افريقيا) ، قديس وأب الكنيسة .

**أوكن** لوران Oken (من اسمه الحقيقي «اوكنفوس») (١٧٧٩ ــ ١٨٥١): عالم طبيعي وفيلسوف الماني للطبيعة .

**أوين** روبرت Owen (١٧٧١ــ١٨٥٨) : اشتراكي طوبوي انكليزي ؛ تبنى المفاهيم الفلسفية للمادويين الفرنسيين للقرن الثامن عشر .

**إيخرمان** جون بيتير Eckerman (١٧٩٢ ــ ١٨٦٤) : كاتب ، سكرتير خاص لـ «غوته» . مؤلف كتاب «محادثات مع غوته» .

**إيرينيه** Irénée (حوالي ١٣٠ ــ حوالي ٢٠٢) : يوناني من آسيا الصغرى ، أسقف ليون بدءاً من العام ١٧٧ . مؤلف سلسلة من الكتابات في الدفاع عن المسيحية .

**إيشهورن** جان البيرت فريدريك Eichhorn (١٧٧٩ ــ ١٨٥٦) : وزير بروسي للاديان (١٨٤٠ ــ ١٨٤٨) .

**إيفالد** ، جورج هنري Ewald (١٨٠٣ ــ ١٨٧٥) : فيلسوف ، مستشرق الماني ، كاتب مؤلفات حول التوراة .

***

**بابوف** غراكوس ( فرانسوا نويل ) Babeuf Gracchus (١٧٦٠ــ١٧٩٧) : ثوري فرنسي ، احد ممثلي الشيوعية الطوبوية ، منظم «مؤامرة المتساوين»؛ أعدم بالمقصلة .

**باربون** نيقولاس Barbon (حوالي ١٦٤٠ ــ ١٦٩٨) : طبيب واقتصادي انكليزي ، احد راهصي الاقتصاد السياسي البورجوازي الكلاسي .

**بارت** بول Barth (١٨٥٨ ــ ١٩٢٩) صحفي بورجوازي معادٍ للماركسية.

**بال** جون Ball : قس ريفي انكليزي، مبشر شعبي ، احد زعماء انتفاضة الفلاحين في انكلترا (انتفاضة وات تايلر عام ١٣٨١) ، أعدم عام ١٣٨١ .

**بالمرستون** هنري جون تامبل ، لورد Palmerston (١٧٨٤ــ١٨٦٥): ليبرالي انكليزي ، وزير الشؤون الخارجية (١٨٣٠ ــ ١٨٤١ و١٨٤٦ ــ ١٨٥١) ، سكرتير الدولة للداخلية (١٨٥٢) ورئيس الوزراء ١٨٥٥ ــ ١٨٥٨ ) .

**باكونين**ميشيل الكسندروفتش Bakounine (١٨١٤ ــ ١٨٧٦) : ثوري روسي هيغلي يساري في البدء ، ثم أصبح فوضويا معاديا للماركسية ؛ انتسب عام ١٨٦٩ الى الاممية الاولى . طرد منها لنشاطاته الانشقاقية .

**بايل** بيير Bayle (١٦٤٧ – ١٧٠٦) : صحفي وفيلسوف فرنسي . ريبي . عدو للميتافيزياء . لمعتقدية الكنيسة وللاوهام الدينية .

**برايت** . جـون Bright (١٨١١ – ١٨٨٩) : صناعي انكليزي . رجـل سياسي . نصير للمبادلة الحرة . احد مؤسسي الرابطـة المضادة للقوانين الخاصة بالحبوب .

**برودون** بيير جوزيـف Proudhon (١٨٠٩ – ١٨٦٥) : اشتراكي فرنسي . احد مؤسسي النظريات الفوضوية .

**برسيوس** فلاسيوس أولوس Persius (٣٤ – ٦٢) : هجاء روماني . رواقي .

**بروكنر** . جون Brukner (١٧٢٦ – ١٨٠٤) : كهنوتـي بروتستانتـي انكليزي .

**برونو** جيوردانو Bruno (١٥٤٨ – ١٦٠٠) : مفكر ايطالي كبير . مـادي وملحد . طوّر نظرية «كوبرنيك» في تنظيم الكون ، اعدم حرقا ، أدين في محكمة التفتيش بوصفه ملحدا .

**برنتانو** لوجو Brentano (١٨٤٤ – ١٩٣١) : اقتصادي الماني . يمثـل «اشتراكية الكرسي» .

**بريستلي** جوزيف Priestley (١٧٣٥ – ١٨٠٤) : كيميائي انكليزي . فيلسوف مادي .

**البطالسة** Ptolémée : اسم حملته سلالة من الامراء المصريين مـن اصل مكدوني .

**بطليموس** كلود Ptolémée (حوالي ٩٠ – ١٦٠) : عالم رياضيـات ، وعالم فلك يوناني ، مؤسس نظريـة منظومة مركزية الارض للعالم .

**بسمارك** الامـير أوتو Bismarck (١٨١٥ – ١٨٩٨) : رجل دولة الماني . جاء من صفوف النبالة العقاريـة الصغيرة . قاد في اتجاه رجعـي سياسة بلاده من ١٨٦١ الى ١٨٩٠ .

**بلان** لوي Blanc (١٨١١ – ١٨٨٢) : اشتراكي ومؤرخ بورجوازي صغير فرنسي . عضو في الحكومة الموقتة عام ١٨٤٨ . هاجر بعد ذلك حتـى العام ١٨٧٠ . خان «كومونة باريس» عام ١٨٧١ .

**بلانكـي** لويس أوغست Blanqui (١٨٠٥ – ١٨٨١) : ثوري فرنسي ، مدافع عن البروليتاريا خلال ثـورة ١٨٤٨ . دافع عن فكرة الاستيلاء على السلطة بواسطة تنظيم من المتآمرين ، نصير الدكتاتورية الثورية .

**بلوتارك** Plutarque (حوالي ٤٦ – حوالي ١٢٥) : مؤرخ يوناني ، كاتب تهذيبي . مؤلف سير شخصيات هامة في اليونان وروما .

**بلوخ** جوزيف Bloch محـرر مجلات اصلاحية المانية .

**بوتلروف** الكسندرميخائيلو فتش Butlerov (١٨٢٨–١٨٨٦) كيميائيروسي. احد مكتشفي نظرية بنيةالوحدة العضوية.

**بوخنر** لوي Buchner (١٨٢٤ – ١٨٩٩) : طبيب الماني ، معمم مسطح لعلوم الطبيعـة ، ممثل الماديـة الميكانية .

**بور** فرديناند كريستيـان Baur (١٧٩٢ – ١٨٦٠): لاهوتي بروتستانتي مؤسس مدرسة «توبنغه» ، استـاذ في «توبنغه» .

**بولي** أوغست دي Pauly (١٧٩٦ – ١٨٤١) : عالم لغة الماني ، ترجم مع آخرين كتابات «لوسيان» .

**بوكاس** جيوفاني Boccace (١٣١٣ – ١٣٧٥) : شاعر وانساني ايطالي .

**بوكلند** وليم Buckland (١٧٨٤ – ١٨٥٦) : عالم جيولوجي انكليزي .

**بولنغبروك** هنـري Bolingbroke سانت جـون (١٦٧٨ – ١٧٥١) : فيلسوف انكليزي . الهاني ، احـد زعماء حزب الـ «توري» (الاحرار) .

**بوهم** جاكوب Bohme (١٥٧٥ – ١٦٢٤) : حرفي ، فيلسوف صوفي ، في منظومته عناصر ديالكتية .

**بويـــــر** Bauer برونو (١٨٠٩ — ١٨٨٢) : احد قادة حركة الشبـــان الهيغليين ، جذري ، ناقد للتوراة ، مؤلف أعمال حول تاريخ المسيحيـــة الاولى الاولية .

**بيترون** Petrone بيترونيوس اربيتر (توفي عام ٦٦) : كاتب روماني .

**بيتي** سير وليام Petty (١٦٢٣ — ١٦٨٧) : اقتصادي واحصائـــي انكليزي ، مؤسس الاقتصاد السياسي الحديث، احد الباحثين الاكثر عبقرية والاكثر اصالة في ميدان الاقتصـاد (ماركس) .

**بـير** Baer كارل ارنست (١٧٩٢ — ١٨٧٦) : عضو الاكاديمية الروسية ، مؤسس علم الاجنة الحديث ؛ عالـم جغرافي .

**بيرتيلو** Berthelot مارسيلان بيير اوجين (١٨٢٧ — ١٩٠٧) : كيميائي فرنسي كبير ، مؤلف اعمال حـــول تركيبة المواد العضوية وحول تاريـخ الكيمياء .

**برسيوس** Persius فلاكوس اولوس (٣٤ — ٦٢) : هجاء روماني ، رواقي .

**بيرنشتايـــن** Bernstein ادوارد (١٨٥٠ — ١٩٣٢) : اشتراكـــي ديمقراطي في ١٨٧٢ ، أصبح ، منذ ١٨٩٨ ، رأس نزعة المراجعة .

**بيرنييه** Bernier فرانســـوا (١٦٢٥ — ١٦٨٨) : طبيب ورحالـة فرنسي .

**بيريغرينوس بروتوس** Péregrinus Proteus (من الباريوم على شاطىء الدردنيل ، بداية القرن الثاني) : عقل ديني مهووس .

**بيريكلس** Périclès (حوالي ٤٩٣ — حوالي ٤٢٩ ق.م.) : رجل دولـــة اثيني ، ساهم في توطيد الدولـــة الرقية .

**بيكر** Becker أوغست (١٨١٤ — ١٨٧١) : صحافي ، نصير «فايتلنغ» في الاربعينات .

**بيكون** Bacon فرنسيس (١٥٦١—١٦٢٦) : فيلسوف انكليزي ، مؤسس المادية الانكليزية ، سياسي ومؤرخ .

**بيناري** Benary فرديناند (١٨٠٥ — ١٨٨٠) : مستشرق ، استاذ فـــي جامعة برلين ، مؤلف اعمال حـــول التوراة .

**بينتام** Bentham جيريمي (١٧٤٨ — ١٨٣٢) : سوسيولوجي بورجـوازي انكليزي ، منظر الانتفاعوية .

**بينجيل** Bengel جـــان البرت (١٧٤٨ — ١٨٣٢) : لاهوتـــــي بروتستانتي .

★★★

**تاسيت او تاسيتوس** Tacite بيبليوس كورنيليوس (حوالي ٥٥ — حوالـــي ١١٧) : مؤرخ روماني .

**تامبل** Temple سير وليم (١٦٢٨ — ١٦٩٩) : دبلوماســـي انكليـزي ، ميركانتيلي ، مؤلف سلسلة مـــن الكتابات الاقتصادية .

**ترتيليـــان** Tertullien كوينتوس ، سيبتيموس ، فلورنس (حوالي ١٦٠ — ٢٢٠) : لاهوتي مسيحي ، ظلامي ، عدو للعلم .

**تندال** Tyndal جون (١٨٢٠ — ١٨٩٣) : فيزيائي تجريبي ومعمم مبســـط انكليزي ، يقف فـــي اعمال البحث العيانية على الارض المادية وينكـــر امكانية تدخل قوى فوق طبيعية في تطور الطبيعة .

**توريشيللي** Torricelli ايفانجيليستا (١٦٠٨ — ١٦٤٧) : عالم فيزيــــاء ورياضيات ايطالي ، من تلاميـــذ «غاليله» .

**توكر** Tucker جوزيا (١٧١٢—١٧٩٩) : كاهن انكليزي ، اقتصادي ؛ راهص «آدم سميث» .

**تيلر** Tyler وات (اغتيل عام ١٣٨١) : زعيم الانتفاضة الفلاحية الكبرى في انكلترا عام ١٣٨١ .

**توونسند** Townsend جوزيف (١٧٣٩ – ١٨١٦) : كاهن انكليزي ، جيولوجي وسوسيولوجي « يجمل الفقر بوصفه الشرط الضروري للثروة» (ماركس) .

**تيبريوس** Tibère (تيبريوس كلوديوس نيرو) (٤٢ ق.م – ٣٧ ب.م.) : امبراطور روماني من ١٤ الى ٣٧ ب.م.

**تيير** Thiers لوي ادولف (١٧٩٧ – ١٨٧٧) : مؤرخ وسياسي فرنسي شغل في كثير من الاحيان منصب الوزير من ١٨٣٢ الى ١٨٧١ ، رئيس الجمهورية (١٨٧١ – ١٨٧٣) ؛ جلاد «كومونة باريس» .

**تييري** Thierry اوغسطين (١٧٩٥– ١٨٥٦) : مؤرخ ليبيرالي بورجوازي فرنسي لفترة «عودةالملكية» (١٨١٤– ١٨٣٠) ، اخذ بالاعتبار حتى نقطة معينة في اعماله حول تاريخ فرنسا اهمية المصالح المادية وصراعالطبقات.

★★★

**جوشن دي فيور** Joachimde Fiore (١١٣٢ – ١٢٠٢) : صوفي ايطالي ، نشر فكرة عصر الانجيل الخالد .

**جـول** Joule جيمس بريسكوت (١٨١٨ – ١٨٨٩) : عالم فيزياء انكليزي .

**جوليان** Julien فلافيوس كلوديوس (حوالي ٣٣١–٣٦٣) امبراطور روماني من ٣٦١ – ٣٦٣ .

**جيبون** Gibbon ادوارد (١٧٣٧ – ١٧٩٤) : مؤرخ انكليزي، مؤلف كتاب من عدة مجلدات حول انحطاطوانهيار الامبراطورية الرومانية .

★★★

**حافظ** Hafiz شمس الدين محمد (حوالي ١٣٠٠ – ١٣٨٩) طاجكستاني المولد . شاعر فارسي هام . من كلاسيي الادب الطاجكي .

★★★

**جان لوكونستان** Jean le Constant (١٤٦٨ – ١٥٣٢) : دوق الساكس ؛ بدءاً من ١٥٢٥ ، امير الساكس المنتخب .

**جانسن** Jansen كورنيليوس (١٥٨٥ – ١٦٣٨) : كاهن هولندي ، مؤسس الجانسنية .

**جانبليك** Jamblique (مات حوالي عام ٣٣٣) : فيلسوف فترة انحطاط الامبراطورية الرومانية ، من أتباع الافلاطونية الجديدة وصوفي .

**جورج الرابع** Georges IV (١٧٦٢ – ١٨٣٠) : ملك انكلترا وهانوفر من ١٨٢٠ الى ١٨٣٠ .

**جورج**الغني(او الملتحي) Georges le Riche (١٤٧١ – ١٥٣٩) : دوق الساكس بدءاً من ١٥٠٠ ، عدو الاصلاح الديني .

★★★

**دارون** Darwin تشارلز روبرت (١٨٠٩ – ١٨٨٢) : عالم طبيعيات كبير انكليزي ، مؤسس نظرية تطور انواع النباتات والحيوانات .

**دافيز** Davies شارل موريس (١٨٢٨ – ١٩١٠) : قس انكليزي .

**دالتون** Dalton جون (١٧٦٦ – ١٨٤٤): عالم فيزياء وكيمياء انكليزي، مؤسس نظرية الذرات في الكيمياء .

**درابر** Draper جون وليم (١٨١١ – ١٨٨٢) : فيسيولوجي وكيميائي امريكي ، مؤرخ للحضارات، ذو اتجاه بورجوازي ليبيرالي .

**دزرائيلي** Disraeli بينجامان ، كونت بيكونسفيلد (١٨٠٤ – ١٨٨١): رجل دولة وكاتب انكليزي ، زعيم حزب المحافظين ، رئيس الوزراء (١٨٦٠ ومن ١٨٧٤ الى ١٨٨٠) .

**دوبـوي** Dupuis شارل فرانسوا (١٧٤٢ ـ ١٨٠٩) : فيلسوف فرنسي من القرن الثامن عشر .

**دودويل** Dodwell هنري (توفي عام ١٧٨٤) : فيلسوف مادي انكليزي ، شكك بحقيقة مضمون التوراة ونقد أساطير الشهداء المسيحيين .

**دورر** Durer البـــرت (١٤٧١ ـ ١٥٢٨) : رسام كبير ونقّاش ، نحات ومعماري الماني .

**دولينجير** Dollinger اغنـــاس (١٧٩٩ ـ ١٨٩٠) عالم لاهوت الماني ؛ كان بصورة موقتة على راس حركـة الكاثوليك القدماء ، التي كانت ترفض معتقد المنعة البابوية .

**دومير** Daumer جورج فريدريـــك (١٨٠٠ ـ ١٨٧٥) : كاتب المانـــي ، مؤلف أعمال حول تاريخ الدين .

**دون سكوت** Duns Scot جـــون (حوالي ١٢٦٥ ـ ١٣٠٨) : فيلسوف وسطوي ، سكولاستي ، مدافع عـن الاسموية .

**دون كيخوت** Don Quichotte «الفارس ذو المحيا الحزين» : بطـل رواية الفروسية لـ «سيرفانتس» .

**دوهرينغ** Duhring شارل أوجين (١٨٣٣ ـ ١٩٢١) : مادي تبسيطـي مبتذل ، وضعي انتقائي ، ايديولوجي الاشتراكية البورجوازية الصغـــيرة الرجعية ، عدو للماركسية .

**ديتسغن** Dietzgen جوزيف (١٨٢٨ـ ١٨٨٨) : دباغ ، فيلســوف مادي ، اشتراكي ديمقراطي وشيوعي؛ توصل من تلقاء نفسه الى مبادىء الماديـــة الديالكتية .

**ديدرو** Diderotديني (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) : فيلسوف فرنسي ، نصير مادية ميكانيـــة ، ملحد ؛ احـــد ايديولوجيي الثورة الفرنسية ؛ اكثــر الانسيكلوبيديين اهمية .

**ديزامي** Dezamy تيـــودور (١٨٠٣ ـ ١٨٥٠) : صحفي فرنسي ، مادي ؛ مثل الاتجاه الثوري للشيوعية الطوبوية .

**ديفو** Defoe دانييل (حوالي ١٦٦٠ ـ ١٧٣١) : كاتب وصحفـــي انكليزي ، عالج مسائل الاقتصاد ، السياسة ، التاريخ والدين ؛ مؤلـــف روايــــة «روبنسون كروزو» (١٧١٩) .

**ديكارت** Descartes رينيه (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) : فيلسوف ، عالم رياضيات وطبيعيات فرنسي ؛ في الفلسفة ، كان فكرانيا؛ كان يمثل المادية الميكانية في الرياضيات .

**دينجيلستيد** Dingelstedt فرانز ، بارون دي (١٨١٤ ـ ١٨٨١) : شاعر وكاتب ؛ في الاصل ممثل الشعـــر السياسي البورجوازي الصغير ؛ بدءاً من أواسط الاربعينات ، مؤلـــف مأساوي للبلاط ؛ فوضوي .

**ديمقريطس** Démocrite (حوالي ٤٦٠ ـ حوالي٣٧٠ ق.م.): فيلسوف يوناني مادوي كبير ، أحد مؤسســي الذروية .

**ديوجين** Diogène (النصف الاول من القرن الثالث) : مؤلف عدد مـــن المنتخبات التي تتضمن عددا كبيرا من الوقائع حول فلاسفة العصر القديم .

***

**رابمان** Rabman فرانز : مبشر في المانيا الجنوبية ، من انصار «توماس مونزر» ، أعدم عام ١٥٢٥ لاشتراكه بانتفاضة الفلاحين والعامة في «الغابة السوداء» .

**روبسبيير** Robespierre مكسيميليان فرانسوا إيزيـــدور دي (١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) : عضو في الائتلاف ، زعيـم اليعاقبة ورئيس الحكومة الثوريـــة عام ١٧٩٤ .

**روبينيه** Robinet جـــان بابتيست رينيه (١٧٣٥ ـ ١٨٢٠) : فيلسوف مادوي فرنسي .

**رومر** Raumer فريدريك دي (١٧٨١ - ١٨٧٣): مؤرخ بورجوازي، استاذ جامعي في « بريسلو » و «برلين» .

**روسو** Rousseau جان جاك (١٧١٢- ١٧٧٨) : كاتب وفيلسوف عصر الانوار ، ديمقراطي ، ايديولوجي البورجوازية الصغيرة في الفترة التي سبقت الثورة البورجوازية في فرنسا، ممثل التأليهوي في الفلسفة .

**روشوو** Rochow غوستاف ادولف روك دي (١٧٩٢ - ١٨٤٧) : ممثل نبلاء الريف البروسيين الرجعيين ، وزير بروسي للداخلية (١٨٣٤ - ١٨٤٢ ) .

**رونجه** Ronge جان (١٨١٣ - ١٨٨٧) : كاهن الماني ، مؤسس وقائد الحركة الكاثوليكية الالمانية التي كانت تجهد لتكييف الكاثوليكية مع حاجات البورجوازية الالمانية .

**رينان** Renan ارنست (١٨٢٣ - ١٨٩٢) : فيلسوف مثالي فرنسي ، مؤلف دراسات حول تاريخ المسيحية.

**زولنر** Zollner جان شارل فريدريك (١٨٣٤ - ١٨٨٢) : عالم فيزيائي وفلكي الماني، كان يمارس الارواحية.

**زيسكا** Ziska جان (حوالي ١٣٦٠ - ١٤٢٤) : جنرال وسياسي تشيكي ، احد زعماء الحركة «الهوسية» ، بطل قومي .

**زيكنغن** Sickingen فرانتس (١٤٨١- ١٥٢٣) : فارس ، زعيم عسكري وسياسي لانتفاضةالنبلاء عام ١٥٢٢.

**ساخس** Sachs هانس (١٤٩٤ - ١٥٧٦) اسكافي من «نورمبورغ» ، شاعر ومؤلف موسيقي حقبة الاصلاح الديني ، رئيس جوقة غنائية ، نصير «لوثر» .

**سان سيمون** Saint - Simon كلود هنري ، كونت دي (١٧٦٠ - ١٨٢٥) : اشتراكي طوبوي فرنسي .

**سافير** Saphir موريتز غوتليب (١٧٩٥ - ١٨٥٨) : كاتب نمساوي ، مؤلف أشعار هزلية وهجائية .

**سانكي** Sankey ايرا دافيد (١٨٤٠ - ١٩٠٨) : انجيلي اميركاني، احد منظمي الحركة «الاحيائيوية» .

**سبارتاكوس** Spartacus (مات عام ٧١ ق.م.) : مصارع روماني ، زعيم انتفاضة الرقيق عام ٧٣ - ٧١ ق.م. في عهد الجمهورية الرومانية .

**سبينوزا** Spinoza باروخ دي (١٦٣٢ - ١٦٧٧) : فيلسوف مادوي هولندي .

**سترابون** Strabon (حوالي ٦٣ ق.م. - ٢١) : عالم جغرافي واتنوغرافي يوناني .

**ستراهان** Strahan وليم (١٧١٥ - ١٧٨٥) : طابع وناشر انكليزي .

**ستيوارت** Stuart : سلالة ملوك ايكوسيين (بدءاً من ١٣٧١) وانكليز (من ١٦٠٣ - ١٧١٤) .

**ستيوارت** Stewart سير جيمس (١٧١٢ - ١٧٨٠) : اقتصادي انكليزي ، مذهبههو «التعبير العقلاني عن الميركانتيلية» (ماركس) .

**سقراط** Socrate (حوالي ٤٦٩ - حوالي ٣٩٩ ق.م.): فيلسوف مثالي يوناني ، ايديولوجي المجتمع الرقي .

**سميث** Smith آدم (١٧٢٣ - ١٧٩٠ ) : اقتصادي وفيلسوف انكليزي ، اعطى الاقتصاد الكلاسي صيغته المعدّة المنضَجة .

**سولي** Sully مكسيميليان دي‌بيتوم، بارون دي روسني ، دوق (١٥٦٠ -

**سوتبر** Soetbeer جورج ادولف (١٨١٤ - ١٨٩٢) : اقتصادي الماني، احصائي في الشؤون المالية والنقد .

**سيرفيه** Servet ميفيل (١٥١١ - ١٥٥٣) : طبيب اسباني حقق اكتشافات هامة في ميدان الدورة الدموية ؛ مصلح في جنيف ، احرق بوصفه زنديقا بتحريض من «كالفن» لانه كان مفكرا حرا .

١٦٤١) الهيغنوت ، وزير مالية هنري الرابع ، راهص الفيزيوقراطيين برؤياته الاقتصادية .

**سيكي** Secchi انجيلو (١٨١٨ ـ ١٨٧٨): عالم فلكي ايطالي، جزويتي.

**سينيكا** Sénèque (حوالي ٤ ق.م. ـ ٦٥) : فيلسوف روماني ، مؤسس المدرسةالرواقية «الجديدة»، مارس علم الاخلاق المثالي الرجعي الذي صاغه تأثيرا على تكوّن المعتقد المسيحي .

★★★

**شابيلير** Schappeler كريستوف (١٤٧٢ ـ ١٥٥١): عالم لاهوت الماني، نصير «مونزر» ، زعيم حركة عوام المدن مدينة «ميمنجن» .

**شارل الاول** Charles 1er (١٦٠٠ ـ ١٦٤٩): ملك بريطانيا العظمىوايرلندا من عام ١٦٢٥ الى ١٦٤٩ ، أعدم خلال الثورة الانكليزية .

**شافتسبوري** Shaftesbury انطوني آشلي ـ كوبر الثالث ، كونت دي (١٦٧١ ـ ١٧١٣) : فيلسوف وسياسي انكليزي . تأليهوي ، من الهويغ .

**شافتسبوري** Shaftesbury انطوني آشلي ـ كوبر السابع (١٨٠١ ـ ١٨٨٥) : سياسي انكليزي . من حزب الـ «توري» (حزب المحافظين).

**شالميرس** Chalmers توماس (١٧٨٠ ـ ١٨٤٧) : عالم لاهوت واقتصاد إيكوسي ، نصير متعصب لـ «مالثوس» .

**شتاركه** Starcke شارل نيكولاس (١٨٥٨ ـ ١٩٢٦) : فيلسوف وسوسيولوجي دانيمركي .

**شتراوس** Strauss دافيد فريدريك (١٨٠٨ ـ ١٨٧٤): عالم لاهوت الماني، من الشبان الهيغليين ، مؤلف «حياة يسوع» .

**شتوركه** Storch نيكولاس (توفي عام ١٨٢٥): جواخ من مدينة«زفيكو»، زعيم «تجديديي العماد» المحليين .

**شتولبيرغ** Stolberg بودو ، كونت دي (١٤٦٧ ـ ١٥٣٨) : مستشار امبراطوري ، رئيس اديرة في «مغديبورغ» و «هالبرستادت» ومستشار الكردينال «ألبرت» .

**شتيرنبرغ** Sternberg الكسندر ، بارون دي أونجرن (١٨٠٦ ـ ١٨٦٨): روائي المانيرجعي، قدمالارستقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى في صورة مثالية .

**شتيرنر** stirner ماكس (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) : من الشبان الهيغليين ، احد ايديولوجيي الفردوية البورجوازية والفوضوية .

**شميدت** Schmidt كونراد (١٨٦٣ ـ ١٩٣٢) : اشتراكي ـ ديمقراطي الماني ، كانطي جديد ، احد مؤسسي الجريدة المراجعية .

**شومان** Schoman جورج فريدريك (١٧٩٣ ـ ١٨٧٩) : فيلسوف الماني ، مؤرخ للعصر القديم .

**شيشرون** Ciceron ماركوس طوليوس (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م.): خطيب روماني، سياسي وكاتب .

**شيلّر** Schiller فريدريك دي (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) : شاعر الماني ، مأساوي ومؤرخ ، مؤلف «قطاع الطرق» و«غليوم تل» ، الخ .

**شيلينغ** Shylock فريدريك غليوم جوزيف دي (١٧٧٥ ـ ١٨٦٤) : فيلسوف الماني، مؤلف منظومة فلسفية فكرانية ذاتية .

**شيلوخ** Shiylock : شخصية من شخصيات رواية «تاجر البندقية» لـ «شكسبير» .

★★★

**طالس** Thalès دي ميليه (حوالي ٦٢٤ حوالي ٥٤٧ ق.م.) : فيلسوف مادوي يوناني .

**غاسندي** Gassendi بيير (١٥٩٢ — ١٦٥٥) : فيلسوف فرنسي مشهور، مادوي ، نصير وداعية نظرية ابيقور الذرية .

**غالـه** Gall جون غوتفريد (١٨١٢ — ١٩١٠) عالم فلكي الماني ، اكتشف عام١٨٤٦ الكوكب «نبتون».

**غالـه** Gall فرانسوا جوزيف (١٧٥٨— ١٨٢٨) طبيب وعالم تشريح الماني ، مؤسس «الفراسية» .

**غالبـا** Galba سيرفيوس سولبيسيوس (حوالي ٥ ق.م.—٦٩): امبراطور روماني من ٦٨ الى ٦٩ .

**غاليله** Galilée (١٥٦٤ — ١٦٤٢) عالم فيزيائي وفلكي ايطالي ، احد مؤسسي علم الطبيعة في العصر الحديث .

**غرانفيل** Granville جورج ليفيسون غوور الثاني ، كونت دي (١٨١٥ — ١٨٩١) : لبيرالي انكليزي وزير للشؤون الخارجية (١٨٥١—١٨٥٢ ، ١٨٧٠ — ١٨٧٤ و١٨٨٠ — ١٨٨٥ ) ووزير للمستعمرات (١٨٦٨ — ١٨٧٠ و ١٨٨٦ ) .

**غروتيوس** Grotius هوغو (١٥٨٣— ١٦٤٥) : عالم هولندي ، حقوقي ، احد مؤسسي النظرية البورجوازية في الحقوق الطبيعية .

**غروسفينور** Grosvenor روبرت لورد (١٨٠١ — ١٨٩٣) : ارستقراطي انكليزي ، ينتمي الى الجناح اليميني من حزب الاحرار .

**غروف** Grove سير وليم‌روبرت (١٨١١ — ١٨٩٦) : حقوقي وعالم فيزياء انكليزي .

**غرون** Grun كارل (١٨١٧—١٨٨٧): صحفي بورجوازي صغير ؛ في الاربعينات كان الممثل الرئيسي «للاشتراكية الحقة» .

**غريبل** Grebel كونراد (توفي عام ١٥٢٦) : انساني الماني ، من انصار «توماس مونزر» .

**غفرورر** Gfrorer اوغست فريدريك (١٨٠٣ — ١٨٦١) : مؤرخ ، ممثل مدرسة (توبنغه) .

**غوتزكوف** Gutzkow كارل (١٨١١— ١٨٧٨) : كاتب الماني ، احد قادة جماعة «المانيا الفتاة» .

**غوريس** Gorres جان جوزيف دي (١٧٧٦ — ١٨٤٨) : كاتب الماني ذو اتجاه رومنسي ورجعي ، فيلسوف ومؤرخ ، نصير للكاثوليكية .

**غولد** Gould جي (١٨٣٦—١٨٩٢): راسمالي امريكي كبير .

**غـي** Gay جول (١٨٠٧ — ١٨٧٦ حوالي) : شيوعي طوبوي فرنسي .

**غيزو** Guizot فرانسوا بيير غيوم (١٧٨٧ — ١٨٧٤) : مؤرخ فرنسي مدافع عن مصالح الراسمال المالي ، وجه واقعيا ، من ١٨٤٠ الى١٨٤٨ ، سياسة فرنسا الداخلية والخارجية.

***

**فاندربيلت** Vanderbilt كورنيليوس (١٨٤٣ — ١٨٩٩) : مليونير امريكاني.

**فالدو** Waldau (١٨٢٥ — ١٨٥٥) : كاتب الماني .

**فاندرلنت** Vanderlint جاكوب (توفي عام ١٧٤٠) : اقتصادي انكليزي .

**فارلي** Varley كرومويل فليتوود (١٨٢٨ — ١٨٨٣) : مهندس كهربائي انكليزي .

**فالميراير** Fallmerayer جاكوب فيليب (١٧٩٠ — ١٨٦١) : مؤرخ ورحالة الماني .

**فاشسميث** Wachsmuth غيوم (١٧٨٤ — ١٨٦٦) : مؤرخ الماني ، استاذ جامعي في ليبزيغ ، مؤلف سلسلة من الاعمال حول تاريخ العصر القديم واوروبا .

**فايتلنغ** Weitling غليوم (١٨٠٨ — ١٨٧١) : خياط ، اشتراكي طوبوي الماني .

**فايلكه** Wilke كريستيان غوتليب (١٧٨٨ ـ ١٨٥٤) : فيلسوف ومؤرخ الماني عني بأبحاث حول تاريخ الاناجيل .

**فرانكلين** Franklin ، بينجامان (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠) : عالم وسياسي امريكي ، لعب دورا كبيرا في حركة الاستقلال الامريكية .

**فريديريك** الثالث Frédéric III لوساج (١٤٦٣ ـ ١٥٢٥) : امير الساكس المقترع من ١٤٨٦ ـ ١٥٢٥ .

**فريديريك الثاني** Frédéric II (الملقب ب «الكبير») (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) : ملك بروسيا من ١٧٤٠ الى ١٧٨٦

**فريديريك غليوم الثالث** Frédéric Guillaume III (١٧٧٠ ـ ١٨٤٠) : ملك بروسيا من ١٧٩٧ ـ ١٨٤٠ .

**فريديريك غليوم الرابع** Frédéric Guillaume IV (١٧٩٥ ـ ١٨٦١) : ملك بروسيا ١٨٤٠ الى ١٨٦١ .

**فلافيوس** Flavius : اسم عائلةرومانية من العوام ؛ الفلافيون : سلالة من الاباطرة الرومان في سنوات ٦٩ الى ٩٦ : فسباسيان ، تيتس ، دوميتيان .

**فورستر** Forster شارل (١٧٩٠ ـ ١٨٧١) : عالم لاهوت ومستشرق انكليزي .

**فورستر** Forster وليم ادوارد (١٨١٩ ـ ١٨٨٦) : صناعي أنكليزي، احد زعماء الحزب الليبيرالي ، عضو في مجلس العموم ، موظف حكومي كبير .

**فورييه** Fourier فرانسوا ماري شارل (١٧٧٢ ـ ١٨٣٧) : اشتراكي طوبوي فرنسي .

**فوغت** Vogt كارل (١٨١٧ ـ ١٨٩٥) : عالم طبيعيات ، مادوي .

**فولتير** Voltaire فرانسوا ماري آروويه الملقب (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) : كاتب ، مؤرخ وفيلسوف (تأليهوي)؛ ساهم بنقده ونضاله ضد الكنيسة والحكم المطلق في التحضير ايديولوجيا للثورة في فرنسا .

**فولف** Wolff غاسباز فريدريك (١٧٣٣ ـ ١٧٩٤) : اكاديمي روسي ولد في المانيا ؛ عالم بيولوجيا ، أعد نظرية التخلق المتعاقب ( التطور التدريجي بدءاً من أشكال اولية) .

**فولف** Wolff كريستيان، باروندي (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤) : عالم رياضيات ؛ مثالي، نظَم وعمم نظرية «لايبنتس».

**فولناي** Volney قسطنطين فرانسوا شاسبيف ، كونت دي (١٧٢٥ ـ ١٨٢٠) : رحالة فرنسي، اتنوغرافي، كاتب سياسي وفيلسوف .

**فويرباخ** Feurbach لودفيغ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) : فيلسوف مادوي الماني ما قبل الماركسية .

**فيتيليوس** Vitellius أولوس (١٥ ـ ٦٩) امبراطور روماني عام ٦٩ .

**فيخته** Fichte جوهان غوتليب (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) : فيلسوف ، ممثل للفكرانية الالمانية .

**فيدوك** Vidocq فرانسوا أوجين (١٧٧٥ ـ ١٨٥٧) : مغامر وشرطي فرنسي .

**فيرشو** Virchow رودولف دي (١٨٢١ ـ ١٩٠٢) : فيسيولوجي وباتولوجي الماني ، عدو لنظرية «دارون» في التطور ؛ في السياسة، كان في البدء ليبيراليا معتدلا ؛ بعد السبعينات أصبح رجعيا وعدوا محموما للاشتراكية ، نائب في الرايخشتاغ (١٨٨٠ ـ ١٨٩٣) .

**فيكو** Vico جان بابتيست (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤ ) : سوسيولوجي وقانوني ايطالي حاول انيبرهن قوانينالسيرورة التاريخية .

**فيليب الثاني** Philippe II (حوالي ٣٨٢ ـ ٣٣٦ ق.م.) : ملك مكدونيا (من ٣٥٩ ـ ٣٣٦ ق.م.) ، والد الاسكندر الكبير .

**فيلون الاسكندري** Philon d'Alexandrie

(حوالي ٢٠ ـ حوالي ٥٤) : الممثل الرئيسي للفلسفة الدينية اليهودية ـ الاسكندرانية في بداية القرن الاول ؛ كان لهذا الفيلسوف تأثير كبير على تكوّن الايديولوجيا المسيحية .

**فيهي** Wehe جان جاك : راهب الماني ، احد زعماء حرب الفلاحين ؛ نصير «مونزر» .

★★★

**قيصر** Cesar كايوس يوليوس (حوالي ١٠٠ ـ ٤٤ ق.م.) : جنرال ورجل دولة روماني .

**قسطنطين الاول** (الكبير) Constantin 1er كايوس فلافيوس فاليريوس (حوالي ٢٧٤ ـ ٣٣٧) : امبراطور روماني من ٣٠٦ الى ٣٣٧ .

★★★

**كابانيس** Cabanis بيير جان جورج (١٧٥٧ ـ ١٨٠٨) : طبيب فرنسي ، ممثل المادوية الفلسفية .

**كابيه** Cabet إتيين (١٧٨٨ـ١٨٥٦) : صحافي فرنسي ، احد ممثلي الشيوعية الطوبوية .

**كارترايت** Cartwright إدموند (١٧٤٣ ـ ١٨٢٣) : كاهن ريفي ، مخترع انكليزي معروف .

**كارير** Carrière موريس (١٨١٧ ـ ١٨٩٥) : فيلسوف فكراني ؛ استاذ جامعي لعلم الجمال في «هايدلبرغ» .

**كالفن** Calvin جان (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) : مؤسس البروتستانتية السويسرية ، الفرنسية والهولندية .

**كاليغولا** Caligula كايوس سيزار (١٢ـ٤١) : امبراطور روماني من ٣٧ الى ٤١ .

**كامبانيلا** Campanelle توماس (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩) : فيلسوف ايطالي، واحد من أوائل كتاب الشيوعية الطوبوية ، عانى اضطهادات الكنيسة الكاثوليكية بسبب مفاهيمه التقدمية في ميداني الدين والسياسة .

**كانتييون** Cantillon ريشارد (١٦٨٠ـ١٧٣٤) : اقتصادي انكليزي، رائد الفيزيوقراطيين .

**كانط** Kant عمانويل (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) : استاذ جامعي في «كونيفسبرغ» ، احد اكبر فلاسفة العصر الحديث ؛ خالق ما يطلق عليه اسم «الفكرانية النقدية» .

**كبلر** Képler جان (١٥٧١ ـ ١٦٣٠): عالم فلكي الماني ؛ اكتشف ، على اساس مذهب كوبرنيك ، قوانين حركة الكواكب .

**كتيلر** Ketteler ولهلم عمانويل ، بارون دي (١٨١١ ـ ١٨٧٧) : أسقف مايانس .

**كروجه** Krug ولهلم تروغو (١٧٧٠ـ ١٨٤٢) : فيلسوف فكراني الماني .

**كروكس** Crookes سير وليم (١٨٣٢ ـ ١٩١٩) : عالم كيميائي وفيزيائي انكليزي .

**كرومويل** Cromwell اوليفر (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨): زعيم البورجوازية خلال الثورة الانكليزية ؛ من ١٦٥٣ ـ ١٦٥٨، اصبحاللورد الوصيعلى عرش انكلترا ، ايكوسيا وايرلندا .

**كلارك** Clarke صامويل (١٦٧٥ ـ ١٧٢٩) : عالم لاهوت وفيلسوف انكليزي .

**كلوبستوك** Klopstock فريديريك غوتلييب (١٧٢٤ ـ ١٨٠٣) : شاعر ، احد أوائل ممثلي الفلسفةالبورجوازية لعصر الانوار في المانيا .

**كلود** Claude طيبريوس نيروجيرمانيكوس (١٠ ق.م ـ ٥٤): امبراطور روماني .

**كنيغه** Kniggé أدولف ، بارون دي (١٧٥٢ ـ ١٧٩٦) : كاتب الماني .

**كوب** Kopp هيرمان فرانز موريتز (١٨١٧ ـ ١٨٩٢) : كيميائي الماني .

**كوبدن** Cobden ريتشارد (١٨٠٤ – ١٨٦٥) : صناعي انكليزي للقطنيات ، سياسي ليبيرالي ، نصير المبادلة الحرة . أحد مؤسسي الرابطة ضد قوانين الحبوب .

**كوبرنيك** Copernic (١٤٧٣–١٥٤٣): فلكي بولوني كبير ، مؤسس المنظومة شمسية المركز لحركة الكواكب .

**كوبن** Koppen شارل فريديريك (١٨٠٨ – ١٨٦٣) : صحافي ومؤرخ راديكالي الماني ، من انصار مذهب الهيغلية الشابة .

**كورنواليس** Cornouailles ، دوقدي: شخصية من مسرحية شيكسبير «الملك لير» .

**كوفييه** Cuvier بارون دي (١٧٦٩ – ١٨٣٢) : عالم بالحيوان ، عالم تشريح وعالم إحاثي ، فرنسي .

**كولنز** Collins انطوني (١٦٧٦ – ١٧٢٩) : فيلسوف انكليزي ، انكر المعتقد الديني حول خلود الروح .

**كوفاليفسكي** Kovalewski مكسيم مكسيموفتش (١٨٥١ – ١٩١٦) : سوسيولوجي ، مؤرخ ، حقوقي بورجوازي روسي ؛ عرف بابحاثه حول المجتمع البدائي .

**كومودیان** Commodien (القرن الثالث): شاعر مسيحي باللغة اللاتينية، وصل الينا اثنان من مؤلفاته ذات المضمون الديني الموجهة ضد الوثنيين .

**كوندورسيه** Condorcet ماري كاريتا، مركيز دي (١٧٤٣ – ١٧٩٤) : سوسيولوجي فرنسي، كان قريبا من «الجيرونديين» خلال الثورةالفرنسية.

كوندياك Condillac إتيين بونو دي (١٧١٥ – ١٧٩٤) : فيلسوف حسوي فرنسي ، نصير «لوك» .

**كونز** Kunze اوغست : كتب عام ١٨٤٨ مقالات وكتابات حول الاوضاع الاجتماعية السياسية والثقافية في فرنسا .

**كوهلمان** Kuhlman جورج : عميل سري للحكومة النمساوية ؛ شرلطان كان يزعم انه نبي ؛ نشر بين انصار « فايتلنغ » في سويسرا أفكار «الاشتراكية الحقة» .

**كووارد** Coward وليم (حوالي ١٦٥٦ – ١٧٢٥) : طبيب ، فيلسوف مادوي انكليزي ، أنكر خلود الروح ووجود جوهر غير مادي .

**كيسني** Quesnay فرانسوا (١٦٩٤ – ١٧٧٤) : طبيب واقتصادي فرنسي ، مؤسس مذهب الفيزيوقراطيين .

★★★

**لابلاس** Laplace بيير سيمون ، مركيز دي (١٧٤٩ – ١٨٢٧) : عالمرياضيات فرنسي ، عالم فلك وفيزياء .

**لافارغ** Lafargue بول (١٨٤٢–١٩١١): داعية ماركسي في فرنسا ، احد مؤسسي الحزب العمالي الفرنسي ، صهر ماركس .

**لافوازييه** Lavoisier انطوان لوران (١٧٤٣ – ١٧٩٤) : عالم فرنسي .

**لامارك** Lamarck جان باتيست دي (١٧٤٤ – ١٨٢٩) : عالم طبيعيات فرنسي ، تطوري ، راهص دارون .

**لاميتري** La Mettrie جوليان اوفراي دي (١٧٠٩ – ١٧٥١) : طبيب فرنسي ، فيلسوف ، مدافع عن المادوية الميكانية .

**لامينيه** Lamennais فيليسيتيهروبرت دي (١٧٨٢ – ١٨٥٤) : كاهن فرنسي، احد ايديولوجيي الاشتراكية المسيحية .

**لانجه** Lange يواكيم (١٦٧٠ – ١٧٤٤) : عالم لاهوت تقوي الماني ، استاذ جامعي في هاله ، رجعي .

**لايل** Lyell سير تشارلز (١٧٩٧ – ١٨٧٥) : عالم جيولوجي انكليزي ، مؤسس نظرية التطور في ميدان الجيولوجيا .

**لايبنتس** Leibniz غوتفريد ولهلم، بـارون دي (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) : فيلسوف الماني ، فكراني ، موضوعي، عالم رياضيات وفيزياء .

**لوثر** Luther مارتن (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) : راهب اوغسطي الماني ، مصلح ديني .

**لوروا** Le Roy هنري (١٥٩٨ ـ ١٦٧٩) : طبيب وفيلسوف هولندي، احد أوائل المدافعين عن المادوية الميكانية .

**لوفيرييه** Leverrier أيربان جان جوزيف (١٨١١ ـ ١٨٧٧) : عالم فلكي فرنسي .

**لوسيان** Lucien de Samosate (حوالي ١٢٠ ـ حوالي ١٨٠) : كاتب يوناني، ملحد .

**لوك** Locke جون (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) : فيلسوف حسوي انكليزي ، ثنوي .

**لوقيانوس** Lucrèce تيتوس (حوالى ٩٦ ـ ٥٥ ق.م.) : فيلسوف وشاعر يوناني مشهور ؛ مادوي .

**لوكه** Lucke غوتفريد كريستيان فريديريك (١٧٩١ ـ ١٨٥٥) : عالم لاهوت بروتستانتي الماني ، استاذ جامعي في «غوتنجه» .

**لينيه** Linné شارل دي (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) : عالم طبيعيات سويدي ، مؤلف اول تصنيف منهجي للنباتات والحيوانات .

★★★

**مادلر** Madler جان هنري دي (١٧٩٤ـ ١٨٧٤) : عالم فلكي الماني .

**مارك أوريل** Marc Aurèle (١٢١ ـ ١٨٠) : امبراطور روماني من ١٦١ ـ ١٨٠ .

**مالبرانش** Malebranche نيقولا دي (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) : فيلسوف فكراني فرنسي .

**مالثوس** Malthus توماس روبرت (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) : كاهن انكليزي ، اقتصادي مؤلف النظرية الرجعية حول الفائض السكاني الذي يزعم انه يبرر بؤس الطبقات الكادحة .

**مانديفيل** Mandeville برنارد دي (١٦٧٠ ـ ١٧٣٣) : طبيب وهجاء انكليزي ؛ سخر من مراءاة الاخلاق البورجوازية .

**مانرز** Manners لورد جون جيمس روبرت ، دوق دي روتلاند (١٨١٨ـ ١٩٠٦) : ارستقراطي انكليزي ، من حزب المحافظين ، مؤلف رسائل عن احسان مُراء ازاء وضع عمال المعامل .

**مانتيل** Mantel جان (١٤٦٨ـ ١٥٣٠): عالم لاهوت الماني مبشر في «شتوتغارت» ، نصير توماس مونزر .

**مانتيل** Mantell جدعون الجيرنون (١٧٩٠ ـ ١٨٢٥) : عالم جيولوجي انكليزي ، عالم إحاثي ، حاول التوفيق بين الاكتشافات العلمية والاساطير التوراتية .

**ماير** Mayer جول روبرت (١٨١٤ ـ ١٨٧٨) : عالم طبيعيات الماني ، صاغ احد اولى قوانين حفظ الطاقة وتحويلها .

**مايسنر** Meissner الفريد (١٨٢٢ ـ ١٨٨٥) : كاتب الماني ذو اتجاه ديمقراطي ، كان يمثل في اعماله اتجاه «الاشتراكية الحقة» ؛ أصبح ليبيراليا بعد ١٨٤٨ .

**مكيافيلّي** Machiavel نيكولا دي ، بينادرو (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) : رجل دولة وكاتب ايطالي، احد ايديولوجيي البورجوازية الايطالية في حقبة تفتح العلاقات الراسمالية .

**مودي** Moody دوايت ليمان (رايتر) (١٨٣٧ ـ ١٨٩٩) : مبشر انجيلي امريكي ، احد مؤسسي الحركة الاحيائوية .

**مور** More سير توماس (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) : رجل دولة انكليزي ، لورد، مستشار ، كاتب . احد أوائل

الشيوعيين الطوبويين ، مؤلف كتاب «الطوبوية» .

**موراي** **Murray** لندلي (١٧٤٥–١٨٢٦): عالم نحو انكليزي .

**مورر** **Maurer** فريديريك غيوم (١٨١٣– حوالي ١٨٨٢) : كاتب الماني ، عضو في رابطة المعزورين ورابطة العادلين.

**موليشوت** **Moleschott** جاكوب (١٨٢٢ – ١٨٩٣) : عالم فيزياء الماني ، ولد في هولندا ، نصير مادوية ميكانية .

**مونتالمبير** **Montalembert** ماري رينه (١٧١٤ – ١٨٠٠) : مهندس عسكري فرنسي .

**مونتسكيو** **Montesquieu** شارل دي سيكوندا ، بارون دي لابريد ودي (١٦٨٩ – ١٧٥٥) : مؤرخ وكاتب فرنسي ، ايديولوجي الملكية الدستورية .

**موندت** **Mundt** تيودور (١٨٠٨ – ١٨٦١) : كاتب الماني ، واحد من الجماعة الادبية لـ «المانيا الفتاة» ، ثم أصبح استاذا جامعيا للادب والتاريخ في «بريسلو» و«برلين» .

**مونزر** **Munzer** توماس (حوالي ١٤٩٠– ١٥٢٥) : تلميذ لوثر ثم عدوه ، من القائلين باعادة التعميد وثوري اجتماعي ، زعيم ثورة الفلاحين في «تورنغه» .

**ميرابو** **Mirabeau** اونوريه غابرييل فيكتور ريكيتي، كونت دي (١٧٤٩– ١٧٩١) : ثوري فرنسي مثّل مصالح البورجوازية الكبيرة .

**ميفيستوفيليس** **Méphistophélès** اسم الشيطان في الحكايات الشعبية وفي رواية «فاوست» لغوته .

**ميلانغتون** **Melanghton** فيليب (١٤٩٧– ١٥٦٠) انساني الماني ، عالم لاهوت اصلاحي ، صديق لوثر ومعاونه .

**مينجر** **Menger** انطوان (١٨٤١ – ١٩٠٦) : حقوقي نمساوي ، استاذ جامعي في فيينا ، مدافع عن «الاشتراكية الحقوقية» .

**مينيه** **Mignet** فرانسوا أوغست ماري (١٧٩٦ – ١٨٨٤) : مؤرخ فرنسي ذو اتجاه بورجوازي ليبيرالي .

★★★

**نبوخذ نصّر الثاني** **Nabuchodonosor** (٦٠٤ – ٥٦١ ق.م.) : مؤسس وعاهل الامبراطورية الكلدانية ، غزا سوريا وفلسطين ، دمر القدس عام ٥٨٦ وجاء باليهود أسرى الى«بابل».

**نابييه** (نابر) **Napier** (١٥٥٠–١٦١٧): عالم رياضيات ايكوسي .

**نواك** **Noak** لوي (١٨١٩ – ١٨٨٥) : عالم لاهوت وفيلسوف الماني .

**نورث** **North** سير ديوولي (١٦٤١ – ١٦٩١) : تاجر واقتصادي انكليزي.

**نوستراداموس** **Nostradamus** ميشيل دي نوتردام (١٥٠٣ – ١٥٦٦) : طبيب ومنجم فرنسي ، صوفي .

**النويري** **Novairi** (حوالي ١٢٨٠ – حوالي ١٣٣٢) : مؤرخ عربي .

**نيرون** **Néron** لوسيوس دوميتيوس (٣٧ – ٨٦) : امبراطور روماني من ٥٤ – ٦٨ .

**نيوتن** **Newton** سير إيزاك (١٦٤٢ – ١٧٢٧) : فيلسوف فلكي انكليزي ، عالم رياضيات ، مؤسس الميكانيك كعلم .

★★★

**هادريان** **Hadrien** بوبليوس أوليوس (٧٦ – ١٣٨) : امبراطور روماني من ١١٧ الى ١٣٨ .

**هاردلي** **Hardley** دافيد (١٧٠٥ – ١٧٥٧) : طبيب وفيلسوف مادوي انكليزي .

**هال** **Hall** سبنسر (١٨١٢–١٨٨٥): مستحضر أرواح وفراسي انكليزي.

**هيرشيل** **Herschel** سير فريديريك وليم (١٧٣٨ – ١٨٢٢) : الماني المولد ،

عالم فلكي انكليزي .

**هرمس** Hermès كارل هنريخ (١٨٠٠ – ١٨٥٦) : صحفي رجعي بروسي ، اصبح عام ١٨٤٢ احد محرري «جريدة كولونيا» ؛ عميل سري للحكومة البروسية .

**هلفيتيوس** Helvétius كلود ادريان (١٧١٥ – ١٧٧١) : فيلسوف فرنسي؛ وهو الذي جلى صورة المادوية الميكانيكية ، احد ايديولوجيي الثورة الفرنسية .

**هنري السابع** Henri VII (١٤٥٧–١٥٠٩) : ملك انكلترا من ١٤٨٥ الى ١٥٠٩ .

**هنري الثامن** Henri VIII (١٤٩١ – ١٥٤٧) : ملك انكلترا من ١٥٠٩ – ١٥٤٧ .

**هوبس** Thomas Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) : فيلسوف مادوي انكليزي.

**هوبماير** Balthasar (حوالي ١٤٨٠ – ١٥٢٨) : نصير توماس مونزر ، قس قرية «والدشوت» في «الغابة السوداء» .

**هوتن** Hutten أولريخ دي (١٤٨٨ – ١٥٢٣) : انساني وشاعر ألماني ، ممثل الفرسان المتمردين عام ١٥٢٢ .

**هورن** Horne جورج (١٧٣٠–١٧٩٢): أسقف «نورويك» ، كتب رسائل هجائية ضد اسحق نيوتن ، دافيد هوم وآدم سميث .

**هوس** Huss جان (حوالي ١٣٦٩ – ١٤١٥) : مصلح ديني تشيكي ، استاذ جامعي في براغ ، ملهم حركة التحرر القومي التشيكية ، أتهم بالهرطقة ، مات بالمحرقة .

**هيوم** Hume دافيد (١٧١١ – ١٧٧٦) : فيلسوف انكليزي فكراني ذاتي .

**هولباخ** Holbach بول هنري ديتريش، بارون دي (١٧٢٣ – ١٧٨٩) : فيلسوف فرنسي، مدافع عن المادوية الميكانية ؛ أحد ايديولوجيي البورجوازية الثورية الفرنسية ؛ مؤلف عدد من الكتابات التي تجلد الكنيسة والدين وتبث الالحاد .

**هونبولت** Humboldt الكسندر، بارون دي (١٧٦٩ – ١٨٥٩) : عالم طبيعي ورحالة الماني ، مؤسس علم المناخ ، علم التشكل(مورفولوجيا) الجغرافي، فيزياء البحور وجغرافيا المزروعات.

**هيرقليطس** Héraclite (حوالي ٥٤٠ – ٤٨٠ ق.م.) : فيلسوف يوناني ، احد مؤسسي الديالكتيك ، مادوي تلقائي .

**هيكسلي** Huxley توماس هنري (١٨٢٥ – ١٨٩٥) : عالم طبيعيات انكليزي ، مبسط مذهب داروين .

**هيغل** Hegel جورج ولهلم فريديريك (١٧٧٠ – ١٨٣١) : فيلسوف الماني، مؤسس الديالكتيك الفكراني .

**هيكل** Haeckel إرنست (١٨٣٤ – ١٩١٩) : بيولوجي وفيلسوف الماني.

★★★

**واط** Watt جيمس (١٧٣٦–١٨١٩): عالم فيزيائي انكليزي ، أكمل صنع الآلة البخارية .

**والاس** Wallace الفرد رسل (١٨٢٣–١٩١٣) : عالم طبيعيات انكليزي توصل في نفس الوقت مع «داروين» الى نظرية الاصطفاء الطبيعي ؛ كان يمارس الارواحية او استحضار الارواح .

**والاس** Wallace روبرت (١٦٩٧ – ١٧٧١) : راهب وعالم احصاء انكليزي ، راهص ايديولوجي لـ «مالثوس» ، دافع عن نظرية مناقضة للعلم حول الاكتظاظ السكاني.

**وايت** Witt جان دي (١٦٢٥ – ١٦٧٢) : رجل دولة هولندي، هيمن بصورة فعلية على اقليم هولندا (١٦٥٣ – ١٦٧٢) ، مدافع عن مصالح البورجوازية الكبيرة التجارية .

**ويكليف** Wycliffe جون (١٣٢٠ – ١٣٨٤) : عالم لاهوت انكليزي زعيم حركة اللوردات المعادية للبابا .

# دليل الأسماء التوراتية والاسطورية الواردة

**ابراهيم** Abraham : بطريـرك عبري ، حسب الاساطير التوراتية .

**ابولون** Apolon : إله يوناني وروماني للشمس ، للنور ، للفن .

**أخنوخ** Enoch : ابن قايين ، كما جاء عند موسى . اليه نسب كتاب رؤيا اخنوخ .

**أدوناي** Adonai : احد اسماء الإله اليهودي «يهوه» .

**ار** ER اسم سكسوني لإله الحرب الجرماني ، زيو .

**آريان** Ariane : ابنة مينوس ملك كريت ، ساعدت «تيزيـــــه» على الخروج من متاهة بواسطة لفيفـــة خيوط .

**اريس** Arès : فيالميثولوجيا اليونانية إله الحرب ( «مارس» في الميثولوجيا الرومانية ) .

**أشعيا** Isaie (حوالي ٧٤٠ اليحوالي ٧٠٠ ق.م.) : فـي العهد القديم ، اهم نبي من انبياء الدين الاسرائيلي.

**اليعازر** Lazare : شخصية توراتية.

**إور** Eor اسم بافاري لإله الحـرب الجرماني ، زيو .

**أوجياس** Augias ملك ايليد الاسطوري الذي نظف هرقل اصطبلاته التي لم تنظف منذ ثلاثين سنة .

**إيكارت** الامين Eckardt : احد أبطال الاساطير الشعبية الالمانية فيالقرون الوسطى .

**ايليا** Elie : نبي (حوالـي ٩٠٠ ــ ٨٥٠ ق.م.) تروي عنه التوراة انه قسم الاردن بردائه وانه صعد الـى السماء في عربة من نار .

**بـــان** Pan ابن هرمس في الميثولوجيا اليونانية ، ملك الرعاة والقطعان .

**بروميثيوس** Prométhée : شخصية بارزة في الاسطورة اليونانية ، سرق النار منزيوس، فربطلذلك بصخرة.

**بلعام** Balaam : نبي من بلاد ما بين النهرين ؛ حسب التوراة ان الملـك «بلق» ، ملك الموآبيين أوكل اليـــه مهمة لعن الاسرائيليين الذين تقدموا ظافرين ، لكن يهوه أرغمه علـــى مباركتهم ؛ لعب بلعام دورا فـــي الكتاب الرابع لموسى بوصفه يملـك حمارة تتكلم .

**بلوتون** Pluton : إله الجحيم اليوناني.

**بولس** Paul : رســـول و ، حسب التوراة ، مؤلف الـ ١٤ رسالة مـن العهد الجديد .

**تانتال** Tantale : ملك فريجي (آسيا الصغرى) حكم بأن يبقى جائعـــا وعطشانـــا امام الماء والثمار فـــي الجحيم ، لانه فضح اسرار الآلهة .

**تير** Tyr : اسم باللغة السكاندينافية

القديمة لإله الحرب والتجمعات الشعبية .

**جوبيتير** Jupiter : الإله الروماني الرئيسي (باليونانية : زيوس) .

**جيزابيل** Jézabel : نبية كاذبة.

**حزقيال** Ezéchiel : (حوالي ٦٠٠ ق.م.) ، نبي يهودي في بابل ؛ ان «سفر حزقيال» في العهد القديم يحمل اسمه .

**حسقيا** Hiscias : ملك يهوذا (٧٢٧ـ ٦٩٩ ق.م.) ؛ حسب التوراة ، انه شُفي من مرض مميت بواسطة النبي اشعيا .

**دانيال** Daniel : نبي يهودي، حكاياته الاسطورية موجودة في « سفر دانيال » .

**ديسبيتر** Diespiter : اسم جوبيتير باللاتينية القديمة .

**زيو** Ziu : اسم باللغة الالمانية القديمة لإله الحرب في الاسطورة الجرمانية .

**زيوس** Zeus : إله يوناني رئيسي.

**سليمان** Salomon : ملك اسرائيل (حوالي ٩٧٠ ـ ٩٢٠ ق.م) ، ابن داوود ، مشهور بحكمته وأمثاله ..

**عزرا** Esra : كاهن يهودي (حوالي ٤٥٠ ق.م.) ؛ اطلق اسمه لـ «سفر عزرا» في العهد القديم ، رغم أن هذا الكتاب قد كتب حوالي ٣٣٠ ق.م.

**قورش** Cyrus : ملك ميدي؛ حسب التوراة ، عين لفتح سجون بابل لليهود .

**كيوبيد** Cupidon : إله روماني للحب.

**لوقا** Luc ، حسب الكتاب المقدس ، مؤلف الانجيل الثالث وتاريخ‌الرسل.

**لوياتان** Leviatan : تنين بحري أسطوري ورد في العهد القديم .

**مارس** Mars : إله الحرب الروماني (باليونانية : أريس) .

**مايا** Maia : في الميثولوجيا اليونانية ، ابنة أطلس البكر ؛ زيوس جعلها أم هرمس .

**متى** Matthieu : حسب الكتاب المقدس، أحد الرسل الاثني عشر ومؤلف الانجيل الاول .

**مريم العذراء** Marie : أم يسوع .

**موسى** Moise : مشرع ونبي يهودي .

**مولوخ** Moloch : إلـه الآشوريين والفينيقيين والعمونيين ، كان يكرم بذبائح بشرية .

**ميخائيل** Michel : بموجب التوراة، أحد رؤساء الملائكة .

**نوح** Noé : آخر البطاركة (سفر موسى) . بعد الطوفان أصبح ، من خلال ابنائه سام ، حام ويافث ، جد البشر .

**نيقولا** Nicolas : «مؤسس» مذهب النيقولائيين المذكور والمدان في «رؤيا يوحنا» .

**هرمس** Hermès : رسول الآلهة في الاسطورة اليونانية ، إله المسافرين، التجارة واللصوص (ميركور ـ في الميثولوجيا الرومانية) .

**يهوه** Jahvèh : اسم إله اسرائيلي لم يكن يجري التلفظ به بل يستبدل بـ أدوناي وإيلوهيم .

**يوحنا الانجيلي** Jean l'évangéliste رسول، المؤلف المزعوم لـ «سفر الرؤيا» المسمى باسمه .

**يوشيا** Josias : ملك يهوذا .

**يشوع** Josué : حسب «سفر يشوع»، قاد الشعب اليهودي ؛ تروي عنه الاسطورة انه أمر الشمس بالتوقف في جلعاد والقمر في وادي عجلون .

# ملاحظات حول الترجمة
# وتعريب بعض المصطلحات والكلمات الفرنسية

١ ــ النص العربي يكاد يكون ترجمة حرفية للنص الفرنسي . فضَّلنا هذه الطريقة لاننا نعتقد ان ما يسمى طلاوة اللغة او طريقة التعبير العربية قد تضعفان دقة النص العربي وامانته للأصل ، وبالتالي تجعل النص العربي المترجم نصا تقريبيا ، لاسيما واننا ننقل فكرا حديثا الى لغة قديمة .

٢ ــ حاولنا في هذه الترجمة تأكيد استعمال الكلمة ــ المصطلح . لا شك ان في ذلك بعض الصعوبة في البداية ، لان الكلمة العربية ما تزال ملساء ، بلا ملامح وبلا جذر فكري . مثلا : système ترجمناها ب منظومة . ونبذنا كل الترجمات العربية الاخرى ، مذهب ، نسق ، نظام فكري ، نظمة ، نظام ، نظام مذهبي .

٣ ــ اخذنا ، اجمالا ، بالاعتبار الكلمات التي درج استعمالها. وحاولنا جهدنا ان نوجد ، سواء من الفصحي او العامية ، مقابلا دقيقا ، مضبوطا ، واضحا للنص الاصلي ، سواء بالاشتقاق او الاقتباس الحرفي او النحت او إحياء كلمات عربية نادرة الاستعمال .

٤ ــ حاولنا اعطاء مقابل اكثر دقة للاحقتين isme و iste وتمييزها، بالعربية ، عن الصفة . لنأخذ مثلا على الالتباس الدارج : matérialisme تترجم مادية ، matérialiste تترجم مادي (او مادية للمؤنث) . matériel (elle) تترجم مادي (او مادية ، للمؤنث) . في محاولة لنحت مصطلح واعطاء مزيد من الدقة وضعنا مقابل isme (وية) ومقابل iste وي عندما تعني هاتان اللاحقتان ما يدل على مذهب او نصير مذهب . مثلا مادي matériel (elle) . مادوي matérialiste . مادوية matérialisme

سيستشعر بعض القراء ثقلا من جراء هذه **الواو** الاضافية ، لكن المسألة ، في تقديرنا ، ستسهل مع الاستعمال . مع ذلك ، لكي نأخذ القارىء العربي بالتدريج

عمدنا في احيان عديدة الى استعمال النسبة الدارجة ، فقلنا : رأسمالية ، شيوعية. وقلنا ايضا فكرانية (او فكروية) idéalisme ، كما اننا ابقينا النسبة الدارجة عندما نكون بصدد مذهب منسوب الى شخص . مثلا : ماركسية .

| | | | |
|---|---|---|---|
| التاليهوية | déisme | عقيدة | credo |
| الألوهوية | théisme | أطروحة | thèse |
| الاسموية | nominalisme | نقيضة | antithèse |
| بَرتل (من بروليتاريا) | prolitariser | تركيبة | synthèse |
| التوحيد (التوحيدوية) | monothéisme | ظاهرة | phénomène |
| تشارك | association | تظاهرة | manifestation |
| تعليم | catéchisme | عَصبة | sect |
| تمثيل | représentation | عرضي | contingent |
| تيموية | fétichisme | فكرة | idée |
| جمهَر (جعل جمهوريا) | républicaniser | فكرانية او فكروية (مثالية) | idéalisme |
| جَهول | philistin | كلاسي | classique |
| جُماع | ensemble | كينونة | être |
| حلولوية أو حلولية | panthéisme | كون | univers |
| عواطفية (تكلف العاطفة) | sentimentalisme | مكونن | universalisé |
| حسوية | sensualisme | لَبرل (جعل ليبراليا) | liberaliser |
| دنيوة | sécularisation | حرّر | liberer |
| دقرط (جعل ديمقراطيا) | démocratiser | مفهوم | concept, conception |
| الديّان | Juge | مُستفصِل | minutueux |
| ارواحية (استحضار الارواح) | spiritisme | محترمية | respectabilité |
| روحانية | spiritualisme | ماهية | substance |
| زياح | procession | منظومة | système |
| سيرورة (عملية) | processus | نظم (وضع في منظومة) | systematiser |
| سكولاستية | scolastique | معتقد | dogme |
| تشخيص | personification | اوالي (ميكاني) | mécanique |
| صيرورة | devenir | نفاج (سنوب) | snob |
| صلاحة | validité | نزغة | lubie |
| صنف (ج. أصناف) | corporation | هوية (تماثل ، تطابق) | identité |

# فهرست

# هذا الكتاب

لقد تمثل ماركس وانجلس نقد بوير وفويرباخ للدين ، الذي كان نقداً مثالياً وتجريدياً لكنهما تجاوزا أخطـاء هـذا النقد وثغراته . « الدين لا يعيش في السماء ، بل على الارض » : هذا ماكتبه ماركس الى روجه عام ١٨٤٢ . هذا المنطلق جعـل ماركس يتخطى نقد الدين في حد ذاته ، ويتوصل بسرعة الى نقـد المجتمع والظروف الاجتماعية والسياسية ، ويعنى بتعزية الصلات المعقدة بين الظروف الاجتماعية والافكار الدينية لعصر معـين .

ويضم هذا المؤلف مجموعة من أهم النصوص التي تناول فيها ماركس وانجلس الدين . وقد رتبت حسب تسلسلها الزمني ، وهذا ما يساعد القارىء على متابعة تطور الفكر الماركسي حول الدين . ومع ان هذا الكتاب مقتطفات ، الا انها ليست مجزأة كل التجزئة ، فثمة خيط ينظمها . فهذه العبارة او ذاك المقطع الشهير قد وضعا في سياقهما التاريخي ، وهذا ما يجعل من هذه النصوص مرجعاً دائماً فيما يتعلق بالايديولوجية المسيحية الغربية وتاريخها ، ومنهجاً يجب تطوير تطبيقه فيما يتعلق بالايديولوجيات الاسلامية والمسيحية الشرقية في شتى تلاوينها وتشعباتها .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٢٢ ل.ل.
او ما يعادلها